

الانحرافات العقائدية

والعلمية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين
وأثارهما في حياة الأمة

تأليف

عبدلي بن خميس الزهراني

تقديم الشيخ

محمد قطب

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ محمد قطب

أحسب أنني كنت من أوائل من نبّه الطلاب إلى الموضوع الذي تتناوله هذه الرسالة وهو أن واقع المسلمين المعاصر بكل ما فيه من سوء إنما هو نتيجة للخلل العقدي الذي أصاب الأمة في الفترة الأخيرة، وأنّ علاج كل مشكلات الأمة يجب أن يتبدى بتصحيح الخلل في العقيدة.

ولكنني أشهد أن رؤيتي لهذه القضية كانت رؤية الخطوط العريضة فحسب، أما طالبنا فقد حاول وبنجاح أن يقرأ الخطوط الدقيقة، وقد فوجئت، وأنا الذي وجهته ووجهت طلابي إلى هذه النقطة - بأن واقع الأمة الذي أحدثهم عنه كان أسوأ بكثير مما حدثتهم عنه، وأسوأ بكثير مما كنت أعرف منه؛ ذاك أنه حين غاص الباحث في بطون الكتب وحين جاء بالشواهد، وحين جمع الشواهد بعضها إلى بعض تكونت صورة دقيقة عن وضع الأمة في القرنين الماضيين هي أدق وأوضح من الصورة التي كانت في ذهني وأنا أكتب كتبي؛ وأنا أنبه القراء والطلاب؛ وأنا أدعو الناس أن يتدبروا أحوالهم، وأن يغيروا طريقهم، ويغيروا ما بأنفسهم ليغير الله لهم.

إن ميزة هذه الرسالة هي العثور على هذه الخطوط الدقيقة التي تجعل الصورة واضحة مبلورة، فالآن حين نقول إن أحوال الأمة العقدية في القرنين الماضيين قد بلغت غاية السوء وإن واقعها المعاصر هو نتيجة ذلك السوء الذي وقعت فيه في القرنين الماضيين، نقول هذا وعندنا صورة دقيقة واضحة المعالم. هذه هي القيمة الكبرى لهذه الرسالة. وأنا أقدر جهد الباحث

الانحرافات العقلية
والعلمية

جَمِيعُ حُقُوقِ الطَّبْعِ فِي الْعَالَمِ
مُحْفُوظَةٌ لِلنَّاشِرِ

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

دارُ طَيْبٍ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة - العزيزية - بجوار الجامعة

ت : ٥٥٨٩٠٢٧ فاكس : ٥٥٦٢٩٨٦

وأشكر له أن هداًنا إلى الصورة الدقيقة التي كانت عليها الأمة في القرنين الأخيرين، والتي لم تكن واضحة في أذهاننا كما اتضحت في البحث.

لقد كنا نقرأ الخطوط العريضة ونحدث الناس عنها؛ فجاء الباحث بصبر ومثابرة، فبحث عن الخطوط الدقيقة جداً، ورسم الصورة كاملة وبرزها للناس.

وقد تكون الخطوط العريضة مذكورة في كتبي أو في كتب الآخرين الذين تكلموا عن هذه النواحي ولكن هذه الصورة الدقيقة الملامح المبلورة التي لا يحتاج الإنسان إلى جهد ليتبينها لشدة وضوحها؛ هذا من عمل الباحث، وهذا هو الجهد الذي يذكر له ويشكر عليه لأنه جهد حقيقي وأصيل.

ولقد وضع يده على أخبار وحوادث لم أكن على علم بها، وهذه شهادة مني له؛ شهادة تقدير للعمل الذي قام به.

وستكون هذه الرسالة بإذن الله عوناً للداعية الذي يريد أن يعالج هذه الأمة مما حل بها من أمراض، فالطبيب لا بد له من معرفة حقيقة الداء لكي يتمكن من وصف الدواء.



أصل هذا الكتاب

رسالة علمية تقدم بها مؤلفها إلى قسم الدراسات العليا الشرعية فرع العقيدة بجامعة أم القرى. وتمت مناقشتها بتاريخ ١٩/١/١٤١٥ هـ، ونال المؤلف بها درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية فرع العقيدة بتقدير ممتاز مع التوصية بطبع الرسالة.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أما بعد :

فقد أخبر النبي ﷺ بغربة هذا الدين، وذلك بقوله : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء » (١).

وقد تحقق ما قاله المصطفى ﷺ فصار هذا الدين غريباً، وأصبح المتمسكون به غرباء في أوطانهم وبين أهليهم وذويهم، ابتلاء من الله،

(١) رواه مسلم برقم ١٤٥ في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً . . . ١٣٠/١ من حديث أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه .

ومصدّقاً لقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .

[العنكبوت: ١ - ٣]

يعيش المسلمون اليوم وللأسف الشديد على هامش العالم ، وفى ذيل القائمة رغم كثرتهم العارمة ، وبلادهم الشاسعة ، ولكنهم تركوا حبيل الله المتين وأعرضوا عن هدي نبيه الكريم ، ونسوا أو تناسوا تاريخ أمتهم العظيم ، فتحققت فيهم نبوءة المصطفى ﷺ حين نعتهم بغثاء السيل ، والذي سريعا ما يزول ويذهب .

عاش المسلمون في الماضي متفيئين بظلال القرآن والسنة الشريفة ، فكانوا حقاً سادة الدنيا وقادة العالم ، فتحوا البلاد شرقاً وغرباً ، فتحوا القلوب قبل البلاد ، وأخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

وسطروا بسيرهم سطوراً من نور على هام التاريخ البشري لا تزال تتلأأ على مر العصور والدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، عرفوا أن مصدر عزتهم وسر تمكينهم هو دينهم وأمتهم ، فتمسكوا بدينهم ، وعضوا عليه بالنواجذ ، والتفوا حول بعضهم بعضاً ، فخرجت أعظم أمة عرفتها البشرية ، وحفظها التاريخ .

واليوم ما الذي حدث وكيف حدث ؟ ؛ انهارت قوتهم ، وخارت عزائمهم ، وزال عنهم التمكين والاستخلاف ، وأصبحوا أذلة بعد أن كانوا أعز الناس ، وصاروا بعد الرفعة موضوعين ، وبعد الإلفة والجماعة متفرقين متباغضين ، قد هجروا كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ ، واستبدلوا بهما

أرخص الأفكار وحثالة الأذهان، وتكالب عليهم الأعداء من كل مكان يسومونهم سوء العذاب، ويتزلون بهم أصناف الهوان، فتارة بالغزو العسكري وتارة بالحصار الاقتصادي، وأخرى بالغزو الثقافي أو ما يسمى بالغزو الفكري .

وكل ما أصابهم ووقع عليهم من الضعف والخور والفقر والجهل وتسلب الأعداء فيما كسبت أيديهم حين تركوا كتاب الله وراءهم ظهوراً، وانتشر بين صفوفهم الشرك بكل أنواعه ومظاهره، وحين فشت فيهم البدع والمنكرات فشواً ذريعاً، وحين صار الدين عندهم هو التصوف بكل عقائده وطقوسه، وحين ترأس الجهال والمبتدعة، وحين تقاعس العلماء عن أداء واجبهم، وركن غير قليل منهم إلى متاع الحياة الزائل .

وحين صار المسلمون فرقاً كثيرة ومذاهب عديدة، كل فرقة تبذع الأخرى أو تفسقها أو تكفرها، وهما عن الصواب بمعزل، وحين هيمن الإرجاء على الحياة الإسلامية، وحين انتشر الجهل المركب والامية العمياء في صفوف المسلمين، وجمدت المناهج التعليمية، وانحدر المستوى التعليمي، وأغلق باب الاجتهاد .

ولعلنا نتساءل بعد كل هذا كيف وصل حال المسلمين إلى هذا الحد الذي نعيش فيه، ونكتوي بلظاه، ونتجرع مرارته، وكيف تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، وهبط - أو نقول : سقط - المسلمون من أعلى الذروة إلى الحضيض، والإسلام هو الإسلام لم يتغير ولم يتبدل، والمسلمون يزداد عددهم يوماً بعد آخر .

ولكننا لا نذهب بعيداً لنبحث عن يَجِيبنا عن هذا التساؤل، فالقرآن

الكريم يجيبنا عن هذا التساؤل المحير ، والسنة الربانية تزيل ما علق بأذهاننا من تعجب واستغراب . يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦]

ويقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، وغيرها من الآيات الكثيرة .

وأما الأحاديث فسيرد بعضها في موضع قادم بإذن الله ، وأما السنة الربانية فقد شهدت بأن الله سبحانه وتعالى يمكن لهذه الأمة ما استقامت على دينه ، وسارت على الصراط المستقيم ، ويزول التمكين عنها وتهبط إلى الأسفل إن هي بدلت دينها ، أو أعرضت عن هدى ربها ، والإسلام لا يعمل بنفسه وإنما يعمل بوجود أمة مؤمنة به ، تطبقه في حياتها ، ويرى أثره حياً في واقعها .

ولاشك أن الانتقال من الذروة العليا في الصدر الأول إلى ما وصل إليه المسلمون في هذا العصر لم يكن دفعة واحدة ، ولكن الانحرافات التي أصابت المسلمين وبدأت معهم مبكراً كانت تتسع دائرتها شيئاً فشيئاً مع توالي القرون والأيام ، وإن كانت في أول الأمر لم تظهر خطورتها ولم تستبين نتائجها ، وما زالت هذه الدائرة تتسع وتكبر حتى وصل الأمر إلى ما هو عليه الآن من ضعف المسلمين وتخلفهم وتفككهم وتشتتهم وتناحرهم . ولقد مرت بالمسلمين محن كثيرة ، وتعرضوا لنكبات كبيرة ، ولكن مع كل هذا لم يصل الأمر إلى ما وصل إليه في هذه الأيام مما نراه ونلمسه من مظاهر

الضعف والفساد، والتبعية لغيرهم من قوى الشر والكفر .

ولاشك أنه في القرون الأخيرة من حياة المسلمين - وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - ازداد ضعف المسلمين، وساءت الأحوال العقدية والعلمية عندهم بشكل لم يعهد من قبل، وأصبحت هذه الفترة مرحلة حرجة جداً في حياة المسلمين، حيث بلغ الضعف والذل والتخلف بالمسلمين مبلغاً عظيماً يندى له جبين كل مؤمن .

وقد كان من توفيق الله لي أن اخترت في بحثي الذي تقدمت به في مرحلة الماجستير أن أقوم بدراسة لأحوال هذه الفترة من حياة الأمة الإسلامية والآثار التي ترتبت عليها والعبرة المستفادة منها، وجعلت عنوانه : «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وأثارها في حياة الأمة» .

وقد دفعتني لاختيار هذا الموضوع أسباب كثيرة منها :

أولاً : أن المسلمين كافة - حكاماً ومحكومين، علماء ومتعلمين - مطالبون بالنهوض بهذه الأمة من كبوتها الكبرى وسباتها العميق، وهذا البحث هو لبنة صغيرة، وجهد مقل في ذلك الأمر العظيم والواجب الضخم .

ثانياً : أن الفترة الزمنية المراد دراستها - وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان - تمثل أخرج المراحل في حياة الأمة الإسلامية . وذلك لأن أحوال المسلمين العقدية والعلمية في هذين القرنين بلغت من الضعف والهبوط مبلغاً لم يعرف في زمن مضى .

ثالثاً : أنه في هذين القرنين ولدت الصحوة المباركة التي تبشر برجوع الأمة إلى الإسلام العظيم، والتخلص مما نحن فيه من تخلف وانحطاط .

رابعاً : هذا البحث بكامله يركز ويبرز أهمية العقيدة في حياة المسلمين ،
ويبين أن جميع ألوان التخلف الحضاري والعسكري والحربي والاقتصادي
والاجتماعي والأخلاقي والعلمي والفكري جاءت ثمرة مرة ونتيجة مذهلة
للتخلف العقدي الذي أصاب المسلمين . وهذا الأمر هو زبدة البحث وثمره
الرسالة إن شاء الله تعالى .

خامساً : أن هذه الفترة الزمنية لم تستوف حقها من الدراسة والبحث ،
إن لم يكن في كل المجالات ، فعلى الأقل في مجالنا هذا . فمع اتفاق جمهرة
الكتاب والباحثين على انحدار هذه الفترة وانحرافها ، فالقليل منهم من
يدرك ضخامة هذه الانحرافات العقدية والعلمية التي وقع فيها المسلمون في
تلك الفترة ، ويلم بتفصيلاتها .

وهذه الرسالة إن شاء الله تعالى تسلط الضوء على تلك الفترة المظلمة ،
وتحاول الكشف عن أسرارها وماخفي من معالمها ، وتوضح أن ما وقعت فيه
الأمة من انحرافات ، يفوق كل تصور ويدهش كل تفكير .

وهذا الأمر يكاد أن يكون هو محور البحث العام الذي تدور عليه
موضوعات البحث ونتائجه ، ويجب على الصحوة الإسلامية أن تدرك ذلك
جيداً وأن تعيه تماماً وهي تحاول النهوض بالأمة والسير بها . لا بد أن تدرك
أن الانحرافات من الضخامة بمكان ، ولا يمكن تجاوزها والقضاء عليها إلا
بجهد عظيم ، وعمل متواصل .

وإصرار كثير من الجماعات الإسلامية العاملة في الحقل الإسلامي على
إغفال هذه الانحرافات وإهمالها وعدم الاكتراث بها هو السبب الأول في
إخفاق هذه الجماعات ، وعجزها عن تحقيق ماتصبو إليه .

وما هذه الرسالة إلا نقطة على الطريق الصحيح الذي يجب على الصحوة أن تجعله نصب عينيها لتسير عليه ، فغايتها أن تكشف بوضوح عن مدى الانحرافات الهائلة التي وقعت فيها الأمة ، وكانت السبب فيما حاق بها من ضعف وتخلف وتأخر .

سادساً : تسبب الانحرافات العقديّة والعلمية عند المسلمين في هذين القرنين فيما يعانيه المسلمون اليوم من ضعف سياسي وعسكري واقتصادي وتأخر علمي ، وماترتب على ذلك من دخول الاستعمار الصليبي والاحتلال البلشفي إلى داخل العالم الإسلامي ، وقدم التنصير الاستعماري وموجات الغزو الفكري والتيارات المعادية للدين . كل ذلك يحتاج منا إلى وقفه متأمله وعميقة . وهناك دوافع أخرى غير ما ذكرت لا أود التطويل بذكرها .

وقد أدركت منذ البداية ضخامة الموضوع واتساع نطاقه ، وكان لمشرفي الفاضل حفظه الله أكبر الأثر في تقديري لحجم الموضوع وإعطائه قدره من البحث والقراءة . منذ أن كان ما يزال في الذهن .

وهذه تكاد تكون هي العقبة الكبرى في طريق البحث ؛ وهي ضخامة الموضوع واتساع نطاقه ، إذ إنه من الناحية الزمنية يشتمل على دراسة قرنين من أشد القرون تعقيداً وأكثرها حوادث مع ما ذكرناه سابقاً من أن هذه الفترة تمثل أخرج مرحلة في تاريخ الأمة الإسلامية .

ومن الناحية المكانية فإنه لا يقف عند بلد معين ، بل إنه يمتد ليشمل العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه . ولا يخفى ما في ذلك من صعوبة ومشقة تتطلب جهداً مضاعفاً وعملاً متواصلاً .

وزاد من الصعوبة تنوع الموضوعات واختلافها واستقلال كل منها بنفسه حتى إن كل موضوع يستحق كتابة رسالة مستقلة .

بالإضافة إلى ندرة المصادر وعدم الاحتفال بها من قبل العلماء والمفكرين والمحققين، مما جعل كثيراً منها تقبع في زاوية النسيان، وتصبح بعيدة عن أيدي الباحثين. وبقراءة البحث كاملاً تعرف بعض الصعوبات الأخرى التي واجهت مسيره، واعترضت طريقه.

أما خطة البحث فقد احتوت على مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة فقد اشتملت على بيان الموضوع، وأهميته، والأسباب التي دعت إلى اختياره، وبعض ما اعترضه من عقبات.

فأما التمهيد فقد كان عبارة عن نبذة مختصرة عن أحوال الأمة الإسلامية فيما قبل الفترة التي ندرسها وقد أوجزت القول فيه عن أهمية العقيدة في حياة الأمة، وقد كان ذلك عن طريق الحديث عن حال المتمسكين بها في الصدر الأول من أصحاب رسول الله ﷺ، حيث تعرضت إلى حالهم قبل أن تشرق عليهم شمس هذه العقيدة العظيمة، وما كانوا يعيشونه في الجاهلية من شرك ووثنية وجهل وظلم وسفه وتخلف، وكيف انتشلتهم هذه العقيدة من تلك الجاهلية الجهلاء، لتضعهم في أعلى قمة وصلتها البشرية في تاريخها الطويل، ولتصنع منهم أعظم أمة أخرجت للناس.

وتناولت فيه على عجل هذه الانحرافات منذ ظهورها إلى قبيل الفترة التي نقوم بدراستها، لأن هذه الانحرافات كان ظهورها في الغالب قديماً، ولكنها عظمت واستطالت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

وأما الباب الأول فقد كان موضوعه: الأحوال العقيدية والعلمية عند المسلمين في القرنين الماضيين:

وقد قسمته إلى تسعة فصول:

الفصل الأول : انحصار مفهوم العبادة في الإسلام :

وقد ناقشت هذا الانحراف الخطير الذي مايزال منتشرأ إلى يومنا هذا؛ حيث يظن كثير من الناس أن العبادة هي مجرد أداء الشعائر التعبدية فقط، وذكرت مانتج عنه من آثار سيئة .

الفصل الثاني : الفكر الإرجائي الذي يخرج العمل من الإيمان:

ويعتبر الإنسان مؤمناً كاملاً بالإيمان، ولو لم يعمل في الإسلام عملاً واحداً، وفداحة هذا الانحراف الذي هيمن على ساحة الفكر الإسلامي .

الفصل الثالث : عقيدة الولاء والبراء :

ذلك الجدار الضخم والحاجز الصلب الذي عمل أعداء الإسلام على تحطيمه وإزالته، حتى يصلوا إلى تغريب الأمة الإسلامية وإخضاعها والتحكم بمصيرها، وهو ما وقع فعلاً .

الفصل الرابع : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها:

حيث أضحت عقيدة السلف الصالح غريبة بل ومحاربة من جماهير الدهماء، يقودهم في ذلك العلماء والحكام، الذين ينكلون بدعاتها، ويطاردونهم في كل مكان .

الفصل الخامس : هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على مؤلفات وعلماء العقيدة:

حيث كانت العقيدة لا تؤخذ إلا من كتب الكلام وعلى يد علماء الكلام، مع شيوع الفلسفة والمنطق .

الفصل السادس : انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات :

ويشتمل على :

أولاً : ظهور الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر ، وتفشي عبادة الأولياء والأضرحة ، وانتشار ذلك حتى لم يكد يسلم منه قطر ولا مصر .

ثانياً : انتشار البدع وتفشي الخرافات ، حيث أصبحت حياة المسلمين ممزوجة بالبدع ، مليئة بالخرافات ، وعظمت المصيبة باعتبار الناس مظاهر الشرك والبدع ديناً يتقربون به إلى الله .

الفصل السابع : الصوفية:

وقد تعرضت بإيجاز إلى نشأتها ، ثم أفضت في الحديث عن نظرتها المنحرفة إلى الحياة ، ومالحق بها من عقائد باطلة ، وكيف أنها كانت المعول الهدام الذي ضربت به الأمة في الصميم .

الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة : التي تولت كبر شق عصا المسلمين :

و كانت ومازالت تتآمر مع أعداء الأمة ضد المسلمين ، وتكيد لهم في كل حين واستفحال ضرورها في هذه الفترة .

الفصل التاسع : موقف العلماء:

وأنه لم يكن على المستوى المطلوب ، وتجافي كثير منهم عن المشاركة في الأحداث السياسية ، مع انغماس كثير منهم في متاع الحياة الدنيا ، وعدم قيامهم بالأمانة التي حملهم الله عز وجل إياها .

وبذلك ينتهي الباب الأول ليستغرق حوالي نصف الرسالة ، إذ هو المقصود الأعظم من البحث .

وأما الباب الثاني فموضوعه : الانحرافات العلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين :

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المستوى التعليمي: وجمود مناهج التعليم الدينية على فكر القرون المتقدمة دون أي ملائمة مع متغيرات الحياة :

وبالنسبة للمناهج الدينيوية فقد أخرجت من صلب المناهج الدراسية لأسباب تعرضنا لها في موضعها .

الفصل الثاني : التعصب المذهبي : وأثره في انحدار الحالة العلمية :

وتسببه في تفرق المسلمين ، بإضافة إلى اشغاله المسلمين عن مدافعة الطوارق الخارجية التي كانت تصدر عن الأعداء .

الفصل الثالث : إغلاق باب الاجتهاد:

وإن كان ذلك قد وقع في القرون المتقدمة ، إلا أن المسلمين في تلك الفترة عارضوا فتحه من جديد ، وشنعوا على من يحاول ذلك . فنتج عن ذلك آثار بعيدة المدى من التخلف والتحول إلى الخارج لاستيراد المبادئ والنظم .

أما الباب الثالث فموضوعه : الآثار المترتبة على الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين :

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : الآثار الداخلية ؛ وهو ما تمثل في تفشي الضعف في الأمة :

ويشتمل على :

أولاً : الضعف السياسي والحربي وتمثل في سقوط الدولة العثمانية ، وتفكك ولاياتها ، وماسبق ذلك من امتيازات أجنبية وعلامات أخرى

مهدت لذلك السقوط ، وماوقع من ضعف حربي وعسكري كان سبباً مباشراً في هزائم المسلمين أمام جحافل الاستعمار ، وكان أثراً عظيماً من آثار التخلف العلمي الذي لحق بالمسلمين وصنواً للتخلف السياسي وتبعاً له .

ثانياً : الضعف الاقتصادي الذي أحاط بالعالم الإسلامي في تلك الفترة وأسباب حدوثه .

ثالثاً : الضعف العلمي حيث التخلف في كل المجالات ، والأمية التي مازالت نسبتها مرتفعة جداً ، ووصل الضعف إلى حد دراسة الدين واللغة والتاريخ في جامعات الغرب .

رابعاً : الضعف الأخلاقي والاجتماعي ، وسقوط كثير من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، بعد أن تحولت إلى تقاليد خاوية وعادات جوفاء .

أما الفصل الثاني : فقد كان موضوعه : الآثار الخارجية :

ويشتمل على :

أولاً : الاستعمار الذي بسط سيطرته على كل بلاد العالم الإسلامي تقريباً ، وكان مجيئه متوقعاً بعد أن فسدت أحوال المسلمين العقدية ، وأشرنا إلى بعض آثاره ، وأن رحيله عن البلاد الإسلامية لم يكن إلا ظاهرياً في أكثر الأحيان .

ثانياً : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم من الغرب وذلك بعد أن تولى قيادة الأمة زعماء التغريب والعلمنة ، وقد حاولنا دراسة أهم الخطوات التغريبية الأولى التي نقلت الأمة مسافة بعيدة عن دينها . وكان الواقع العقدي المنحرف مدعاة لهؤلاء التغريبين أن يقودوا الأمة إلى حيث يريدون .

ثالثاً : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي ؛ الذي استفحل في هذين القرنين ، واستغل الظروف الاجتماعية السيئة التي كان يموج بها العالم الإسلامي من فقر وجهل ومرض وتخلف .

أما الباب الرابع : فقد كان موضوعه : الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل : ويتضمن فصلين :

الفصل الأول : أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي :

وما قيل عن بعض الجماعات الإسلامية إنها قد تأثرت بدعوة الشيخ ومناقشة ذلك ، وإن الحديث عن هذه الدعوة العظيمة يجب ألا ينسينا ضخامة الانحرافات التي مازالت موجودة بالفعل .

الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر :

ويشتمل على :

أولاً : العقبات في طريق الصحوة التي تعرقل مسيرتها ، وأهمها استمرار الانحرافات العقدية ، وما يقع من تفرق وتشاحن بين الجماعات الإسلامية ، بالإضافة إلى ضرب الصحوة وحربها من قبل أعداء الإسلام - منافقين ومشركين ويهود ونصارى - ، وتواطئهم على إجهاضها ، ولكن الله عز وجل خيب مسعاهم رغم تضرر الصحوة بتلك الحرب الظالمة .

ثانياً : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل ؛ حيث ذكرنا بعض المبشرات المحسوسة كاتساع قاعدة الصحوة يوماً بعد آخر وإفلاس المذاهب المعادية للدين والشعارات المستوردة من الخارج وغيرها ، ثم تحدثنا عن آفاق المستقبل في ضوء الأدلة الشرعية والمبشرات النبوية وبيننا أن العاقبة

للصحوة، والمستقبل للإسلام، مهما ضاقت الأرض على المؤمنين في هذا العصر، وزلزلوا زلزالاً شديداً .

ثم أنهيت الموضوع بخاتمة موجزة حوت أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

أما منهج البحث فقد مال إلى المنهج الوصفي ؛ الذي يعتمد على وصف وتفسير الأحداث والوقائع، مع سلوك المنهج التاريخي في كثير من الأحيان كل ذلك مع التحليل والتعليل وإبداء الملاحظات والنقد على كل واقعة في الغالب، بالإضافة إلى استخدام المنهج المقارن في كثير من الأحيان لتوضيح الفروق بين الأمة في ماضيها وحاضرها، وقد التزمت في ذكر الحوادث والوقائع ألا تخرج عن هذه الفترة وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان بقدر الإمكان، وإن خرجت عن ذلك فلفائدة معينة .

كما جهدت أن أتبع هذه الانحرافات في كثير من البلاد الإسلامية بقدر الإمكان حتى تكون الصورة عامة ومستقيمة مع عنوان الرسالة وقمت بقراءات واسعة في مجالات مختلفة ؛ بمعنى أنني أجيء إلى قسم التاريخ مثلاً فأحاول أن أقرأ كل كتاب يقع في يدي عن تلك الفترة لأعثر على ما أود البحث عنه، وما كان لي من حيلة غير هذه، ولولا هذه الطريقة لما خرجت من البحث بطائل .

وقد ظفرت بمعلومات ثمينة بفضل هذه الطريقة التي تعتمد على بذل الجهد ومتابعة القراءة، وقد أمضيت حوالي خمس سنوات تقريباً في القراءة والبحث هي مدة إتمام هذه الرسالة، ولا أبالغ إذا قلت : إنني حتى حين كنت أدفع بملزمات البحث إلى الطباعة كنت أقرأ حول الموضوع إلى آخر لحظة وقد

كنت أحياناً أقرأ الكتاب والكتابين والمجلد والمجلدين، فلا أخرج بأية معلومة، وربما فتحت كتاباً فألفيته طافحاً بالمعلومات محشوراً بالانحرافات، ولكن منهج البحث يقضى بتنوع المعلومات وملاحقة الانحرافات في البلاد الإسلامية.

وهناك كثير من المصادر والمراجع التي استفدت منها لنفسى، ولم أستفد منها في الرسالة رغبة في الاختصار.

وقد قمت بتخريج ماورد في البحث من أحاديث من مصادرها الأصلية وترجمت لبعض الأعلام وأحلت الباقي إلى مصادر ترجمتهم، وذكرت تواريخ وفياتهم في الغالب، واكتفيت بالترجمة في كثير من الأحيان بالواقعة التي تخص المترجم؛ إذ فيها غنى مع ذكر مصدر الترجمة، وقد حرصت على ذكر تواريخ الوقائع والأحداث بالتاريخ الهجري حسب الإمكان وعلقت على ما يستحق التعليق منها وكان خارج ميدان البحث.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الله عز وجل على ما من به علي من إنجاز هذا البحث الذي عايشته بعقلي وقلبي حوالي خمس سنوات عصفت بالأمة خلالها عواصف عظيمة، وهزتها أحداث عنيفة وأسأل الله عز وجل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل فيه عوناً لأمتنا الإسلامية المنكوبة.

كما لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل ومشرفي الحبيب الشيخ محمد قطب حفظه الله، الذي كان شرف الالتقاء به والتلمذ على يديه حليماً يرادوني منذ أيام الدراسة الثانوية بزهرا ن حين عرفنا فضيلته عبر مقرر التوحيد الذي كان من تأليفه في ذلك الوقت، ولقد كان

يقابلني أثناء البحث عقبات كبيرة يضيق لها صدري ، ولكن ما إن ألتقي به -
حفظه الله - حتى تزول بإذن الله على يديه بسعة علمه و صدره وثاقب نظره
وفكره ، فأخرج من عند فضيلته منشرح الصدر والخاطر ، قد أخذت جرعة
من النشاط إلى حين . ولقد استفدت منه علماً وفكراً ومعرفةً ، ونهلت منه
خلقاً وأدباً وحلماً وتواضعاً .

وقد رعى البحث منذ أن كان فكرة صغيرة إلى أن تم والحمد لله ؛ تعاوده
خلال مدته بالتوجيه والتوضيح والتصحيح ، فجزاه الله خير الجزاء .

اللهم أطل عمره وبارك فيه وانفع بعلمه وكتبه ، وارفع درجته في
المهدين .

كما أتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء للوالد العزيز الذي كان له الدور
الأكبر في تنشئتي وتربيتي ، وتشجيعي وحضي لمواصلة الدراسات العليا ،
وأن يمد الله في عمره وصحته وأن يجزيه حسن الثواب .

كما لا يفوتني أيضاً أن أتوجه بالشكر إلى جامعة أم القرى ممثلة في كلية
الدعوة وأصول الدين التي أتاحت لي فرصة المواصلة للدراسات العليا ، وأن
يثيب القائمين عليها ، وعلى قسم العقيدة الذي التحقت به . وإلى كل من مد
يد العون والمساعدة بتقديم كتاب أو رأي وعلى رأسهم فضيلة الدكتور
سليمان بن عبد الله السلومي الذي قام بتسليمي مفاتيح مكتبته التي استفدت
منها كثيراً .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، واهدنا لما اختلف فيه من
الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، وتعبد فيه وحدك ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .



تمهيد

نبذة عن أحوال الأمة الإسلامية قبل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

إذا أردنا أن نتحدث بإيجاز عن أهمية العقيدة في حياة الأمة، فلا مندوحة لنا من النظر إلى حال المتمسكين بها في صدر الإسلام، لنرى البون الشاسع بين حال الأمة في ماضيها، وحاضرها. ونخرج من تلك المقارنة الغربية بالدروس والعبر، التي تساعدنا في العمل على عودة الأمة إلى ما كانت عليه من صدارة في الأرض، وقيادة للعالم.

وإذا أردنا أن نعرف طرفاً من حال المتمسكين بالعقيدة في صدر الإسلام فيجب علينا أن نطلع على حالهم قبل أن تغمرهم هذه العقيدة بنورها وتشملهم بخيرها وبركتها، لنرى مدى التحول العظيم الذي وقع في حياتهم، والارتقاء الضخم الذي تحقق لهم بفضلها.

ولانجد من يخبر عن ذلك أفضل من كتاب الله سبحانه وتعالى ولاوصفاً لذلك التحول وذلك الارتقاء مثل كلام الله عز وجل.

يقول سبحانه : ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[الأنعام: ١٢٢]

حقاً إنه تصوير رائع عجيب...! تقف الأقلام حائرة في وصفه، وكذلك

الأسلوب القرآني في كل حين؛ تنهل منه الأبواب، وتصدر عنه الأساليب وتعجز عن إيفائه حقه من التعبير. من الموت إلى الحياة. . ومن الظلمات إلى النور. . هل يستويان مثلاً!! مسافة هائلة! ونقلة عظيمة لا يعرف عظمتها، ويدرك مقدراتها إلا من تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآني المعجز.

«كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين. قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراق. . . . كانت قلوبهم مواتاً. وكانت أرواحهم ظلاماً. . ثم إذا قلوبهم ينضج عليها الإيمان فتتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد. الإنسان المتحرر المستنير، الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد. أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور. . كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان! «^(١).

ولنلق نظرة عاجلة إلى حياة الجاهلية لنرى عظمة هذه العقيدة في انتشال الناس من أحوال الشرك والعبودية لغير الله عز وجل، وفي إخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. فقد كانوا يعبدون الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار، وكان لكل قبيلة صنم مشهور، ورب منحوت، كما كان لكل بيت في الغالب صنم خاص به.

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٢٠١ الأستاذ سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة العاشرة

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

وكان في جوف الكعبة المشرفة وحولها ثلاثمائة وستون صنماً^(١) .

وارتكس الناس في الشرك، وأمعنوا في الوثنية قال ابن اسحاق : واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] .

وقال : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها^(٢) .

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبنها عليه ثم طفنا بها^(٣) .

وربما اتخذ بعضهم وثناً من تمر، فإذا جاع أكله . وهل بعد هذا من سقوط وإسفاف وانحدار؟! .

(١) روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» . أخرجه في صحيحه . كتاب التفسير، باب قوله تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) برقم (٤٧٢٠) (الفتح ٨/ ٤٠٠) . ورواه مسلم برقم (١٧٨١) كتاب الجهاد ٣/ ١٤٠٨ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . ورواه الترمذي برقم (٣١٣٨) كتاب تفسير القرآن .

(٢) البداية والنهاية ٢/ ١٧٨ الحافظ ابن كثير . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحوم وآخرين دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال برقم (٤٣٧٦) (الفتح ٨/ ٩٠) .

وجاء في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مع رستم قبيل وقعة القادسية : « وكنا قوماً نعبد الحجارة والأوثان فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره . . » (١) .

ولم تكن هذه الأصنام والأوثان هي وحدها المربوبات التي اتخذها الناس آلهة يعبدونها من دون الله عز وجل . « بل كانت هناك في الحقيقة أرباب أخرى معبودة ومسيطر على القلوب أكثر من سيطرة الإله الذي يزعمون عبادته .

فالقبيلة كانت رباً يعبد ويطاع ولا يجزؤ أحد من أفرادها على المخالفة عن أمرها بما ينطبق عليه قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

حتى إن أكبر تهديد كان يمكن أن يتعرض له إنسان هو « الخلع » من القبيلة فيصبح « خليعاً » منبوذاً لا يتحدث إليه أحد ولا يتعامل معه أحد . ومن هنا يخضع أفراد القبيلة لسلطانها في غيها ورشدها سواء ، لا يسألونها حين تأمرهم بقتال أو سلب أو نهب أو أي أمر آخر : أحلال هو أم حرام؟ ومتبع هو لما أنزل الله أم مخالف له ؟ وتلك هي الحمية الجاهلية التي تحدث عنها القرآن : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

ولم تكن القبيلة وحدها هي صاحبة السلطان على قلوب الناس إلى جانب الآلهة المزعومة ، بل كان عرف الآباء والأجداد كذلك سلطاناً قاهراً يستعبد الناس ، ويحول بينهم وبين الاستقامة على أمر الله الذي يزعمون عبادته :

(١) المستدرك ٣/ ٤٥١ . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

كما كان الهوى ربا معبوداً من دون الله، يطاع في معصية الله : ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] .

فهذه كلها كانت أرباباً يشرك بها في الاعتقاد أو في الاتباع، وتسيطر على مشاعر الناس وأفكارهم وتشكل سلوكهم .

كما أن عدم الإيمان باليوم الآخر كان له شأنه في تشكيل حياة الناس . فما دامت الحياة فرصة واحدة لا تتكرر، وما دام العمر قصيراً مهما طال، فلا بد إذن من انتهاب اللذات قبل أن تفوت، وهذا شأن الجاهليين دائماً في القديم والحديث .

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فما دام لا يؤمن بالخلود، فالأوفق - في نظره - أن يغتنم الفرصة
الوحيدة، المتاحة له، ويغرق في الشهوات^(١) .

وكانت معرفتهم بالله معرفة نظرية، حيث كانوا يقرون بتوحيد الربوبية
ويكفرون بتوحيد الألوهية . قال عز وجل : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] .

قال طائفة من السلف : تسألهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض
ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله، وهم مشركون به^(٢) .

(١) الثقافة الإسلامية . المستوى الرابع ص ١٦ الشيخ محمد قطب . جامعة أم القرى . مكة المكرمة .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩٥ / ٢ .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك الإقرار النظري عند المشركين الذي لم يكن له أي تأثير على حياتهم في كثير من المواضع في كتابه الكريم .
ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .
[الزخرف : ٨٧]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

وحين سأل النبي ﷺ حصين الخزاعي والد الصحابي الجليل عمران رضي الله عنه : « يا حصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعا في الأرض ، وواحداً في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء »^(١) .

وكان الخوف من الجن والاستجارة بهم والتعوذ بكبرائهم من دين أهل الجاهلية . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] .

قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلهما فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي^(٢) .

وكانوا مؤمنين بالخرافة والسحر والشعوذة . وكان إتيان الكهان والعرافين ديدنهم في كل ما يلزم بهم من أزمات .

وكانوا يطوفون بالبيت عراة يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا . فتضع

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٨١) في كتاب الدعوات . وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد برقم

(١٧٧) ج ١ ص ٢٧٧ ، دار الرشد الرياض .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٢٩ .

المرأة على قبلها الشيء وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
ويتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها . وأعظم من
ذلك افتراؤهم على الله عز وجل أنه أمرهم بهذا !!

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٨] « (١) .

وكانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله افتراءً عليه ، ويتبدعون
من المحدثات ما لم يأذن به الله . وقد قص الحق سبحانه وتعالى طرفاً من
أحوالهم هذه في سورة الأنعام ، وفضحهم في غير موضع من تلك السورة
الكريمة . وكانوا يحتجون بالقدر على شركهم ومعاصيهم .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

ولئن كانت هذه الصورة القائمة تدلنا على مبلغ التردي الذي وصلت إليه
الحياة الدينية في الجاهلية ، فإن الحياة الاجتماعية والخلقية كانت ترسف في
أغلال الجاهلية ، الظالمة ، وتسحق تحت وطأة الأعراف السائدة الجائرة (٢) ،
وخير من يعبر عن تلك الحياة مقالة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بين يدي
ملك الفرس يزدرج الذي قال له :

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٠٩ .

(٢) كانت هناك بعض الأخلاق المحمودة عند العرب والخصال الطيبة من كرم ونجدة وشجاعة
ومروءة وشهامة وغيرها . ولكن الصورة العامة كانت على خلاف ذلك .

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم.

فقال المغيرة رضي الله عنه: «أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع؛ كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كان أحداً ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرت لك...»^(١).

أو ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حضرة النجاشي: «أيها الملك كنا قوماً على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها...»^(٢).

وكانوا يشربون الخمر، ويزنون، ويرتكبون الفواحش، ويلعبون الميسر ويئدون البنات، ويقتلون الأولاد خشية الإملاق، ويعتدي الأقوياء على الضعفاء، ويقومون بغارات السلب والنهب، ويظلم بعضهم بعضاً، ويبغى بعضهم على بعض، وكانوا يحتقرون المرأة أيما احتقار ويمتهنونها في كثير من

(١) البداية والنهاية ٧/ ٤٢.

(٢) دلائل النبوة ٢/ ٣٠٢ الحافظ أبي بكر البيهقي. تحقيق د/ عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الأحيان فلا ترث، بل تورث كسقط المتاع. وكان احتقار العبيد وازدراؤهم سمة من سمات العصر الجاهلي. «لقد ميز عرب الجاهلية بين الناس، فهذا أصيل وذاك دخيل، وآخر هجين.. وأغرب من هذا كله استعباد الأب لابنه إن كان من أمة سوداء»^(١).

وكان التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب معلماً من معالم الجاهلية التي شيدت في طريق العصبية القبلية المقيتة. وكانوا بالنظر إلى الأم المجاورة لهم أمة متخلفة فقيرة ضعيفة. فقد كان كثير من العرب خصوصاً من أبناء البوادي يحتقرون مهنة الزراعة والصناعة ويرون أنها من عمل أهل الذلة والهوان ويعيرون من يشتغل بهما ويرون أن أفضل المال ما أخذ بأطراف القنا والسيوف عن طريق الغزو والنهب!!^(٢)

لا غرو بعد ذلك أن تتسم حياتهم بالشظف والقسوة والفقر والتخلف. أما حياتهم السياسية فلم يكن لهم كيان سياسي موحد يلم شعثهم، ويوحد كلمتهم، بل كانوا قبائل متنافرة، وعشائر متناحرة، تشب بينهم الحروب والمعارك لأتفه الأسباب، وتستمر دهوراً طويلاً، لا يزيدها تعاقب السنين إلا ضراوة وشدة. وتنبعث الأحقاد والبغضاء، وتسود الشحناء والخصام.

ولم تكن هناك دولة بالمعنى المعروف، بل كانت هناك إمارتان هما: المناذرة في العراق، والغساسنة في الشام. «ولقد اصطنعت الدولتان الكبيران^(٣) هاتين الإمارتين لتكونا درعاً واقية لهما ضد غارات الأعراب من

(١) أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص ١٧ الأستاذ محمد الناصر. دار الرسالة. مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨.

(٣) هما فارس والروم.

القبائل العربية، وكثيراً ما وقعت الحروب بين هاتين الإمارتين لصالح ملوك فارس والروم...»^(١).

و«لقد أدت هاتان الإمارتان - الغساسنة والمناذرة - دورهما في خدمة سادتهما خير أداء، فقد بطش ملوكهم بقبائل العرب بطشاً مريعاً ففي يوم أواره الأول مثلاً بطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر لأنها رفضت طاعته وقتل منها خلقاً كثيراً بعد حرب دامية، ثم أسر منهم عدداً كبيراً، وأمر بهم أن يذبحوا على جبل أواره، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار...»^(٢).

وما زالت تلك حالهم، وما برحت تلك حياتهم - ظلم وظلام، وشرك وأوثان، وفسق وفجور وآثام، وخرافة ودجل، وتفرق وتقاتل وتشاحن، وعصبية واحتقار وامتهان، وعداء متوارث، وخصام متواصل، وتخلف وضعف وانحطاط - حتى أشرقت عليهم شمس النبوة المحمدية، وأضاءت لهم أنوار العقيدة الإسلامية حياتهم، وسرعان ما انقشعت دياجير الظلام وزالت أحجبة الشرك، فأقبلوا إلى هذا الدين الجديد بعد طول مكث في الحيرة والتردد والضياع، ينهلون منه كما ينهل الظامى الذي كاد يقتله العطش، ويتشبثون به تشبث الغريق بحبل النجاة، ويكرهون أن يعودوا إلى حالهم كما يكرهون أن يقذفوا في النار.

فارتفعوا من عبادة الشيطان في كل صورها إلى عبادة الله عز وجل. ومن دركات الشرك والخرافة والإغراق في الوثنية إلى ذروة التوحيد والتوكل والإيمان. وأصبحوا بنعمة الله إخواناً متآلفين، لا فرق فيهم بين سيد

(١) الحياة السياسية عند العرب. دراسة مقارنة على ضوء الإسلام ص ٢٩ الأستاذ : محمد الناصر مكتبة السنة. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق ص ٣١.

وعبد، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى . يتحابون فيما بينهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . وباختصار؛ صاروا خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم ربهم في محكم التنزيل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وكان ذلك بفضل الله ثم هذه العقيدة الربانية التي رسخت في نفوسهم ، وسرت في دمائهم ، وقد تلقوها عن معلم البشرية المربي الأعظم محمد رسول الله ﷺ غضة طرية كما أنزلت ، فخرج أعظم جيل عرفته البشرية على الإطلاق .

« إنه الجيل الذي تم فيه اللقاء بين المثال والواقع ، فترجم مثاليات الإسلام إلى واقع ، وارتفع بالواقع البشري إلى درجة المثال . . »^(١) .

وهم الذين « عاشوا الجاهلية من قبل ثم انتقلوا إلى الإسلام ، فأدركوا - بالممارسة الواقعة - عظم النقلة التي انتقلوها من الجاهلية إلى الإسلام ، كما قال عمر رضي الله عنه : « لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية » ! أي لا يقدره حق قدره إلا من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية . . »^(٢) .

لقد أنشأتهم هذه العقيدة نشأة جديدة ، وصاغتهم حتى لكانهم خلقوا خلقاً جديداً . فإذا هم يبذلون أرواحهم ودماءهم وأموالهم في سبيلها ، وإذا هم يعذبون ويقتلون من أجلها فلا يترزحون عنها . وإذا بها تملأ حياتهم ، وتشغل أوقاتهم ، وتستنفد كل جهودهم وطاقاتهم .

(١) واقعنا المعاصر ص ١٥ الشيخ محمد قطب . مؤسسة المدينة للصحافة . جدة الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .

فقد أدركوا نعمة هذه العقيدة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور،
وأيقنوا أن مصيرهم في الدنيا والآخرة معقود بالإيمان بها والعمل على
إعلائها.

فلا غرابة بعد هذا أن تحفل سيرهم بالأعاجيب، وأن تتحقق في حياتهم
المثل الرفيعة التي لا تزال تتلأأ على صفحات التاريخ مع مرور الأيام.
فإذا بالعصبية البغيضة تجتث من حياتهم بفضل هذه العقيدة، لتحل
محلها الأخوة الدينية التي أسس بنيانها على التقوى.

وإذا بالابن يقتل أباه، والأب يقتل ابنه، والأخ أخاه، والرجل يقتل بني
عمه وعشيرته في سبيل نشر هذه العقيدة: وإذا بموازن الجاهلية ومعاييرها
الظالمة تهتز وتضطرب، ثم تتهاوى وتسقط أمام موازين العقيدة العادلة،
وإذا بالصحابة الكرام ينطلقون يجاهدون تحت لواء المصطفى ﷺ،
ويضربون بتضحياتهم أروع الأمثلة في تاريخ البشرية قاطبة.

فهذا عمير بن الحمام رضي الله عنه أول قتيل قتل في سبيل الله في
الحرب يسمع النبي ﷺ يقول في غزوة بدر الكبرى: «والذي نفسي بيده لا
يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»،
فيقول عمير وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا
أن يقتلني هؤلاء فقذف التمر من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد

إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد^(١) .

وهذا المقداد بن عمرو يقول حين استشار المصطفى ﷺ أصحابه عند مسيرهم إلى بدر لقتال المشركين : يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .

ويقول سعد بن معاذ: فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله^(٣) .

وهذا الصديق رضي الله عنه يتصدق بكل ماله في غزوة تبوك، لم يترك لأهله شيئاً، فقد ترك الله لهم ورسوله، وعمر الفاروق يتصدق بنصف ماله، وعثمان رضي الله عنه يجهز جيش العسرة، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية، وتصدق عاصم بن عدي الأنصاري بتسعين وسقاً من تمر، وتصدق رجل من الأنصار يقال له أبو عقيل بصاع من تمر؛ يقول رضي الله عنه : بت ليلتي أجز بالجرير^(٤) على صاعين، والله ما كان عندي من شيء

(١) الإصابة ٣/ ٣١ وفي رواية أخرى : لئن أنا حييت حتى آكل تمرأ إنها لحياة طويلة . وأصل القصة في صحيح مسلم .

(٢) موضع بعد مكة بأميال من جهة الجنوب .

(٣) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٠، عز الدين بن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩ هـ .
١٩٧٩ م . البداية والنهاية ٣/ ٢٦١ .

(٤) الجرير: حبل يجعل للبعير، والمعنى : بت ليلتي كلها أستقي الماء بالحبل بعوض صاعين .

غيره - وهو يعتذر وهو يستحيي - فأتيت بأحدهما وتركت الآخر لأهلي . . (١) .
وإذا بالذين لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله تفيض أعينهم بالدمع حزناً ألا
يجدوا ما ينفقون (٢) .

وإذا بفتيانهم الذين لم يعرفوا في الجاهلية إلا الله والعبث والضياع
يتسابقون إلى ميادين الوغى ، ويتطاولون بأقدامهم في المعارك كي لا يردهم
رسول الله ﷺ لصغر سنهم (٣) .

وما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حتى طهرت جزيرة العرب من
رجس الأوثان والأصنام ، واندحرت فلول المشركين ، وعلت راية التوحيد
تعقق فيما حولها من البلدان .

وأوغلوا في بلاد فارس والروم يفتحونها حصناً حصناً ، ومدينة مدينة
وينفقون كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله .

ويدخل ربعي بن عامر رضي الله عنه إلى مجلس قائد الفرس رستم ،
وقد زين بالنمارق المذهبة ، والزرابي الحرير ، واليواقيت العظيمة ، واللآلئ
الشمينة ، فيطأ بساطه ، فيسأله رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج
من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل
الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . . (٤)

(١) حياة الصحابة ٢ / ١٣ الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي . دار الكتاب العربي . بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٨٢ .

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير أن النبي ﷺ رد جماعة من الغلمان يوم أحد لصغرهم منهم : عبد الله
ابن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وعرابة بن أوس
وغيرهم رضي الله عن الصحابة أجمعين . البداية والنهاية ٤ / ١٦ .

(٤) المصدر نفسه ٧ / ٤٠ .

وعلى ضفاف اليرموك هزم الروم، وارتكس الصليب، واندحر القسس
والرهبان، وغلب الموحدون، وفي حين كان يسلسل جيش الروم بالسلاسل
والحبال حتى لا يفر جنوده من أرض المعركة ^(١)، كان الصحابة رضي الله
عنهم على الطرف الآخر يتبايعون على الموت في سبيل الله ^(٢). ويتدافعون
شربة الماء بينهم في الرمق الأخير. فحين أثخن بعضهم بالجراح استسقوا ماء
فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها
إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من
واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً، ولم يشربها أحد منهم، رضي الله عنهم
أجمعين ^(٣). فأبي إثار هذا.. وأي عظمة تلك !!

وفي ساحة القادسية سحقت جحافل المجوسية، وتضعضت أركان
الدولة الفارسية، وتهدمت بيوت النيران. وتساقطت الأقاليم في أيدي
المسلمين، وفرت عقائد المجوس والنصارى واليهود من وجه عقيدة
التوحيد، واستوى الصحابة على مقاعد الحكم في البلدان المفتوحة،
يسوسون الناس بالإسلام، بعدله وسماحته ورعايته، فإذا الذين كانوا
بالأمس لا تجاوز نظرتهم ميدان القبيلة واهتمامات القبيلة يحكمون أقطاراً
شاسعة من المعمورة، ويرعون شعوباً كثيرة مختلفة الأعراق والألوان،
ويضطلعون بقيادة البشرية.

ودخل الناس في دين الله أفواجاً حين رأوا ما تحلى به أصحاب هذه
العقيدة من خصال شريفة، واستروحوا في ظلال حكمهم نسائم الحرية

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ٤١٠، البداية والنهاية ٧/ ٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ٤١٣، البداية والنهاية ٧/ ١١.

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١١.

والعدل والمساواة والإخاء، فانتشر الإسلام، ورفرت هذه العقيدة فوق العالم المتحضر في ذلك الزمن .

وكان كل ذلك بفضل هذه العقيدة التي « تحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عزة ومنعة، ومجد وعرفان وثروة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن .. »^(١) .

فكانوا بحق مصاحف تمشي على الأرض، تنير للعالمين سبل السلام، وتهدي جموع الضالين إلى الطريق القويم، فرساناً بالنهار، رهباناً بالليل، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم، أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين .

وإذا بعمر الذي كان جباراً غليظاً في الجاهلية، لا ينام الليل، يتفقد رعيته، ويرعى اليتامى والأرامل والمعوزين، ويحاسب نفسه حساباً عسيراً . وحسبنا من سيرة الفاروق العظيمة مثال واحد لنرى كيف صنعت منهم هذه العقيدة هذه النماذج التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً .

قال أسلم مولى عمر : خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال : يا أسلم هاهنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناها فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت : وعليك

(١) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص ٤١ . الأمير شكيب أرسلان تقديم الشيخ محمد رشيد رضا . دار البشير . القاهرة .

السلام. قال : أدنو. قالت : ادن أو دع. فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : من الجوع. فقال : وأي شيء على النار ؟ قالت : ماء أعللهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال : يا أسلم احمله على ظهري، فقلت أنا أحمله عنك، فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟ فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار، وقال : إيتيني بصحفة. فأتي بها فغرفها ثم تركها بين الصبيان، وقال : كلوا، فأكلوا حتى شبعوا - والمرأة تدعوه وهي لا تعرفه - فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل علي فقال : يا أسلم، الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم^(١).

أي شفافية تنسجها تلك العقيدة ؟! وأي عاطفة تبعثها ؟!

إنها العقيدة العذبة الحية التي لم تتلوث بفلسفات وعلم كلام. إنها العقيدة المثمرة الطيبة التي أنزلت لتدير دفعة الحياة، وتقاوم الريح والأعاصير، وتشق الأمواج، وتمخر العباب، حتى تصل إلى بر الأمان. إنها الطاقة الضخمة الفعالة التي أنزلت لتعين الإنسان على عمارة الأرض، والاستخلاف فيها، إنها المنحة الربانية التي ترفع الإنسان إلى مكانته اللاتقة التي خلقها الله له، وتضعه في منزلة التكريم الإلهي العظيم.

(١) تاريخ الأمم والملوك ٥٦٨/٢ للمحافظ ابن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. البداية والنهاية ٧ / ١٤٠.

هذه العقيدة التي أنزلت لتصوغ حياة البشر كلها على ما أراده الله عز وجل . ولم تنزل لتتحول إلى بطون الكتب ، ولا ليتلاعب بها أهل الجدل والخلاف .

ويوم كانت كذلك عند الصدر الأول صاروا سادة الدنيا وقادة العالم ، ورواد البشرية ، وتحقق فيهم قول الحق جل وعلا : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥] .

وعزوا بعد ذل ، وارتفعوا بعد ضعة ، وقووا بعد ضعف ، وتمكنوا بعد تشرد ومعاناة ، وآمنوا بعد خوف ، وصاروا أئمة للناس يهدون بأمر الله لما صبروا على تبعات هذه العقيدة ، وكانوا بها يوقنون .

فكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . واستمر من جاء بعدهم يتربعون على ذرى المجد والسؤدد ، ويفتلون في عرى العز والتمكين ، وتخشاهم ملوك العالم ، وتدفع لهم الجزية عن يدهم صاغرون .

وما زال الأمر كذلك حتى ظهرت الفرق ، ونشأ الخلاف في العقيدة التي بدأت في التحول من ميدان الحياة المتدفق بالنشاط البشري إلى ميدان الجدل النظري العقيم ، وحدثت البدع ، وبدأ ذلك الكيان الإسلامي الكبير يهبط تدريجياً مع اشتداد وطأة الانحرافات ، بعد أن تداعت أركانه ، وإذا بالأمة تصل إلى الحضيض السحيق في الفترة التي نحن بصدددها - وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان .

وقد بينا - فيما سبق - أن هذه الفترة التي ندرسها - وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان - من أخرج المراحل وأشدّها بالنسبة لتاريخ الأمة الإسلامية . وإن أحوال المسلمين عامة والعقدية بصفة خاصة في هذين القرنين قد بلغت من الضعف والهبوط مبلغاً لم يعرف في زمن مضى ، ولا تزال آثار هذه المرحلة الحرجة تقف عائقاً في طريق النهوض ، وهنا يبرز سؤال مهم ، وهو كيف وصلت الأمة إلى هذه الحالة المؤسفة والمكانة الهابطة بعد أن كانت أعظم أمة عرفها التاريخ وحفظتها الأيام ؟

وبعد أن عرفنا شيئاً عن حال المسلمين في الصدر الأول ، وما كانوا عليه من العزة والرفعة والتمكين في الأرض ، نتساءل : كيف وصل الأمر إلى ما وصل إليه في هذين القرنين من السقوط السحيق ، والضعف الشديد ؟ ، وبعبارة أخرى : « كيف تأتي للأمة التي ارتفعت إلى تلك القمم الشاهقة التي لم تسبقها إليها أمة في التاريخ ولا أدركتها بعدها أمة في التاريخ ، أن تتدنى إلى هذا الدرك من الضياع والذل والهوان والهبوط المسف الذي وصلت إليه اليوم ، والذي لا تكاد تدانيه أمة في الواقع المعاصر »^(١) .

حقاً إنه أمر محير جداً وإنه بمقدار ما يعجب المرء ويتهيج لحال هذه الأمة في الصدر الأول ، فإنه يصاب بالذهول ، ويدور في دوامة من الاستغراب الحزين ، حين يرى الهوة التي سقطت فيها ، والحالة المؤسفة التي وصلت إليها في هذه المرحلة ، والتي لا تزال آثارها السيئة تنخر بقوة ، وتعمل فتاكة في حياة هذه الأمة المغلوبة على أمرها .

والحقيقة التي تبدو واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، أن

(١) واقعنا المعاصر ، ص ١١٣ .

الأحوال التي وصلت إليها الأمة في هذه الفترة كانت بسبب تفریطها وتهاونها في أمر دينها، حين وقع في حياة الأمة كثير من الانحرافات التي لم تعالج في وقتها علاجاً حاسماً، ولم يقض عليها في مهدها، والتي لم تزد على مر التاريخ إلا ضراوة، حتى آل بها الحال أن جثمت في القرنين الأخيرين على حياة الأمة، وكادت أن تقضي عليها لولا أن من الله عز وجل بهذا البعث الجديد الذي نراه في الصحوة الإسلامية المباركة وإن كان ما زال ينوء بعبء هذه الانحرافات الجاثمة على كيان هذه الأمة.

وفي الواقع إن هبوط الأمة من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق كان نتيجة حتمية^(١) لمثل هذه الانحرافات والاعوجاجات، وهو أمر جرى على السنة الربانية ووفقاً لها تماماً. يقول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ويقول النبي ﷺ: « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا

(١) ومع وضوح هذه الحقيقة وورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فإن بعض المنتسبين للعلم من المسلمين يجهلونها تماماً!، وينسبون كل ما أصاب المسلمين إلى التخلف المادي والحضاري غافلين تماماً عن التخلف الديني الذي لحق بالأمة، وكان السبب الحقيقي والأول في تدهور أوضاع المسلمين وانحطاط شؤونهم. هذا بالنسبة لبعض المصلحين المخلصين، أما العلمانيون والمنافقون فهم يحاولون طمس هذه الحقيقة الناصعة، بل لم يكتفوا بذلك حتى صاروا ينسبون كل نقیصة لحقت بالمسلمين إلى الإسلام وأنه السبب في كل ما أصاب المسلمين.

إلى دينكم»^(١) ، والحديث كناية عن إقبال المسلمين على الدنيا وزينتها،
وركونهم إليها ؛ حيث تركوا الجهاد في سبيل الله والبذل والعمل من أجل
إقامة دين الله ، فكانت النتيجة المحققة أن أصيب المسلمون بالانحطاط
والضعف ، وتسلب الأعداء عليهم من كل مكان ، وتحققت بذلك نبوءة
الرسول ﷺ حيث نبجدها واضحة جلية في الفترة التي ندرسها ، وذلك حين
قال ﷺ : «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال
قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء
السييل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم
الوهن . فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية
الموت»^(٢) .

فكان ذلك التداعي العظيم ، والتكالب المريع الذي قاده أوروبا
الصليبية والمعروف بالاستعمار الغربي أحد الآثار الخطيرة التي ظهرت بسبب
سوء الأحوال العقدية وتدهورها عند المسلمين على ما سنعرفه فيما بعد . فيا
ترى ما هي هذه الانحرافات الخطيرة التي وقعت في حياة الأمة ؟ وما هي
الأمراض الفتاكة التي أصابتها ، وأوصلتها إلى هذه الحالة المؤسفة ؟ هذا ما
سنعرضه باختصار شديد في هذا التمهيد علماً بأن هذه الانحرافات قد

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٤٦٢) في كتاب الإجارة ، باب النهي عن العينة من حديث ابن
عمر رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني . انظر
صحيح سنن أبي داود ص ٦٥٥ .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩٧) في كتاب الملاحم ، باب تداعي الأمم على الإسلام ، من
حديث ثوبان رضي الله عنه . وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني . انظر صحيح
سنن أبي داود ص ٨١٠ .

ازدادت سوءاً في القرنين الماضيين كما سنيين ذلك في الباب الأول من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

عرفنا فيما سبق كيف كان حال المتمسكين بالعقيدة في الصدر الأول، حين آمنوا بها حق الإيمان، وبذلوا في سبيل إعلائها وتمكينها كل غال ونفيس، فضحوا بدمائهم وأموالهم في سبيل ذلك، وتخلقوا بأخلاق الإسلام، فكانوا مصاحف تمشي على الأرض، يحبون ويغضون في الله، ويوالون ويعادون لله، قاموا بأمر الدين أتم قيام، وسعوا في أرجاء الأرض لنشر كلمة الإسلام، فحق لهم أن يخلد ذكرهم في القرآن، ويذكرهم الله عز وجل في محكم الفرقان: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

فخرج أعظم جيل عرفته البشرية في التاريخ، جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ذلك الجيل الذي تربى في مدرسة النبوة، والذين حق لزمانهم أن يكون خير الأزمان، وقرنهم خير القرون، يقول ﷺ: « خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...»^(١) .

هذا حال الجيل الأول الذي استطاع أن يطيح بأعظم امبراطوريتين، في ذلك الزمن في فترة شديدة القصر مع قلة العدد وضعف العدة، وشغلوا الباحثين والمفكرين من غير المسلمين، فأخذوا يبحثون عن الأسباب الكامنة

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم (٣٦٥١) (الفتح ٣/٧) . ورواه مسلم برقم (٢٥٣٣)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ٤/ ١٩٦٢ .

وراء ذلك الانتصار العظيم^(١) ، وإن كثيراً منهم لينفي بخبث ودهاء أن يكون الدين هو الدافع لذلك ، جرياً على عادتهم في طمس الحقائق ، وقلب الأمور .

وإننا لتساءل أيضاً بعد رؤيتنا لما وصلت إليه الأمة في هذه الفترة : هل كان التحول من العلو إلى السفول ومن التمكين في الأرض إلى الاستضعاف والاستذلال من الأعداء ، هل كان ذلك دفعة واحدة ، وهبوطاً مفاجئاً ؟

بالطبع لم يكن الأمر كذلك إنما كان ذلك على مراحل متدرجة وأزمة متعددة . « فتلك سنة من سنن الله : التدرج في كل شيء . لا شيء يأتي فجأة في أحوال الناس في الأرض (إلا العقاب الصاعق من عند الله حين يقدره سبحانه) إنما يتم كل شيء بالتدريج ، ولكن على ذات الخط الذي يريده الناس لأنفسهم من البداية . فإن أرادوا الاستقامة على طريق الله يسر الله لهم الطريق ، وإن أرادوا الانحراف زادهم مما يريدون »^(٢) .

لقد وقع في تاريخ الأمة مجموعة من الانحرافات الخطيرة ، وتباين وقت ظهورها ، فبعضها ظهر مبكراً ، والآخر تأخر ظهوره نسبياً ، وإن تداخلت أسبابها ، واختلطت نتائجها ، وقد تباينت درجة هذه الانحرافات من حيث خطورتها وقوة تأثيرها في حياة الأمة ، ولكنها كانت مجتمعة تنزل بالأمة وتهبط بها إلى الأسفل ، وما زالت تهبط بها مع مرور الزمن حتى ألقتها في الحضيض ، وهذا أمر نحاول في هذه السطور القليلة أن نبينه ونوضحه ، فنقول :

(١) انظر مقدمة «الإسلام في القرن العشرين» للعقاد . ولماذا تأخر المسلمون ص ٤١ .

(٢) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ٨٥ ، الشيخ محمد قطب ، مكتبة السنة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

إن من أوائل الانحرافات التي وقعت في تاريخ المسلمين ومن أشدها خطورة، ما تمثل في نشأة الفرق وظهورها في حياة المسلمين، وما تبع ذلك من نشأة علم الكلام وانتشار الفلسفة، وقد أخبر النبي ﷺ عن ظهور الفرق فقال «إلا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة. وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»^(١).

«وفي الواقع إن من ينظر في كتب الفرق هذه ويرى كثرتها، قد يخيل إليه أن هذه الأمة قد تمزقت أشلاءً وأحزاباً، وإن الاختلافات بين أفرادها وجماعاتها قد بلغ الغاية، وهذا بالطبع غير صحيح، بل لا يتفق والواقع الذي عاشته الأمة، الأمر الذي يشير إلى أن تلك الاختلافات، مهما عظمت، لم تكن أكثر من آراء لجماعات صغيرة لم يتعد أثرها في كثير من الأحيان دوائر ضيقة ومحدودة.

أما المجتمع الإسلامي العريض فقد ظل متماسكاً وظلت الجماعة المسلمة ملتفة حول كتاب ربها وسنة نبيها، وحملت تلك الجماعة ما تضمنه الكتاب والسنة من مبادئ وقيم وانتشرت بها في أرجاء الأرض»^(٢).

ولكن هذا كان في أول الأمر يوم كانت الأمة قوية ومتماسكة، أما فيما

(١) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٤٣) في كتاب السنة، باب شرح السنة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود ص ٨٦٩.

(٢) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الخوارج والشيعة»، ص ٢٥، د. أحمد محمد جلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

بعد فقد طغى الموج العنيف من هذه الفرق حتى كاد يحسر العقيدة الصحيحة ويقضي عليها، كما سنعرف ذلك فيما يأتي من البحث إن شاء الله، وقد أصبحت الأمة الإسلامية مع توالي القرون والأزمان فرقاً متنافرة ومذاهب متناحرة، كل فرقة تكفر الأخرى أو تفسقها وترى كل فرقة أنها وحدها على الحق والصواب، وما سواها فهو مخطيء وضال، وتعد فرقة الخوارج من أوائل هذه الفرق ظهوراً، حيث تعددت فرقها فيما بعد وتشعبت آراؤها، وكانت بمثابة صخرة قوية وقفت أمام الدولة الإسلامية، أزمنة ليست بالقصيرة، ووقائع الخوارج مع عمال ابن الزبير، ومع الأمويين من بعدهم مشهورة في التاريخ^(١).

وقد استطاع أحد هؤلاء الخوارج أن يخضع سائر المغرب الأقصى جنوب طنجة حتى وصل إلى السوس، وبويع بالخلافة وخاطبه البربر بأمير المؤمنين، ولكن جيوش الخلافة تمكنت بصعوبة من القضاء على هذه الحركة^(٢).

«وظل الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية، يهددون ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة، وظل المهلب بن أبي صفرة يجالدهم ويعاني في قتالهم الشدائد والأهوال السنين الطوال»^(٣).

وبلغ الأمر بهؤلاء الخوارج أن أحد فرسانهم المشهورين يدعى شبيب بن

(١) البداية والنهاية، أحداث سنة ٦٥ وما بعدها.

(٢) دراسة عن الفرق، ص ٧٤. وهذا الخارجي يدعى : ميسرة المظفري.

(٣) فجر الإسلام، ص ٢٥٧، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٧٥ م.

يزيد كان يدعي الخلافة ويتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره من الغرق لنال الخلافة ولما قدر عليه أحد ^(١) .

ولم ينته أمر الخوارج بانتهاء الدولة الأموية ، بل كان لهم نشاط واسع النطاق في عهد الدولة العباسية واستمرت ثوراتهم المتتالية التي استنفدت الكثير من الجهد والأموال والرجال حتى تم القضاء عليها ، وكان بالإمكان أن توجه هذه الجهود في مد حركة الجهاد إلى الخارج .

وقد نجحت بعض هذه الثورات في دحر جيوش الخلافة وإنزال الهزائم بها ، حيث استطاع أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن رستم أن يقيم دولة في مدينة تاهرت بالجزائر ، وقد استمرت هذه الدولة قرابة المائة والخمسين عاماً (من عام ١٦٢ - ٢٩٧ هـ) ^(٢) .

واستطاع الإباضية أيضاً وهم من أشهر فرق الخوارج أن يكونوا لهم دولة في عمان استقلوا بها عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦ هـ) ، وامتد نفوذها إلى جزيرة زنجبار ، ولا تزال مبادئ الإباضية وأفكارهم هي السائدة في هذه الأماكن ^(٣) ، كما لا تزال طوائف وجماعات من الإباضية تنتشر في بعض واحات الصحراء الغربية إلى الآن ^(٤) .

وقد انقرضت أكثر فرق الخوارج ، وانمحت طوائفها لمبادئها الغالية ، وأفكارها المتشددة التي خرجت بها عن الصراط المستقيم ، والمنهج الوسط ، ولم يبق منهم غير فرقة الإباضية التي ذكرنا أماكن تواجدتها ، ومع انقراض

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٤٥٥/٢ ابن خلكان ، دار صادر ، بيروت . البداية والنهاية ، ٢٢/٩ .

(٢) دراسة عن الفرق ص ٧١ .

(٣) (٤) دراسة عن الفرق ، ص ٧١ .

الخوارج واختفائهم، إلا أن الفكر الخارجي لم يزل باقياً عند جماعات ظهرت في هذا العصر، منها ما يسمى بجماعة التكفير والهجرة والذين حكموا بكفر كل من لا ينتسب إلى جماعتهم^(١).

أما الفرقة الكبيرة التي كانت وبالأشراً على المسلمين على طول تاريخهم، وفي جميع مراحل حياتهم، فهي فرقة الشيعة على تعدد طوائفها واختلاف نحلها، بدءاً بالسبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الملعون، الذي كان رأساً في إذكاء نار الفتنة والدس بين صفوف المسلمين^(٢)، والذي وصل الأمر بهم إلى تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد تأثر الشيعة في كثير من عقائدهم الباطلة بالعقائد الفارسية وغيرها^(٣).

وقد أخذ كثير من فرق الشيعة بالتمويه على الناس للدخول في فرقهم، مستغلين في ذلك حب الناس لآل البيت. ومع مرور الزمن استطاع الشيطان أن يضل هذه الفرقة ضلالاً بعيداً، ويغويهم عن الصراط المستقيم إغواءً عظيماً، وصاروا أخطر على المسلمين من الخوارج، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهؤلاء (الرافضة الشيعة) إن لم يكونوا شراً من الخوارج المنصوصين فليسوا دونهم...»، فإن أولئك إنما كفروا عثمان وعلياً، وأتباع عثمان وعلي فقط، دون من قعد عن القتال أو مات قبل ذلك، والرافضة كفرت أبا بكر وعمر وعثمان وعامة المهاجرين والأنصار والذين

(١) دراسة عن الفرق، ص ١٠٨ وما بعدها. وانظر كتاب «الحكم بغير ما أنزل الله وأهل الغلو» لمحمد سرور بن نايف زين العابدين، وكتاب «ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة» لعبد الله بن محمد القرني.

(٢) انظر «عبد الله بن سبأ وأثره في الفتنة الكبرى». د. سليمان العودة. دار طيبة. الرياض.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي، د. علي سامي النشار، ٣٥٢/٢، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.

اتبعوههم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكفروا جماهير أمة محمد ﷺ من المتقدمين والمتأخرين . . . ، ولهذا يكفرون أعلام الملة . . ويستحلون دماء من خرج عنهم ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور . . ويرون أن كفرهم أغلظ من كفر اليهود والنصارى ؛ لأن أولئك عندهم كفار أصليون ، وهؤلاء مرتدون ، وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي ؛ ولهذا السبب يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين كما عاونوا التتار على المسلمين ، وكانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ، ملك الكفار ، إلى بلاد الإسلام ، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق ، وفي أخذ حلب ، ونهب الصالحية ، وغير ذلك ، بخبثهم ومكرهم ، لما دخل فيه من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم ، وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر عليهم وقت انصرافه إلى مصر في النوبة الأولى ، وبهذا السبب يقطعون الطرقات على المسلمين . وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والإفرنج على المسلمين ، والكآبة الشديدة بانتصار الإسلام ما ظهر .

وكذلك لما فتح المسلمون الساحل - عكة وغيرها - ظهر فيهم من الانتصار للنصارى وتقديهم على المسلمين ما قد سمعه الناس منهم ، وكل هذا الذي وصفت بعض أمورهم ، وإلا فالأمر أعظم من ذلك فهم أشد ضرراً على الدين وأهله ، وأبعد عن شرائع الإسلام من الخوارج الحرورية ، ولهذا كانوا أكذب فرق الأمة . . فليس في الطوائف المتسببة إلى القبلية أكثر كذباً ولا أكثر تصديقاً للكذب وتكذيباً للصدق منهم ، لا سيما النفاق فيهم أظهر منه في سائر الناس وكل من جربهم يعرف اشتغالهم على هذه الخصال .

ولهذا يستعملون التقية التي هي سيما المنافقين، واليهود، مع المسلمين ﴿يَقُولُونَ بِالْأَلْسِنَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، وهم يوالون اليهود والنصارى والمشركين على المسلمين وهذه شيم المنافقين.

وهم مع هذا يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فلا يقيمون فيها جمعة ولا جماعة، وبينون على القبور المكذوبة مساجد يتخذونها مشاهد، حتى إن من مشائخهم من يفضلها على حج البيت الذي أمر الله به ورسوله، ووصف حالهم يطول^(١).

وما زال أمر هؤلاء الشيعة في زيادة حتى بلغ بطائفة القرامطة وهم من غلاتهم أن يروعوا الأمنين من المسلمين في أنحاء عديدة من الدولة الإسلامية ويعيثوا في الأرض فساداً، حتى آل بهم الحال إلى اجتياح البلد الحرام، وهتكوا الحرمات، وسفكوا دماء الحجيج، ودفنوا القتلى في بئر زمزم، وقلعوا باب الكعبة، وأخذوا الحجر الأسود معهم^(٢)، وألحدوا في الحرم إلحاداً بالغاً عظيماً، وقتلوا من العلماء والحفاظ خلقاً كثيراً، ومن الناس من لا يحصيهم إلا الله، وهابت الدولة جانبهم، وكسروا جيوشها في عدة مواقع. وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنع أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا مماليك للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنة ببلاد إفريقية من أرض المغرب^(٣).

ولم يكن ظهور القرامطة غريباً أو مفاجئاً في نهاية القرن الثالث (٢٧٨هـ)، فالخطة التي وضعها الملاحدة الباطنيون لضرب الإسلام كانت

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤٧٧/٢ - ٤٨٢.

(٢) مكث الحجر الأسود عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة، من عام ٣١٧هـ إلى ٣٣٩هـ.

(٣) راجع أخبار القرامطة في البداية والنهاية ١١/٦٥ - ٣٢٤، من أحداث سنة ٢٧٨هـ إلى أحداث سنة ٣٧٥هـ.

تقضي بنشر الدعاة في كل مكان يتظاهرون بالتقوى إذا وجدوا في بيئة سنية
تقية، ويتظاهرون بحب الفلسفة إذا وجدوا في بيئة تحب الفلسفة . ومن
هؤلاء الدعاة : حسين الأهوازي الذي حل بسواد الكوفة واستطاع إغواء
الهمج الرعاع، ونقلهم من حال إلى حال حتى وصل بهم إلى مذهب
الإباحية والكفر، واستباحة قتل المسلمين، وكان من أشياعه حمدان قرمط،
فسمي أتباعهم بالقرامطة^(١) .

ثم ابتلي المسلمون حين ضعف أمر الخلافة بطائفة من الشيعة وهم
البويهيون حيث استطاعوا أن يسيطروا على مقاليد الحكم في بغداد، وأن
يهينوا الخلفاء العباسيين الذين ليس بيدهم من الأمور شيء، وقد أراد
البويهيون نزع الخلافة من العباسيين وإعطائها لإخوتهم العبيديين بزعمهم
أنهم من آل البيت، ثم عدلوا عن ذلك .

وقد لاقى أهل السنة في عهد بني بويه الكثير من المآسي والنكبات،
فكانت لا تمر سنة واحدة إلا ويحدث بين الرافضة وأهل السنة كثير من
المصادمات والفتن، حيث كان الرافضة في يوم عاشوراء من كل عام يفعلون
بدعتهم الشنعاء ويغلقون الأسواق، ويخرج نساؤهم حاسرات سافرات
نائحات على الحسين ويلطمن وجوههن، ويكتبون على أبواب المساجد لعنة
معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكتبوا أيضاً : ولعن الله من غصب
فاطمة حقها وكانوا يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان، والحكام البويهيون
يأمرون بذلك، ويذودون عن إخوتهم الرافضة .

وكان هؤلاء البويهيون على صلة بالقرامطة والعبيديين في مصر،

(١) أعييد التاريخ نفسه، ص ٥٣، محمد العبد، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٤١١ هـ .

واستطاع بنو حمدان وهم من الشيعة أيضاً أن يقيموا لهم دولة في حلب والموصل وما جاورهما، وإن كان لبني حمدان دور في صد غارات الروم وجيوشهم، فإن لهم من التشيع والتواطؤ مع القرامطة شيء عظيم^(١).

كما نجح العبيديون^(٢) أيضاً في بسط سلطتهم على بلاد المغرب ومصر والشام، وقد امتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين (العبيدين)، وكل ملوك البلاد مصرّاً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً، وكذلك الحجاز وغيره، وغالب بلاد المغرب، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة^(٣).

وقد كان هؤلاء العبيديون أشر حالاً وأكثر وبالاً، وقد حكم العلماء بكفرهم وفسوقهم وفجورهم وأنهم ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وأحلوا الخمر وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية، وكذبوهم في ادعائهم النسب إلى فاطمة^(٤).

وقد استمرت هذه الدولة الرافضية الباطنية قريباً من ثلاثمائة سنة^(٥)، حتى زالت على يد الملك العادل الصالح السلطان صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله -، وفي عهد هذه الدولة الأسود استحوذ الفرنج على سواحل

(١) البداية والنهاية ١١/ ٢٧٠.

(٢) العبيديون المشهورون زوراً وبهتاناً بالفاطميين. راجع قضية النسب الفاطمي أمام منهج النقد التاريخي. د. عبد الحليم عويس.

(٣) البداية والنهاية ١١/ ٢٤٧.

(٤) انظر الوثيقة التي أصدرها العلماء في بغداد عام ٤٠٢هـ، بشأن العبيديين في الكامل في التاريخ ٩/ ٢٣٦، و البداية والنهاية ١١/ ٣٦٩.

(٥) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٩.

الشام وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل مع الفرنج، والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهد الحصون والقلاع، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع^(١).

وقد استطاع الصليحيون أيضاً وهم من غلاة الشيعة أن يقيموا لهم دولة في اليمن استمرت قرابة القرن من الزمن، حاولوا خلالها ضم الحجاز لهم، وكانوا دعاة للعبيديين في مصر، وكانوا أيضاً من غلاة الشيعة الذين يسعون إلى هدم العقيدة وتقويض شرائع الإسلام، شأنهم في ذلك شأن القرامطة والعبيديين، وغيرهم من طوائف الباطنية الأشرار.

وإن من يقرأ التاريخ بتمعن، ويربط الأحداث ببعضها بعضاً يرى أن العلاقات بين هذه الدول الشيعية كانت في قمتها، حيث التعاون فيما بينها كان على مستوى كبير، محاولين بذلك إحكام القبضة والسيطرة على العالم الإسلامي.

والجدير بالذكر وهو مما يؤسف له حقاً، إن هذه الدول أو أكثرها قام على أكتاف السنة، ولو أن هؤلاء لم يساعدوا على قيامها، أو لو أنهم قاوموها لانهارت بأقرب فرصة، ولكن غفلة عوام السنة تجعلهم العوبة بيد أعدائهم، يضربون بهم، ويقىمون العروش على أكتافهم، فقبائل كتامة لم تكن شيعية أو إسماعيلية^(٢) قبل أن يتلاعب بهم أبو عبد الله

(١) المصدر نفسه ٢٥٦/١١.

(٢) الاسماعيلية : فرقة من غلاة الشيعة وتسمى بالباطنية، راجع دراسة عن الفرق، ص ١٩٣

الشيعة^(١) ، وهم الذين أقاموا الدولة العبيدية ، والبويهيون حكموا بغداد عاصمة الخلافة ، وكان من العلماء والوزراء السنة من يعمل معهم ويساعدهم^(٢) .

وفي أثناء حكم هؤلاء الشيعة الروافض اشترأت أعناق اليهود والنصارى ، وقويت شوكتهم ، وصاروا أكابر بعد أن كانوا صاغرين ، ووصل بعضهم إلى كراسي الوزارة ، وألحقوا بالمسلمين من المظالم ما الله به عليم ، واستطاع الصليبيون في عهدهم الأسود أن يستولوا على بيت المقدس دون أن يبذل واليها من قبل العبيديين أدنى مقاومة ، ولكن الله عز وجل أبطل مكر الشيعة وأوهن كيدهم ، وحل الخلل والضعف في دولهم ، ومكن لدينه ، وأظهره على دين الشيعة ومذهبهم ، وذلك بظهور دولتين سنيتين قويتين وهم الغزنويون والسلاجقة .

أما الغزنويون فقد أعادوا للجهاد قيمته ورفعوا رايته ، ووصلت فتوحاتهم إلى الهند ، وأحرقوا كتب العبيديين ، ورفضوا دعوتهم حين دعوهم وقتلوا داعيتهم ، وقتلوا من الباطنية خلقاً كثيراً^(٣) .

وأما السلاجقة فقد استطاعوا أن ينقضوا على البويهيين الرافضة في بغداد ، ويحرروا الخلافة العباسية من ربقتهم ، بعد أن وصل بهم الحال في آخر الأمر أن دعوا على المنابر خليفة العبيديين^(٤) ، وأرادوا أن يكون للشيعة

(١) أبو عبد الله الشيعي ، أحد المؤسسين للدولة العبيدية . راجع كتاب «المقفى الكبير» للمقرئزي ، ص ٢٥ وما بعدها ، تحقيق / محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧ م . والبداية والنهاية ١١ / ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ، ص ٦١ .

(٣) البداية والنهاية ١٢ / ٣٠ - ٣٢ .

(٤) المصدر السابق ١٢ / ٨٦ .

كامل السلطان وعظيم الهيمنة على ديار الإسلام كلها، ولكن الله فضحهم وسلبهم ملكهم ورد كيدهم في نحرهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، بأن قيض الله لهذه الأمة من أظهر دينه، وأعلى كلمته، وهم السلاجقة الذين ردوا للخلافة اعتبارها ومكانتها، وأبطلوا ما كان يفعله الرافضة من السب للصحابة، ومن البدع الشنيعة الأخرى، وخرج التوقيع من ديوانهم بكفر من سب الصحابة وأظهر البدع^(١).

وقد أبلوا بلاء عظيمًا في رد عادات الروم وغيرهم وكسروهم في وقائع متعددة من أهمها موقعة « الزهوة » حيث أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرخ والفرنج وعدد عظيم وعدد، ومعه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة، مع كل بطريق مائتا ألف فارس^(٢)، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفًا، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفًا، ومعه مائة ألف نقاب وحفار، وألف روزجاري، ومعه أربع مائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والفراشات والمناجيق، منها منجنيق^(٣) عدة ألف ومائتا رجل، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله . ولكن السلطان «ألب أرسلان» وجيشه الذين بلغوا عشرين ألفًا كسروهم كسرة فظيعة، وهزموهم هزيمة منكرة وأسروا أرمانوس^(٤).

(١) المصدر السابق ٩٩/١٢ .

(٢) لعله «مائتا فارس» فقط وهو الأقرب .

(٣) يبدو أن هنا سقطًا في الأصل لعله : «يجره عدة» .

(٤) المصدر السابق ١٠٧/١٢ ، ١٠٨ .

ولكن الرافضة والباطنية وسائر طوائف الشيعة كادوا يغصون بهذا النصر العظيم، ويشرقون بهذه الدولة السنية الفتية، وكعادتهم دائماً إذا كانت الدولة عليهم، والغلبة لخصومهم، فإنهم مثل الثعابين والأفاعي الخبيثة، سرعان ما يختفون، ويبدأون يحيكون الدسائس، ويرسمون المؤامرات تحت جناح الظلام .

وقد اتخذ هؤلاء الباطنيون المجرمون أسلوب الاغتيالات لتنفيذ أهدافهم ومخططاتهم، في ضرب الدول والمجتمعات السنية، فقتلوا الوزراء والملوك والعلماء في الأوقات الحرجة وتحالفوا مع أعداء الإسلام من الصليبيين والتتار^(١) . فقتلوا الوزير نظام الملك الذي كان من خيار الوزراء، وقتلوا ابنه الوزير فخر الملك، وقتلوا الوزير أبا طالب السميرمي وزير السلاجقة وقتلوا صاحب حلب آقسنقر في مقصورة جامعها يوم الجمعة، وقتلوا الخليفة العباسي المسترشد وقطعوه قطعاً^(٢) ، وقتلوا أيضاً تاج الملوك وسلطان دمشق بوري بن طغتكين، والذي قتل من الباطنية خلقاً كثيراً، وكان كثير الجهاد، لا يفتر من غزو الفرنج^(٣) .

وقتلوا أمير الموصل «مودود» الذي أبلى في جهاد الصليبيين بلاءً حسناً، وانتزع من أيديهم حصوناً كثيرة^(٤) . وقد حاولوا اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي غير مرة وجرحوه في إحدى المرات^(٥) ، وغير

(١) أعياد التاريخ نفسه، ص ٢٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٥٠، ١٧٩، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء، للحافظ الذهبي، تحقيق وتخريج : شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٤) البداية والنهاية ١٢/١٨٥ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٢١/٢٨٠ .

هؤلاء من ملوك الإسلام وحكامهم في أخرج الفترات ، وأضيق المآزق .

وقتلوا من العلماء الكثير؛ فممن قتلوا من العلماء القاضي «عبد الواحد ابن أحمد الروياني» شيخ الشافعية، قتله بجامع آمل بطبرستان^(١)، وقتلوا «أبا المظفر الخجندي الواعظ» بالري^(٢)، وقتلوا القاضي أحمد بن نصر الهروي بهمدان^(٣) وغيرهم.

وتحالفوا مع أعداء الإسلام ومن أجل ذلك أخذوا يضربون القادة والملوك والعلماء من أهل السنة، وسلموا للصليبيين كثيراً من الحصون ومنها حصن بانياس حيث باعوه لهم^(٤). هذا بالإضافة إلى ثوراتهم الكثيرة وسفكهم دماء الألو ف من المسلمين .

وهكذا كان هؤلاء الرافضة الباطنية خنجراً مسموماً استغله أعداء الإسلام من التتار والصليبيين واليهود، ونتيجة لغفلة المسلمين وتهاون خلفائهم، تمكن الرافضي الخبيث «محمد بن أحمد بن محمد العلقي» من الوصول إلى وزارة الخليفة المستعصم بالله، فكانت النتيجة لتلك الغفلة والثقة بأمثال ابن العلقي من الرافضة أن حل بالدولة الإسلامية والخلافة العباسية، من الاجتياح الهمجى، والاحتلال البربري من قبل هولاءكو وجيشه من التتار المجرمين، حيث قتل الخليفة وقتل من أهل بغداد ما يقدر في بعض الروايات بمليون وثمانمائة ألف قتيل^(٥)، فيهم من العلماء والحفاظ والفقهاء والأمراء

(١) المصدر السابق ٢٦٢/١٩ .

(٢) البداءة والنهاية ١٧٤ / ١٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٠٩/١٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩/٥٧٥ .

(٥) البداية والنهاية ٢١٥ / ١٣ .

والأعيان الجرم الغفير وكل ذلك كان بسبب ممالأة هذا الوزير الرافضي ومصانعته لهولاءكو وقطعان التتار الهمج .

وقد بدأ هذا الوزير الخبيث جريمته النكراء بأن أخذ يجتهد قبل مجيء التتار في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من ديوان الجند، وقطع مرتباتهم إذ بلغ عدد العساكر في أواخر عهد المستنصر - والد المستعصم الذي استوزر هذا الرافضي - قريباً من مائة ألف مقاتل، فلم يزل يجتهد هذا الوزير العميل في تقليلهم حتى لم يبق منهم سوى عشرة آلاف مع نقص أعطياتهم .

ثم أخذ قبحه الله يكاتب التتار ويطمعهم في البلاد طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من العبيديين إخوته بالرفض، وأن يبید العلماء والمفتين^(١) .

وما زال دأبه ذلك حتى حل بالمسلمين من سقوط الدولة وذهاب الملك والصولة، ولم ينج أحد من أهل بغداد غير الوزير وأهل بيته ومن التجأ إليه وأهل الذمة من اليهود والنصارى، وكل ما وقع بسبب غفلة أهل السنة وتهاونهم في أمر هؤلاء الرافضة الذين يجعلون التقية دينهم، واتخاذهم وزراء، والركون إليهم، وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد ربح من الزمن تمكن الشيعة الصفويون من أن يقيموا لهم دولة قوية في فارس، قامت بينها وبين الدولة العثمانية كثير من المصادمات العنيفة والحروب الضارية، وقد عملت هذه الدولة الشيعية على نشر المذهب الشيعي في الأناضول، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية، ولقي المذهب الشيعي استجابة واسعة بين رعايا الدولة وبخاصة في شرق الأناضول، ولكن

(١) المصدر السابق ١٣/٢١٣-٢١٦ .

السلطان سليم الأول أحس بالخطر الشيعي القادم، فجيش الجيوش وجند الأجناد واستطاع أن ينزل الهزيمة بالشاه إسماعيل ملك الصفويين، ودخل عاصمتهم تبريز، واستولى على كثير من الأقاليم التي كانت تحت يدهم، ولكنه لم يقض عليهم تماماً بسبب انشغاله بالحروب والفتوحات في الشرق العربي الإسلامي^(١). ولا تزال طوائف الرافضة إلى يومنا هذا تسيطر على فارس وتعمل على نشر مذهبها في أنحاء العالم.

أما جماعات الباطنية فقد استمرت على خط سيرها الأثيم في زعزعة الأمن والاستقرار، وإحلال الفوضى مع تعاونهم السافر مع أعداء المسلمين، وكانوا بمثابة طابور خامس يطعن في ظهور المسلمين من الخلف.

جاء في الفتوى المشهورة لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - التي أصدرها في شأن طائفة النصيرية وما اقترفوا من الجرائم من عداوتهم للمسلمين وحربهم لهم، ووقفهم مع أعداء المسلمين؛ يقول رحمه الله:

«من المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين.

إلى أن قال: فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على السواحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره^(٢).

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ١٨/١-١٩، د. عبد العزيز الشناوي،

مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٥ م.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/١٥٠-١٥١.

ويقول أيضاً : وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم ، فإنه من الكبائر ، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم ، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم ، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة^(١) .

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأجره في فتواه ونصيحته التي خالفها المسلمون كثيراً ، ولم يحترزوا من هؤلاء الباطنية الخبيثاء .

وقد قام كل من النصيرية والدروز وهما من غلاة الشيعة بكثير من الثورات والحروب ضد الدولة العثمانية ، وقد بلغ عدد الدروز في فترة من الزمن مائة ألف ، واتصلوا بالنصارى الصليبيين ، كما اتصلوا بحكام فارس الرافضيين ، وتسببوا في خلق متاعب كثيرة للدولة ولجيرانهم^(٢) .

وما تزال طوائف الدروز والنصيرية موجودة إلى الآن في كل من سوريا ولبنان ، وتاريخ النصيريين منذ أن وجدوا في هذه المنطقة ، تاريخ أسود مشبوه ، إذ إنهم لم يخرجوا على العقائد الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب ، بل إنهم كانوا دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية ، يتآمرون ضدها في الخفاء ، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً^(٣) .

أما الدروز فلا يقلون عنهم خبثاً ومكرأ ، وتعاونهم مع الصهاينة في إسرائيل لا سيما أولئك الذين يعيشون في إسرائيل ، والذين أصبحوا جزءاً من المجتمع الصهيوني^(٤) .

(١) المصدر السابق ١٥٥/٣٥ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٧٤٠/٢ .

(٣) دراسة في تاريخ الفرق ، ص ٣٢٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥٤ .

وهكذا ظل الشيعة على تباين نحلهم واختلاف طوائفهم العدو الأكبر والخطر الأعظم على المسلمين، وقد رأينا أنهم حينما وصلوا إلى الحكم، سرعان ما ألقوا بأقنعتهم المزيفة، وكشفوا عن وجوههم الخبيثة، وظهر ما كان مختفياً من الحقد والكراهية ضد المسلمين، فاضطهدوهم وقتلواهم وعذبوهم، ولولا أن الدين محفوظ من عند الله، وأن الله يبعث له من يجدده ويظهره لاستطاع هؤلاء الأشرار القضاء على الإسلام، وإبادة المسلمين نهائياً.

فالشيعة هي الفرقة الكبرى والشوكة المسمومة التي تولت كبر شق عصا المسلمين وتفريق كلمتهم، وإضعاف أمرهم، «فبهذا تبين أنهم شر من عامة أهل الأهواء وأحق بالقتال من الخوارج»^(١).

على أن من أخطر ما أدخله الزنادقة والشيعة على الإسلام هو إظهار الشرك في الأمة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمرؤا ببناء المشاهد، وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف المعصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب أهل الكتاب، حتى صنف كبيرهم ابن النعمان كتاباً في «مناسك حج المشاهد» وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد، فصاروا جامعين بين الشرك والكذب. . .»^(٢)، وما زال الشرك تضطرم ناره، ويتنشر لهيبه،

(١) مجموع الفتاوى ٤٨٢/٢٨ .

(٢) المصدر السابق ١٦٢/٢٧ .

حتى كان غالباً على الأمة في القرون المتأخرة كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى .

كل ما تقدم كان من أعظم الجنايات التي جنتها هذه الفرق على المسلمين، على أن هناك كثيراً من الفرق الأخرى قد ألحقت بالإسلام والمسلمين أضراراً خطيرة بغير قتال وحروب في كثير من الأحيان كما فعلت الشيعة، وإنما جاء خطرهما عن طريق غزو العقائد ومحاولة تحريفها وذلك بعد أن ترجمت الكتب اليونانية والإغريقية المشحونة بالوثنيات القديمة والفلسفات العقيمة، وقد دخل على المسلمين بسبب ذلك من الشرور والشبهات والشكوك، ما تمخض عن نشأة كثير من الفرق التي سببت زعزعة واضطراباً فكرياً عند كثير من أبناء المسلمين.

وكان المعتزلة من مهجنة هذا الغزو الفكري، حيث تمثل منهجهم الخاطيء في تحكيم العقل في كل شيء، وكان اعتمادهم على القضايا العقلية عند دراستهم لأموال العقائد، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل، فما قبله أقروه، وما لم يقبله رفضوه^(١) .

وما زال أمر هؤلاء المعتزلة يزيد، وشرهم يعظم، حتى أصبحوا من أكابر الدولة العباسية، وقد استطاعوا أن يزينوا للمأمون القول بخلق القرآن، وقاموا بتأليب الدولة على امتحان الناس للقول بهذه البدعة الشنعاء والداهية الدهياء، ومن لم يجب دعوتهم، ومنتحل بدعتهم، قطعوا جرائته، أو سجنوه وعذبوه، أو حكموا بقتله، ولم تنته هذه الفتنة بموت المأمون، بل سار من جاء بعده من الخلفاء على طريقته وسيرته، وامتألت السجون في

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ١٤٤، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي .

هذا العهد المظلم بعلماء الأمة وخيرتها، واستمر المعتصم ثم الواثق في امتحان الناس، وعظم الخطب، واشتد المصائب بالمسلمين، وتزلزلت كثير من الأقدام، وثبت الله نفراً من علماء الأمة وقفوا بحزم وشجاعة في وجه هذا الطغيان المعتزلي المؤيد بقوة الدولة وسلطانها، ومن هؤلاء العلماء رأسهم وإمامهم إمام أهل السنة أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث سجن شهوراً، وجلد وأوذي في الله كثيراً، ثم أعز الله أهل السنة ورفع البلاء عنهم، بعد أن تولى الخلافة المتوكل فأظهر السنة ورفع لواءها، وقمع البدعة ونكل بدعاتها، فاضمحل شأن المعتزلة سياسياً .

أما فكرهم ومنهجهم فقد ظل ردحاً من الزمن يشتغل به كثير من العلماء، ولكن الزمن تكفل بطمس هؤلاء المعتزلة، إلا أن منهجهم ما زال موجوداً عند فئة العقلانيين في عصرنا، من الذين مجدوا العقل وضخموا دوره على حساب الدين .

ولم يكن المعتزلة وحدهم الذين تأثروا بالعقلانية الإغريقية وانحرفوا بها عن عقيدة الإسلام الصحيحة، فكل الذين خاضوا في قضايا الصفات من «المتكلمة» وفي قضايا القضاء والقدر والجبر والاختيار كان اعتمادهم في «الكلام» الذي قالوه على تلك العقلانية التي تعطي العقل أكبر من حجمه الحقيقي، وتجعله هو المرجع وهو الحكم في كل قضايا الوجود^(١) .

وهذا في الحقيقة كان شأن جميع الفرق والطوائف - عدا أهل السنة والجماعة - ومع هذه الفرق نشأ ما يسمى بعلم الكلام، الذي يأخذ بمنهج

(١) واقعنا المعاصر، ص ١٢٧ .

البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي ثبتت بالوحي^(١) .

وهكذا خرجت جميع الفرق عن الخط الأصيل للكتاب والسنة وحادت عن الصراط المستقيم، وأخذ كل منها يبحث ويأتي بأدلة وحجج واعتراضات ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يأمرهم الله بهذا، ولا كلفهم بها، فانزلقوا إلى تصورات لا هي إسلامية صافية، ولا كانت العقيدة الإسلامية الواضحة البسيطة السمحة في حاجة إلى شيء منها، ولا هي قدمت أي خدمة لتلك العقيدة بل حولتها من تصور صاف ووجدان حي وسلوك عملي يقصد به مرضات الله، إلى قضايا ذهنية تجريدية باردة، لا تزيد الإيمان، إن لم تبعث على إثارة الشكوك والشبهات المناقضة للإيمان، ولا تحرك الوجدان، ولا تؤدي إلى سلوك واقعي^(٢) .

وإن المرء ليعجب أشد العجب من كثرة ما كتبه هؤلاء المتكلمة من مؤلفات وكتب فتمر عليك الصفحات منها دون أن تكتحل عينك منها برؤية آية واحدة، أو حديث واحد، وهم يبحثون كما يقولون في أصول الدين وفي مسائل الإيمان؛ إنما هي تصورات ذهنية، وفلسفات قديمة (قد أكل الدهر عليها وشرب)، واستدلالات تورث الحيرة والشك، أفنوا أعمارهم، وأهدروا أوقاتهم، في أشياء غير نافعة وجهود ضائعة، ولسان حالهم كقول قائلهم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك العوالم

(١) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص ١٣٥، د. عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(٢) واقعنا المعاصر، ص ١٢٧ .

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقنه أو قارعاً سن نادماً^(١)
أو كقول الآخر :

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وغاية ديانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا^(٢)
وتعتبر فرقنا الأشاعرة والماتريدية^(٣) من أكبر الفرق الإسلامية، ومن
أعظم طوائف المتكلمة، والتي لا تزال إلى اليوم تمثل نسبة كبيرة بين المسلمين،
وقد وصل الأمر بالأشاعرة في بعض الأحيان إلى محاربة عقيدة السلف
والنيل من علمائها، واستعداد السلطة عليهم، كما فُعل بالحافظ عبد الغني
المقدسي^(٤)، حين طردوه من البلد، ومن قبله بأبي إسماعيل الهروي^(٥)،
والذي جرى منهم لشيخ الإسلام ابن تيمية أمر مشهور، حيث تسببوا في
نفيه وسجنه وحرق كتبه، وآذوه وأتباعه أشد الإيذاء، حتى صار كثير منهم
يخفي عقيدته حتى لا تطوله أيدي هؤلاء المبتدعة من الأشاعرة وغيرهم،

(١) البيتان للشهرستاني محمد بن عبد الكريم، صاحب كتاب «الملل والنحل»، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ. سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٨٦.

(٢) الأبيات لفخر الدين الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ. سير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠.

(٣) الأشاعرة : أتباع أبي الحسن الأشعري . والماتريدية : أتباع أبي منصور الماتريدي .

انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ١٨٠ وما بعدها، ص ١٩٥ وما بعدها .

(٤) هو الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، ولد سنة ٥٤١ هـ، برز في علوم كثيرة، وبرع في الحديث وأسماء الرجال خاصة، امتحن غير مرة بسبب عقيدته السلفية . مات سنة ٦٠٠ هـ . انظر البداية والنهاية ١٣/٤٢ .

(٥) هو الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري لهروي، ولد سنة ٣٩٦ هـ، نعتة الذهبي بشيخ الإسلام . مات سنة ٤٨١ هـ .

انظر سير أعلام النبلاء ١٨/٥٠٩-٥١٢ .

واستمر هؤلاء المتكلمة في نشر عقائدهم الكلامية، ومحاربة العقيدة الصحيحة، ومنع القراءة في كتب هذه العقيدة وعلمائها كابن تيمية وغيره، ومما يؤسف له أن كان للأزهر من هذه العداوة أوفر الحظ والنصيب، حيث لم يكن لحاملي هذه العقيدة من العلماء فيه مكان يذكر، ولم ترتفع راية هذه العقيدة فوق منبره يوماً من الأيام؛ لأن المتكلمين ورثوه بعد زوال مؤسسيه من العبيدين وعملوا على نشر مذهبهم دون مذهب السلف.

على أن من أعظم الأخطاء التي أخرجتها هذه الفرق من المتكلمين مشكلة الإرجاء، وهي القول بأن الإيمان تصديق وإقرار دون إدخال العمل في مسمى الإيمان خلافاً لما تواتر عن السلف الصالح من أن الإيمان قول وعمل، قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح.

وفي الواقع إن هذه المشكلة العويصة، وهي مشكلة الإرجاء لم تؤت ثمارها السيئة إلا بعد مضي الزمن، حيث تساهل الناس في كثير من التكاليف الشرعية وفرطوا فيها، وتباطؤوا عن العمل لأن فيه مشقة، فجاء الإرجاء فأطمعهم في نيل الثواب وتحصيل الأجر، ماداموا مؤمنين بقلوبهم ومقرين بألسنتهم، فعند ذلك تراخى الكثير من المسلمين عن العمل، وتقاعسوا عن العبادات في صورتها الصحيحة.

وما دام أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص على رأي أولئك المتكلمين فما فائدة العمل؟ إذ إن من يعمل كثيراً وينصب ويجهد نفسه في العمل كمن لا يعمل شيئاً البتة. إيمانهم ثابت لا يزيد ولا ينقص.

وهذه في الواقع من المصائب الكبرى التي جناها المتكلمون على الإسلام، إذ كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقاً في القلب

وإقراراً باللسان دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة^(١) ؟
وستحدث عن هذا الأمر بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى عند حديثنا
عن الفكر الإرجائي في القرنين الأخيرين .

ومن الانحرافات الخطيرة التي ظهرت في تاريخ الأمة والتي ماتزال إلى
وقتنا هذا، ما يسمى بالصوفية، هذه الطائفة التي ابتلي الإسلام والمسلمون
بها، والتي صارت مع الزمن طرقاً كثيرة ومذاهب عديدة . والصوفية من
أعظم الرزايا التي رزى بها الإسلام على طول تاريخه، والتي ألحقت
بالمسلمين ما لا يعلمه إلا الله، من الضعف والخور والخنوع والخضوع للواقع
المؤلم دون محاولة لتغييره .

وقد استشرى مع الزمن ضررها، وتعاضم خطرها، ومازالت تعلقو
وتتنفس حتى وصل بها الحال في القرون المتأخرة - خصوصاً الفترة التي
ندرسها - إلى أن صارت في عرف السواد الأعظم من المسلمين هي الدين،
ودخل فيها من الطقوس والبدع والخرافات في تقديس الشيوخ ماجعل
الكثير من هؤلاء الصوفية ينسون الله سبحانه وتعالى، ويفرون في الأزمات،
ويلجئون إلى شيوخهم من دون الله من الذين اتخذوهم أرباباً، يلتمسون
منهم كشف ما حل بهم، وإزالة الضيم الذي وقع عليهم .

ومع الصوفية جاء الموج الهائل من البدع والخرافات والأساطير، والتي
لوثت عقول الكثيرين من المسلمين، وكفي من هذه البدع بدعة المولد
وحدها، وما يحدث فيها من إنشاد القصائد الشركية، والمنظومات الكفرية،
وقتل عواطف المسلمين تجاه نبيهم بهذا الابتداع بدلاً من توجيههم إلى العمل

(١) واقعنا المعاصر، ص ١٢٩ .

بسنته، وتحكيم شرعه . أضف إلى ذلك ما يحدث في هذه الموالد من الإسراف والتبذير .

ويذكر الحافظ ابن كثير أن المولد كان يصرف عليه في بعض الأحيان ثلاثمائة ألف دينار^(١) وهذا مبلغ ضخم في ذلك الزمن كان الأولى صرفه في الجهاد الذي كان قائماً مع الصليبيين، وفي حفظ الثغور والمدن الإسلامية . ونظراً لخطر هذا الانحراف الصوفي، وتفشيهِ بين المسلمين خصوصاً في الماضي، فسنفرد له فصلاً كاملاً - إن شاء الله - لنرى كم سببته هذه الصوفية من النكبات والبلايا للمسلمين .

كما أن من الانحرافات التي وقعت أيضاً عند المسلمين ما يسمى بالتعصب المذهبي بين أتباع المذاهب، والتي كان يصل العداء بين أتباعها من المتعصبين إلى حد القتاتل والتخاصم، وكم روت لنا كتب التاريخ من المآسي والمصائب بسبب هذا التعصب، فكم من عالم أخرج من بلد لمخالفته مذهب أهل ذلك البلد، وكم من مرة وقع القتال بين هؤلاء المتمذهبين وقامت بسببهم فتنة عمياء يهلك فيها خلق كثير، وصار كثير من هؤلاء السفهاء يحب ويبغض ويوالي ويعادي من أجل مذهبه الذي قد يجهل كثيراً منه، ويرى كل فريق من هؤلاء البؤساء أنهم وحدهم على الحق، وأن إمامهم لا ينطق عن الهوى، ولا يخطئ أبداً .

هذه المذاهب مع ما أحدثته بين المسلمين من تفرق وتشاحن وتباغض، فقد كبلت مع مرور الزمن العقول وحجرت على الأفهام، حيث إن كل فوج من العلماء والفقهاء يأتي بعد من سبقه، ولا هم لهم ولا شغل يشغلهم إلا

(١) البداية والنهاية، ١٣/١٤٧ .

الانتصار لمذهبهم، والرد على خصومهم ؛ لذا ألقت المختصرات، وكتبت الشروح، وكثرت الحواشي في كل مذهب.

ومع انتشار هذه المذاهب وهيمنتها على الساحة الإسلامية وترؤس المتعصبين وتصدرهم للتعليم والتدريس، جاءت الداهية العظيمة والمصيبة الجسيمة، وهي القول بقفل باب الاجتهاد، وأن الناس لم يعودوا بحاجة إليه؛ لأن علماء المذاهب وفوا وكفوا في ذلك، ولم يتركوا لأحد مقدار أنملة تحتاج إلى اجتهاد، وبذلك حجروا واسعاً، ووضعوا أمام العقول والأفكار من القيود والحواجز ما يضعف تفكيرها، ويغل فقهاها واستنباطها، هذا إن لم يمتها ويذهبها بالكلية.

ومن تجراً من العلماء على الاجتهاد واستطاع أن يتخطى قيودهم وحواجزهم، فسرعان ما يتألب عليه أرباب المذاهب، وسفهاء التعصب، وينالون منه غاية النيل، ويؤذونه أشد الإيذاء، وليتهم يكتفون بذلك، ولكنهم يبدعونه ويفسقونه، وقد وصل بهم الطيش إلى أن يكفروه، ويستعدوا السلطان عليه، حتى وصل الأمر أن منعت الدولة العثمانية إعادة فتح باب الاجتهاد، وبذلك قضوا على المجتهدين، وفتحوا للزائغين والمستغربين طريقاً إلى تقويض الإسلام وهم لا يشعرون كما سنرى ذلك عند حديثنا عن التعصب المذهبي وقفل باب الاجتهاد وما تسبب عن ذلك من آثار وخيمة.

هذه الانحرافات العقدية والعلمية إذا أضفنا إليها من الأحوال العامة بعض الانحرافات الأخرى كتحويل الحكم من خلافة راشدة إلى ملك وراثي يتوارثه الأبناء عن الآباء والأجداد، وقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى أن يعهد بالحكم إلى طفل غير مميز أو سفیه غير رشيد، أو فاسق شديد الفسوق

بحجة أن آباه من قبل قد أوصى بالحكم له ، مع ما صاحب ذلك كله من استبداد الحكام وظلم الكثيرين منهم ، حتى دب الوهن إلى الخلافة ، واستقلت أكثر الأقاليم بشؤونها في عهد بني العباس حتى لم يبق مع الخليفة إلا بغداد وبعض بلاد العراق ؛ وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات ^(١) .

وقد كان قيام العداوات بين هذه الدويلات المنشقة عن الخلافة أمراً طبيعياً ، وشرّاً متوقعاً ، كل دويلة تحاول على حساب الأخرى أن تزيد من ملكها وأن تهيمن سلطتها على من حولها ، وهذا ما حدث كثيراً ، وانظر إلى حال هاته الدويلات قبيل مجيء الصليبيين والتتار وما ارتكبه هؤلاء الآثمون ، فسترى ما يصيبك بالدهشة والذهول والأسف من تناحر هذه الدويلات فيما بينها ، ومحاولة كل دويلة القضاء على الأخرى ، والهيمنة والتفرد في البلاد ، وأنى لها هذا ؟ وقد وصل الذل والحقْد المجنون ببعض هذه الدويلات أن استعانت بالصليبيين وقاتلت المسلمين تحت صلبان الفرنج وراياتهم ^(٢) ، وأصبح حال المسلمين كما قال الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر
وقد لاقى المسلمون من هذا التفرق ومن هذه الدويلات الكثير من
الويلات والمصائب والشور ، حيث سفكت الدماء وهتكت الأعراض ،
ونهب الأموال ، كل ذلك من أجل إشباع نهمة حفنة من الحكام الانتهازين
الذين لا هم لهم إلا اللهث والتكالب للوصول إلى مقاعد الحكم ، ولو كان

(١) المصدر السابق ١٣/ ٢١٨ .

(٢) المصدر السابق ١٣/ ١٧٦ .

ذلك على طريق مفروشة بدماء المسلمين وأشلائهم، وقد مكن هؤلاء الحكام باقتتالهم وتحاربهم لأعداء الإسلام، وأعطوهم بذلك الفرصة السانحة التي طالما كانوا يتحينونها، فكان ذلك الصراع الدامي الذي استمر عشرات السنين جزاءً للمسلمين الذي تنازعوا فيما بينهم، فتوقفت ريحهم وفشلت دويلاتهم، واصطلوا بنيران الحروب ولهيب المعارك كما هو بين في التاريخ من حملات الصليبيين المتتالية على المسلمين، ومن مجيء التتار الهمج وما ارتكبوه من فظائع وجرائم تقشعر لسماعها الأبدان .

ومع انشغال الحكام بشهواتهم وإهمالهم أمور رعيتهن، سرى الداء أيضاً إلى الرعية، فصار الهم الأكبر عند الكثير منهم طلب العيش الرغيد والأخذ بأذنان البقر، والانهماك في الزرع والحراث والاتجار، وغير ذلك من شؤون الحياة، وعند ذلك فترت النفوس، وقست القلوب، ودب الوهن إليها، فركنوا إلى الدنيا واغتروا بها، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وغطوا في سبات عميق، واستحكمت عليهم الغفلة، وأمنوا مكر العدو المتربص بهم الدوائر، ولم يستيقظوا إلا على رؤية جحافلهم وجيوشه قد غزتهم في عقر دارهم، وحلت بساحتهم .

كما أن الترف الذي أصاب المجتمع المسلم بعد أن ضربت الدولة الإسلامية بأطنابها في أرجاء الأرض، وأخذ الخراج والمال يتدفق عليها من كل مكان، وركن الكثير من الناس إلى متاع الدنيا وزخرفها، والتفنن في المآكل والمشارب والملابس والمناكح، وقامت مع ذلك سوق الجوارى والمغنيات، حتى إن الجارية المغنية كانت تشتري بالألوف المؤلفة من الدنانير .

وهذا على المستوى المتوسط ، أما إذا نظرنا إلى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار التجار ، فإننا نجد أموراً هي إلى الخيال أقرب من الواقع ، وذلك من تلاعب هؤلاء بالأموال ، والإسراف فيها ، وإنفاقها في أمور اللهو واللعب ما لا عائد من ورائه ، حتى إن دخل أم خليفة من الخلفاء العباسيين بلغ في السنة الواحدة ألف ألف دينار^(١) ، فكيف بالخلفاء أنفسهم وأمرائهم ووزرائهم وحجابهم ؟ ، وكان بعض الخلفاء يملك في قصره أحد عشر ألف خادم خصي ، عدا الباقي من الصقالبة والفرس والروم والسودان^(٢) .

أما حفلات هؤلاء الخلفاء واعتناؤهم بمهام ختان أولادهم ونكاحهم فما على القارئ إلا أن يتصفح التاريخ فيرى ما لا يكاد يصدق ، من تضييع الأموال العظيمة ، وإنفاقها في وجوه غير مشروعة ، وقد أعطى أحد الخلفاء من قام بختان ولده قرية كلها من فضة ، بيوتها وأعاليقها وأبقارها وجمالها ودوابها وطيورها وخيولها ، وزروعها وثمارها وأشجارها وأنهارها وما يتبع ذلك مما يكون في القرى ، الجميع من فضة مصور^(٣) .

أما حفلات الزواج ومهور النساء عند هؤلاء الحكام فقد بلغ حد الجنون بسبب ما يهدر فيها من الأموال ، ويكاد القلم يعجز عن وصف ذلك .

ومع مرور الزمن كان ذلك الترف قد أتى أثره من العجز والضعف والانشغال عن الجهاد وعن العمل لإقامة دين الله ، وكان هذا الترف الفاضح على حساب السواد الأعظم من المسلمين المغلوبين على أمرهم ، الذين ضاقت عليهم سبل العيش الكريم ، وسدت الحياة أبوابها في وجوههم ، فانتشر الفقر

(١) المصدر السابق ١١/ ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ١١/ ١٨١ .

(٣) المصدر السابق ١١/ ١٨٢ .

وعمّ الجهل وأنشب المرض أنيابه فيهم، فلعجئوا إلى أبواب المخاريق والكرامات المزعومة، وفروا من الواقع الأليم، علمهم يجدون في هذه الأبواب تخفيفاً لمشاكلهم أو فرجاً من الشدائد التي لحقتهم، وهذا الحال نجده واضحاً في القرون الستة الأخيرة .

ويضاف إلى كل ما تقدم من انحرافات وأخطاء أمر آخر من أشدها خطورة وأكثرها أهمية، وهو تقاعس العلماء وتهاونهم وتقصيرهم في مهمتهم الكبرى، ووظيفتهم العظمى في وراثته أعباء النبوة، وتكاليف الرسالة، وتجديد أمر هذا الدين، والنصح للأمة، وتبصير الناس بأمور دينهم والوقوف في وجه البغي والظلم والطغيان .

وإن من يقرأ التاريخ الإسلامي بعد انقضاء القرون المفضلة ليعجب أشد العجب من بعد العلماء عن الساحة، وعدم مشاركتهم في أحداث الأمة الكبيرة، ويزداد العجب حين يرى المرء أن الفترات التي ثارت فيها الفتن، وعظمت فيها الخطوب، وكثرت فيها الأحداث، كانت مزدانة بحركة علمية ضخمة أدار دفتها جمع غفير من العلماء الأجلاء، ولكن هذا الجمع الغفير كان بمنأى عن هذه الأحداث السياسية، فقد أثر جلهم البقاء منزوياً بين حلقات العلم والتلاميذ من ناحية، وبين التأليف والرحلة بين الأقطار من ناحية أخرى، اللهم إذا استثنينا نفرًا من هؤلاء العلماء شاركوا بوجه أو بآخر في بعض هذه الأحداث .

ويعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مثلاً رائعاً وواقعاً ملموساً لموقف العالم المسلم الذي يقوم بأداء أمانته على أكمل وجه، فنراه يشارك مشاركة فعالة في الأحداث العامة، ويقوم بدور الإصلاح العملي والدعوة

الحية ، فالعلماء لهم دور كبير وواجب ضخم ملقى على عواتقهم ، وسنرى في طيات بحثنا هذا خلال الفترة التي ندرسها كيف تخلى كثير من العلماء عن دورهم ، وتقاعسوا عن أداء واجبهم ، واستطاع بعض الظلمة أن يستغلهم ويتسببهم ليصل إلى مآربه الشخصية وأغراضه العدوانية .

وبعد فهذه لفتات عابرة ، وإيماءات سريعة عن بعض ما وقع في تاريخ الأمة من انحرافات ظل أكثرها باقياً مع الزمن ينخر في كيائها ، ويضعف من قوتها ، هذه الانحرافات بدأت من قرون واتسعت رقعتها واشتدت مع الزمن حداثتها وخطورتها ، وبلغت منتهى قوتها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، فحدث للأمة ما نراه وما نعيشه من هذا الواقع الأليم والانحطاط السحيق ، وهو ما سوف نتحدث عنه في الباب الثاني عند حديثنا عن الآثار السيئة لتلك الانحرافات - إن شاء الله .



الكتاب الأول

الانحرافات الحقيقية في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

نهيي

إن ما وصلت إليه الأمة الإسلامية خلال هذين القرنين من ضعف وانحطاط ، وما يعيشه المسلمون اليوم من ذلة واضطهاد ، وفرقة وشتات ، وتبعية مخزية لقوى الكفر والإلحاد ، لهو نتيجة حتمية للحالة العقيدية والعلمية التي وصل إليها المسلمون في هذه الفترة ، فالفراغ العقدي الهائل الذي خلفته عوامل عديدة يأتي الحديث عنها ، والضعف الذي أصاب العقيدة وأخذ يشتد مع مرور الأيام كان السبب الأول في تدهور أوضاع الأمة في جميع المجالات وفي إفراز هذا الواقع السيئ .

فيوم كانت العقيدة عند المسلمين صحيحة قوية تحكم جميع شئون حياتهم وتنطلق منها كل معاملاتهم ، كانوا ممكنين في الأرض ، واستطاعوا بفضل هذه العقيدة حين وعوها وعملوا بمقتضاها أن يقودوا العالم من ورائهم ، وقيموا أفضل حضارة عرفتها البشرية ، تلك الحضارة الرائعة التي جمعت بين مطالب الروح والجسد ، ومثلت بحق ما يتطلع إليه البشر من مكانة في هذا الوجود . أما حين دب الضعف والخلل إلى هذه العقيدة ، فخبت جذوتها أو كادت في نفوس المسلمين ، وتخلّى أكثرهم عن العمل بمقتضاها ، أصابهم ما أصابهم من نزع التمكين ، ودالت دولتهم ، واستبيحت ديارهم ، وسوف نرى إن شاء الله تعالى - فيما يأتي من مباحث - الحالة السيئة والمتردة التي وصلت إليها العقيدة .

وقد أصيبت العقيدة الإسلامية في هذين القرنين بموجة انحراف شديدة

كادت أن تزول معها بالكلية لولا عناية الله وتكفله بحفظها ثم بجهود عظيمة لبعض العلماء المخلصين من أهل السنة والجماعة .

وقد ساهمت عدة عوامل^(١) في هذا الانحراف يأتي على رأسها الفرق التي انتشرت بصورة عظيمة على اختلاف نحلها ، وأخذت تفسد العقيدة الإسلامية التي كانت قد أصيبت بالضعف والتراخي ، وإلا فلو كانت قوية راسخة لثبتت في وجه هذه الفرق الزاحفة .

عامل آخر كان له أثر كبير في انحراف العقيدة وزيادة ضعفها ، ألا وهو الصوفية التي ما فتئت منذ نشأتها إلى وقتنا هذا تناجز العقيدة الصحيحة ، وتشن عليها بعقائدها الباطلة وتصوراتها المنحرفة حرباً شعواء لا هوادة فيها . واستطاعت مع كروار الأيام أن تتصدر الميدان ، وتهيمن على الساحة ، ويفرض رجالها سلطانهم فوق السواد الأعظم من المسلمين ، لينزوي من خالفهم بعيداً ، ولتنفرد وحدها في الميدان وتعمل بقصد أو بدون قصد - على تقويض دعائم الإسلام ، والإجهاز على ما بقي منه في النفوس .

ومع الصوفية وغيرها جاءت الداهية الكبرى والظلم العظيم ، جاء الشرك بأنواعه ، وانتشرت مظاهره ، وغدا ديناً يتقرب به ، ولم يكذب ينجو منه بلد ، وتفشت البدع والخرافات ، وامتزجت حياة الناس بها ، وانحصر مفهوم العبادة ، وتضعفت عقيدة الولاء والبراء ، وهيمنت الفلسفة وعلم الكلام ، وانتشر الإرجاء .

فاشتد الخطب وعظمت المصيبة ، وأضحت هذه العقيدة الغالية غريبة في ديار الإسلام ، محاربة من غالب العلماء ، فضلاً عن الحكام والعامّة ،

(١) يأتي الحديث عن هذه العوامل مفصلاً إن شاء الله تعالى في الفصول القادمة .

وأعداء الأمة يتربصون بها الدوائر، ويحيكون المؤامرات والدسائس، ونفوذهم في ازدياد وخطرهم يحدق بها من كل أفق، وحال الأمة كما ذكرنا آنفاً.

يقول الشيخ محمد بهجت الأثري متحدثاً عن الحالة العقدية في تلك الفترة: «فظهرت دجاجة الطرق والملبسون متظاهرين بالدين يبثون روح الفساد ويغترون بالعامية، ومن ورائهم السلطة تؤيدهم وتعزز دعوتهم، فبنيت التكايا، وشيدت القباب على قبور المتمشيخة والدجالين من رفاعيين ونقشبنديين وقادريين وعيدروسيين، وعظم سلطان الشرك والرياء ونذرت للقبور النذور، وقربت لها القرابين، وعلقت بها التمام، وأوقدت عليها السرج، حتى صار المتدين في نظر الناس من يضرب بالدف ويرقص في حلقة الذكر».

وصار العالم المستقل والموحد العريق إذا أنكر عليهم شيئاً من أضراليلهم ينبز «بوهابي» بل ينبذ ويسخط عليه وينتقم منه بكل ما يقتدر عليه ويساعد عليه السلطان الجائر، وهكذا انقلب الحال وساء المآل وأخمدت الأرواح الحية، ووذت الحرية الدينية، واشتدت وطأة الجهل واستفحل أمر الرياء، وعلقت جسم المجتمع الأدواء، فما كان يولد يومئذ مولود إلا أفسد ذلك «المجتمع العليل» فطرته، وأحمد ما أودع الله فيه من نور»^(١).

وسوف نبسط الحديث في الفصول التالية بإذن الله تعالى.



(١) أعلام العراق ص ٩٨ المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٤٥ هـ.

الفصل الأول

انحصار الدين في العبادة بمعناها الضيق

لا بد لنا قبل أن نخوض في تفاصيل هذا الانحراف الخطير أن نبين الصورة الصحيحة للعبادة، كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكما فهمها السلف الصالح رضوان الله عليهم، فنقول : إن العبادة « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الأدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادات لله »^(١).

والدين كله داخل في العبادة^(٢)؛ لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) العبودية ص ٢٠. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق : خالد عبد اللطيف العلمي . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ كما قال كل من نوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم لأقوامهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

ولا نستطيع أن نفهم هذه الآيات وغيرها حق الفهم ما لم نفسر العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده الله عز وجل ، وهي أن تشمل كل نشاط في حياة الإنسان : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٦) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣]

ولو لم تكن العبادة المذكورة في كتاب الله بهذا الشمول وهذه السعة فكيف نوفق بين قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وبين التكاليف الربانية الكثيرة المختلفة التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟ إن المعنى لا يستقيم إلا إذا كانت هذه التكاليف كلها داخلة في مفهوم العبادة الواسع الشامل كما أراده الله .

فحين يقول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة : ٣٠] .

وحين يقول على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطباً قومه : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] .

(١) الأعراف ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

وحين يقول : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

وغير ذلك من الآيات الكثيرة فإن هذه الآيات لا يتضح معناها الحقيقي إلا إذا أدرجت التكاليف الواردة فيها ضمن مفهوم العبادة الشامل .

هذا المعنى العظيم للعبادة هو الذي سار عليه الرسول ﷺ في حياته كلها ، وعمل بمقتضاه إلى حين لحاقه بالرفيق الأعلى عملاً بقول الحق جل وعلا : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٩] .

فكانت جميع أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته عبادة لله عز وجل ، وكذلك دعوته وهجرته وجهاده ، وحربه وسلمه ، وإقامته ، ويقظته ومنامه ، عبادة لله عز وجل .

«وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء : ١] .

وقال في الإيحاء : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم : ١٠] .

وقال في الدعوة : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ .

[الجن : ١٩]

وقال في التحدي : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة : ٢٣] «^(١) .

هكذا كانت حياة المصطفى ﷺ الحافلة بالأعمال العظيمة من بناء للدولة المسلمة وتربية دأبة لصحابته الكرام ، وتعليم للقرآن والعلم ، وجهاد

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

للكافرين والمنافقين وقيام على أمور المسلمين ، ورعاية لبناته وأزواجه وأحفاده ، كلها عبادة لله تعالى ، أما صلاته وصيامه وسائر طاعاته وقرباته فأمر يعجز القلم عن وصفه .

لقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، وحين سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً» ^(١) .

وكان ﷺ يربي صحابته على هذا المفهوم الشامل للعبادة . يربيههم بالقرآن الكريم وبما احتواه من توجيهات عظيمة تصب كلها في دائرة العبادة الواسعة . ومن هذه التوجيهات :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذهَبُوا بِعِضِّ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

[النساء: ١٩]

(١) رواه البخاري برقم ٤٨٣٧ كما في الفتح ٨ / ٥٨٤ كتاب التفسير . سورة الفتح .

وقوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا﴾ .

[النساء : ٣٦]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

[النساء : ٥٨]

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٥ ، ٤٦] .

وقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل : ٩٠ ، ٩١] .

وقوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ

مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣١، ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .
[الجمعة: ٩، ١٠]

وغير ذلك من التوجيهات القرآنية التي تدور كلها في داخل فلك العبادة ويفهمها الصحابة رضي الله عنهم كذلك .

وكان ﷺ يربيههم بسيرته العظيمة التي يرونها بين ظهرانيهم وقد تمثلت فيها عبودية الله عز وجل الكاملة فيتأسون بها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .
[الأحزاب: ٢١]

ويربيههم كذلك بتوجيهاته المباشرة في تلك القضية كقوله ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليل صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»^(١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت . يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان والجهاد في سبيل الله ، قلت : فأبي الرقاب أفضل ؟

(١) رواه مسلم برقم ١٠٠٦ كتاب الزكاة ٢/ ٦٩٧ .

قال : انفسها عند اهلها واكثرها ثمناً ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً وتصنع لأخرق ، قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة^(١) .

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة^(٢)» .

وعن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال : « نفقة الرجل على أهله صدقة^(٣)» .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك^(٤)» .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو دابة إلا كان له صدقة^(٥)» .

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي ﷺ : « الخازن الأمين الذي

(١) رواه البخاري برقم : ٢٥١٨ كما في الفتح ١٤٨/٥ كتاب العتق ، باب أي الرقاب أفضل . ومسلم برقم : ٨٤ كتاب الإيمان ٨٩/١ .

(٢) رواه الترمذي برقم : ١٩٥٦ كتاب البر والصلة ، وانظر صحيح الجامع برقم : ٢٩٠٨ .

(٣) رواه البخاري برقم : ٤٠٠٦ كما في الفتح ٣١٧/٧ كتاب المغازي .

(٤) رواه البخاري برقم : ٤٤٠٩ كما في الفتح ١٠٩/٨ كتاب المغازي ، باب حجة الوداع .

(٥) رواه البخاري برقم : ٢٣٢٠ كما في الفتح ٣/٥ كتاب الحرث والمزراعة . باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه . ومسلم برقم ١٥٥٣ كتاب المساقاة ١١٨٩/٣ باب فضل الغرس والزرع .

يؤدي ما أمر به طيبة نفسه أحد المتصدقين» (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ : « إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة كان لها أجر ما أنفقت ، ولزوجها أجر ما اكتسب ، ولخازنه مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض » (٢) .

وروي عنه ﷺ قوله : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » (٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » (٥) .

وبغيرها من التوجيهات النبوية المستفيضة التي تربهم على العبادة بمفهومها الشامل .

(١) رواه البخاري برقم : ٢٢٦٠ كما في الفتح ٤/ ٤٣٩ كتاب الإجارة . باب استئجار الرجل الصالح . ومسلم برقم ١٠٢٣ كتاب الزكاة ٢/ ٧١٠ باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت .

(٢) رواه البخاري برقم ١٤٢٥ كما في الفتح ٣/ ٢٩٣ . كتاب الزكاة . باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه . ومسلم برقم ١٠٢٤ كتاب الزكاة ٣/ ٧١ باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت .

(٣) رواه الترمذي برقم : ١٢٠٩ كتاب البيوع .

(٤) رواه الإمام أحمد . وهو الحديث التاسع في السلسلة الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني .

(٥) رواه البخاري برقم ١٢٤٠ كما في الفتح ٣/ ١١٢ ، كتاب الجنائز ، باب الأمر باتباع الجنائز .

وقد أثمرت هذه التربية النبوية العظيمة للصحابة الكرام فهماً حقيقياً ومتكاملاً لفهوم العبادة فكانت حياتهم من مبدئها إلى منتهاها عبادة لله عز وجل ، وليس ما يقومون به من شعائر تعبدية فحسب ، و « بعبارة أخرى لم تكن الحياة تنقسم في حسبهم إلى «عبادات» و«معاملات» إنما هي عبادات مختلفة ، بعضها شعائر مفروضة ذات أوقات محددة ، وبعضها معاملات مفتوحة تشمل كل نشاط الإنسان السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعلمي والحضاري . ولكنها كلها داخلية في دائرة العبادة التي يذكر فيها اسم الله ويلتزم فيها بما أنزل الله» (١) .

ومن طالع سير الصحابة رضوان الله عليهم وقرأ تراجمهم عرف أن حياتهم كلها كانت عبادة لله عز وجل ، وحسبنا من ذلك هذه الأمثلة القليلة :

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه : «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي» (٢) .

فكانوا رضوان الله عليهم يرون أن نومهم عبادة كما يرون قيامهم عبادة . وأن أكلهم وشربهم عبادة كما يرون صيامهم عبادة ، وكل شيء في حياتهم يرونه عبادة يحتسبون فيها الأجر عند الله .

وعن الحارث بن لقيط قال : «كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها فيقول : أنا أعيش حتى أركب هذه ؟ فجاءنا كتاب عمر - رضي الله عنه - : أن

(١) واقعنا المعاصر . ص ١٦٩ .

(٢) رواه البخاري برقم : ٤٣٤٤ كما في الفتح ٦٢ / ٨ كتاب المغازي . باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع .

أصلحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر تنفساً»^(١).

«ولذلك اعتبر بعض الصحابة الرجل يعمل في إصلاح أرضه عاملاً من عمال الله عز وجل، فروى البخاري في الأدب المفرد (رقم ٤٤٨) عن نافع بن عاصم أنه سمع عبد الله بن عمرو، قال لابن أخ له خرج من (الوهط): أيعمل عمالك؟ قال: لا أدري، قال: أما لو كنت ثقيفاً لعلمت ما يعمل عمالك، ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره «وقال الراوي مرة: في ماله» كان عاملاً من عمال الله عز وجل. وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

و «الوهط» في اللغة هو البستان، وهي أرض عظيمة كانت لعمر بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من «وج» يبدو أنه خلفها لأولاده، وقد روى ابن عساكر في تاريخه (١٣/٢٦٤/٢) بسند صحيح عن عمرو بن دينار قال: دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له: «الوهط» فيه ألف ألف خشبة، اشترى كل خشبة بدرهم يعني يقيم بها الأعناب»^(٢).

هكذا كان مفهوم العبادة عند الصحابة والقرون المفضلة، يرون أن جميع حركاتهم وسكناتهم عبادة لله عز وجل.

لقد «كان المفهوم الصحيح للعبادة في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما فهموا من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إن هذه الآية الكريمة كانت تمثل في حسهم معنى هائلاً جداً، وعميقاً

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد. وسنده صحيح كما قال الألباني في الصحيحة ١/١٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/١٣.

جداً ، وشاملاً لكل حياة الإنسان ، فالقرآن نازل بلغتهم وهم يفهمون إichاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغته ، فيدركون من معنى الآية أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة لا تتعدها إلى شيء غيرها على الإطلاق ، فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي ، ومعناهما النفي البات من جهة ، والحصر الكامل من الجهة الأخرى : نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله .

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها ، كما انحصر في حس الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام .

إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل العبادة المطلوبة من الإنسان فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله ، فأنى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟ كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟ وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان - من عند نفسه - أن يجعل لوجوده - أو لجزء من وجوده غاية لم يأذن بها الله ؟^(١) .

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح . ص ١٧٤ الشيخ محمد قطب - دار الشروق - القاهرة . الطبعة السابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

لقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم ، كما قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى يقولون بلسان حالهم ومقالهم : «إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته .

فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار . بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء
والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير
والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة
والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل
من الإقبال على تعليمهم العلم وإقراءهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور
جنازته وتشيعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيته .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر
مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم ؛ فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر
على أذاهم ، أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه . والأفضل خلطتهم في
الخير ؛ فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ؛ فهو أفضل من
خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل
من اعتزالهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت
والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه . وهؤلاء هم
أهل التعبد المطلق : والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد^(١) .

(١) هم ثلاثة أصناف ذكرهم رحمه الله قبل الصنف الرابع الذين هم أهل التعبد المطلق والثلاثة
هم : الصنف الأول : يرون أن أفضل العبادات وأنفعها أشقها على النفوس وأصعبها .
والصنف الثاني : يرون أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية
الإمكان ، وإطراح الاهتمام بها . والصنف الثالث : يرون أفضل العبادات ما كان فيه نفع
متعد ، كخدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم .

فمتى خرج أحدهم من النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضات الله تعالى أين كانت ، فمدار تعبده عليها ، فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيد القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيها لذاتها وراحتها من العبادات ، بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه ؛ فهذا هو المتحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقاً ، القائم بهما صدقاً ، ملبسه ما تهياً ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت وبوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً . لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع»^(١) .

«تلك هي العبادة التي كلف بها الإنسان ، تشمل الصلاة والنسك - أي الشعائر التعبدية - وتشمل معها كل الحياة ، وكذلك فهم الجيل الأول - رضوان الله عليهم معنى العبادة ، لم يحصروها قط في معنى الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية ، هي وحدها لحظات العبادة ، وتكون بقية حياتهم «خارج العبادة» ! .

(١) مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» ١/ ١٠٠-١٠٢ . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى - ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م .

إنما كان في حسمهم أن حياتهم كلها عبادة ، وأن الشعائر إنما هي لحظات مركزة ، يتزود الإنسان فيها بالطاقة الروحية التي تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه ، ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالاً خاصاً ، كما يحتفل المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق ، وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد . كانوا كما وصفهم ربهم : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١] . أي في جميع أحوالهم^(١) .

ولكن هذا المفهوم الشامل للعبادة أخذ يضيق تدريجياً مع توالي القرون حتى انحصرت العبادة في مفهومها الضيق في الشعائر التعبدية التي فقدت روحها وصارت تؤدي بصورة تقليدية عند غالب المسلمين الذين اهتموا «بمظاهر العبادات ، ظناً منهم أنها هي التي تنجيهم عند الله ، وأنها تكفر عنهم وتغفر لهم ظلمهم للناس ، فتجد الرجل يصلي ويصوم ويحج ، وربما زاد على الفرائض . . . وهو في الوقت نفسه لا يهتم بدين يماطل في أدائه ، وإجحاف بحق عمال يشتغلون عنده ، واحتكار لأقوات العباد»^(٢) .

وأصبحت العبادة في القرون الأخيرة لا سيما القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين منحصرة في صورة الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدي كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها ، اللهم إلا ما تستغرقه من زمن لأدائها .

وتم «عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً ، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية . ومع أن

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح . ص ١٧٩ .

(٢) المجتمع الإسلامي المعاصر . ص ٦٥ الشيخ محمد المبارك . دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب ، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى ، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها . ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات ، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة ، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط ^(١) . فضول يشغل عن الله وعبادته . . . وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة ، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان ، كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات ^(٢) .

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي والاجتماعي والأخلاقي ^(٣) .

وقد ساعد على هذا الانحصر والضيق في مفهوم العبادة ما عرف من تقسيم للنشاط الإنساني عند الفقهاء إلى عبادات ومعاملات .

«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه» . ومع أنه كان المقصود به - في أول الأمر - مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي . إلا أنه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور ، تبعته بعد فترة - آثار سيئة في الحياة

(١) وقد تولت الصوفية كبر هذا الجرم كما سنرى ذلك عند الحديث عنها .

(٢) ثم تمادى الانحراف فأصبحت مقاييس الصلاح والتقوى بفضل الصوفية بمقدار ما يزعم الرجل من خوارق وكرامات كما سيجيء الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى .

(٣) المصدر السابق . ص ٦٦ ، ٦٧ .

الإسلامية كلها ؛ إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط ، الذي يتناوله «فقه المعاملات» وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه ، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي . ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة ، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً .

. . . إن ذلك التقسيم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» - وفق أحكام الإسلام - بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر . لا يتلقونه من الله . ولكن من إله آخر ! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ، ما لم يأذن به الله !

وهذا وهم كبير ، فالإسلام وحدة لا تنقسم ، وكل من يفصمه إلى شطرين - على هذا النحو - فإنما يخرج من هذه الوحدة ، أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين»^(١) .

وقد تسبب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في السلبات التالية :
أولاً : صارت الشعائر التعبدية تؤدي بصورة تقليدية ، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام .

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٠٩ . الأستاذ سيد قطب . دار الشروق - القاهرة . الطبعة العاشرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى ، فالصلاة التي يخبر الله عز وجل عنها بقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب .

ثانياً : تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى .

إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء . حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد ، ثم يخرج ويحلف على عتبة المسجد كاذباً ، ويغش في بيعه وشرائه ، ويحتال في معاملاته ، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة ، ويقع في أعراض الناس ، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير ، هادئ الخاطر ، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات .
ثالثاً : العناية بالجانب الفردي الشخصي ، وإهمال الجوانب الاجتماعية .

ف نجد أن المسلمين قد «عنوا بالآداب الفردية المتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين ، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين ، ناسياً أن «إمطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان» كما ورد في الحديث^(١) ، وقد يكون المسلم مراعيّاً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه ، ولكنه لا يبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب

(١) رواه مسلم بلفظ «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان» كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان . ٦٣ / ١ .

الاجتماعية التي أمر الإسلام بها»^(١) .

وبديهي أن يقع مثل هذا الازدواج في حياة الأفراد حين ينحصر مفهوم العبادة عندهم في الشعائر وحدها وتخرج منه بقية الأعمال فيهتموا بشؤونهم الخاصة ويهملوا الشئون العامة، وتنمو الروح الفردية على حساب الروح الاجتماعية .

رابعاً : ابتداع عبادات جديدة .

وليتهم حين حصروا العبادة في الشعائر التعبدية اكتفوا بذلك . بل أضافوا إلى تلك الشعائر عبادات ابتدعوها من عند أنفسهم «حتى غدت العبادة في أصلها المشروع وزياداتها المبتدعة الشغل الشاغل الذي لا يبغي مكاناً لجهاد أو لعمل اجتماعي نافع أو للتفكير في قضايا عامة تهم المسلمين»^(٢) . وسوف يأتي مزيد من الكلام حول هذه القضية عند حديثنا عن البدع .

خامساً : إقامة العبادة مقام العمل ، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب .

«فقرأة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه ، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط ، والحكم بما أنزل الله واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة . . . وبينما كان الرسول ﷺ عليه يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويتהל إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء - المأثور منه والمبتدع المخترع - بديلاً

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٦ .

عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها ، بل بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها ، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وحجبا ، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها . «^(١) وسوف نرى أنه حين كانت تحل بالمسلمين نازلة كيف كان يهرع علماؤهم إلى تجزئة صحيح البخاري بينهم إلى أجزاء يتقاسمون قراءتها لكشف ما نزل بهم ، وإذا مرض لأحدهم مريض فسرعان ما ينطلق إلى بائعي التمام والرقى والدعوات - وما أكثرهم - ليستشفي لمريضه ، بدلاً من اتخاذ الأسباب المشروعة التي منها الدعاء .

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة ، فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم ، وتقديم النصيحة إليه ، والسهر على تطبيق الشريعة وإجراء العدل في حياة الناس .

ثم «لم يكن من المتوقع أن يقف الانحسار في مفهوم العقيدة ومفهوم العبادة عند هذا الحد ، إنما كان المتوقع أن يسرى الانحسار تدريجياً إلى بقية أنواع العمل ، فأخرجت تدريجياً من دائرة الإيمان ودائرة العبادة ، لا بمعنى أن الناس لم يعودوا يعملون ، فالإنسان لا يمكن أن يكف عن العمل في الحياة الدنيا ، وقد خلقه الله للكدح الدائم فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] ، إنما بمعنى أن العمل في الحياة الدنيا انفصل في حس الناس عن دائرة الإيمان حين انحصرت هذه في التصديق والإقرار ، وعن دائرة العبادة حين انحصرت هذه في الشعائر . . فصار للعمل ركيزة أخرى غير العبادة ، لتكن هي الكسب ، أو هي الاقتناء والملك ، أو هي

(١) المصدر السابق ص ٦٩ .

الغلبة والسيطرة ، أو هي المتاع الحسي أو المتاع المعنوي . . أو أي دافع من الدوافع الذاتية التي تدفع الإنسان للإنتاج والعمل غير مرتبطة بالإيمان بالله أو التعبد إليه . . وصار في حس الإنسان أنه حين يعبد ينقطع عن العمل ، وحين يعمل ينقطع عن العبادة ، وصارت له ساعتان منفصلتان تماماً لا يربط بينهما رابط : ساعة العمل وساعة العبادة ، فضلاً عن ساعة ثالثة خارج العمل والعبادة جميعاً ، هي ساعة اللهو أو الترويح - بريئاً أو غير بريء! - فصارت كل واحدة من هذه الدوائر منفصلة عن الأخرى ، مقفلة على ما فيها ، ولم يعد الإنسان يصل إلى أي واحدة منها إلا بالخروج من الدائرتين الآخرين»^(١) .

«ولم يكن العمل وحده - بجميع مجالاته - هو الذي خرج من مفهوم العبادة حين انحصرت في الشعائر التعبدية . . إنما كانت الطامة في خروج الأخلاق من دائرة العبادة»^(٢) فندر تمسك الناس بالأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء ، وفشت الأخلاق السيئة كالكذب والخيانة وإخلاف الوعود ، وسرت في أوساط الناس ، والأدهى من ذلك أن أصبحت تلك الأخلاق السيئة هي التي تطبع جانب التعامل بينهم . فلا تكاد تجد بائعاً يصدق في بيعه أو لم يروج بالكذب بضاعته ، واختفى الصدق حتى غدا عزيز الوجود . وقلت الأمانة حتى صارت نادرة الوقوع .

«وليس الغريب أن يتفلت الناس من قيود الأخلاق . فهي قيود ثقيلة إلا على الذين هدى الله ! ولكن الغريب أن هذا التفلت - بكل آثاره المدمرة في حياة الأمة - غير موصول في حس الناس بأمر العبادة ! فالعبادة هي الشعائر ومن أدى الشعائر فقد أدى العبادة المطلوبة . وأما هذه السقطات الأخلاقية

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤ .

فهي معيبة ، نعم ، والوعاظ يتكلمون عنها في كل خطبة ، نعم ، ولكنها في دائرة أخرى غير دائرة العبادة . فهذه مقفلة على الشعائر فحسب! ^(١) .

إن الواقع الأخلاقي السيئ للمسلمين ليصد الناس عن الدخول في الإسلام ، وتقف الأخلاق السيئة التي تسود الكثير من المسلمين عقبة في طريق هداية الناس الحيارى في الغرب .

«إن كثيراً من الناس في الغرب يستمعون إلى الدعاة المسلمين يحدثونهم عن الإسلام ، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو بلسان المقال : إذا كان الإسلام بهذه الصورة الجميلة التي تعرضونها ، فلماذا أنتم هكذا؟! لماذا أنتم كذابون غشاشون مخادعون مخلفون للوعد غير مستقيمين في تعاملكم . . فضلاً عن كونكم - فيما بينكم وبين أنفسكم - متعادين متباغضين لا تجتمعون على شيء» ؟ ^(٢) .

إن الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وغيرها أصبحت في نظر الناس أموراً لا علاقة لها بالعبادة ، ولم تعد لازمة عندهم . نعم ، لا زال الناس يمتدحون هذه الأخلاق ويؤمنون بفضلها ولكن واقعهم يفتقر إليها تماماً بعد أن خرجت من دائرة العبادة .

كما خرج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العبادة مع أنه من أعظم العبادات على الإطلاق . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن عبادته وطاعة أمره - أي الله عز وجل - الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بحسب الإمكان ، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون في إقامة

(١) المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

دينه، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات»^(١) .

ولقد كان لخروج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دائرة العبادة آثار سيئة للغاية في فشو المنكرات والتعالن بها . فلم يعد كثير من الناس يكثرث بأمر هذه المنكرات التي يشاهدونها ماداموا يرون أنهم قد حافظوا على الشعائر التعبدية .

وصلاح المجتمع أو فساده أمر يخرج في نظرهم عن العبادة الضيقة التي حصروا أنفسهم فيها . وتلك لعمر الله بلية ابتلي بها المسلمون في العصور المتأخرة حين عزل كثير من الناس أنفسهم داخل الدائرة الضيقة للعبادة ، ولم يعودوا يبالون بظهور المنكرات من حولهم ، وكأن الأمر لا يعينهم ، بل وصل الأمر بهم إلى اتهام من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالتطفل وإقحام النفس في شئون الآخرين ويستدلون بالحديث النبوي في غير موضعه «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٢) .

ومع خروج الأخلاق من دائرة العبادة ، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخروجه من دائرة العبادة ايضاً تفككت عرى الأخلاق ، وضعفت الروابط الاجتماعية كالتعاون على البر والتقوى والتكافل الاجتماعي وصلة الرحم ، وتخلخلت الأسرة واهتزت القيم التي تقوم عليها ، فلم يعد الشعور بالمسؤولية عند رب الأسرة وربتها نابعا من دائرة العبادة كما هو المفترض ، بل إن تدبيرهما لأمر الأسرة ورعايتهما لها لا يمكن أن يخطر لواحد منهما أنه من العبادة لله عز وجل .

(١) العبودية ص ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي برقم : ٢٣١٧ كتاب الزهد . ، وابن ماجه برقم : ٣٩٧٦ وهو حديث صحيح . انظر : صحيح سنن ابن ماجه رقم : ٣٢١١ . وانظر شرحه في جامع العلوم والحكم ص ١٠٥ للحافظ ابن رجب الحنبلي - دار المعرفة - بيروت .

وحين خرجت الأخلاق وخرج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دائرة العبادة كان ذلك سبباً جوهرياً في سقوط الأخلاق فيما بعد تحت هجمات الغزو الفكري ؛ فسقط الحجاب وفشا الاختلاط وظهر الفساد العريض في البر والبحر كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى عند حديثنا عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي .

وبعد أن كان المسلمون في العصور الأولى يبادرون إلى الأخذ بالأسباب تقرباً إلى الله عز وجل إذ هو سبحانه وتعالى مسبب الأسباب وخالقها ويرون أن ذلك من صميم عبادة الله ، صاروا في القرون الأخيرة يتهاونون في الأخذ بها ، بل ويدعون إلى تركها وإهمالها ، وربما دعا بعضهم إلى تحريمها .

وحين خرج الأخذ بالأسباب من دائرة العبادة ، وظن التاركون لها أن تركهم إياها عبادة وأن ذلك من تمام التوكل على الله وحدث ذلك كله مع انتشار الفكر الإرجائي والتصوف ترك المسلمون علوم الدنيا وأهملوا عمارة الأرض وتقاعسوا عن طلب الرزق ونكلوا عن الجهاد وأعرضوا عن التداوي والاستشفاء .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «ومن عبادته وطاعة أمره : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحسب الإمكان ، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون في إقامة دينه ، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات ، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك ، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل ، ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك إذا أزال البرد ودفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا

للنبي ﷺ : «أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال : هي من قدر الله»^(١) وفي الحديث : «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض»^(٢) .

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله ، وكل ذلك من العبادة»^(٣) .

ويقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى : «وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي ، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافية دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإن تركها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه

(١) رواه الترمذي برقم : ٢٠٦٥ كتاب الطب باب ما جاء في الرقى والأدوية . ورواه ابن ماجه برقم : ٣٤٣٧ وهو ضعيف كما ذكر ذلك الشيخ الألباني في كتابه : ضعيف سنن ابن ماجه برقم : ٧٤٩ . ولكن صح الأمر بالتداوي في غير ما حديث وأن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء . انظر بعض الأحاديث الواردة في ذلك في زاد المعاد في هدي خير العباد : ١٣/٤ للحافظ ابن القيم .

(٢) عزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط والبخاري ثم قال : وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح المصري وضعفه الجمهور وبقيّة رجاله ثقات . كما قال محقق كتاب العبودية . انظر هامش ص ٣٢ رقم (٣) .

(٣) العبودية ص ٣٢ .

توكلاً ، ولا توكله عجزاً»^(١) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «فالعبد لا بد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً فقيراً له ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً له ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل ، وإنما أبيحت للضرورة»^(٢) .

وقد نتج عن تعطيل الأخذ بالأسباب وخروجه من دائرة العبادة آثار وخيمة كانتشار الجهل والفقر والمرض والضعف بعد أن عطلت أسباب دفعها وإزالتها^(٣) .

إن حصر مفهوم العبادة في الشعائر التعبدية انحراف خطير وقع في حياة الأمة ، ودفعت الأمة ثمنه غالياً جداً .

فقد تسبب هذا الانحصر الخطير في مفهوم العبادة في إضعاف الوعي لشمول الإسلام وأضعف تمييز المسلمين بين درجات الانحراف ومعرفة أشدها خطورة ، فحين يترك حاكم الجهاد في سبيل الله أو يخضع لبعض أعداء الكفار فيواليهم ، ويسير في ركابهم ، فإن هذا الأمر عند من فهموا العبادة بمفهومها الضيق يعد أمراً صغيراً ، أما أن يتجرأ هذا الحاكم أو غيره على ترك بعض السنن والآداب أو ما اخترع من بدع فإن ذلك عندهم كبيرة لا تغتفر . «وتلك مصيبة كبرى أصابت المسلمين في تفكيرهم وفي فهمهم ولا سيما حين يقع فيها العلماء والدعاة إلى الإسلام»^(٤) .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٥/٤ .

(٢) العبودية ص ٥٢ .

(٣) هذا كله مع انتشار الفكر الإرجائي والتصوف كما قلنا قبل ذلك .

(٤) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٧٣ .

هذه بعض الانحرافات التي وقعت في مفهوم العبادة حين حصر في الشعائر التعبدية ، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله مبيناً لحقيقة العبادة ومستنكراً لمن يحصرها في الشعائر التعبدية : «إن الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء»^(١) .

وهذا هو معنى العبادة الشامل الذي وعاه سلف هذه الأمة ، وطبقوه في حياتهم ، وعملوا به في واقع الأرض ، فدانت لهم الممالك ، وخضعت أمامهم الطواغيت ، ومكن الله لهم في الأرض ، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة ويوم تغير ذلك المفهوم وانحصر في دائرة ضيقة ، فقد فترت الهمم وخارت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف والهبوط .

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول : «إذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، أو أن الخروج عنها أكمل ، فهو من أجهل الخلق وأضلهم»^(٢) .

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٨ .

(٢) العبودية ص ٤٦ .

فكذلك الأمة لا تكمل قوتها ويستقيم أمرها إلا إذا رسخ مفهوم العبادة الشامل في تفكيرها ، أما إذا حصرت العبادة في مجال معين وجانب ضيق فإن ذلك يضعفها عن القيام بما أوجبه الله عليها .

« إن ما حل بالمسلمين من تأخر حضاري وعلمي وعسكري وسياسي ومادي واقتصادي واجتماعي وفكري وروحي . . . إلخ لم يكن سببه أنهم مسلمون! ^(١) ولم يكن سببه حتميات تاريخية ولا أطواراً اقتصادية! ^(٢) إنما سببه الأصيل هو فساد سلوك المسلمين أولاً ، ثم فساد تصورهم ثانياً ، وإفراغ الإسلام أخيراً من محتواه .

فيوم كانت : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين واستلاب خيراتهم!

ويوم كان «طلب العلم فريضة» لم يكن هناك تخلف علمي ، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم ، التي تعلمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها!
ويوم كانت ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» عبادة ، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته ، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية ، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله !

(١) تلك قولة الغرب التي استخدمها في الغزو الفكري لسلخ المسلمين مما بقي لهم من إسلام .

(٢) تلك قولة الشيوعيين التي يستخدمونها في الغزو الفكري لإقناع الناس أنه لا حل لهم إلا الشيوعية .

ويوم كانت ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ عبادة ، لم تكن للمرأة المسلمة قضية ؛ لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدي إليها طاعة الله ، وعبادة الله!

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»^(١) .

لقد كان هذا الانحراف بالإضافة إلى الفكر الإرجائي والصوفية سبباً في إفساح المجال في الفترة الأخيرة لشيوع المذهب العلماني ، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقطار الإسلامية وذلك من أخطر الآفات التي أصابت العالم الإسلامي في عهده الأخير .



(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٢٤٩ .

الفصل الثاني

الفكر الإرجائي

يعتبر الفكر الإرجائي من أشد الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية ، ونتج عن ذلك الفكر الخطير آثار مدمرة في حياة الأمة لا تزال إلى يومنا هذا . وما من شك أن الفكر الإرجائي كان من أشد الانحرافات التي أفرزتها الفرق التي حادت عن طريق أهل السنة والجماعة .

ولسنا هنا بصدد البحث عن نشأة هذا الفكر ولا عن الأطوار التي مر بها ولا عن الفرق التي ساهمت في نشأته ، أو تبنته بعد ذلك^(١) ، وإنما الذي يعنينا في هذا الموضوع المهم انتشار ذلك الفكر المدمر في أوساط الأمة الإسلامية ، ومدى ما تسبب فيه من تدهور لأحوال المسلمين ، وما خلفه من آثار سيئة في حياتهم ، ومع ما مر به هذا الفكر من مراحل وتباين في معناه من طائفة لأخرى ، ومن بدء ظهوره إلى زمن استقراره النهائي فإنه لا يهمنا من ذلك كله إلا خطان اثنان سار خلالهما ، وإن كان أولهما أهون من الثاني على حد قول الشاعر : (حنانيك بعض الشر أهون من بعض) .

فالخط الأول ما سمي بإرجاء الفقهاء ، وهو التصديق بالقلب والإقرار

(١) لمزيد الاطلاع والدراسة عن الفكر الإرجائي والرد عليه . راجع : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بجامعة أم القرى . من إعداد د . سفر بن عبد الرحمن الحوالي فهي خير ما كتب في ذلك الموضوع الخطير وجديرة بالاطلاع والدراسة .

باللسان أو «المعرفة بالله والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير»^(١) .

وقد نقل هذا المذهب عن حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ وتلميذه الإمام أبي حنيفة (المتوفى سنة ١٥٠هـ) وقد قيل إن أبا حنيفة رجع عن مذهبه إلى مذهب السلف^(٢) .

ويلاحظ على مذهب هؤلاء المرجئة الفقهاء أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان عندهم ، وقد لاقى هذا المذهب الفاسد مقاومة شديدة من قبل علماء السلف الذين لم يألوا جهداً في دحر هذه البدعة الناشئة التي يوشك أن يستعر شررها ويستفحل خطرها .

فهذا الأوزاعي رحمه الله يقول «كان يحيى بن أبي كثير وقتادة يقولان : ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء»^(٣) .

وقال إبراهيم أيضاً : « لفتنتهم - يعني المرجئة - أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة » .

وقال الزهري : « ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء » .

وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال : « هم أخبث قوم ،

(١) مقالات الإسلاميين ١/ ٢٢١ لأبي الحسن الأشعري . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . الطبعة الثانية ١٩٦٩م . مكتبة النهضة المصرية .

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٩٠ . ويرجع الدكتور سفر الحوالي ذلك القول . وهذا هو الظن بأبي حنيفة رحمه الله .

(٣) مجموع الفتاوى ٧/ ٣٩٥ .

حسبك بالرافضة خبثاً ، ولكن المرجئة يكذبون على الله»^(١) .

هذا هو الخط الأول الذي سار عليه الإرجاء وهو ما سمي بإرجاء الفقهاء وهو الاكتفاء بالقول دون العمل في مسمى الإيمان ، وهذا هو الإرجاء الذي ذمه علماء السلف وبالغوا في التحذير منه . يقول الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي عن هذا النوع من الإرجاء «والقضية التي لا ينبغي أن تفوتنا هي أن كلمة المرجئة في اصطلاح هؤلاء العلماء (يعني علماء السلف الذين ذموا الإرجاء) إنما تعنى هذا الإرجاء أي إرجاء الفقهاء ، وظل هذا قائماً حتى بعد ظهور الجهمية كما سنرى .

فكل ذم أو عيب قيل في المرجئة فهو منصرف لهم وحدهم حتى منتصف القرن الثاني تقريباً ، بل هو الأغلب إلى القرن الثالث»^(٢) .

ورحم الله السلف الصالح الذين أدركوا خطورة هذه البدعة وما قد ينشأ عنها من آثار سيئة فقاوموها مقاومة شديدة ، وحذروا الأمة من مغبة الوقوع فيها .

وأما الخط الثاني الذي سار عليه الفكر الإرجائي فهو ما يسمى بإرجاء الجهمية^(٣) وهو القول بأن الإيمان هو المعرفة فقط^(٤) .

« وقد انقرض القائلون بأن الإيمان هو مجرد المعرفة القلبية ، ولكن العجيب هو قيام أعظم مذهبين في الإرجاء وهما الأشعرية والماتريدية اللذان

(١) كتاب الإيمان ص ٣٣٩ . شيخ الإسلام ابن تيمية . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٦٤ .

(٣) نسبة إلى الجهم بن صفوان رأس الضلالات . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٦/٦ .

(٤) مقالات الإسلاميين ١/ ٢١١ .

يشكلان جملة الظاهرة العامة على أصوله في أن الإيمان هو ما في القلب فقط . حتى إن الماتريدي (وكلهم أحناف) أولت ما هو مشهور عن أبي حنيفة من أن الإقرار باللسان ركن آخر للإيمان وجعلوه علامة فقط^(١) .

وهكذا استطاع هذا الخط الجهمي أن يحتوي الخط الأول وغيره من الخطوط ، ويصبح هو المهيمن على فكر أكثر الفرق الإسلامية انتشاراً . وإن زعم الأشاعرة والماتريدي أن التصديق القلبي الذي جعلوه حقيقة الإيمان عندهم غير المعرفة القلبية التي قال بها جهم .

«وعلى أية حال فإن الفرق بين التصديق المجرد من أعمال القلب وبين المعرفة مما يتعذر على العقول إدراكه كما نص شيخ الإسلام»^(٢) ، بل إن مذهب المرجئة الفقهاء قد مهد لرأي جهم ثم جاء المرجئة المتكلمون كالأشعري والماتريدي ، فجعلوه عقيدة أكثر الأمة^(٣) .

«والخلاصة أن الظاهرة العامة للإرجاء في طورها النهائي أصبحت مكونة من مذهبي الأشعرية والماتريدي الذين شمل انتشارهما معظم الأقطار الإسلامية وتبنتها أكثر المعاهد الإسلامية شرقاً وغرباً ، وهذا من أعظم السمات الفكرية لعصور الانحراف في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية العامة»^(٤) .

المهم من كل ما سبق أن العمل أخرج من مسمى الإيمان ، وأصبح الإنسان مؤمناً كاملاً بالإيمان ، ولو لم يركع لله ركعة ، ولو لم يعمل في الإسلام خيراً .

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٨٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

وحتى تتضح الصورة ننقل بعض عبارات المرجئين من الفرقتين المذكورتين لنرى خطورة ذلك الفكر المنحرف ومدى ما سببه من آثار وخيمة .

فكثير من الأشعرية والماتريدية صرحوا بنفي أن يكون النطق بشهادة أن لا إله إلا الله داخلاً في الإيمان . يقول أبو منصور البغدادى أحد أئمة الأشعرية : «وأما الإقرار - وهو قول كلمة الشهادة - والعمل - الذي هو فعل المأمورات وترك المنهيات - فليسا من الإيمان ولا يكون تاركهما كافراً ، فإن كان تاركاً للإقرار كان مؤمناً عند الله فحسب ، وإن كان تاركاً للعمل كان مؤمناً عند الله وفي أحكام الدنيا أيضاً» (١) .

وهذا سعد الدين التفتازاني يقول ضمن كلام معقد طويل عن مسألة النطق بالشهادتين وحكمه : «أن هاهنا مطلبين :

الأول : أن الإقرار ليس جزءاً من الإيمان .

والثاني : أنه (أي الإيمان) التصديق لا غير» (٢) .

ثم أخذ يطنب في الكلام ويحشد في الأدلة على هذين المطلبين الفاسدين على غير طائل .

ويقول الدسوقي شارحاً لكلام السنوسي أحد أئمة الأشاعرة المتأخرين بعد ذكر حكم التلفظ بالشهادة ، وهل هي داخلة في الإيمان ، والأقوال في ذلك ، حيث رجح أن النطق بالشهادتين ليس شرطاً في صحة الإيمان ولا

(١) المصدر السابق ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٣ .

جزءاً من مفهومه ، وإنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية وهو المعتمد في المذهب الأشعري كما يقول .

وعليه فمن صدق بقلبه ولم ينطق بالشهادتين ، سواء كان قادراً على النطق أو عاجزاً عنه ، فهو مؤمن عند الله يدخل الجنة ، وإن كانت لا تجري عليه الأحكام الدنيوية من غسل وصلاة عليه ودفن في مقابر المسلمين ولا ترثه ورثته المسلمون .

فقول الشارح (يعني السنوسي) : هذا هو المشهور (أي وجوب النطق وأنه شرط) غير مسلم ، بل هذا ضعيف . وقوله : (وقيل لا يصح الإيمان بدونها مطلقاً) أي سواء كان قادراً على النطق أو كان عاجزاً ، وهذا القول منكر!!^(١) .

ويقول الكمال في حاشية جمع الجوامع حول هذه المسألة : وإيضاح ذلك أن يقال في التلفظ : هل هو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من التوارث والمناكحة وغيرها فيكون غير داخل في مسمى الإيمان ، أو هو شرط منه أي جزء من مسماه؟ قال : والذي عليه جمهور المحققين الأول ؛ وعليه فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار كان مؤمناً عند الله تعالى^(٢) .

ويقول صاحب الجوهرة :

وفسر الإيمان بالتصديق والنطق فيه الخلف بالتحقيق
فقل شرط كالعمل وقيل بل شطر والإسلام اشرحن بالعمل

(١) المصدر السابق ص ٣٥٥ . نعوذ بالله من العمى والضلال بل قوله هذا هو المنكر .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

مثال هذا الحج والصلاة كذا الصيام فادر والزكاة

يقول الباجوري - أحد شراح الجوهرة - شارحاً للبيت الثالث : « والمراد إذعان المذكورات وتسليمها وعدم مقابلتها بالرد والاستكبار »^(١) أي : إن الإيمان بها ليس بعملها وأدائها وإنما بالإذعان لها والإقرار بوجوبها .

وإذا كانت الشهادتان^(٢) ، وهما الركن الأول من أركان الإسلام قد أخرجهما هؤلاء المرجئة الضالون من حقيقة الإيمان وجعلوهما شرطاً لإجراء أحكام الدنيا على المكلف فحسب ، فما بال الأركان الأخرى والأعمال الفضلى التي أمر بها الإسلام .

وهكذا تغالى المرجئة إلى أن « جعلوا أعظم أركان الإسلام - التي هي الجزء الظاهر من الإيمان بالله - بمنزلة شهادة الشهود أو القرائن الظاهرة التي قد يكون الواقع مخالفاً لها حتى إنهم قالوا : إن من سب الله أو قتل الرسول يجوز أن يكون مؤمناً في الباطن ولا يكون كافراً قط إلا إذا انتفى العلم الباطني من قلبه ، فإذا قيل لهم قد جاء الكتاب والسنة بتكفير من كان لديه علم وتصديق باطن بدون انقياد بالقلب وإقرار باللسان ، قالوا من ورد فيه النص علمنا انتفاء الإيمان عنه بالنص لا بالنظر والفهم . وما سوى ذلك لا نجزم بكفره وإن أقمنا عليه أحكامه الظاهرة »^(٣) .

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها ، وذهب طائفة من المرجئة - وهم جهمية المرجئة وأتباعهما (وهو مذهب الأشاعرة والماتريدية كما وضحنا) إلى أنه إذا كان مصداقاً بقلبه كان كافراً في الظاهر دون الباطن . وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة . المصدر السابق ص ٣٨١ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٠٠ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان ، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله ، ويوالي أعداء الله ، ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الإهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه ، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن . قالوا : وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار ؛ لأن هذه الأقوال أماراة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود . . .

إلى أن قال : وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة ، وقد كفر السلف - كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم - من يقول بهذا القول»^(١) .

ويقول في موضع آخر : «والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر ولهذا صاروا يقدرّون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقيق الارتباط الذي بين البدن والقلب ، مثل أن يقولوا رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان ، ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ، يقولون هذا مؤمن تام الإيمان ، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار»^(٢) .

(١) كتاب الإيمان ص ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .

ونقل رحمه الله عن ابن أبي مليكة قوله : «لقد أتى علي برهة من الدهر ، وما أراني أدرك قوماً يقول أحدهم : إني مؤمن مستكمل الإيمان ، ثم ما رضي حتى قال إيماني على إيمان جبريل وميكائيل ، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم إني مؤمن وإن نكح أخته وأمه وبنته ، والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي ﷺ ما مات أحد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذا المعنى البخاري في صحيحه قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وما منهم أحد يقول إيمانه كإيمان جبريل»^(١) .

هذا هو الفكر الإرجائي الذي أفرزته هذه الفرق المنحرفة^(٢) .

وإن الإنسان ليكاد يصدم من أول وهلة حين يطالع ما كتبه المرجئة من المتكلمين حول حقيقة الإيمان «وما من شك أن هذا الفكر كان في مبدئه عدوى من الفلسفة والمنطق البعيدين عن روح هذا الدين . وأنه كان عند علماء المرجئة الأوائل مجرد «أفكار» تجريدية تدور في «الأبراج العاجية» ولا تتصل بالواقع ! . . . ولكن خطورة هذا الفكر تزايدت مع امتداد الزمن ، وبدء التفلت من التكاليف . . وعلى امتداد الزمن زادت المساحة التي

(١) المصدر السابق ص ١٨١ . وأثر ابن أبي مليكة رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (الفتح ١٠٩/١) .

(٢) يقول الدكتور سفر الحوالي : أنه خرج من دراسته المتخصصة في تلك القضية الخطيرة بنتيجة صدقها البحث التاريخي المستقصي وهي أن عقيدة المرجئة لم تكن على الإطلاق ثمرة نظر في النصوص الشرعية ولا وليدة اجتهاد عقلي سوي وإنما وليدة مواقف انفعالية جدلية أفرزتها المعارك الكلامية الطاحنة بين الفرق البدعية ، تلك الفرق التي كان جهلها بالشرع وإعراضها عنه سبباً في تعلقها لدفع خصومها بأوهام ذاتية أو تصورات غريبة منقولة عن مصادر وثنية . ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ١٢٦ .

يغطيها الفكر الإرجائي! فحين كان العمل - مثلاً - يغطي تسعين في المائة من المساحة ، كان الفكر الإرجائي يغطي العشرة في المائة التي انحسر عنها العمل! فلما انحسر العمل خمسين في المائة غطى الفكر الإرجائي الخمسين! فلما انحسر العمل كلية غطى الفكر الإرجائي الساحة كلها ، وجاء في العصر الأخير من يقول «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام»^(١) .

«إن الإرجاء لم يكن في الأصل دعوة واعية مقصودة لترك العمل والتفلسف من الطاعات، وإنما كان تفسيراً ضالاً لحقيقة الإيمان أنتجت أسباب تاريخية . . . ولكن الأمة وهي تتراخى عن العمل بالتدريج وتنفلت من الواجبات وتنحدر عن قمة الامتثال رويداً رويداً كانت تجد في الإرجاء تفسيراً مريحاً ، يبرر لها تراخيها وتفريطها - وهذه حقيقة نفسية معروفة - فكل ما انحسر عنه العمل واقعياً ستره ثوب الإرجاء الواسع نظرياً ؛ ولهذا لم يكن المرجئة القدماء بحاجة إلى أكثر من كشف شبهاتهم النظرية وردهم بالدليل العلمي الصريح .

ولكن الحال تغير بعد انتشار الظاهرة وسيطرتها؛ إذ أصبحت الأمة في القرون الأخيرة تتبنى الإرجاء عقيدة ومنهجاً ، وتعد مخالفه خارجاً مارقاً وتضبط دينها وأحكام إيمانها بأصوله وقواعده .

فصارت تعتقد أن التصديق القلبي المجرد من قول اللسان وعمل الأركان هو حقيقة الإيمان الذي أنزل الله به الكتب وبعث به الرسل وجعله مناط النجاة من عذابه في الآخرة وتبني على ذلك لوازم وأحكاماً أهونها تخطئة السلف

(١) واقعنا المعاصر ص ١٣١ .

في إجماعهم على أنه قول وعمل وعدم تكفير طوائف من المرتدين .
وأصبح معنى كون الصلاة والزكاة والحج أركاناً للإسلام هو اعتقاد وجوبها والإقرار به وإن لم يعمل من ذلك شيئاً^(١) .

«إن إخراج العمل من مسمى الإيمان في هذا الدين الذي نزل لينشئ واقعاً» معيناً تحكمه شريعة الله ومنهجه للحياة ، أمر مذهل في مجرد تصويره فضلاً عن أن يصدر عن «علماء» معتبرين في تاريخ هذه الأمة .

كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان^(٢) ، دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة؟!

ألهذا أنزل الله دينه وأرسل رسوله ﷺ ؟ لمجرد أن يصدق الناس بقلوبهم ويقولوا بالاستتهم ، ثم يتركوا واقع الحياة تحكمه الجاهلية التي لا تصدق بقلوبها ولا تقر بلسانها؟ وكيف يغيرون ذلك الواقع الجاهلي بغير «عمل» واقعي إيجابي ملموس مشهود ، تكون نتيجته إزالة الباطل بعقائده الفاسدة ، ونظمه الهابطة التي تعبد الناس لغير الله ، وأنماط سلوكه المختلفة التي تبتدعها شياطين الإنس والجن في كل جاهلية ، وإنشاء النظام الرباني بدلاً منه ، بعقائده الصحيحة ، ونظامه القويم المؤسس على شريعة الله ، وأنماط سلوكه المستمدة من أخلاقيات لا إله الا الله ، المحكومة بميزان الله ؟

ثم كيف يحافظون على النظام الرباني - بعد إنشائه - من عدوان الجاهلية الدائم ، ومحاولتها الدائبة لنقض النظام الرباني ، وإقامة حكم الطواغيت بدلاً منه ، بوسائلها الدائمة التي تستخدمها ، من عدوان بالجيش ،

(١) من مقدمة «ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي» .

(٢) هذا مع المرجئة الفقهاء ، فكيف بإرجاء الجهمية ؟ .

وعدوان بالأفكار الباطلة والمعتقدات ، وعدوان بالأنظمة التي لا تحكم بما أنزل الله ، وعدوان بالأنماط المبتدعة من السلوك كل ذلك يتم بمجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان ؟

يالها من مهزلة مذهلة حين تلصق بالإسلام ؟ وكيف يستقيم هذا مع قوله تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣ ، ١٢٤] .

بل كيف يستقيم مع تعاليم القرآن كلها من مبدئها إلى منتهاها ، التي توجه الناس للاعتقاد الصحيح ، والعمل بمقتضى ذلك الاعتقاد الصحيح»^(١) .

ومع أن ذلك الفكر مهزلة مذهلة إلا أنه حظي بتأييد المثات من العلماء الذين تلقفوه كحقيقة لا يجوز الجدل فيها ، وأخذوا ينتصرون له في مؤلفاتهم ومناظراتهم حتى غدا هو العقيدة السائدة عند المسلمين ، ومن خالفها رموه بالضلال ولم يميزوا بين مذهب السلف الذين يدخلون الأعمال في مسمى الإيمان ، وبين مذهب الخوارج وخلطوا بينهما فلم يكادوا يفرقون بينهما^(٢) .

(١) واقعنا المعاصر ص ١٢٩ .

(٢) مذهب الخوارج والمعتزلة كمذهب أهل السنة في الأركان من قول وعمل ، ولكن الفارق أن الخوارج والمعتزلة يقولون إن الإيمان حقيقة واحدة لا يتبعض فإذا زال منه ركن زال بالكلية ولذا كفر الخوارج مرتكب الكبيرة . أما السلف فيقولون إن الإيمان منه ما يزول معه بالكلية ومنه ما يبقى معه شيء منه فالإيمان عندهم يتبعض أي بمعنى أنه قد يوجد بعضه ويذهب بعضه ، أما الآخرون فقالوا إذا زال جزء من الإيمان فإنه يزول بالكلية لأن الإيمان لا يتبعض . ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ٥٠٢ - ٥٠٣ .

والسؤال بعد كل هذا : كيف كان حال الفكر الإرجائي في الفترة التي ندرسها؟ وما مدى آثاره التي تسبب فيها؟

في الحقيقة أن الفكر الإرجائي كان كغيره من الانحرافات العقدية الأخرى التي حدثت مبكراً واتسعت مع مرور الزمن واشتدت حدتها في القرنين الماضيين بشكل كبير .

وإن المقاومة العنيفة التي لاقتها دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ، والحرب التي أوقدت نارها عليها لهي مقاومة من قبل المرجئة ، وحرب بين العقيدة الصحيحة من جانب والإرجاء من جانب آخر .

فإن الشيخ - رحمه الله - لما قام إلى الله داعياً محتسباً نافضاً عن عمود الدين ما علق به من شرك وبدع وخرافات ، محيياً لمذهب السلف الذي كاد أن يندرس ، كبر على أهل الابتداع في زمانه ما يدعوهم إليه من هدم لعقائد باطلة اعتقدوها ولمحدثات بالية ألفوها ، ولخرافات وأساطير صدقوها ، ظانين أن ذلك كله من شعائر الدين وأوامر الإسلام التي يرون وجوب المحافظة عليها ، وعدم التهاون فيها ، ويتقصون من لا يؤمن بها ويقوم بها ، فكيف بمن يحاول النيل منها فلما ضاقت عليهم السبل في مدافعة دعوة الشيخ لم يكن عندهم وفي اعتقادهم أمضى من سيف الإرجاء المصلت الذي بادروا بإشهاره في وجه هذه الدعوة ، فأخذوا يقارعون به رجالها المخلصين ، واتهموهم بتكفير المسلمين ، وتفريق جماعتهم ، وشق كلمتهم ، كشأن أهل البدع في غالب الأمكنة والأزمنة .

وكان هذا الموقف العنيف منسجماً مع عقيدة الإرجاء التي تفتشت في

أوساط المسلمين وزادها رسوخاً علماء الكلام المرجئون الذين عكفوا عليها
تدريساً وتأليفاً.

فيوم أن صدع الشيخ بالحق، وأنكر ما وقع في الأمة من شرك أكبر
وأصغر؛ من استغاثة بالمخلوقين من دون الله عز وجل، وتوسل بهم وتقرب
إليهم، ومن بناء للقباب والأضرحة التي يطاف بها ويتعلق بها من دون الله
عز وجل، تعالت صيحات المستنكرين من كل فج، وتفجرت ثورات
المرجئيين في كل مكان قائلين: كيف تكفرون المسلمين وتحكمون بشركهم
لأنهم طافوا بالقبور، وقدموا للأولياء القرايين والنذور، وتوسلوا بالأولياء
والصالحين، أليسوا هم بمسلمين؟ أليسوا يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله، ويصلون ويصومون؟

ولبس عليهم الإرجاء وجه الحقيقة، وأخذوا يجادلون به ليدحضوا به
الحق المبين، ويشيعون في الناس أن هؤلاء يكفرون المسلمين ويرونهم من
المشركين ظانين أنهم بفعلهم هذا يستطيعون إطفاء نور هذه الدعوة في مهدها،
ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي دينه.

ولقد كان الإرجاء عقبة كأداء نصبها المبتدعة في طريق الدعوة السلفية،
ومن أشد المصاعب التي واجهت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه
رحمهم الله تعالى.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - بعد أن ذكر حال
المشركين المقرين بتوحيد الربوبية: «فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة
التوحيد وهي (لا إله إلا الله) والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها،
والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى

بالتعلق به ، والكفر بما يعبد من دون الله ، والبراءة منه فإنه لما قال لهم قولوا: لا إله إلا الله ، قالوا : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

[ص: ٥]

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني . والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله ، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله^(١) .

ويقول - رحمه الله - في موضع آخر : « فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم فاصنع سمعك لجوابها وهي أنهم يقولون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويكذبون الرسول ، وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحراً ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم فكيف يجعلوننا مثل أولئك ؟ »^(٢) ثم أخذ - رحمه الله - يجيب عن شبهتهم ويرد عليها ، إلى أن قال : « فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ، ثم تأمل جوابها فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق »^(٣) .

(١) كشف الشبهات ص ٨ تعليق الشيخ محمد حامد الفقي . دار الثقافة للطباعة . مكة المكرمة .

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤ . وملخص جوابه رحمه الله : أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام ، =

ويقول في موضع ثالث : «وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال : لا إله إلا الله ، وقال له : «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» (١) .

وكذلك قوله : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» (٢) .

= وكذلك إذا آمن ببعض القرآن ، وجحد ببعضه ، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر؟ ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟ وقد قاتل الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويؤذنون فإن قيل : إنهم يقولون : إن مسيلمة نبي . قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه ، ولم تنفعه الشهاداتتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع شمساً ويوسف (من المقبورين في نجد قديماً) صحابياً أو نبياً إلى مرتبة جبار السموات والأرض . وقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من غلا فيه مع أنهم يدعون الإسلام ، وهم من أصحابه ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم؟ أظن أحد أن الصحابة يكفرون المسلمين ، أم أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر ، وقد أجمع العلماء على كفر بني عبید القداح وقد كانوا يشهدون بألستهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة لما أظهروا مخالفة الشريعة؟ ثم ما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب «باب حكم المرتد» حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها يصبح بها مرتداً . انتهى .

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة ، برقم ٤٢٦٩ (الفتح ٥١٧/٧) ، ورواه مسلم برقم ٩٦ كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ٩٤/١ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ برقم ٧٢٨٤ (الفتح ٢٥٠/١٣) ، ورواه مسلم برقم ٢١ كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . ٥٢/١ .

وأحاديث أخرى في الكف عن قالها ، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل»^(١) .

ويقول - رحمه الله - في إحدى رسائله التي بين فيها أنواع التوحيد بعد أن ذكر ما أطبق عليه مرجئة زمانه من أن الذي يقول لا إله إلا الله لا يكفر بشيء : «وأعظم من ذلك وأكبر : تصريحهم بأن البوادي ليس معهم من الإسلام شعرة ، ولكن يقولون : لا إله إلا الله ، وهم بهذه اللفظة إسلام ، وحرّم الإسلام مالهم ودمهم مع إقرارهم أنهم تركوا الإسلام كله ، ومع علمهم بإنكارهم البعث ، واستهزائهم بمن أقرب به ، وتفضيلهم دين آبائهم مخالفاً لدين النبي ﷺ ومع هذا يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أن البدو أسلموا ، ولو جرى منهم ذلك كله ، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله»^(٢) .

ويقول حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله - بعد أن تحدث عن عظم شأن كلمة لا إله إلا الله : «فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان ، جعلوا المتلفظ بها عادة وهذياناً ، والقعقة بحروفها ، فهي عندهم الإسلام والإيمان ، مع ما هدموه من التوحيد الذي هو حق الله ، وأكبوا وأقبلوا على عبادة المشاهد والأوثان وضيقوا الفرائض وسائر الأركان ، وزين لهم ما

(١) المصدر السابق ص ٢٥ .

(٢) مجموعة التوحيد ص ٣٤ المكتبة السلفية . المدينة المنورة . وذكر الدكتور صالح العبود أن هناك خلافاً في نسبة تلك الرسالة إلى الشيخ محمد ، ومن المحتمل أن تكون من رسائل حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن . عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي . ص ١٤٥ . وإن كان الكثيرون على أنها من رسائل الشيخ رحمه الله ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم في الدرر السنية ٢/ ٣٤-٣٧ وعبد الله بن سعد الرويشد في كتابه عن تاريخ الشيخ ، والدكتور أحمد الضبيب في سجله البليجرافي الذي أعده لمؤلفات الشيخ .

ارتكبه من التبذع والتنطع والعصيان إلا أنهم يقولون : لا إله إلا الله ، فما أحسن ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : لا إله إلا الله سماها الله كلمة التقوى ، فجعلوها كلمة الفجور»^(١) .

ويقول العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين (المتوفى سنة ١٢٨٢هـ) في رسالته المسماة بـ «الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين» : «ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول : من قال لا إله إلا الله ما تقول فيه شيئاً وإن فعل ما فعل ، لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً . . . فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب قيل : هو يقول : لا إله إلا الله ، ولا يجوز تكفيره لأنه يتكلم بكلمة التوحيد»^(٢) .

ويقول الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (المتوفى سنة ١٣٢٩هـ) واصفاً بعض ما واجهته الدعوة فيقول : «وكثر الطعن في الدعوة الإسلامية والملة الحنفية المحمدية ، وفاه بين العوام أن من تكلم بالشهادتين فهو من أهل الإسلام ، وخفي عليهم ما وضعت له من إخلاص العبادة لله والكفر بما يعبد من دون الله ، ونودي بالمسالمة لمن لاذ بالأوهام ، وألحد في الدين ، وعادى المسلمين»^(٣) .

ويقول الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي : «وقد اصطدمت هذه

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(٢) عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين ص ١٣ . عشرون رسالة لجمع من أئمة الدعوة منها الرسالة المذكورة . جمع وترتيب : الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي . تقديم سماحة الشيخ : عبد العزيز بن باز .

(٣) عقيدة الموحدين ص ١٦٤ .

الفكرة (يعني الإرجاء) بالعقيدة السلفية بطبيعة الحال وجرى بين المنهجين جولات ومعارك ، أبرزها التي دارت أيام شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم الجولة التي دارت بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما تزال المعركة قائمة على أشدها ، وما يزال مذهب المرجئة هو الطاغى على أكثر بقاع العالم الإسلامي .

وهكذا ظلت هذه القضية هي جوهر كل الدعاوى التي أشهرها المؤلفون الإرجائيون على عقيدة أهل السنة والجماعة باسم الرد على ما أسموه «الوهابية»^(١) .

وفي ضوء الفكر الإرجائي نستطيع أن نفسر كثيراً من الانحرافات التي اشتدت وطأتها في هذين القرنين وعلى رأسها انتشار مظاهر الشرك الأكبر .

«فالقوم لما خفيت عليهم حقيقة الإيمان الجامعة وترابط أجزائه المحكم وقعوا في هذه الغلطة الكبرى (الإرجاء) التي كان لانتشارها من الآثار المدمرة في الأمة الإسلامية ما تنوء بشرحه المجلدات وحسبك ما وقعت فيه الأمة من شرك أكبر - قديماً وحديثاً - وهي تحسب أنها في ذروة الإيمان ؛ لأن القلب مصدق للرسول واللسان ناطق بأن لا إله إلا الله!!»^(٢) .

وسوف نرى في مبحث قادم - إن شاء الله تعالى - مظاهر الشرك الأكبر التي لم يكد يخلو بلد منها والتي سقط فيها الناس تحت غمرة الإرجاء .

وفي ضوء هذا الفكر يمكننا أن نفهم كثيراً من شطحات الصوفية وشذوذ الطريقة ، وسكوت الناس على هذا السقوط والإسفاف .

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي . ص ٤٠٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٨ .

وفي ضوئه أيضاً لا نتعجب من عدم الإنكار لتصرفات بعض الحاكمين الهوجاء وصمت الناس حيال ما يصدر من حكامهم من خرق لأحكام الدين وانتهاك لمحارمه ومن ظلم واضطهاد للناس ، وأعظم من ذلك كله موالاته الكافرين ومناصرتهم وعداوة المؤمنين ، مادام أن هؤلاء الحكام يتفوهون بالشهادة ويتكلمون باسم الدين وقد سبق أن عرفنا أن خلقاً من المرجئة قالوا: إن السجود لصنم أو سب الرسول ليس بكفر مادام أن القلب مصدق ، فكيف بمن ينطق بالشهادتين ويدعي حب الإسلام أو تطبيقه!!

ولما أهدي للباي أحمد ملك تونس نيشان على شكل صليب من دولة «سردانية» عام ١٢٦٧هـ تردد في حمله ، فأفتاه بعض الراسخين في العلم (والإرجاء)! بالجواز إذا لم يعتقد معتقد أهله^(١) .

وهذا مثال حي ينطق بفداحة الفكر الإرجائي في ذلك الزمن ، فيمكن تحت مظلة ذلك الفكر المنحرف أن يفعل الإنسان ما يشاء من صور الكفر والشرك وأن يرتكب من ضروب الطغيان والإجرام ما يعن له ، وهو بعد ذلك آمن من وصمة الكفر مطمئن في ظلال تلك الفكرة الباطلة .

وقد استمر التيار الإرجائي ينخر في كيان الأمة الإسلامية ، ويذكيه ما كان ينشره علماء الكلام ويقومون بتدريسه في كبرى المعاهد الإسلامية كالأزهر والزيتونة والقرويين^(٢) وغيرها من المعاهد والمساجد ودور العلم التي هيمن عليها الإرجاء .

(١) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ١٤٠/٦ . أحمد بن أبي الضياف . المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية . تحقيق : أحمد عبد السلام . ١٩٧١ م .

(٢) مما يؤسف له استمرار هذه المراكز العلمية في تبني علم الكلام وعقائد المتكلمين وإعراضها عن عقيدة السلف بل ومقاومتها في كثير من الأحيان .

ونعود مرة أخرى فنقول : إن المقاومة العنيفة التي ووجهت بها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث ، والحملات الشديدة التي قوبلت بها كانت منطلقة من قواعد الإرجاء ، يقودها أفواج المرجئين الحانقين على هذه الدعوة حتى أمست غريبة في العالم الإسلامي الموبوءة أجواؤه بالفكر الإرجائي .

« ولئن كان علماء عصور الإسلام الوسطى - من المرجئة أو المتأثرين بالإرجاء - يحجمون عن تكفير ملاحدة وحدة الوجود وأمثالهم من الزنادقة أو الساخرين بالدين من الكتاب والشعراء ويتمحلون لهم التأويلات والتبريرات ، فقد استغنى علماء الإرجاء في عصرنا الحاضر عن هذه التأويلات لأن الإسلام في عرفهم وراثته لازمة كما تورث الأسماء ، وأحرف تكتب في الهوية لا ينسخها عمل ولا قول يرتكبه حاملها ؛ ولهذا تجرأ الملاحدة زعماء وكتابا على دين الله سخرية واستهزاء ، وأصبح هذا ميداناً للزعماء والمفكرين وملهاة للشعراء والصحفيين وجرت ألفاظ الاستهزاء على السنة العوام فأصبحت في أحيان كثيرة كالسلام .

وعم البلاء حتى تعدى مجال الاستهزاء إلى مجال الكفر الجاد الجلي الذي كان أمراً محظوراً - ولو عرفاً وعادة - فنسي الناس تكفير الباطنية والقرامطة والدروز والنصيرية وأمثالها ، وغاب عنهم تماماً كفر طواغيت الدجل والخرافة والسحر ، أما طواغيت الحكم والتشريع فقد نسخوا شريعة الله جهاراً نهاراً وحكموا شرائع الطاغوت في الدماء والأعراض والأموال ، وألزموا الناس في مناهجهم ووسائل تربيتهم بموالة الكفار ، والموبقات ضرورياً وألواناً ، وسخروا من الحدود والحجاب وتعدد الزوجات وأحكام الميراث والعبادات والأخلاق . . . وانضم أغلب الطبقة المثقفة - كما يسمونها

- إلى الأحزاب الكفرية والمنظمات الإلحادية والمذاهب الأدبية التي تستر الكفر بالشعر . . . وسقط حد الردة إلا من كتب الفقه الموروثة ، بل ظهر في صفوف المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية اتجاه جديد ينكر حد الردة ضمن ما ينكر من حدود الإسلام وأصوله . ومر على الأمة الإسلامية أجيال بل قرون لم تسمع فيها أن حد الردة أقيم على زنديق مجاهر أو ملحد مكابر ، في حين أن الآلاف من الأرواح تزهق لأسباب سياسية أو خلافات شخصية^(١) .

«ومن أفسد الأصول التي بناها المرجئة على هذا الاعتقاد - أي انحصار الإيمان في التصديق القلبي وحده - أنهم حصروا الكفر في التكذيب القلبي أيضاً حتى إنهم لم يعتبروا الأعمال الكفرية الصريحة كالسجود للصنم ، وإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ إلا دلالات على انتفاء التصديق القلبي وليست مكفرة بذاتها^(٢) .

وكان لهذه العقيدة آثار عميقة المدى على الأمة ، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير ، ومنها نشأ التوسع في استخدام «شرط الاستحلال» حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ وإلغاء شريعة الله ، فقالوا لا يكفر فاعلها إلا إذا كان مستحلاً بقلبه!! واشترط بعضهم مساءلة المرتد قبل الحكم عليه ، فإن أقر أنه يعتقد أن فعله كفر كفر ، وإن قال إنه مصدق بقلبه ، ويعتقد أن الإسلام أفضل مما هو عليه من الردة لم يكفروه^(٣) .

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي . ص ٤٧ .

(٢) وهذا من الأصول الثابتة في مذهب الأشاعرة قديماً وحديثاً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩١ وقال المؤلف تعليقاً على ذلك : وغرضهم هو التثبيت في إطلاق

الكفر - بزعمهم - وهذا إلى أفعال الحمقى أقرب منه إلى أفعال المتبشرين ، وإلا فهل يذهب =

لقد كان الفكر الإرجائي ولا زال من أخطر الانحرافات العقدية التي وقعت فيها الأمة الإسلامية .

وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم ، وإلى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول في الإرجاء »^(١) .

وإذا كان ظهور الفسق في الأمة من آثار الفكر الإرجائي قد وقع في القرن الثاني الهجري حتى حمل السلف عليه حملة عظيمة ، فكيف الحال بعد ذلك؟! لقد تفاقم الفسق والفجور مع مرور الأيام ، بل لقد وقع الشرك الأكبر وتفتشت مظاهره ، واستمرت تسري في المجتمعات الإسلامية سريان النار في الهشيم عبر القرون ، حتى جاء العصر الحاضر وبرز شرك العصر المعروف وهو شرك الاتباع والتشريع بغير ما أنزل الله ، فألغيت المحاكم الشرعية في أكثر البلدان ، ومن بقيت فيها حجم دورها وقلصت صلاحياتها ، وشيدت المحاكم الوضعية التي تحكم بـ«القانون الملحق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي والقانون البريطاني ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين للشريعة وغير ذلك .

فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهياة مكملة مفتوحة

= عاقل إلى طاغوت محارب للشريعة أو إلى زعيم حزب شيوعي فيسأله هل تعتقد أن الإسلام أفضل؟ .

(١) كتاب الإيمان ص ٣٣٩ وقد ذكرنا بعض أقوال السلف في ذم الإرجاء .

الأبواب ، والناس إليها أسراب إثر أسراب ، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرهم عليه وتحتمه عليهم .

فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة»^(١) .

«ومع هذا يدعي أصحاب هذا الفكر المبين ورجال دينهم محبة الله ورسوله ويعبرون عن هذا الحب المزعوم بالمظاهر والاحتفالات البدعية وأعمال الضرار الأخرى ، ويستدرجون بهذا عقول بعض العلماء الناصحين فيتورعون عن الحكم عليهم بما حكم الله عليهم به متذرعين بأنهم غير مستحلين!»^(٢) .

لقد فاقت آثار الفكر الإرجائي في الفترة التي نقوم بدراستها وفي العصر الحاضر ما سببه من آثار في الماضي . وإذا كان الفكر الإرجائي في القرن الأول حدث كرد فعل ضد الفكر الخارجي ، فإن العكس هو الذي حدث في عصرنا هذا حيث كان فكر التكفير الغالي رداً على الفكر الإرجائي المعاصر الذي غلبه أصحابه كما رأينا .

« فكما أن المرجئة القدامى تصوروا وجود الإيمان في قلب من عاش دهره كله لم يسجد لله سجدة ولا صام له يوماً ولا أدى من زكاة ماله درهماً ولا عقد النية على حج بيته ، بل ربما كان معلناً بسبب الله ورسوله مهيناً للمصحف عمداً ، حتى ولو قتلناه على شيء من ذلك قالوا : إن كان مقراً في

(١) رسالة تحكيم القوانين ص ٦ . للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى .

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٤٢٢ .

نفسه فإنه يموت مسلماً عاصياً ، وإذا امتنع عن التوبة يقتل حداً لا كُفراً .
كما تصوروا ذلك جاء المرجئة المعاصرون فقالوا : إن من كان لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ولا يقيم من شريعة الله إلا جزءاً قد يقل أو يكثر - لا يقيمه لأنه من أمر الله وامثالاً له وإيماناً بدينه ، لأنه موافق للهوى والمصلحة الذاتية ومقر ممن يملك حق الإقرار والتشريع سواء كان شخص الزعيم أو الحزب أو المجلس التشريعي - فإنه لا يكفر إلا إذا علمنا أنه في قلبه يفضل شرائع البشر على شريعة أحكم الحاكمين ، وما لم نطلع على ذلك فكل أعماله هي على سبيل المعصية حتى وهو يصدر القوانين تلو القوانين ويطرصد للمطالبين بتطبيق الشريعة ويلاحقهم بصنوف الأذى ، ويظهر الموالاة الصريحة للكفار ، ويلغي ما شرعه الله من الفروق الجلية بين المؤمنين والكفار من الرعية ويرفض إقامة أحزاب دينية . كل ذلك معاص لا تخرجه من الإسلام ما لم نطلع على ما في قلبه فنعلم أنه يفضل شرعاً وحكماً غير شرع الله ، وحكمه على شرع الله وحكمه .

فمرجئة عصرنا أكثر غلواً من جهة أنهم لم يحكموا له بشيء من أحكام الكفر لا ظاهراً ولا باطناً . وأولئك لم يخالفوا في إجراء الأحكام الظاهرة عليه لكن جوزوا إيمانه باطناً ، فقالوا : لو قتلناه لأنه سب الله ورسوله فهذا السب دليل على كفره وهو يوجب علينا تكفيره وقتله في أحكام الدنيا لكن إن كان في قلبه مقراً بصدق الرسول فهو مؤمن ناج عند الله . أما هؤلاء فيحكمون بإيمان من ذكرنا مثاله ظاهراً وباطناً ولا يرونه مستوجباً لحد فضلاً عن تكفير^(١) .

(١) المصدر السابق ص ٥٠٠ .

«ومن المعلوم في بدائه العقول أن كلمة التوحيد لو كانت مجرد لفظ فقط لما لقي رسول الله ﷺ ما لقي من عنت في سبيلها هو وأصحابه الأبرار ، ولكنها كلمة قامت بها السموات والأرض ، وكلمة لها شروط ونواقض . ولو فهم الصحابة والتابعون رحمهم الله ما فهمت المرجئة لما قام لدين الله قائمة ، ولما انتشر الإسلام وبقي إلى هذا اليوم ، ولما جردت السيوف ، وضربت الرقاب في سبيل الله ، ولما تغير مجرى تاريخ البشرية بعد ظهور الدين»^(١) .

فكيف يرجى بعد هذا الفكر الخطير المدمر أن تظل الأمة قوية تدافع عن نفسها ودينها . وما كان ذلك ليقع والفكر الإرجائي وغيره من الانحرافات ينخر في كيانه وأضحى كالداء العضال الذي لا يرجى برؤه .



(١) من مقدمة تحقيق كتاب السنة ص ٧١ للدكتور محمد بن سعيد القحطاني . دار ابن القيم . الدمام . ط ١ ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الفصل الثالث

ضعف عقيدة الولاء والبراء

تعتبر عقيدة الولاء والبراء في الإسلام من أهم الأمور التي يجب على المسلم أن يعتقدوها ويسير في شئون حياته وفقها . فيحب المؤمنين ويواليهم ، ويبغض الكافرين ويعاديهم ؛ إذ «إنه ليس في كتاب الله حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم - أي الولاء والبراء - بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»^(١) .

وعلى الرغم من وضوح هذه العقيدة في القرآن والسنة وفهم الأجيال الأولى من المسلمين لمعناها ، وتطبيقها في حياتهم تطبيقاً كاملاً ، إلا إنها أصيبت كباقي مجالات العقيدة الأخرى بالانحراف ، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب البلدان الإسلامية ، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها ، ويأخذون بزمامها إلى الطريق المستقيم .

ولعل من العوامل التي ساعدت على إضعاف هذه العقيدة ما أصيب به المسلمون في عصورهم الأخيرة - وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين - من ضعف وتخلف جعل الكثير من المسلمين - خصوصاً الحكام منهم - يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولونهم من دون المؤمنين ؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية ، والمسلمون في

(١) من كلام العلامة حمد بن عتيق رحمه الله . انظر الولاء والبراء ص ١٣ د . محمد بن سعيد القحطاني . الناشر : دار طيبة . الرياض . ط ٢ . ١٤٠٤ هـ .

المقابل على العكس تماماً من الضعف والانحطاط . فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة .

فالواقع المليء بكافة صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوربي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء ، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين ؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً ، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة ، كما كان حال الجيل الأول رضي الله عنه الذي استعلى بدينه وإيمانه على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة ، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ومع كل هذا فإننا نستطيع أن نقول إن هذه العقيدة العظيمة على المستوى الجماهيري^(١) على الأقل كانت لا تزال متوهجة في النفوس ، مستقرة في العقول ؛ فقد كان المسلم في الشام مثلاً يحب أخاه المسلم في مصر ويبغض جاره النصراني .

وكان المسلم في مصر يبغض النصارى الأقباط في بلده ، ويحب إخوانه المسلمين في المغرب والهند والعراق وكل مكان ، وكان المسلم يتنقل من أي

(١) أما بعد أن بسط الاستعمار سيطرته على بلاد المسلمين وسلط عليهم موجات عنيفة من الغزو الفكري ، والمسخ العقلي ، وبفضل صنائعه في الأرض المسلمة ممن ساروا في ركابه وحدث الانبهار والفشل النفسي والهزيمة الروحية تهاوت هذه العقيدة ، وخبث في النفوس المغلوبة ، ونشأت أجيال ممسوخة متفرجة تريد التغريب والعلمنة بكل وسيلة وبأي ثمن . ولمزيد من الإيضاح انظر : كتاب الولاء والبراء السابق ذكره ، فهو من خير ما كتب في ذلك الموضوع .

بلد شاء إلى أي بلد شاء لا تعوقه عوائق ، ولا تحول دون تنقله حواجز ، ولا يشعر بأنه غريب ؛ لأنه أينما حل أو أقام فهو بين إخوانه المسلمين ، وليس أدل على ذلك من إحساس المسلمين في كل مكان بما يقع لإخوانهم في الدين من اعتداءات ونكبات ، ومشاركة بعضهم لبعض في جهاد المعتدين ، والنفير في سبيل الله . فكانوا إلى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى^(١) .

ونضرب لذلك مثالين اثنين - وإلا فالأمثلة كثيرة - لنرى أن هذه العقيدة لم تصب على المستوى العام ، وإنما كانت إصابتها على المستوى الخاص الذي يمثله الحكام كما سنوضح ذلك .

المثال الأول : عندما احتل الفرنسيون مصر عام ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م وذاع نبأ احتلالهم في أرجاء العالم الإسلامي ، وعلت موجات السخط والاستياء في أوساطه ؛ قام أحد الشيوخ المغاربة ويدعى الشيخ الكيلاني وكان مجاوراً بمكة والمدينة بدعوة المسلمين في الحجاز - الذي أنزعج أهله من نبأ سقوط مصر في يد الفرنسيين - إلى الجهاد ، وتحريضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ عليهم كتاباً في الحرم ألقه لذلك الأمر ، فاجتمع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر وانضم معهم جملة من أهل ينبع وبعض الأتراك والمغاربة والغز وأهل الصعيد ، وتقاتلوا مع الفرنسيين في عدة معارك على غير طائل كما يقول الجبرتي^(٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ، برقم ٦٠١١ (الفتح ٤٣٨/١٠) ، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٦ كتاب البر والصلة والآداب - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ١٩٩٩/٤ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٢٥٠ . وكان ذلك في أول شهر رجب عام ١٢١٣هـ . ويذكر الجبرتي أن =

فقد هب المسلمون في الحجاز وغيره لمشاركة إخوانهم المسلمين في مصر في محتتهم إحساساً بالرابطة الدينية والأخوة الإسلامية في حين كان الموقف السياسي عند بعض الحكام يختلف عن ذلك اختلافاً كاملاً.

فقد تجنب سليمان الكبير حاكم العراق أن يتخذ أي إجراءات ضد القنصل الفرنسي في بغداد ، ووقع يوسف القره منلي حاكم طرابلس (ليبيا) معاهدة مع الفرنسيين ليفتح لهم طريق الاتصال بين فرنسا ومصر عبر ليبيا . مع أن هذا الموقف مخالف حتى لموقف السلطان العثماني نفسه الذي كان يتبعه هذان الحاكمان^(١) .

والمثال الثاني : ما تمثل في دعوة السلطان عبد الحميد الثاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التسلط الأوربي والروسي وغيرهما ، وقد أثمرت هذه الدعوة إلى حد كبير^(٢) . وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم . وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلاث نفقات الخط البالغة ثلاثة ملايين ليرة تركية^(٣) .

= الشيخ المذكور قد توفي في شهر ذي القعدة من نفس السنة ، وأن أتباعه قد تفرقوا في البلاد وأن من أسباب إخفاقهم عدم ثبات أهل الصعيد معهم حيث يوهمونهم أنهم معهم وعند الحروب يتخلون عنهم . عجائب الآثار ٢/ ٢٧٣ .

(١) تاريخ العرب الحديث . العراق ١٠٨/١ د . عبد العزيز سليمان نوار ، الشركة المصرية للطباعة والنشر . ١٩٧٦ م .

(٢) انظر حـول ذلك : السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ، لموفق المرجة . والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، للدكتور محمد محمد حسين .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٩٤ كارل بروكلمان . ويذكر الشيخ «علي الطنطاوي» عن الأستاذ «نديم صواف» الذي عمل في إدارة الخط الحديدي نحو نصف قرن ولديه مجموعة من الوثائق المهمة الخاصة به أن تكلفة هذا الخط بلغت أربعة ملايين ونصف مليون ليرة =

وكما قلنا فإن الشعور بالترابط الديني بين المسلمين كان متقدماً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توحى بالفرقة والاختلاف كالطرق الصوفية والمذاهب الفقهية والكلامية ، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة إلى حد كبير في نفوس العامة ، ولم يكن وجود النصارى مثلاً في بلد كمصر يمكن أن ينال من هذه العقيدة التي رسخت في نفوس المسلمين .

ولا يمنع بعد هذا من وجود شواذ على المستوى الجماهيري شذوا عن الحالة التي ذكرنا ، فقاموا بموالاة الكفار ، خصوصاً من كان منهم محتلاً لأرض المسلمين فتقربوا منهم بغية الجاه والمال والمنصب ، ولكن هؤلاء كانوا شواذاً كما قلنا والشاذ لا حكم له .

لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً صلباً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم . ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الإسلامية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من الحكام وغيرهم كما سنرى فيما بعد .

ولكن هل بقيت هذه العقيدة دون غيرها سليمة من الانحراف؟ والجواب بالنفي قطعاً .

فمن الناحية الإجمالية فإن الخلل الذي طرأ على العقيدة قد أصاب جميع

= ذهبية عثمانية وأنه بلغ من اهتمام الدولة العثمانية بأمر هذا الخط أنها ألفت له بعد إعلان الدستور مجلساً أعلى برئاسة السلطان نفسه .

وأنه سجل بعد ذلك وقفاً إسلامياً لجميع المسلمين . وحين قصرت التبرعات عن إتمام الخط ، أمر السلطان الجيش العثماني للعمل في مده ، فمات من جنود الجيش آلاف في سبيله حتى قيل إن في كل مئة متر منه قبر شهيد . ثم كانت النهاية المأساوية لهذا الخط العظيم بتدميره على أيدي القوميين العرب بقيادة الإنجليزي الماكر «لورنس» ١٩١٨ م . انظر : ذكريات ١٠٦-٩٩/٣ ، ٣٠٩-٣١٥ . دار المنارة - جدة .

جوانبها ، وإن تفاوتت شدته من جانب إلى آخر . ومن الناحية التفصيلية فقد تعرضت هذه العقيدة إلى انحرافين هما :

الأول : حيث أصبحت هذه العقيدة الهامة عقيدة عمياء - إن صح التعبير - عند كثير من أبناء المسلمين ، أو بمعنى آخر فقد أصاب هذه العقيدة شيء من الغلو والجنوح ، فبعد أن كانت هذه العقيدة تقوم على محبة المؤمنين ومناصرتهم وبغض الكفار ومعاداتهم مع الاستفادة مما عندهم من علوم مادية ومنافع دنيوية كما كان حال المسلمين في العصر الأول حيث لم يمنعهم عدااء فارس والروم من أن يستفيدوا بما عند أولئك من علوم وصنائع .

ولكن المسلمين في عصور الانحطاط وخاصة هذين القرنين جنحوا في فهم هذه العقيدة ، فزادوا على بغض الكفار وعداوتهم بغض كل ما يرد عنهم ويخرج من ديارهم حتى ولو كان علماً نافعاً ومصلحة ظاهرة ، وبذلك سدوا على أنفسهم أبواباً من العلوم والمعارف كانوا بأشد الحاجة إليها ، بدعوى أنها جاءت من بلاد الكفار ، وما يأتي من بلادهم إلا الكفر والضلال ، ونسوا «أن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»^(١) .

وهذا هو الموقف السلبي الذي وقفته كثير من بلاد المسلمين : إما موقف المعارض الشائر ، أو موقف المعتزل المحايد في وجه الحضارة الأوربية الغازية وعدم الانتفاع بما فيها من تجارب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا والطب والهندسة ، واستيراد الآلات النافعة وأدوات الحرب والبضائع^(٢) .

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٨٧ . كتاب العلم . باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة . وضعفه الألباني (ضعيف سنن الترمذي ٥٠٦) . وانظر مبحث الانتفاع بالكفار وبما عندهم . الولاء والبراء ص ٣٦٤ .

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٢ . أبو الحسن الندوي . ط ٥ . ١٩٨٥ / ١٤٠٥ . دار القلم . الكويت .

وقد كان لهذا الموقف آثار بعيدة المدى في اتساع هوة التخلف والضعف في شتى المجالات عند المسلمين ، وبذلك الفهم المنحرف ازدادت أوضاع المسلمين تردياً ، وعاش المسلمون معزولين عن العالم الذي دب فيه مظاهر التطور والتغير بشكل سريع ، وأخذ الكثير منهم يجتهد في عزله الخاطئة ويوصد الأبواب أمام كل العلوم القادمة حفاظاً على دينه وخدمة لعقيدته التي ظلمها بفهمه الخاطيء .

ولم يكن تردّي أوضاع المسلمين وازديادها سوءاً هو الأثر الوحيد الذي نشأ من الغلو الذي أصاب هذه العقيدة والعمى الذي غشيها ، بل هناك أثر آخر لا يقل خطورة عن السابق ، يتمثل في الموقف السلبي الذي وقفه السواد الأعظم من المسلمين من الحضارة الحديثة ، والذي مكن فيما بعد لدعاة التغريب من أبناء المسلمين الذين رضعوا لبان الغرب وتغذوا بثقافته وظهروا في ثياب المصلحين والناصحين أن يجروا الأمة المنهكة من ورائهم بعيداً عن الخط الإسلامي ، ويندفعوا بها إلى طرق العلمنة والتغريب والتفريج المظلمة ؛ وذلك حين خلت لهم الساحة بغياب العلماء الربانيين ، وابتعدت الأمة كثيراً عن العقيدة الإسلامية التي كان عليها السلف الصالح ، وأصبحت متعلقة بكثير من التقاليد والرسوم الخاوية ، مما جعل الفترة التي عاشتها الأمة بعيدة عن مظاهر التقدم ، والتغيرات التي استجذت في العالم فترة قصيرة ومضطربة ، ومهددة بالاكساح والزوال من قبل هذه الحضارة الغازية .

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي : « ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الأقطار (يعني أقطار الإسلام) الروحي والمادي ، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة من إيمان وقوة وشخصية وثقة ، ويشك في طول هذه الفترة ، لأنها مع وجود هذا الضعف في الشخصية

والفقر في القوة المعنوية - غير صالحة للطول والامتداد ، فضلاً عن البقاء والاستمرار^(١) .

وذلك أن العادات والتقاليد التي لم تقم على عقيدة راسخة صافية لا تستطيع الصمود طويلاً أمام الهجمات القوية والمستمرة ؛ لذا سرعان ما تلاشت واختفت ، وأعقب الإفراط في العزلة والانزواء إفراط مقابل في الانغماس والاختلاط ، وهذه سنة مشهودة في وجوب التوسط في الأمور كلها ، وأخذها من غير غلو وإجحاف ، ومن دون تساهل وانجراف ، وهذا هو المنهج الوسط والدين القويم الذي أنزل على الأمة الوسطية . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

أما الانحراف الثاني والأخطر فهو ما تمثل في موالة الكافرين واتباعهم واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين .

فقد حدث هذا الانحراف الخطير عند فئة ممن كانوا يتولون أمور المسلمين ويتربعون على مقاعد الحكم في ديارهم ، فقد ولى هؤلاء الحكام وجوههم شطر أعداء أمتهم ، وخرقوا هذا السياج المنيع الذي أقامته عقيدة الولاء والبراء ، متحددين بذلك شعوبهم المسلمة ، غير آبهين بمستنكر أو ساخط ، وظلوا يعملون دائبين على تخطي هذا السياج وتحطيمه في نفوس شعوبهم واجتثائه بالكلية . ولئن رأينا في الانحراف الأول غلوً وإفراطاً فإننا في هذا المجال سوف نرى أمثلة كثيرة لحوادث مزرية ، تمثل فيها الضعف والخنوع والتفريط ، وصوراً مؤسفة لموالة الكافرين واتباعهم قوض بها أو كاد صرح هذه العقيدة العظيمة .

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٤ .

ونعود فنقول إن هذا الانحراف الخطير كان مجاله عند فئة من حكام المسلمين ورؤسائهم فقط ، أما السواد الأعظم فقد رأينا كيف غلوا في هذه العقيدة فكان من العسير أن يحدث بينهم في ذلك العهد تفريط أو تساهل في هذا الجانب .

ونود أن نلفت الانتباه إلى أن ما سنذكره من أمثلة ليست بدرجة واحدة من الانحراف وذلك «أن مسمى الموالة يقع على شعب متفاوتة؛ منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات»^(١) .

كما نود أن ننبه أيضاً أننا في هذا المقام لسنا بصدد الحكم على أشخاص معينين ورد ذكرهم في هذا البحث ، ووقعت منهم أعمال ومخالفات زعزت هذه العقيدة أو قوضتها؛ لأنه كما يقول أهل العلم - قد يكون القول أو الفعل كفراً ولكن لا يكفر المعين حتى تتوفر فيه الشروط المكفرة وتنتفي عنه الموانع .

إنما منهجنا أن نورد صوراً منحرفة حدثت بالفعل وأصابت هذه العقيدة في الصميم . فمن ذلك ما يلي :

قيام السلطان العثماني «محمود الثاني» (المتوفى سنة ١٨٣٩م) بحركة نسبت إلى الإصلاح واعتمدت هذه الحركة على مسخ عقيدة الولاء والبراء ومحاولة طمسها في النفوس ، واستبدال الطابع الأوربي بالإسلامي .

ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه . . . إنني لا أريد - ابتداء من الآن - أن يميز المسلمون إلا في المسجد ، والمسيحيون إلا في الكنيسة ،

(١) الولاء والبراء ص ٢٣٣ .

واليهود إلا في المعبد ، إنني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحمايتي الأبوية . . .

ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق^(١) .

وفي هذا العصر الإصلاحى انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السلطان وتشجيعه^(٢) .

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الخزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النمساوي ، وطرده الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان^(٣) .

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة ، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم ، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم ، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة ، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس^(٤) .

والأدهى من ذلك ما « حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) ص ٢١٤ .

د . محمد عبد اللطيف البحراوي . دار التراث . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٨ هـ .

١٩٧٨ م . وسيأتي مزيد من الحديث عن تلك الحركة عند حديثنا في الباب الثالث عن

استيراد المبادئ والنظم من الخارج .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٦١ .

بالولاء لروسيا من قبل ، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة ، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد تزودها بأدق المعلومات والخطط^(١) . وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا ، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء .

هذا مثال بارز على استهانة بعض السلاطين العثمانيين بعقيدة الولاء والبراء ، وتخطيهم لحواجزها وعملهم الطويل على تحطيمها .

وفي تونس يذكر أحمد ابن أبي الضياف^(٢) كاتب الديوان في دولة المشير أحمد باي^(٣) ملك تونس أن الباي أحمد قد قام بزيارة إلى فرنسا عام ١٢٦٢هـ واستقبله ملك فرنسا في قصره باسم الوجه ثم قدم إليه زوجته وأخته ونساء أولاده ، والملك يقدمهن واحدة بعد الأخرى والباي يسلم عليهن^(٤) .

ويذكر أيضاً أن الباي أثناء إقامته في باريس زاره الوزراء الفرنسيون حتى أنهم لما خرجوا من عنده قام لمشايعتهم حتى منعه وقال له المارشال : لا نقبل منك شيئاً زائداً على ما اعتدناه من ملوكنا^(٥) .

وإن القارئ قد تمر عليه هذه الحادثة دون أن تشير انتباهه . ولكن المطلع على أحوال تلك الحقبة من الزمن والتي كان الاستعمار الصليبي قد أحاط فيها ببلاد المغرب العربي كلها ليدرك شيئاً من أسرار هذه الزيارة المشبوهة من

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) الأعلام ١/ ١٣٨ .

(٣) الأعلام ١/ ٢٥٨ .

(٤) إتخاف أهل الزمان ٦/ ١٤٠ .

(٥) المصدر السابق ٦/ ١٤٠ .

ملك ضعيف إلى دولة مستعمرة قوية تهدد أمن بلاده ومستقبلها ، ومحتلة عسكرياً لجارتها الجزائر .

وإن الشكوك لتساورنا في الاستقبال النسوي الذي أقامه حكام فرنسا للباي ، وفي زيارات الوزراء وترددهم عليه أثناء إقامته هناك ، ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الدعوة قد وجهت له من قبل حكامها ورتبوا لها ترتيباً يليق بملك صغير يراد ببلاده وأمتة شر مستطير .

وقد اقتبس - كما يقول الزركلي - أساليب حديثة أدخلها بعد ذلك على جيشه ، وأنشأ مدرسة حربية جلب لها الأساتذة من أوربا^(١) .

وهذه بعض الثمرات التي جناها الباي من علاقاته مع فرنسا .

ولكي ندرك بعض الملامح الرئيسية لسياسة هذا الباي نشير إلى وجود وزير فرنسي في بلاطه هو جوازب دافو ، الوزير المعتمد من حكومة فرنسا . وقد كان هذا الوزير - كما يقول ابن أبي الضياف - مقرباً ومؤتمناً على الأسرار في حكومة الباي ، وكان له دور كبير في رسم السياسة الداخلية والخارجية لتلك الدولة وتسخيرها لمصالح بلاده حتى إنه كان يقوم بتقديم النياشين والأوسمة التي يرسلها ملوك أوربا إلى الباي لمكانته البارزة ومنصبه المرموق في بلاط الباي^(٢) .

لقد كان لهذا الوزير النصراني دور خبيث ومرسوم في العداء للإسلام والمسلمين وفي نفع بني دينه من النصاري ورفع مكانتهم في نفس الوقت الذي كان يتأمر فيه على المسلمين ويخطط لإضعافهم والقضاء عليهم ولا غرابة في هذا !

(١) الأعلام ٢/ ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ١٧٨ .

ومن ذلك أن النصارى في تونس شكوا الى الباى على لسان أكبر قسيسهم هناك من ضيق كنيستهم ، فأصدر الباى أمره ^(١) بإعطائهم من أرض المسلمين ما يوسعون به كنيستهم ، وبإسقاط الإيجار السنوي عنها، تأليفاً للوافدين من التجار ^(٢) بزعمه ، وكتب بذلك الى قنصل فرنسا بتونس ثم زاد في توسيعها بعد ذلك ^(٣) .

وكان أرض المسلمين صارت ملكاً لهذا الباى ورثها كابرا عن كابر يمنح منها ما يشاء حتى لو كانت هذه المنح لأعداء الله من النصارى الصليبيين

(١) وهذا هو نص المرسوم الذي أصدره الباى أحمد بشأن إجابة طلب النصارى توسيع كنيستهم . «أصدرنا هذا المنشور والخطاب المسطور . ليعلم الواقف عليه من رهبان الملة المسيحية وأعيان أهلها القاطنين بدار ملكنا تونس أحاطها الله بأمنه أن الكنيسة الكائنة داخل باب البحر التي كانت أسبیتال من أملاك الدولة التونسية ، بلغنا أنها ضيقة الفضاء لا تفي لضروريات من فيها . فزدناها تسعة عشر ذراعاً على مسافة عرضها وهي عشرون ذراعاً من أرض الدولة المجاورة للكنيسة التي يسكنها قنصل الصنيول . وأمرنا في ذلك بيد الوكيل وزدنا لكمال راحة سكان بلدنا من أهل أوربا وإعانتهم بأن أسقطنا عنهم الألف ريال التي كنا نأخذها في كل عام كراء ما ذكر إسقاطاً تاماً . وسرحناهم في التصرف في هذه الكنيسة المذكورة بما أضيف لها من غير كراء بشرط ألا يحدثوا فيها شيئاً ظاهراً ينافي ديانة أهل البلاد أو عاداتهم الجارية . صدر ذلك منا على يد صاحب أسرارنا الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب ابننا الكولير جوزاب دافو الأميرالاي» المصدر السابق ١١٧/٦ .

وأنا لنلمس عبارات التفخيم والتعظيم في ثنايا المرسوم الباطل وأن ما ذكر من شروط لم يكن أكثر من حبر على ورق . وبعد ذلك نعلم حقيقة الدور الذي لعبه ذلك الابن المقرب والوزير النصراني .

(٢) وصدق الله العظيم حين يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] وإن كان الحكم مختصاً بالحرم إلا أن العلة التي تعلق بها بعض الناس حين نزول الآية بانقطاع الأسواق وكساد التجارة لا حجة فيها لمسلم في أي مكان فالله الغني سوف يغني من آمن به وصدقه ونصر دينه .

(٣) المصدر السابق ١١٨/٦ .

يقيمون عليها كنائسهم ، وينشرون منها كفرهم وضلالهم وفجورهم .
هذه بعض مداخل هذا الوزير الصليبي الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب
الابن وفوق ذلك صاحب الأسرار . . ؟
والجدير بالذكر أن هذه الفادحة أو المنحة كانت بعيد تلك الزيارة
المشبوهة التي قام بها الباي إلى فرنسا .
ولعل أخطر دور قام به ذلك الوزير الماكر هو إلحاحه المستمر على الباي
وتشجيعه له على تخفيض عدد الجيش التونسي ، وتسريح عدد كبير من
جنوده .

جاء ذلك في الاجتماع الذي عقده الباي مع وزرائه ليتباحثوا في العجز
المالي الذي كانت تعاني منه الدولة ، لارتفاع المصروفات التي كان ينفق كثير
منها على الجيش ، وانخفاض الدخل ، حيث أشار ذلك الوزير المقرب
والثقة المؤتمن بضرورة تقليل عدد الجيش وقال للباي : «إن الدول بأوربة لا
يبقون تحت السلاح إلا القدر المحتاج إليه ولا بد ، ويسرحون الزائد اعتباراً
للمصروف ولراحة المسرحين مع غناهم الذريع»^(١) .

والأمر غني عن التعليق ، ولا يحتاج إلى بيان في أن هؤلاء الحكام
المشبهين قد أطلقوا العنان لهؤلاء الصليبيين الحاقدين في سياسة أمور
المسلمين وأخطر شئونهم .

ولا يشك عاقل في كذب ما قاله ذلك الوزير الحاقد وفي زيف ما
ادعاه . وإلا فكيف يقبل مثل هذا الاقتراح المشؤوم بتقليل عدد الجيش في

(١) المصدر السابق ١٨٨/٦ وانظر ما فعله صليبي آخر هو أركان الحرب الأمريكي في الحملة
المصرية على الحبشة في عهد الخديوي إسماعيل في الصفحات القادمة .

وقت حرج للغاية حيث كان هناك مئات الآلاف من الجنود الصليبيين يحيطون بالعالم الإسلامي إحاطة السوار بالمعصم ويحتلون أجزاء منه ، ويتربصون بالأجزاء الباقية؟ ودولة الوزير نفسها وهي فرنسا كانت إحدى القوتين العالميتين في ذلك الزمن ، وكانت تملك من الجيوش والعتاد والأساطيل ما جعلها تفرض سيطرتها على كثير من البلاد ، ومنها دولة الجزائر المجاورة لتونس التي ينصح بايها بتقليل عدد جيشه .

ثم إن قياس تونس وغيرها من الدول الضعيفة على دول أوربا القوية في ذلك الزمن قياس باطل .

وهل تفكر دولة عاقلة تحدق بها الأخطار من كل صوب وهي في أشد الحاجة إلى جندي واحد، هل تفكر في تقليل عدد جيشها الذي لم يكن يتجاوز على أي حال الثلاثين ألفاً؟ .

وأكذب من ذلك قوله بغنى الجند الذريع ، فلولا حاجة كثير منهم لما التحقوا بسلك الجندية وانخرطوا في الجيش .

ويذكر الدكتور عبد الجليل التميمي إن ولاية تونس ومنهم هذا الباي بالطبع وقعوا في نزاع مع فرنسا التي لم تسمح لهم أبداً أن يتخذوا أكثر من ثلاثين ألفاً وأن قنصل فرنسا نصح الباي بتتزيل عدد الجيش إلى النصف ، فرأى الباي في ذلك تدبيراً عاجلاً ، فأذن بتسريح خمسة عشر ألف جندي ، والحفاظ على النصف الآخر ، إلا أن ذلك لم يجد ، غير أن نصحاء الباي ومستشاريه أشاروا عليه من جديد بتقليل الجيش إلا أن الأجل وافاه^(١)

(١) بحوث ووثائق في التاريخ العربي . تونس ، الجزائر ، ليبيا ، من ١٨١٦م - ١٨٧١م . د . عبد الجليل التميمي . الدار التونسية للنشر . الطبعة الأولى ١٩٧٢م .

وعلى أية حال فإنه بعد حوالي ربع قرن تقريباً وفي عام ١٨٨١م قامت فرنسا باحتلال تونس حيث ساقط عليها من البر جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي ، ومن البحر أسطولاً قوياً يحمل ثمانية آلاف جندي ، وقامت بحركات سريعة ، مكنتها من الاستيلاء على مدينة تونس بسهولة ، ومن إجبار «الباي» على قبول الحماية الفرنسية بموجب الاتفاقية التي وقع عليها في «قصر باردو» في ١٢ / ٥ / ١٨٨١م^(١) .

وجنت الأمة الثمرة المرة لتولي هؤلاء الكافرين من قبل بعض حكامها ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨]

وقد أرادت فرنسا ذات مرة أن تختبر ود الباي ومدى ولائه لها بعد أن برهن على ذلك بزيارتها واستورد بعض أساليبها ونظمها ، فبعثت إليه بأبناء ملكها لويس فليب ، فكان عند حسن ظنها به ، حيث « احتفل بقدمهم ، وعظم زيارتهم ، وبالغ في إكرامهم ، وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنسي ، وانتدب وزيره شيخ الدولة أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع إلى تأنيسهم والركوب معهم إلى القنص والأماكن التي تشوقوا إلى معرفتها ، وأنزلهم بدار المملكة بالقصبة وبعث ابن عمه وولي عهده في أعيان

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٥٩ ساطع الحصري . دار العلم للملايين . الطبعة الثالثة ١٩٦٥م . ومما ينبه إليه أن هذا الباي ليس هو الباي أحمد الذي تحدثنا عنه . ومع ذلك فقد دفع ثمن سياسة سلفه وهزمه الفرنسيون وأبقوا له عرشه اسماً وسلبوا منه جميع السلطات الحقيقية بلا استثناء . انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٣٠ .

من رجال دولته لتلقيهم بالدار ، وتعرض لهم بنفسه عند باب السراية ورتب لهم بدار نزلهم عشة تناسب مقامهم . . . وهاداهم بنيشان آله . . . وركب إلى حلق الوادي لمشايعتهم ، وبعث ولي عهده في أعيان من رجال دولته لمشايعتهم إلى الفابور في يوم حافل مشهود^(١) .

وإننا لنلاحظ في عبارات ابن أبي الضياف مقدار التعظيم والاحتفاء والتقرب الذي قام به البايع ورجال دولته لهؤلاء الصبية النصاري ، وانظر إلى قوله : (وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي) ولا ندرى ما هي صفة هذه الوصلة إلا إن كان يعني صلة الولاء والمودة لغير المسلمين . وهي وصلة لا تتم أبداً إلا بعد أن تبتصر وصلة الولاء والبراء ويقضى عليها نهائياً . وكذلك إلى عبارته التي توحى بشيء من الانتقاد وهي قوله : (وتعرض لهم بنفسه عند باب السراية) وفي اعتقادي أنه لولا خوف البايع من السنة الناس وامتعاضهم منه لكان هو المبادر إلى استقبالهم بنفسه والمؤنس لهم والراكب معهم إلى القنص وغيره خصوصاً إذا علمنا أن هؤلاء الزائرين كانوا صغاراً في السن مما يزيد في حدة الانتقاد .

ولم يكن النصاري وحدهم هم الذين ركن إليهم البايع واتخذهم بطانة من دون المؤمنين ، فلقد كان لليهود في عهده دور كبير ، ومكانة بارزة ، وليس أدل على ذلك من أن النائب في دار المال وهو ما يضاوي منصب وزير المالية في عصرنا كان كبير اليهود في عصره ويدعى القائد نسيم بيش^(٢) ، وما عسى أن ينتظر بعد ذلك وقد وسد ذلك المنصب الخطير إلى كبير اليهود؟ .

(١) إتخاف أهل الزمان ٦ / ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ٦ / ١٩٣ .

وفي المغرب الأقصى كان السلطان محمد بن عبد الرحمن العلوي (المتوفى سنة ١٢٩٠هـ)^(١) موالياً للفرنسيين متساهلاً معهم ، وكانت تربطه بملك فرنسا نابليون الثالث صداقة حميمة كما عبر عنها في رسالته التي بعث بها إليه عام ١٢٨٢هـ مع مندوبين إلى فرنسا :

«من عبد الله المتوكل على الله . . محمد بن عبد الرحمن . . إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها ، وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها ، وأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره ، مفصحة بتسليم نتائج فكره ، ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بوناپرتي .

أما بعد : فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد ، وإننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها ، فإن محبتنا معكم الشخصية زادت ما كانت عليه في عهد الأسلاف وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف . . . والغرض من توجيههما (المبعوثين) تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين . . . وأوصيناكم بحسن الاستماع لما تلقونه إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم . . .»^(٢) .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

[المجادلة : ٢٢]

(١) الأعلام ٦/ ١٩٨ .

(٢) الاستقصا ٤/ ٢٢٩ .

ولا ندري كيف نحمل تلك العواطف القلبية التي فاضت بها عبارات تلك الرسالة في وقت كانت فرنسا ترتكب أبشع المذابح وتمارس أشد القمع في بلاد الجزائر المسلمة .

ومما يذكر أيضاً أن التجار الفرنسيين كثروا في أيامه نتيجة لتساهله معهم وقد منحهم امتيازات اتخذوها بعد ذلك ذريعة للاستعمار والاحتلال^(١) .

ومن بلاد المغرب العربي نتقل إلى مصر الكنانة ، لنقف بعض الشيء مع نفر من بكواتها وبشواتها لنرى كيف أسقطت هذه العقيدة من حساباتهم ومعاملاتهم فلم يراعوا لها حرمة أو يلقوا لها بالاً .

يذكر المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي أن إبراهيم بك أحد زعماء المماليك وشيخ البلد في عصره^(٢) قد حزن لموت المعلم إبراهيم الجوهري القبطي رئيس الكتبة الأقباط ، وأنه خرج يوم موته إلى قصر العيني حتى يشاهد جنازته وهم ذاهبون به إلى المقبرة ، وتأسف على فقدته تأسفاً زائداً^(٣) .

والجدير بالذكر أن هذا النصراني كما يقول الجبرتي قد «أدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة

(١) الأعلام ٦/ ١٩٨ .

(٢) شيخ البلد هو صاحب السلطة الفعلية ورئيس الحكومة . وكان عادةً من زعماء المماليك المرموقين ، أما الوالي التركي أو الباشا فلم يكن له بجانب الأول حول ولا قوة . وكان شيوخ البلد من المماليك يعثون بهؤلاء الولاة ويعزلونهم في أحيان كثيرة ، بعد أن تطرق الضعف إلى الدولة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر للميلاد . انظر تاريخ الحركة القومية ١/ ٢٤ عبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الرابعة ١٩٥٥ م - ١٣٧٤ هـ . مكتبة النهضة المصرية .

(٣) عجائب الآثار ٢/ ١٧٣ .

بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم ، وأول ظهوره من أيام المعلم رزق^(١) كاتب علي بك الكبير .

ولما مات علي بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم وغما ذكره في أيام محمد بك فلما انقضت أيام محمد بك وترأس إبراهيم بك قلده جميع الأمور فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميري^(٢) ، وجميع الإيراد والمنصرف ، وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته^(٣) ؛ لذا لا تتعجب بعد ذلك من قول الجبرتي عنه «وعمرت في أيامه الكنائس ودور النصارى ، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان ، ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال»^(٤) .

وماذا كان ينتظر من هؤلاء النصارى الذين ركن إليهم الحكام وأسندوا إليهم أهم المسؤوليات إلا خدمة دينهم ومعتقداتهم؟ .

أما الزعيم المملوكي مراد بك الذي كان نظيراً لإبراهيم بك في القوة والرياسة ، فلقد كان له اهتمام خاص بالنصارى الأقباط حيث أحضر جمعاً منهم فأنشأوا له عدة حربية وسفنًا مزودة بمدافع وآلات للحرب ، وصرف عليها أموالاً عظيمة ، ورتب بها عساكر بحرية^(٥) وأدر عليهم الجماكي^(٦)

(١) وكان نصرانياً أيضاً .

(٢) الروزنامة : الخراج أو ضرائب الأطيان . والميري تعني الأراضي الأميرية . تاريخ الحركة القومية ٢١/١ .

(٣) عجائب الآثار ١٧٢/٢ .

(٤) المصدر السابق ١٧٣/٢ .

(٥) هذا الأسطول البحري استولى على أكثره الفرنسيون لدى حملتهم على مصر سنة ١٢١٣هـ .

(٦) جمع جامكية وأظنها كلمة تركية . وتعني المرتبات .

والأرزاق الكثيرة ، وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً يدعى نقولا ، بنى له داراً عظيمة بالجيزة ، وأخرى بمصر ، وله عزوة وأتباع من النصارى ، وكان المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة ، ويمشي في شوارع مصر راكباً وأمامه وخلفه الجنود يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمراء^(١) .

ومما ينبغي أن يتنبه له أن هؤلاء النصارى وغيرهم من الكفار الموجودين في مصر الذين تولاهم هؤلاء الحكام وركنوا إليهم واستعملوهم في أهم أعمال المسلمين وأخطرها كانت لهم مواقف عدائية وصحائف سوداء عندما سنحت لهم الفرصة ، وحانت لهم الساعة التي ينفثون فيها ما بصدورهم من حقد وبغضاء على المسلمين .

فعندما احتل الفرنسيون مصر اشرأبت أعناقهم وتناولوا برؤوسهم على المسلمين ولنستمع إلى كلام المؤرخ المصري المسلم الجبرتي المعاصر لتلك الحملة الصليبية وهو يتحدث عن ذلك فيقول في معرض سوقه لأخبار عام ١٢١٣ هـ الذي دخل فيه الفرنسيون مصر : «ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيهم الخيلاء ، وتجاهرهم بفاحش القول ، واستذلّاهم للمسلمين»^(٢) .

وقال رحمه الله في موضع آخر : « وتناولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٩٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٥٠ .

أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصالح مكاناً ، وصرحوا بانقضاء
ملة المسلمين وأيام الموحدين»^(١) .

وقد استغل نصارى مصر وجود أهل ملتهم من الفرنسيين فجمع يعقوب
القبطي أحد كبرائهم شبان القبط ، وحلق لحاهم ، وزياهم بزي مشابه
لعسكر الفرنسيين وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الأماكن المجاورة
لحارة النصارى التى هو ساكن بها ، وبنى قلعة وجعل عليها سوراً عظيماً ،
وأبراجاً للمدافع والبنادق على هيئة سور مصر ، الى غير ذلك من
التحصينات التى عملها بحارات النصارى وكانوا جيشاً عميلاً للفرنسيين
وشاركوهم فيما ارتكبه من مذابح ومجازر ضد المسلمين^(٢) .

وإذا كان هذا هو حال بعض البكوات في مصر وإخلادهم إلى
النصارى ، وتعظيم شأنهم فإن ذلك لا يكاد يذكر بالنسبة لما قام به حاكم
مصر فيما بعد محمد علي باشا ذلك الرجل المفتون بالغرب ، والمتيم بمتابعة
الأوربيين ، والسير على خطاهم . والذي ما فتىء خلال فترة حكمه الطويلة
التي بلغت خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار ويصانعهم ، ويعلي من
شأنهم ، ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم وقوانينهم ، والسير في
ركابهم ، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين ، واستهائته بهم ؛ لذا لم يكن لنا
بد من أن نقف بعض الشيء للحديث عن هذه الشخصية التي تعد أظهر مثال
على تخطي عقيدة الولاء والبراء وعلى ضربها في الصميم ، وتعتبر سابقة في
المضمار التغريبي الذي يناقض هذه العقيدة ورائدة له في العالم الإسلامي .

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٣٧ وهذه الواقعة مما يدمغ به دعاة القومية والوطنية .

ويكفي في ذلك ما أورده الجبرتي المعاصر لهذه الشخصية ، وما سجله عليها من سيئات ، وما رصد لها به من تحركات مشبوهة ، وانتهاكات مكشوفة ، مع أن الجبرتي يقف بتاريخه عند نهاية سنة ١٢٣٦ هـ أي بعد حوالي ستة عشر عاماً من ارتقاء محمد علي لعرش مصر . وهي في نظرنا فترة كافية استطاع خلالها أن يسبر غور شخصية محمد علي ويعرف مداخلها وتوجهاتها ، ويلم بتطلعاتها وأهدافها^(١) .

ومع ذلك فقد استمر محمد علي في سدة الحكم بعد ذلك حوالي تسعة وعشرين عاماً ، لم يدركها الجبرتي^(٢) ، وعمل في تلك المدة من الزمن ما لم يكن يخطر على بال الجبرتي من الأعمال وأضعاف أضعاف ما انتقده عليه ، وسجله في تاريخه .

والآن ننتقل إلى عقيدة الولاء والبراء ، وإلى موقف محمد علي منها ، لنرى كيف كان يتعمد تحطيمها وإزالتها من قلوب المسلمين ونفوسهم ولو

(١) انتقد كثير من المؤرخين ذوي المنهج الاستشراقي الجبرتي في إسرافه كما يقولون في نقد محمد علي ، وقالوا : إن الجبرتي لم يعيش ليرى ثمرة ما قام به محمد علي من أعمال عظيمة . وهذا واضح مع تأثير الميكافيلية ؛ إذ يبررون الوسيلة بالغاية ، هذا على فرض أن غايته كانت نبيلة مع أن هذا خلاف الواقع .

انظر : الجبرتي ومحمد علي - بحث ضمن ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦ .

(٢) لأنه قد توفي عام ١٢٣٧ هـ على المشهور من الروايات . بعد أن قتل ولده فبكاه كثيراً حتى ذهب بصره ، ولم يطل عماء فقد عاجلته وفاته ، مخنوقاً بشارع شبرا . ونظراً للآراء الجريئة التي أطلقها في تاريخه ضد محمد علي باشا ، وعدم غمقه إياه ، وممالأته له ، ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن محمد علي كان وراء تلك الجريمة البشعة ، خصوصاً أنه كان خارجاً لتوّه من قصره بشبرا ، وكان الجبرتي يشغل منصب إفتاء الحنفية في عهد محمد علي . وقيل أن محمد بك الدفتردار وهو صهر محمد علي كان يحقد عليه فدرس له من قتله ، وتلك حجة أخرى تدين محمد علي لمكانة الدفتردار منه ، ولا يبتعد أن يكونا متواطئين . انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ٣٠٤ .

بالقوة والنار ، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات الصليبية واليهودية .

ونحن بعد ذلك نوميء إيماءات سريعة لضيق المقام . فمن ذلك بيعه للغلال والحبوب إلى الإنجليز وغيرهم من الإفرنج حتى شحت الغلال وغلت الأسعار وخلت منها الأسواق ، بل أمر بمداهمة البيوت والدور لكبس الأقوات المدخرة ، بدون ثمن^(١) لسوقها إلى الكفار الإنجليز الذين كانت تجوب أساطيلهم البحار لضرب المسلمين والتربص ببلادهم ، والاستعداد للاستيلاء عليها . وأحدث مكوساً جديدة ، وفرض ضرائب باهظة ، حتى لقد ارتفعت الأسعار بشكل عظيم ، وزاد ثمن كثير من البضائع إلى أكثر من عشرة أضعاف ثمنها^(٢) .

وحل الكرب والضيق بالمسلمين ، وأوذوا في معاشاتهم وأرزاقهم إيذاء عظيماً^(٣) .

وإن كان من ذكرنا من بكوات مصر قد ركنوا إلى بعض النصارى ، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، فإن محمد علي كان قد اعتاد أن يكون

(١) عجائب الآثار ٣/ ٣٤٢ ، ٣٦٣ .

(٢) يذكر الجبرتي أن الثوب الذي قيمته مائتي نصف فضة أصبح بألفي فضة ، وأن النعل الذي كان يباع بستين نصفاً صار يباع بأربعمائة نصف ، والذراع الواحد من الجوخ كان يباع بمائة نصف فضة فبلغ ثمنه ألف نصف فضة . هذا سعر الدولة غير ربح البائع وطمع التاجر كما يقول الجبرتي . المصدر السابق ٣/ ٣٧١ .

(٣) يقول ﷺ في الحديث الصحيح : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» . أخرجه مسلم ٣/ ١٤٥٨ في كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية برقم (١٨٢٨) ، والإمام أحمد في المسند ٦/ ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

أغلب المحيطين به من النصارى واليهود^(١) ، الذين قد تغلغلوا في حكومته وبلاطه ، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته ، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها ، والذين ليس لهم شغل إلا فيما يزيد مكانتهم وحظوتهم عند مخدومهم وموافقة أغراضه ، وتحسين مخترعاته ، وربما ذكروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات ، وما يتحصل منها من المال والمكاسب^(٢) .

وقد أظهر الجبرتي - رحمه الله - ألمه وتأسفه لما وصل إليه حال الكفار ، والمكانة التي تبوءوها في عهد محمد علي وأنهم صاروا أعيان الناس ، ويتقلدون المناصب الرفيعة ويلبسون ثياب الأكابر ، ويركبون البغال والخيول المسومة والراهوانات وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم ، وبأيديهم العصي يطردون الناس ويفرجون لهم الطرق^(٣) ، ويتسرون بالجواري بيضاً وحبوشاً ، ويسكنون المساكن العالية الجليلة يشترونها بأعلى الأثمان .

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين . التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي ص ١٥٩ . د . زكريا سليمان بيومي . عالم المعرفة . جدة . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

(٢) عجائب الآثار ٣ / ٥٤٨ .

(٣) هذا بدلاً من تضييقها عليهم كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تبعدوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإنذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى اضيقه » أخرجه الترمذي برقم ٢٧٠٠ كتاب الاستئذان . باب ما جاء في التسليم على أهل الذمة وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أبو داود برقم ٥٢٠٥ كتاب الأدب . باب في السلام على أهل الذمة . وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني . انظر صحيح أبي داود برقم (٤٣٣٧) .

ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر للنزهة ، ومنهم من عمر له داراً ، وصرف عليها ألوفاً من الأكياس ، وكذلك أكابر الدولة لاسيتلاء كل من في خطة على جميع دورها ، وأخذها من أربابها بأي وجه ، وتوصلوا بتقليدهم مناصب البدع^(١) إلى إذلال المسلمين ؛ لأنهم يحتاجون إلى كتبة وخدم وأعوان والتحكم في أهل الحرفة بالضرب والشتم والحبس من غير إنكار ، ويقف الشريف والعامي بين يدي الكافر ذليلاً^(٢) .

ومن البديهي بعد أن قد أحاط محمد علي نفسه ببطانة من اليهود والنصارى ، أن يعتمد عليهم كثيراً ، وأن يسند إليهم عدداً كبيراً من المناصب الهامة في الدولة ، ومع ذلك فلولا خوفه وخشيته من إثارة المسلمين وتآلبهم عليه لاعتمد عليهم بالكلية ولأسند إليهم جميع المسؤوليات والمناصب دون مواراة .

وهذا ما عبر عنه محمد علي بنفسه حين هلك كاتب الخزينة في عهده وكان رجلاً نصرانياً يدعى عبود النصراني ، وكان محمد علي يحبه ويثق فيه ويقول عنه : لولا الملامة لقلدته الدفتردارية^(٣) .

والملامة التي كان يخشاها محمد علي هي جزء من بقايا هذه العقيدة الطيبة في نفوس المسلمين من بغض للكفار ومعاداتهم تجعل الباشا المفتون

(١) يعني الضرائب والمكوس المحدثه .

(٢) المصدر السابق ٦٢٣/٣ .

(٣) المصدر السابق ٦٠٢/٣ . والدفتردار وظيفته إدارة الشئون المالية وضبط الخراج والدخل ويده سجلات ملكية الأرض . وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية . تاريخ الحركة القومية ٢١/١ .

بهؤلاء الكفار يتوقف بعض الشيء في ولائه السافر لهم ، وفي نقل خطوات مسيرته التغريبية بالامة^(١) .

ومع ذلك فإن هؤلاء الكفار كانوا يشكلون مراكز الثقل في دولة محمد علي ، وخصوصاً في المجالات المهمة كالشئون المالية والتعليمية والعسكرية ، ولئن كان الدفتردار ليس واحداً منهم^(٢) . فإن جميع الوظائف المالية الأخرى تقريباً قد احتكرها النصارى وغيرهم . فقد مر معنا أن كاتب الخزينة كان نصرانياً ، وكذلك فإن جميع الكتبة والصيارفة كانوا من النصارى أيضاً .

أما وزارة الخارجية فطبيعي جداً أن تكون من نصيب النصارى حيث العلاقات كانت قائمة على أشدها مع الدول الأوروبية وقد أسند هذا المنصب الهام إلى وزير أرمني يدعى باغوص بك الأرمني^(٣) .

أما إدارة الجمارك وهي من الوظائف المهمة فقد كان يرأسها رجل نصراني له أعوان وجند كما يقول الجبرتي يحجزون أمتعة الناس ، ويقبضون على المسلمين ، ويسجنونهم ، ويضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم ، ومن العجب على حد قوله أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها وبضائع الإفرنج والنصارى ومن ينتسب إليهم يؤخذ عليها من المائة اثنان ونصف^(٤) .

(١) أما في زماننا هذا فقد خفت صوت هذه العقيدة إلا عند قلة من الناس ، فلم يعد الحكام يخشون من ملامة أحد فيما يقومون به في وضع النهار من ولاء للكفار وتبعية مخزية لهم بل كثيراً ما تصفق لهم الشعوب لأجل ذلك .

(٢) وكان اسمه محمد بك وهو صهر محمد علي وزوج ابنته وشريكه في الظلم والعسف والجور .

(٣) رحلة كنغليك إلى الشرق ص ١٢٢ . ترجمة محمود العابدي . جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان ١٩٧١ م .

(٤) عجائب الآثار ٣/ ٣٧١ .

وما دام أن رئيس الجمارك نصراني حقود فلا نعجب بعد ذلك من التفاوت المذهل في أخذ الرسوم على الواردات من البضائع بين المسلمين وغيرهم . حيث يؤخذ على المسلمين من الرسوم أربعة أضعاف ما يؤخذ على غيرهم من كفار العالم .

٢٥٪ إلى ١٠٪ تفاوت ظالم ، وربما كان ذلك تأليفاً للوافدين من التجار كما فعل الباي!! وعلى أي حال فلا يعدو ذلك المثل عن كونه واحداً من الأمثلة الصارخة على استهانة محمد علي بعقيدة الولاء والبراء وعدم تقديره لها .

وقد أصبحت مصر في عهد محمد علي وبالذات القاهرة محط نزول الكافرين من كل جنس ، وذلك باستدعائه لكثير منهم ، وفتح المجال أمام استثماراتهم وتجاراتهم ، مما جعل البلد تضيق بالسكان ، وتغص بالقادمين من الكفار الذين ضايقوا المسلمين في معاشهم حتى إن الإنسان ليقاسي الشدة والهول إذا مر بالشارع من الازدحام الشديد ، وبالإضافة إلى طوائف اليهود والنصارى فقد استدعى أعداداً غفيرة من الدروز والمتولة والنصيرية وغيرهم من الفرق الخارجة عن الإسلام^(١) .

وحق لمدينة مثل القاهرة التي لم يكن يتجاوز طولها في ذلك الوقت الخمسة كيلو مترات . أن تكتظ بهؤلاء الكافرين الذين تسابقوا إليها من كل حذب وصوب .

وفي تلك الفترة التي نقوم بدراستها كانت تكثر الاضطرابات ، وتشيع الفتن والمصادمات ، خصوصاً بسبب ثورات العسكر المتلاحقة لقطع

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٦٨ .

المرتبات وغير ذلك ، وكان الشعب هو الضحية لتلك الثورات المحمومة .
وفي إحدى تلك الثورات العسكرية التي نهبت فيها الأسواق ، وحطمت خلالها الحوانيت . أراد المسلمون في أثنائها أن يحصنوا بعض الحارات النافذة ويقوموا بإغلاقها حتى يقطعوا الطريق على جموع العساكر الهائلة ولكن كتحدا الباشا^(١) منعهم من ذلك ، في نفس الوقت الذي كان محمد علي يمد فيه النصارى بالبارود وآلات الحرب ، بعد أن أتموا تحصين جهاتهم على أكمل وجه^(٢) ، وهذه الواقعة تغني عن أي تعليق ، وتدل على مدى العلاقة المريبة في الخفاء بين محمد علي ونائبه من جانب وبين النصارى من جانب آخر .

وحين قام محمد علي بإجراء واسع النطاق لهدم الدور والمساكن التى بها شيء من الخلل ، كانوا يأمرؤن صاحب البيت الذي تم الكشف عليه بهدمه ثم تعميره ، وإن كان يعجز عن ذلك فإنه يؤمر بإخلائه ، ويعاد بناؤه على طرف الميري^(٣) وتصير من حقوق الدولة فهدمت مئات الدور التى كان يملكها أو يسكنها المسلمون .

(١) الكتخدا بمعنى : نائب الوالي . انظر الحركة القومية ٢١ / ١ .

(٢) عجائب الآثار ٤٨٧ / ٣ . وما ينبه عليه أن هذه الثورة العسكرية العارمة كانت بسبب محاولة محمد علي إدخال ما يسمى بالنظام الجديد في الجيش الذي لا يعني سوى نقل النظام الأوربي الأفرنجي برمته إلى مصر . ومن الغريب في الأمر أن محمد علي قد قام بتعويض المنهويين مع شدة ظلمه وذلك خشية اجتماع الأهالي مع العسكر ضده . كما يقول الجبرتي - في وقت هو في أشد الحاجة لكسب الناس لتنفيذ خطواته التغريبية ، والأغرب من ذلك مواكبة هذا العمل التغريبي في مصر لعمل تغريبي آخر في تركيا كان يتولاه السلطان محمود الثاني مما يدل على أن المخطط واحد وإن اختلف المنفذون .

(٣) الميري : الدولة وهي عامية محرفة عن كلمة الأميري .

أما النصارى فلنستمع الى كلمة للجبرتي في ذلك حيث قال : وأما نصارى الأرمن وما أدراك ما نصارى الأرمن الذين هم أخصاء الدولة الآن فإنهم أنشؤوا دوراً وقصوراً وبساتين بمصر القديمة . . . فهم يهدمون أيضاً وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا ولا حرج عليهم ، وإنما الحرج والمنع والحجر والهدم على المسلمين من أهل البلدة فقط^(١) .

وعندما تولى الحسبة رجل يدعى مصطفى كاشف أراد أن يعيد الكفار الى حالتهم التى كانوا عليها قبل مجئ محمد علي إلى سدة الحكم ، فأمر مناديه بمصر القديمة أن ينادي على نصارى الأرمن والأروام والشوام بإخلاء البيوت التى عمروها وزخرفوها وسكنوا بها والمطلة على النيل ، وأن يعودوا إلى زيهم الأول من لبس العمائم الزرق ، وعدم ركوبهم الخيول والبغال والراهوانات الفارحة واستخدامهم المسلمين .

ولكن محمد علي قطع الطريق على هذا الإصلاح ، وأمر بكف هذا المحتسب بعد أن تم زجره وتأنيبه ، وذلك بعد أن تقدم أعاضمهم إليه بالشكوى وهو يراعي جانبهم لأنهم صاروا أخصاء الدولة وجلساء الحضرة وندماء الصحبة كما يقول الجبرتي^(٢) .

ويمتد جبل الموالة والمودة للكافرين في عهد محمد علي إلى شيء آخر له خطورته البالغة ، وهو فتحه البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب ، واكتشاف الآثار ، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم^(٣) .

(١) المصدر السابق ٥٢١/٣ .

(٢) المصدر السابق ٥٦٦/٣ .

(٣) المصدر السابق ٥٧١/٣ ، ٦١٧ .

وإذا تجاوزنا هدفهم الرئيسي لتلك العمليات والتنقيب ، وهو وضع أيديهم على مراكز الثروة ، ودراستهم للمواقع دراسة تخطيطية ، مما أفادهم ولا شك في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢م خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الإنجليز .

فإن هناك أهدافاً أخرى قد تفوق ما ذكرناه خطورة لم يفتن لها كثير من الباحثين وندع الكلام لأحد المستشرقين ليكشف لنا هذه الأهداف البعيدة .

يقول ذلك المستشرق في كتابه «الشرق الأدنى ؛ مجتمعه وثقافته» : «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام ، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم الى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات . . .»^(١) .

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً ، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءاً بالفرنسيين ثم بالإنجليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة^(٢) .

(١) انظر واقعنا المعاصر ص ٢٠٢ .

(٢) والداية أن يقوم كثير من الباحثين والأدباء بترجمة لرحلات الكثيرين من هؤلاء الأوربيين الصليبيين الذين لم يتركوا بلداً إسلامياً إلا وطشوه بغية ما ذكرناه من الأهداف السابقة ، وينعتوها بأنها رحلات موضوعية ونزيهة هدفها خدمة الإنسانية ونشر العلم والمعرفة فحسب دون النظر إلى دين أو جنس ، ولكن سرعان ما يدهشك ما تجد في طيات هذه الرحلات من حقد صليبي دفين على الإسلام وأهله وعبارات مليئة بالسم الزعاف . وبعضهم كان يظهر صليبيته صراحة كما فعل الرحالة اليوت واربرتون في كتابة (الهلل والصليب) وكثير منهم يحاول عدم إظهار شيء من ذلك ، ولكن تأبى عليهم صليبيتهم الحاقدة التي رضعوها مع لبن أمهاتهم محاولة إخفائه ، وتفضح ما ادعوه من موضوعية وتجرد .

يقول الشيخ محمد قطب : «ولكن المخطط الخبيث الذي حمّله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام»^(١) .

وبذلك يكون محمد علي باشا قد ساعد هؤلاء الصليبيين في تنفيذ مخططاتهم والوصول الى أهدافهم بفتح البلاد لهم شرقا وغربا يجوبونها بحرية تامة .

ويذكر الشيخ محمد قطب أن فرنسا قد احتضنت محمد علي احتضاناً كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها حيث أنشأت له جيشاً مدرّباً على أحدث الأساليب ومجهزاً بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ وكان ذلك بإشراف سليمان الفرنسي ، وأنشأت له أسطولاً بحرياً حديثاً وترسانة بحرية في دمياط ، وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر ، وكل ذلك كما يقول الشيخ ليس حباً في شخص محمد علي أو حباً في مصر ، وإنما كان ذلك لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل ، وكان ذلك المخطط الخبيث يرمى إلى عدة

(١) المصدر السابق ص ٢٠٢ ويذكر الشيخ محمد قطب حافظ إبراهيم مثلاً لهؤلاء الذين نجح الصليبيون في ذبذبة ولائهم بين الإسلام وبين النعرة الفرعونية . فمع شعر حافظ الإسلامي الكثير ، فإن له شعراً يفتخر فيه بالفراعنة وآثارهم ، ويتنسب فيه لغير الإسلام كقوله :

أنا مصري بناني من بنى
هرم الدهر الذي أعيا الفنا
وأصبح كثير من أبناء المسلمين يتنسب ليس للإسلام ولكن لأُمّ جاهلية بائدة عفى عليها
الزمن ، ويحني رأسه خجلاً إذا نسب إلى الإسلام .

أمور منها : القضاء على الدولة العثمانية ، والقيام بتغريب العالم الإسلامي عن طريق تغريب مصر - بلد الأزهر^(١) .

وقد قام محمد علي بالدور خير قيام ! فإن الجيش الذي صنعه له فرنسا ، وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوي قد استخدمه محمد علي لا في محاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية فحسب ، بل في محاربة الدولة نفسها ! وقد كاد أن يقضى عليها لولا تدخل بريطانيا خوفاً من استئثار فرنسا بصداقة السلطان وبالنفوذ في مصر ، وفي الوقت نفسه لتخدم الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى ؛ فقد أوقفت بريطانيا محمد علي عند حده في الظاهر ، ومنعته من مهاجمة الدولة ، وفي الوقت ذاته ضمنت له الاستقلال الفعلي عن الدولة ، والاستئثار بحكم مصر حكماً وراثياً ينتقل في ذريته ، مع التبعية الاسمية للسلطان !! هذا بينما تجمعت أوروبا الصليبية كلها لتحطيم محمد علي في معركة «نافارين» لأنه نسي نفسه وتجراً على مهاجمة دولة صليبية هي اليونان ، فقد كبرته الصليبية وسلحته لمحاربة الإسلام فقط ، فإذا فعل ذلك فله كل العون ، وأما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص ، فمس أحد الصليبيين بسوء ، فهنا يجب تأديبه ، بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر^(٢) .

على أن الجرم العظيم الذي تولى كبره محمد علي باشا هو قيامه بضرب الاتجاه الإسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين ، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

على مصالحهما ، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر^(١) .

وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى^(٢) .

وقد سرت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر ، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة بما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية^(٣) ، ومن ذلك بالطبع ضرب الاتجاه السلفي في الجزيرة العربية .

أما تغريب العالم الإسلامي فقد عمل محمد علي على تحقيقه بفرض سياستين تغريبيتين ، كانت الأولى تقضى بابتعاث الطلاب الشبان وإرسالهم الى أوروبا ليتعلموا هناك .

وكان هذا - كما يقول الشيخ محمد قطب - أخطر ما فعله في الحقيقة . . لأنه من هناك بدأ «الخط العلماني» يدخل ساحة التعليم ، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية^(٤) ، وقد كان من هؤلاء المبتعثين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي إمام إحدى البعثات وشيخها ، والذي عاد حاملاً معه بذور التغريب والعلمنة كالدعوة الى تحرير المرأة ، وأخذ يسهم في زعزعة عقيدة الولاء والبراء بإغراقه في مديح أوروبا الكافرة والثناء عليها في كتب كثيرة لعل من أبرزها كتابه في مدح باريس^(٥) والذي قيل إنه أهدها الى محمد علي فقبله

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٧ .

(٣) الخطط التوفيقية ١٠/١٧٧ علي باشا مبارك . دار الكتب . الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

(٤) واقعنا المعاصر ص ٢٠٧ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

باحترام. وقد بلغ عدد من أرسل من المصريين إلى سنة ١٨٤٢ م مائة تلميذ^(١).
وقد كاد أن يتم إرسال أطفال بين الثامنة والتاسعة الى أوروبا ، واشترط
نوبارا باشا وهو سكرتير إبراهيم باشا ولي عهد محمد علي ونجله الأكبر
أن يفصل بعضهم عن بعض في المعيشة أو يوضع كل اثنين في غرفة صغيرة^(٢).
ولكن هذا المخطط الخبيث أوقف تنفيذه بسبب هلاك إبراهيم باشا -
حتى جاء الخديوى توفيق ونفذ ذلك المخطط وبدأ بإرسال نجليه الأميرين
عباس حلمي ومحمد علي إلى سويسرا وكان عمر الأول اثنتي عشرة سنة
والثاني عشر سنوات^(٣).

أما السياسة التغريبية الثانية التى سار عليها محمد علي فهي إنشاء نظام
تعليمي جديد على نسق الأنظمة التعليمية في الغرب .

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : «ومهما يكن من شيء ، فقد
ظهر لمحمد علي أن التعليم في الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه . . كما ظهر
له أن التعليم الغربي أو التعليم الذي عرفته أوروبا في عصره كان وحده
الوسيلة لتحقيق أغراضه ، وكان هذا كافيا ليحمل محمد علي أن يحول وجهه
عن الأزهر و «الكتاتيب» وينشئ بجانبها «نظاماً تعليمياً» قائماً بنفسه ،
مقتبساً من الغرب ، وليس بينه وبين النظام التعليمي القديم إلا ما يكون بين

(١) البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية محمد فريد بك - المطبعة الأميرية
ببولاق ١٣٠٨ هـ .

(٢) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٤٣٢ . أحمد عزت عبد الكريم . مكتبة النهضة
المصرية ، ط ١٩٣٨ م . وذلك حتى يسهل صهرهم تماماً في المجتمعات الأوربية ، وما
عسانا كنا ننتظر من هذا السكرتير الصليبي .

(٣) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٤٣٣ . وقد تولى الأول حكم مصر بعد ذلك .

نظامين يقومان جنباً إلى جنب ويتجاذبان تعليم نابذة البلاد^(١) .

وإلا فلو كان محمد علي مسلماً حقاً ولم يكن منفذاً لأهداف الغرب ومخططاته لاتجه إلى إصلاح الأزهر والتعليم في عصره بردهما إلى الوضع الصحيح ، ووضع كل إمكانياته التي استغلها في التغريب في سبيل ذلك الهدف الكبير .

ولكن محمد علي قد أصر على السير بالأمة في المضمار التغريبي المؤدي إلى الحياة الغربية وأساليبها وثقافتها ، فقرر إنشاء نظام تعليمي كامل من المرحلة الابتدائية إلى المراحل العليا ، وفتح المدارس على غط المدارس الغربية . وقد لجأ محمد علي إلى طريق الترجمة ، حيث ترجمت كثير من الكتب في مختلف العلوم والقوانين العسكرية والبحرية ، وقام بابتعاث الطلاب إلى هناك ، واستقدام الأساتذة الأجانب إلى المدارس الجديدة التي أنشأها^(٢) . على أن هناك هدفاً خطيراً كان يرمي إليه محمد علي باشا من وراء إنشاء هذا النظام التعليمي الجديد ألا وهو إلغاء دور الأزهر في المجتمع ومن ثم القضاء عليه بصورة غير مباشرة ، وذلك حين يقوم بفتح العديد من المدارس ذات المميزات العالية التي تؤهل الدارسين فيها لتبوؤ المناصب الهامة ، والأعمال الرفيعة في دولة الباشا .

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : «ولكن ابتعاد الأزهر عن مجال التوظيف أو عدم اتخاذه الأهبة لإعداد تلامذته بما يؤهلهم للحياة وللمجتمع الذي يعيشون فيه لم يلبث أن باعد بينه وبين كثير من خاصة الناس وصرفهم

(١) المصدر السابق ص ٥٨٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠ .

عنه الى حد كبير . فقد كانت المناصب التى يصيبها خريجو المدارس ، والثراء والاحترام اللذان يحظون بهما في أنحاء البلاد من سواد الناس ومن إليهم . . . كل أولئك كان يخلب ألبابهم ويستهوهم الى المدارس التى تقدم لهم هذا كله»^(١) .

وهل يكون إلغاء دور الأزهر وتحجيم أنشطته إلا بصرفه عن مجالات التوظيف ، أو على الأصح بصرف مجالات التوظيف عنه . . ؟ وقطع صلته بالحياة العامة . . ؟

وحين أنشأ محمد علي مدارسه الحديثة كان محتاجا الى معلمين للغة العربية ولم يكن هناك بالطبع غير الأزهر .

لذا فقد اتجه محمد علي إليه وأخذ منه ما يكفي مدارسه ومكاتبه من المعلمين ، فكانوا فريقا هاما من موظفي المدارس^(٢) .

ولكن ياترى كيف كانت معاملته لهؤلاء الأزهرين الذين أعوزته الحاجة إليهم وقاموا بدور كبير في تدريس اللغة العربية وفروعها داخل المدارس التى أنشأها كما يشهد بذلك كل من كتب في التعليم في ذلك العصر . . ؟

يجيبنا على ذلك الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فيقول : «وكانت الحكومة تعلم أنهم لم يكونوا يمنحون في الأزهر مرتبات كبيرة ، ولهذا نراها تبخل عليهم بتلك المرتبات وترى أنهم إنما يقومون «بمقاصد خيرية» ثوابها عند ربهم !! فقد كان هناك مدرسون بل رؤساء مدرسين قضوا بمدارسهم اثنى عشر عاما لا يصيبون من الحكومة إلا مائتي قرش في الشهر ، وهو قدر

(١) المصدر السابق ص ٥٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٥ .

ضئيل يناله خريج مدرسة خصوصية حديث العهد بالوظائف ، ثم هي تبخل عليهم بعد هذا ببضعة قروش تضيفها إلى مرتباتهم .

أما مكاتب المبتديان^(١) فقد كان نظارها من علماء الأزهر . . . وكان المشايخ من الأزهر وما إليه هم القائمون بالتدريس في مكاتب المبتديان . . . وكان مرتب الواحد منهم أربعين قرشا في الشهر أي بزيادة عشرة قروش على مرتب (الحلاق) أو الخياط . . . وكان كاتب المكتب يصيب من المرتب أكثر مما يصيبه المعلم بعشرين قرشا وكان يحمل الحكومة على هذا ما ذكرنا من أنها كانت تعلم أن أهل الأزهر لم يكونوا يصيبون فيه إلا أجراً ضئيلاً أن كانوا قوما زاهدين ، لا يغرنهم متاع الحياة الدنيا»^(٢) .

وما ذكر من تبرير ساقط لا يمكن أن يخفي أبداً مقدار البغض والاحتقار الذي كان يكنه محمد علي للأزهر ورجاله .

وإن كان الإنجليز فيما بعد قد نهجوا نفس السياسة في احتقار الأزهرين وبخسهم مرتباتهم وحقوقهم ، وفي إقصائهم عن مجالات التوظيف^(٣) .

فليس ذلك بمستغرب منهم ، ولكننا نستغرب أشد الاستغراب أن يقوم

(١) يعني : الابتدائية . والمبتديان لفظة تركية معناها «المبتدئون» بزيادة الألف والنون على الطريقة التركية مثل مجلس المبعوثان أي المبعوثين . من فوائد المشرف حفظه الله .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٥ . لا شك أن الأجواء الموبوءة بالتصوف هي التي أوجت إلى محمد علي ورجال دولته إلى التعلل بمثل هذا الهراء الساقط للذليل من الأزهر ورجاله الذين كانت تعصف بهم رياح التصوف وأمواجه حين كان الفقر والحرمان والإعراض عن الدنيا تماماً منزلة يتسابق الناس إليها . ووجد هؤلاء التغريبيون المجال رحباً للسخرية بهؤلاء الأزهرين الذين يعملون عندهم طلباً للأجر في الآخرة ، وراضين بما تلقاه الحكومة لهم من فتات .

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢١٧ .

بمثل ذلك من يحسب على الإسلام والمسلمين ، ويدّعي الإسلام مثل محمد علي .

ولكن سرعان ما يزول هذا الاستغراب إذا عرفنا أن القائمين على التعليم في عهد محمد علي كان معظمهم من الغربيين النصارى ، فمجلس شورى المدارس وهو الهيئة العليا للتخطيط والتنفيذ كان جميع أعضائه من الأجانب ما عدا ثلاثة .

على أن هناك أمرا تجدر الإشارة إليه حول ما ذكر من ضالة الأجور والمرتبات في الأزهر والتي كان من أهم أسبابها قيام محمد علي بالاستيلاء على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة ، وبالتالي إحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر^(١) .

وحتى الكتابيب التى تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين ، لم تنج من غائلة محمد علي ؛ فقد ذكر الجبرتي - رحمه الله - أن كثيرا من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها^(٢) .

وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها . وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم (في عهد الشيخ محمد عبده) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة ، وقرر له بدل ذلك ما يساوي أربعة آلاف جنيه في السنة^(٣) .

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٧٩ .

(٢) عجائب الآثار ٤٧٨/٣ وتاريخ نظام التعليم في جمهورية مصر العربية ص ٨٠ منير عطا الله سليمان وآخرون الطبعة الثالثة ١٩٧٢م مطبعة الأنجلو المصرية .

(٣) مذكرات الإمام محمد عبده ص ٤٤ طاهر الطناحي ، دار الهلال .

هذه السياسة التغريبية^(١) التي نهجها محمد علي والمفروضة قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الرحيل كما سبق وذكرنا .

وهو أمر أكده المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي في قوله «كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر»^(٢) .

وهل يشك باحث عاقل بعد كل هذه الحقائق التي أوردناها أن محمد علي كان صنيعاً من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم .

وسواء أكان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي أو على الأخص تخطيط فرنسي أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره ونفاقه أو كان للأمرين معاً^(٣) ، فإن هذا كله لا يغير شيئاً ، ولا ينفي أن محمد علي قد احتوته الدول الغربية ، وأخذت تقوده في ركابها ، خصوصاً وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون دائماً كجنون العظمة

(١) ونسجل هنا ملاحظة ذكرها المؤرخون حول أهداف التعليم وغاياته في عصر محمد علي وأنها لا تعدو تخريب جيل يدين بالولاء التام لشخص محمد علي - أو الجناح العالي كما كانوا يسمونه - ويتقرب بخدمته . تاريخ التعليم في عصر محمد علي - ص ٦٢١ أما أن يكون الهدف هو إعداد جيل من الشباب المسلم يخدم دينه وأمته فذاك أمر لا يتفق مع سياسة محمد علي في ولائه للغرب وتبعيته له .

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٢ .

(٣) ويرجح عندي الأمران معاً ، وإن كان من يقرأ تاريخ الجبرتي يستبعد الأمر الأول ويعجزم بالأمر الثاني ، إلا أن الظروف تشير إلى وقوع الأمر الأول كما يقول الشيخ محمد قطب . ويؤيد هذا د . زكريا سليمان بيومي الذي أشار مع غيره من الباحثين إلى دور الماسونية الفرنسية في تولية محمد علي . انظر قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٦٠ - ١٧٠ وواقعا المعاصر ص ٢٠٥ وما بعدها . وليس عجباً بعد هذا أن يتابع محمد علي أخبار حروب نابليون وفرنسا ، وأن يوافيه القنصل الفرنسي في القاهرة بهذه الأخبار أولاً بأول وتشر في ملصقات على الجدران في حارات الأجانب وغيرها .

وغلظة القلب وفضاظة الطبع ورقة الديانة أو عدمها^(١) .

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء ، واستخدام سياسة العسف والإرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته ليتنزح هذه العقيدة من قلوب المسلمين ، ويقضي عليها قضاء مبرماً .

ويحسن بنا لتتضح لنا الصورة تماماً أن ننقل مقتطفات من مصدر غربي هو عبارة عن رحلة قام بها إلى الشرق الإسلامي أحد الرحالة الإنجليز في الثلث الأخير من حكم محمد علي . ويدعى «كنغليك» عام ١٢٥٢ - ١٢٥٣ هـ ، ١٨٣٣ - ١٨٣٤ م ؛ حيث زار كلاً من لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان الرازحة تحت حكم محمد علي باشا ، ودون ملاحظاته ومشاهدته ، وأبدى سروره وإعجابه بما كان يتمتع به الأوروبيون في تلك البلاد من نفوذ عظيم ، وبالسطوة والرهبة التي كانت ترافقهم خلال تنقلاتهم داخل الأقطار الإسلامية فلا يجروء أحد من المسلمين على تصويب النظر إليهم فضلاً عن معارضتهم أو انتقادهم .

يقول ذلك الرحالة الصليبي المدعو «كنغليك» عندما زار مدينة «نابلس» :
«تعتبر «نابلس» مركز التعصب الإسلامي^(٢) ، وأذكر أنه ظهر في أسواقها - قبل وصولي إليها ببضعة أشهر - رجل باللباس الأفرنجي وقد اعتبر هذا تحدياً

(١) يقول الشيخ محمد قطب : ليس من باب المصادفة أن الذين اختيروا للأدوار الكبرى في حرب الإسلام كانوا متصفين بجنون العظمة وقسوة القلب من أمثال محمد علي وكمال أتاتورك وجمال عبد الناصر . . ذلك أنهما صفتان لازمتان لمثل هذا الدور العظيم . واقعنا المعاصر . هامش ص ٢٠٥ .

(٢) هذا الذي أطلق عليه التعصب الإسلامي لم يكن إلا عبارة عما كان يتوهج في قلوب المسلمين هناك من بغض للكفار وامتنال لبعض الأحكام المختصة بهم من دون المسلمين التي وردت في الشرع .

للسكان ، فاهتاجوا لذلك وهاجموه في صورة جنونية إلى أن قضى إبراهيم باشا^(١) بعنف على هذا الجمود والصلف فلم يعودوا يجسرون على توجيه أي إساءة لأي أوروبي فيما بعد .

وعندما تجولت في الطرق والأسواق ، وجدت الأمن مخيماً فاطمأنت ، ولكن هذا لم يكن ليمنع الرجل منهم أن يوقف عمله ويرميني بنظرات حادة^(٢) ، وكأن لسان حاله يقول (ما شاء الله) . . . كيف شاءت قدرته تعالى أن يسمح لكلب نصراني بالسير في طريق المؤمنين^(٣) .

ويذكر أيضاً أنه كان ماراً في السوق ، فمد شخص لسانه تهكماً واحتقاراً ، فداهمه ديمتري (أحد المرافقين لكنغليك وهو صليبي متعصب كما يقول صاحب الرحلة) بحصانه وطرحه أرضاً أمام كل الناس الذين لم يجروا على إظهار أي عنف أو قوة^(٤) .

ثم يذكر أن السوق الرئيسية بدمشق كان بها ممشى للمارة وحوله صفة ترتفع قدمين أمام الدكاكين ، لم يكن يسمح لغير المسلمين أن يمشوا عليها . فلما جاء القنصل البريطاني وسويت الأمور ، وبينما كان كنغليك يمشي على هذا الرصيف الممنوع من قبل وكأنه في أحد أسواق لندن على حد تعبيره ، يقول : إن أحد الرعايا المسيحيين كان يمشي على الأرض الواطئة وينظر إليه باستغراب ، ثم تشجع بعد ذلك وارتقى هذا الرصيف وسأيره في الطريق

(١) الابن الأكبر لمحمد علي وحاكم الشام من قبل أبيه . وكان أكثر انفتاحاً على الغرب من والده كما يروي ذلك الغربيون أنفسهم . انظر ترجمته في الأعلام ٧٠ / ١ .

(٢) أترى حتى هذه النظرات . التي لم يبق للمسلمين سواها للتنفيس عما يلتهب في صدورهم . يريد هؤلاء الأوروبيون من محمد علي باشا ونجده الموهوب إسكاتها بالمرّة ؟ .

(٣) رحلة كنغليك إلى المشرق ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٣ .

وهو يظهر افتخاره عندما يرى أحداً من أبناء دينه يمشي على السراط
المخصص للمؤمنين والمحرم على الكفار .

ثم يذكر أنه قابله فيما بعد وأنه قال له بالحرف الواحد : أنا أيضاً إنجليزي
واعتبر أعداء الإنجليز أعدائي ، ولكننا شعب واحد والمسيح ملكنا ، ثم يقول
كنغليك بعد هذا : إنني لم أجد مبرراً لهذا الشعور المرير المكبوت في نفوس
المسيحيين في الشرق^(١) .

بلى إن المبرر موجود ما دام أن الحقد الصليبي لا ينقطع أبداً ﴿وَلَنْ تَرْضَى
عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

ثم يقول : قبل سنتين كانت دمشق قد بلغت الذروة في كره المسيحيين
الأوربيين حتى لم يتجاسر أحد أن يظهر في أسواق دمشق وهو يرتدي
اللباس الفرنسي ، ولكن جهود المستر فارين - قنصل بريطانيا - وضعت حداً
لمصاعب الإنجليز في دمشق حتى أصبحت دمشق العربية آمنة من أكسفورد
الإنجليزية ، والتي لاقى فيها سائح أمريكي من الصعاب ما أدى إلى تدخل
قنصل بلاده لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية في العام الماضي^(٢) .

ويتضح من هذا القصص كيف استغلت سياسة العنف والإرهاب من
قبل محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا في القضاء على ما كانت تنطوي عليه
نفوس المسلمين من بغض وعداوة للكفار ، لأنهما كبر عليهما أن يرتعيا خلف
أذيال الأوربيين ، والمسلمون في بلادهم يكرهون هؤلاء الأسياد ورعاياهم
كرهاً شديداً ، لذا لم يكن لهما بد من اللجوء إلى وسائل القمع والإرهاب
لتنفيذ ما عزموا على تحقيقه .

(١) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣ .

ثم يذكر «كنغليك» حادثة جرت له في «نابلس» فيقول بعبارات نفثها الحقد الصليبي : «ولكن الله سلطني على مسلمي نابلس ، وسلط خدمي عليهم أيضاً ، فعندما تجمع عدد كبير منهم في الشارع الرئيسي ليروا موكبنا ، رأى «مسيري» (أحد رفاقه) تصرفاً منحرفاً^(١) من أحد المتعصبين فاقرب منه وجلله بسوطه ، وقد تسرب الخوف إلى نفسي من ثورة الجمهور علينا ، ولكنهم ارتدوا مبهورين ، ثم وقفوا لا يتحركون»^(٢) ، ولا أستطيع أن أتلصص تعليقاً لهذا النص الذي يغني عن أي تعليق . . .

ولم يفت الرحالة «كنغليك» أن يغمز الباشا المفتون ، ويذكر بتبعيته للغرب وعدم استقلاله الكامل بإصدار القرار إلا بعد موافقة أسياده عليه .

يقول «وبرغم وجود الجيوش المصرية الكثيرة فقد فهم كل فلاح»^(٣) أن أربعة أو خمسة من الوجوه الشاحبة في فيينا أو بطرسبورج أو لندن^(٤) يمكن أن ينزلوا الباشا المصري من عليائه بمجرد ورقة يكتبون عليها حكمهم عليه . وكان علم الأهالي أن قوة محمد علي مستمدة من القائد الفرنسي وفنونه الحربية ومن المحركات والآلات الإنجليزية . . .»^(٥) .

ثم يذكر كيف أن الأهالي من المسلمين كانوا يتنبئون وقوع بلادهم تحت

(١) ودنا أن أخبرنا عن حقيقة هذا التصرف المنحرف ، وما لا شك فيه أنه تصرف له علاقة

بامتعاض المسلمين من هذا الموكب الصليبي الصغير !

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً ﴾ [التوبة : ٨] .

(٣) يعني مسلم . وذلك لغلبة مهنة الزراعة على جمهور المسلمين في بلاد الشام وغيرها من البلدان .

(٤) في هامش الصفحة : يعني رجال السياسة .

(٥) وهذا أمر ظاهر كما قلنا ، وقد ذكرنا كلام الشيخ محمد قطب في احتضان فرنسا له .

الاحتلال والحكم الغربي المباشر إما الفرنسي أو الإنجليزي وذلك لتعاضد نفوذهما في البلاد^(١) .

كما لم ينس أن يسجل استياء المسلمين في الشام من حكم محمد علي إذ اعتبروا حكمه ضربة أصابت الإسلام وقضت على الفضائل الإسلامية^(٢) .

وفي هذا دليل على ما قررناه أولاً من أن هذه العقيدة لم تصب بالضعف على المستوى الجماهيري .

وقد حرص أيضاً على إظهار تأكيد النفوذ الأوربي وتغلغله في حكومة محمد علي وضرب على ذلك مثلين :

أحدهما : عن شيخ مسلم فر من الخدمة العسكرية جاء يلتمس من لابس البرنيطة الملعونة الحماية لصاحب العمة التي لم تعد ذات فائدة في حماية صاحبها .

والثاني : قائد الحماية العسكرية في غزة مثلاً كان يحرص على أخذ شهادة مكتوبة من سائح بسيط يزكي فيها حسن سلوكه ، ويعتبرها جائزة كبيرة وأنه ملك حظاً أوفر^(٣) .

ومهما قد يبدو في ذلك من المبالغة إلا أنه بالتأكيد يدل دلالة واضحة على تعاضد النفوذ الأوربي حتى ليصل الأمر أن يهرع بعض المسؤولين في حكومة الباشا إلى سائح مجهول ليلتمس منه ورقة يقدمها بدوره إلى حاكمه

(١) المصدر السابق ص ١١١ . وقد صدق حدس الأهالي الذين عايشوا ذلك النفوذ الخطير عندما سقطت سوريا تحت الاحتلال الفرنسي الغاشم عام ١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م بعد وقعة ميسلون المعروفة .

(٢) المصدر السابق ص ١١١ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٢ .

الذي لم يكن ليملاً عينيه ويرضى غروره إلا كل ما هو أوربي حتى لو كان ذلك الأوربي نكرة مهملاً في بلاده .

وقد قام ابنه إبراهيم باشا بإلغاء كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية، وذلك في أثناء حكمه للشام من قبل أبيه ، وقام بإعطاء النصارى امتيازات ؛ ومن ذلك فتح محلات علنية لبيع الخمر في دمشق والسماح بحمل الصليبان وشرب الخمر في الشارع^(١) .

وعندما ذهب إليه نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ويسطون أمامه ألمهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين لم يكن من إبراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسفي البال ؛ إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة؟^(٢) .

وقد شتم النصارى بأنوفهم ، وأشرأبت أعناقهم خصوصاً رجال الدين منهم في عهد محمد علي وابنه إبراهيم باشا ؛ ومن ذلك أن بطريك الروم مكسيموس في حلب وقت احتلال إبراهيم باشا لها كان يدور أحياناً في شوارع حلب وهو راكب بأبهة زائدة وموكب حافل يتلقى المسلمون منه ذلك كإرغام لهم وتعال عليهم وقاصداً إهانتهم^(٣) .

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٩٢ وما ذكر من أمور فيه إشارة إلى تأثير المحفل الماسوني عليه ودور هذا المحفل التابع لفرنسا في دعم أطماعه وأطماع أبيه .

(٢) الشرق الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٧٥ . حسين مؤنس . مطبعة حجازي . القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٣٨ م .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣ / ٣٧٥ كامل بن حسين البالي الحلبي الغزي . المطبعة المارونية ١٣٤٢ هـ .

أما اليهود فقد شملهم عطف الباشا ، ونعموا بالحرية التي أطلقها لهم ،
والامتيازات التي منحهم إياها .

وحادثة يهود صفد أوضح مثال على ذلك ؛ يوم أن ثار المسلمون عليهم
ونهبوا بعض أموالهم وممتلكاتهم ، ولسنا الآن بصدد الحديث عن هذه
الثورة وأسبابها ، إنما الذي يعيننا هو ما حدث بعد هذه الثورة من إصرار
القناصل الأوربيين على دفع التعويض من خزانة الدولة العلوية ، وقد بالغ
كل من القناصل واليهود في تقدير حجم الخسائر والمنهوبات ، أما قنصل
بريطانيا في الإسكندرية فقد قدر من مكانه هناك أن خسائر اليهود قد بلغت
سبعين ألف جنيه ، وهو رقم يفوق ما وقع أضعافاً مضاعفة .

ولم يسع محمد علي تحت ضغط القناصل إلا أن يصدر أمراً بتعويض
اليهود ، ولكن ليس من خزانة الدولة التي يملكها ، بل من أموال وممتلكات
المسلمين الذين تحمل فقراؤهم والمعسرون منهم ثقل هذا التعويض .

ومع علم محمد علي بكذب ادعاءات اليهود والقناصل ومبالغتهم في
تقدير الخسائر إلا أنه كما قال : « ما دام أصدقائنا القناصل أصروا وصمموا
على ذلك فتخلصنا من هذه القائلة . فقد صدرت الأوامر خطية إلى سليمان
باشا (الفرنساوي) ببيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسم أثمانها على
المدعين كذباً . وتلك الأوامر مرسلة عن طيه لتسليمها إلى القناصل ليوصلوها
بمعرفتهم إلى الباشا المومى إليه»^(١) .

(١) من مرسوم أصدره محمد علي باشا بتاريخ ٢٩ رجب ١٢٥٣ هـ . رحلة كنغليك هامش
ص ١٢٢ ووقوف القناصل الأوربيين بجانب اليهود أمر ليس بالغريب (بعضهم أولياء
بعض) . وإحراج الأسياد وإذلالهم لعملائهم أمر ظاهر للعقلاء ، وإن فهمه السذج
والمغفلون على غير ذلك الوجه .

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره المصريين ويحتقرهم ويزدريهم أيما ازدراء، كما قال أحدهم : إن محمد علي كان يحب مصر ولم يكن يحب المصريين .

وليس أدل من ذلك إلا قوله يخاطب الفرنسيين ويفاوضهم على مسألة احتلال الجزائر وهو : «ثقوا أن قراري . . لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي . . . وقد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها»^(١) .

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر ، حتى لقد هم - بعد أن جاءته الأوامر بالطبع ! - أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم ؛ لذا بادروا إلى إلغائها ، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلal^(٢) .

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما علمت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر في ذلك^(٣) .

وبعد فهذه وقفة متأنية مع واحد ممن حكموا المسلمين فترة طويلة وعملوا على القضاء على مظاهر هذه العقيدة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف

(١) قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية ص ٨٤ الدكتور سليمان الغنام دار تهامة، سنة ١٩٨٠ م ، ط الأولى ، وذلك الإسفاف في التعبير يفوق أي تعليق .

(٢) الشرق الإسلامي ص ٣١١ .

(٣) قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا . ص ٨٤ .

والإرهاب . وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً ، وإن كان الشكل الثاني كانت له آثار بعيدة المدى ، على عكس الأول الذي ما زاد هذه العقيدة في نفوس المسلمين إلا رسوخاً . واستحق بذلك جد الأسرة العلوية أن يكون رائد التغريب الأول في العالم الإسلامي ، وعلى رأس من لجوا في موالة الكافرين ، وأمعنوا في اتباعهم ، وسعوا في تقويض هذه العقيدة العظيمة بكل ما أوتوه من وسائل القوة التي كانوا يملكونها .

أما أولاد الباشا وأحفاده من بعده ، فقد ظلوا يتعاهدون ما غرسه لهم والدهم وجدهم من غراس التغريب والعلمنة ، ويسيرون في نفس الطريق التي مهدها أمامهم ، ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب ، وخطب وده^(١) .

«فسعيد باشا» قد توالى أعطياته وسخاؤه على منح الإرساليات التنصيرية فوق ما تحلم به من عون وتأييد .

(١) يقول الشيخ محمد قطب : كان محمد علي وأبناؤه حتى الخديوي إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم فأسسوا للنفوذ الفرنسي في مصر . . . حتى جاء توفيق فتغير الربان الذي يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه . واقعنا المعاصر ص ٢١٥ . ولعل من الإنصاف أن نذكر أن ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر وهو عباس باشا بن طوسون بن محمد علي الذي تولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا أواخر سنة ١٢٦٤هـ كان كما يقول المؤرخون شديد الكره للأوروبيين ، حذراً من دسائسهم . أنجد الدولة العثمانية بخمسة عشر ألف مقاتل في حربهم مع الروس المعروفة بحرب القرم . وقام بنفي السحرة والدجالين والمشعوذين إلى السودان . وأخذ عليه إغلاق كثير من المعاهد والمدارس لعله رأى في ذلك وضع حد للنفوذ الأوروبي . مات مقتولاً سنة ١٢٧٠هـ واختلف في سبب قتله ، ولا يستبعد أن يكون الأوروبيون وراء ذلك نتيجة لموقفه منهم . انظر الأعلام ٣/ ٢٦١ .

ومما قاله عباس باشا عن جده محمد علي : « لقد كان جدي يعتقد أنه حاكم مطلق ، وقد كان كذلك بالنسبة لنا وبالنسبة لخادميه ولأطفالنا ، غير أنه كان مستعبداً للقناصل العموميين » .

انظر : الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث ص ١٨٤ . د أحمد علي المجذوب . الزهراء للإعلام العربي . القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م .

فقد تفضل ذات مرة بإهداء إحدى الإرساليات قطعة أرض بالقاهرة في حي الخرنفش ، وليته اكتفى بذلك ، بل قام بمنحهم ٣٠ ألف فرنك سنة ١٨٥٩^(١) .

ومن العجيب أن الأقباط لم ينشئوا لهم مدارس «نظامية» حتى عهد «إسماعيل»^(٢) حين توالى عليهم هباته فأنشئوا مدرستهم الكبرى بجانب كنيستهم العامة وجعلوا التعليم فيها بالمجان ، وأباحوا لبعض المسلمين الالتحاق بها^(٣) .

أما اليهود فقد كان لهم مدرسة خاصة بأبنائهم في عصر «محمد علي» أسسها أحد أثريائهم ويدعى «مسيو كريمو» وسميت المدرسة باسمه .

أما في عهد «إسماعيل باشا» فقد صار لليهود أربعة مكاتب بالقاهرة ؛ اثنان منها للبنين ومثلهما للبنات ، ولهم مدرسة نظامية بالقاهرة أيضاً ، كما أنهم لم يهملوا إنشاء مكاتب لهم بالإسكندرية .

أما طوائف النصارى الأخرى فليسوا أقل مما ذكرنا؛ فإن الطائفة الأرمنية هي من أقل الطوائف في عهد محمد علي التي أنشأت مدارس على النظام الأوربي ، فقد أسست مدرسة «كالرسديان» ببولاق سنة ١٨٢٨ م وهي تابعة لبطركخانتها الأرثوذكسية .

أما الطائفة اليونانية ففي سنة ١٨٤٧ م أسست مدرسة «توستا» بشارع جامع مسجد العطارين بالإسكندرية ، وكانت هذه المدرسة أول مدرسة

(١) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٦٧١ .

(٢) ولى مصر عام ١٢٧٩ هـ وعزل عام ١٢٩٦ هـ وتوفي عام ١٣١٢ هـ وهو أول من أطلق عليه لقب «الخدوية» من رجال أسرته . انظر الأعلام ١/ ٣٠٨ . .

(٣) هؤلاء البعض حتماً كانوا من أولاد الأثرياء والوجهاء . . .

أنشأها اليونانيون بمصر . ومنذ ذلك الوقت أخذوا في تأسيس مدارس لهم .
أما الإيطاليون فقد بدأوا في إنشاء مدارسهم في مصر حوالي سنة ١٨٦٠م^(١) .

وبمثل هذه التسهيلات والدعم انتشرت الإرساليات في مصر بشكل كبير ، وانبرى النصارى على تنوع جنسياتهم ، واختلاف طوائفهم ومذاهبهم يتسابقون في إنشاء المدارس التنصيرية ، وتشديد دور العبادة الكنسية دون حسيب أو رقيب ، بل قد قدم لهم ما لم يدر بخلدهم من الدعم والتشجيع . ومع أن هذه المدارس وتلك الإرساليات قد قامت بجهود ضخمة في تحقيق أهدافها التنصيرية ، إلا أن نجاحها كان ضعيفاً أو أن النجاح لم يحالفها ، وذلك بسبب ما قدمناه في بداية هذا الموضوع من أن الجماهير المسلمة كان يتركز في قلوبها بغض الكافرين وعداوتهم .

ومع هذا الفشل الذريع الذي منيت به هذه المؤسسات الصليبية فقد حاول القساوسة والمنصرون أن يلجئوا إلى وسائل أخرى ويغطوا على ما يرمون إليه من أهداف باتت مكشوفة ، فقام أحدهم ويدعى « بارثلميو » بفتح مدرسة بالاككتاب لتعليم الأطفال من جميع الأديان ، فقبل « محمد علي » أن تقوم الحكومة المصرية بجميع نفقاتها على ألا يدخلها إلا المصريون فقط بشرط عدم التدخل في ديانتهم^(٢) .

حقاً إنه شرط غريب . . فكيف يعهد بمدرسة للأطفال إلى قسيس نصراني ثم يشترط عليه عدم التدخل في ديانتهم؟ وفي اعتقادنا أن هذا

(١) المصدر السابق ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧٢ .

الشرط ليس أكثر من طعم في ذلك الشرك الذي اتفق على نصبه كل من محمد علي والمنصرين . وذلك للإيقاع بأبناء المسلمين ودفعهم بين برائن التنصير .

أما حين تولى مقاليد الحكم «الخديوي إسماعيل» الذي كان يسعى إلى جعل مصر قطعة من أوروبا كما قال^(١) ، فقد تأسست عدة مدارس حرة بالمجان لكل الأديان في سنة ١٨٦٩م بسبب رعاية الخديوي ودعمه السخي حتى يحقق أمنيته المنشودة في جعل مصر قطعة من أوروبا^(٢) .

وفي نفس الوقت الذي كنا نرى خلاله هؤلاء الحكام يتسابقون إلى دعم المدارس الأجنبية وإزاحة العوائق من طريقها ، نرى أنهم قد أهملوا تعليم المسلمين في بلادهم فلم يلتفتوا إليه إلا قليلاً .

«فسعيد باشا» في الوقت الذي أهمل فيه تعليم المصريين نجده يقدم إلى المدارس الأجنبية كل التسهيلات التي تساعد على أداء رسالتها ، فقدم إليها الأراضي التي تبني عليها مدارسها مجاناً ، ومنحها المساعدات المالية

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/ ١٩٠ ، واقعنا المعاصر ص ٢١٥ .

(٢) وجاء طه حسين بعد ذلك يتخبط في نفس الطريق التغريبي ويعتبر أن مصر لم تكن يوماً واحداً من الشرق . يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في مقالة عنوانها (مصر شرقية أم غربية) : للدكتور وجهة عامة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) أن تكون ثقافتنا في المستقبل ثقافة أوربية خالصة ، وأن يكون اتجاهنا في الحياة اتجاهاً أوربياً خالصاً . . وهو يقرر في كتابه أن مصر أمة غربية وليست أمة شرقية وأنها كانت غربية منذ عهد الفراعنة حتى اليوم . قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٥٠ . وهذا ما عبر عنه سلامة موسى ووصل فيه إلى حد التطرف واعتبر حتى الأزهر جامعة أوربية أسسها رجل أوربي هو جوهر الصقلي ، ولا يأسف هذا الصليبي الحاقد على شيء أسفه على الدم الشرقي الذي تسرب إلى المصريين من الإخشيديين والمماليك والعثمانيين . الاتجاهات الوطنية ٢/ ٢٢٣ . راجع كلام طه حسين في الاتجاهات الوطنية ٢/ ٢٣١ .

الضخمة (كما سبق أن ذكرنا) والكتب الدراسية التي تطلبها، بل كانت الدولة تدفع مرتبات المدرسين الذين تعينهم المدارس لتدريس اللغة العربية. وفي رأي أحد المؤرخين الأجانب للتعليم في هذه الفترة أن ما منحه سعيد للفرير^(١) والإيطاليين بالإسكندرية يفوق ما أنفقته على ميزانية التعليم طوال حكمه^(٢).

ومع الإمعان في السير داخل الطريق التغريبي، والإيغال في منعطفاته ومنحدراته من قبل حكام مصر أصبح عدد المدارس الأجنبية يفوق عدد المدارس الحكومية التي أنشأتها الحكومة في فترات من حكمها؛ ففي سنة ١٨٧٥م كان عدد المدارس الأجنبية ٩٣ مدرسة، بها ٨٩١٦ تلميذاً وتلميذة، بينما كان عدد المدارس الحكومية ٣٦ مدرسة، بها ٤٨٧٨ تلميذاً وتلميذة. وفي سنة ١٨٨٧م كان عدد المدارس الحكومية ٤٠ مدرسة كان عدد الطلاب فيها ٥٥٠٠ طالب، بينما كان عدد المدارس الأجنبية ١٩١ مدرسة، كان عدد الطلاب فيها ٢٢٧٦٤ طالب^(٣).

وفي هذه الأرقام والإحصائيات ما يغني عن التعليق، وبرهان ساطع على تولي هؤلاء الحكام للكفار، وفسح المجال لهم في بلاد المسلمين يعيشون فيها فساداً، بل وتقديم الدعم والعون والتشجيع إلى مؤسساتهم وقسستهم ومنصريهم.

(١) كلمة فرنسية معناها «الإخوة» وهم فريق من المصريين الفرنسيين فتحوا مدارس تنصيرية في مصر. من فوائد المشرف حفظه الله.

(٢) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ٦٣ د. حسن فقي. دار المعارف بمصر، ص ٢١٩٧١ م.

(٣) المصدر السابق ص ٨٩.

أما الاهتمام بالتعليم في الأزهر فأقل ما يمكن أن يقال أنه كان عندهم ملقى في زوايا الإهمال والنسيان .

وكما رأينا «الباي أحمد» لا يحيد قيد أنملة عن آراء وزيره المؤتمن الفرنسي «جوزاب دافو» ويقوم بتنفيذ ما يقرره ويراه ، حتى لو كان ذلك في أخطر أمور البلاد وأهمها كالتواحي الدفاعية والعسكرية لتسقط البلاد فريسة سهلة تحت الاحتلال الفرنسي .

فإن «الخديوي إسماعيل» كان لا يثق إلا بكل ما هو آت من الغرب وبكل ما هو أوربي ؛ ففي المجال العسكري مثلاً كان الضابط الأوربي الجديد مقدماً على من هو أعلى منه رتبة وأكثر خبرة وتمرساً من الضباط المصريين والمسلمين بالطبع .

هذه الثقة العمياء التي منحها «الخديوي إسماعيل» العسكريين النصاري ، وهذا الولاء المعلن الذي أولاهم إياه كانت له عواقب وخيمة جداً ، ودفعت البلاد الثمن باهظاً لتلك السياسة الخرقاء .

ولعل أصدق مثال على ذلك هو هذه الحادثة المؤلمة التي يرويها لنا واحد ممن عاشوا وقائعها ، وهو القائد المعروف «أحمد عرابي»^(١) (المتوفى سنة ١٣٢٩هـ) ؛ فحين قام «الخديوي إسماعيل» بتسيير حملة عسكرية إلى بلاد الحبشة عام ١٢٩٢هـ وعهد بقيادتها إلى «راتب باشا» سردار العساكر المصرية ، وأمر هذا القائد أن يكون مقيداً برأي أركان حربه الجنرال «لورنج» وهو أمريكي كما يقول أحمد عرابي : «لا يعرف الفنون العسكرية ، وإنما كان رئيس فرقة في الحرب الأمريكية من ضمن الفرق غير النظامية أي «المتطوعين»

(١) الأعلام ١/ ١٦٨ .

وكان أكثر رجال أركان الحرب الذين معه من بني جنسه فكان هذا الترتيب سبب الفشل الذي حاق بالمصريين في تلك الحملة» .

ثم يذكر أحمد عرابي كيفية سير هذه الحملة ووصولها إلى الحبشة ويبين سبب الفشل الذي منيت به ، والمصير الأسود الذي واجهته فيقول : «وكان أحد القسّس الفرنسيين المبشرين في بلاد الأحباش يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب الجنرال «لورنج» الأمريكي مستطلعاً أحوال الجيش المصري حتى علم مقداره ، واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون سبباً لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ معلوماته كل يوم إلى الملك (ملك الحبشة) فحشد هذا الملك جيشه وكان عدده ينيف على الثلاثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عاداتهم في الدفاع عن كيان بلادهم»^(١) .

ثم كتب عرابي فصلاً بعنوان (في خيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين في الجيش المصري) فكان مما قاله حول هذه الخيانة «واستعد جميع أركان الحرب الأوروبيين والأمريكيين للحملة فألقوا جانباً طرايبهم الرسمية ولبسوا قبعاتهم ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس السابق ذكره .

ثم ذكر ما حل بالجيش المصري المسلم من هلاك عظيم ، وسقوطه بين

(١) كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية ٣٦/١ أحمد عرابي الحسيني . مطبعة مصر . شركة مساهمة مصرية ط ١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ م .

قتيل وأسير وجريح ، عدا الغنائم التي غنمها الأحباش النصارى من هذا الجيش البائس^(١) .

وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال للمشرك ذي الجرأة والنجدة الذي أراد القتال معه في غزوة بدر : «فارجع فلن أستعين بمشرك»^(٢) .

وهكذا كان الجيش المصري المسلم في هذه الحملة الخاسرة ضحية لتآمر الجنرالات الصليبيين الذين ركن إليهم «الخديوي إسماعيل» ووثق فيهم ثقة عمياء ، وكبل قائد الجيش العام بأوامر أحدهم ممن ليس لديهم أية دراية بالأمور العسكرية .

بل إننا نكاد نجزم أن هذه الحملة وما تلاها من حملات إلى بلاد الحبشة في عهد «الخديوي إسماعيل» لم تكن من باب التوسع والفتوحات كما يعتبرها كثير من المؤرخين ، وإنما كانت من باب إلقاء الجيش المصري إلى التهلكة والإبادة .

ولسنا نهدف بالطبع إلى إستقصاء الحديث عنها ، والدخول في أسبابها والظروف المحيطة بها ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نشير إلى ما يؤيد ما ذهبنا إليه آنفاً لعلاقة ذلك بموضوع الولاء والبراء فنقول أن حكم «الخديوي

(١) المصدر السابق ٣٩/١ .

(٢) رواه مسلم برقم ١٨١٧ كتاب الجهاد والسير . باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر . ١٤٤٩/٣ .

إسماعيل» في ذلك العصر قد بلغ من الضعف والعجز مبلغاً عظيماً بسبب الديون الضخمة التي أرقق البلاد بها ، مما تمخض عنه أن تستأثر الدول الدائنة وفي مقدمتها دولتا بريطانيا وفرنسا بالسلطة في عهده ؛ حيث قامت كل منهما بتعيين وزير مراقب في الظاهر ، ومهيمن على نصاب الأمور والسلطة في الحقيقة .

فكيف يمكن لدولة أثقلتها الديون ، وأنهكها الإفلاس والعجز أن تسير الحملات الحربية الباهظة التكاليف في بلاد مجهولة وصعبة التضاريس من أجل التوسع فقط . . ؟ ولماذا لزم الوزيران الصمت حيال هذه الحملات التي ترهق ميزانية الدولة التي عينا لمراقبتها ، واستخلاص الديون منها . . ؟

وإذا كان النفوذ الأوربي قد تغلغل في عهد «إسماعيل» تغلغلاً عظيماً ، وأصبحت حكومته وقصوره وسراياه تعج بالأوروبيين والأمريكيين ، فكيف تسمح أوربا الصليبية ومن ورائها الوزراء والقناصل والجنرالات الموجودون في حكومة الخديوي بأن يقوم هذا الحاكم بغزو الحبشة النصرانية وفتحها .

في الواقع أن هذا أمر لا يمكن حدوثه مطلقاً إلا إذا كانت هناك أهداف غير ظاهرة يراد تحقيقها وأكبر دليل على هذا أن جده محمد علي باشا لما عزم على غزو الحبشة سنة ١٨٤٠م حذره السفير الإنجليزي (سالت) وقال له «تقع الحبشة «أثيوبيا» تحت حمايتنا وهي البلد الوحيد في أفريقيا الذي اعتنق الدين المسيحي ، وصمدت صموداً طويلاً مظفراً خلال أجيال أمام هجمات المسلمين ، ولا ينبغي لأحد أن يتوقع من أوربا عامة ومن انكلترا خاصة أن تقف موقف اللامبالاة إذا ما تعرض هذا البلد للهجوم . . وهناك كثيرون من جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا يهتمون بمستقبل هذا البلد ^(١) .

(١) فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ص ٢٨٧ بسام العسلي ، دار الفكر .

لذا كان إرسال كثير من الجنرالات العسكريين والأوربيين والأمريكيين على رأس هذه الحملات ، وإصرار الخديوي على ائتمار قيادة الجيش برأيهم مع كونهم عارين من الخبرات العسكرية ؛ كل ذلك يؤيد ما ذهبنا إليه ، وقد رأينا أن هؤلاء العسكريين كانوا سبباً مباشراً في القضاء على هذه الحملات بخيانتهم وغدرهم وتواطئهم مع أبناء ملتهم الأحمش .

ثمة سبب آخر لا يمكننا أن نسقطه من حسابنا ألا وهو تأمر الدول الصليبية في ذلك الوقت على استعمار العالم الإسلامي ؛ فانجلترا كانت تربص بمصر الدوائر ، وتتحين الفرص للانقضاض عليها ، وما من شك أن ضعف الجيش المصري وقلة عدده سيسهل عليها تنفيذ ما تهدف إليه بلا عناء ، فيرجح أنها أو غيرها قد أوعزت إلى «الخديوي إسماعيل» وزينت له فكرة إرسال حملات إلى الحبشة ، لتأكدتها من إخفاق هذه الحملات لوعورة أراضي الحبشة وكثرة المصاعب فيها وتحقق الهلكة لمن رام غزوها خصوصاً للجيش غير المتمرس على مثل تضاريس الحبشة كالجيش المصري .

ومن المحتمل أن الوزراء الأوربيين قد أفهموا «الخديوي» أن في بقاء الجيش على حاله بلا عمل خطورة على عرشه ، وإلا فأى معنى لتصرفاته الرعناء ، وإصراره المريب على تتابع الحملات إلى الحبشة ، كلما هلكت حملة أودفها بأخرى .

وبالفعل فقد جنت مصر ثمرة هذه الحملات الفاشلة ودفعت ثمنها باهظاً جداً ، عندما قامت بريطانيا باحتلالها عام ١٨٨٢ م ، وهزمت الجيش المصري في موقعة «التل الكبير» ، ويا ترى كيف كانت ستكون النتيجة لو لم تبتلع جبال الحبشة وأحراشها ألوفاً من الجيش المصري قبل سنوات من الاحتلال .

ومن الأمور العجيبة في ذلك العهد أن القائد المعروف «أحمد عرابي» الذي اكتوى بخيانة هؤلاء الصليبيين أثناء الحملة على الحبشة ، ورأى تأمرهم وغدرهم ، يقع في شراكهم ، وينخدع بهم ، ولستمع له عندما عين وكيلًا لنظارة الجهادية حيث يقول : «ولما استلمت منصبي الجديد كثر توارد المتظلمين علي من أرجاء البلاد . . . في تلك المدة حضر إلى منزلي الرجل المتفاني في حب الحق والعدل والحرية!! ، محب الشرقيين عموماً والمصريين خصوصاً!!!» (المستر ولفرن سكاون بلانت) ، وكان معه صاحبه العلامة «القس الصابرنجي» صاحب جرنال النحلة ، وعرض علي قبول صداقته لي فقبلت منه ذلك ، فمد يده إلي ومددت يدي إليه ، وتصافحنا وتعاهدنا على الصداقة والإخلاص .

وكنت أظن أننا بواسطته وبفخامة مركزه في قومه ، وشدة غيرته على الحرية نتمكن من تذليل الصعوبات التي يلقيها قناصل الإنجليز في طريق حريتنا ونجاح بلادنا بدعوى الإنسانية والعدل والإنصاف بين الأمم والشعوب ، وهذا ما يدعيه الغربيون زوراً وتضليلاً دائماً وهي كلمات محبوبة يدسون بها السم في الدسم ليتمكنوا من الاستيلاء على مشارق الأرض ومغاربها طمعاً وجشعاً . وكذلك حضر لزيارتنا كاتم أسرار ملكة الإنجليز محب الحرية (السير ولیم جريجري) الرجل الإيرلندي الذي كان قد تولى حكومة جزيرة سيلان^(١) مرتين إجابة لرغبة أهل تلك البلاد^(٢) .

فواعجباً متى كان الصليبيون والقساوسة متفانين في حب الحق والعدل

(١) ومن العجيب أن يكون عرابي قد نفى إلى هذه الجزيرة ، ومكث بها تسعة عشر عاماً فلعل

صاحبه السير ولیم هو الذي أشار بذلك رعاية لحق الصداقة!!

(٢) كشف الستار ١/ ٢٧٠ .

والحرية ، عاشقين للشرقيين عموماً ، وللمصريين خصوصاً . وغريب أمر هذا الرجل . . فهل كل من يهرع إلى مكتبه أو يزوره في بيته يكون محباً للحرية والعدل حتى ولو كان أميناً لأسرار ملكة بريطانيا !!! .

والحقيقة التي يؤسف لها أن «القائد أحمد عرابي» الذي قاد الثورة الشعبية ضد الإنجليز و«الخديوي توفيق» عام ١٨٨٢م كان في الواقع بعيداً عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، جاهلاً لكثير من قضاياها المهمة التي على رأسها عقيدة الولاء والبراء والتي أجزم أنه لم يع معناها أبداً .

بالإضافة إلى عدم وضوح المنهج وصفاء الرؤية ، واعتقاده الساذج أنه يمكن أن يستغل علاقاته بهؤلاء الماكين في إزالة الصعوبات التي كان يضعها الإنجليز في طريق حرية البلاد واستقلالها .

هذا الخلل الخطير في شخصية الزعيم «أحمد عرابي» كان من الأسباب الخطيرة في انهزام الجيش المصري ، وانتصار الجيش البريطاني بكل سهولة .

فحين احتل الإنجليز الإسكندرية عزم عرابي على ردم مدخل القناة ليمنع الأسطول الإنجليزي من إنزال جنوده في الجبهة الشرقية ، ولكن المستر ديلسبس أثناء عمله هذا ، ووعدته بمنع الأسطول من المرور في القنال اعتماداً على حيادها^(١) .

ولكن هذه الوعود سرعان ما تلاشت ، وخدع بها القائد «عرابي» وعبر الأسطول الإنجليزي قناة السويس ليطوق البلاد من الشرق والغرب ، وتقع الكارثة ، ويجثم الاحتلال الإنجليزي على صدر مصر قرابة السبعين عاماً .

(١) لأن قناة السويس اتفقت الدول على جعلها محايدة ، أو هكذا زعموا . وانظر انتقاد الشيخ محمد عبده لعرابي في تلك القضية في : مذكرات الإمام محمد عبده ص ١٦٠ .

حقاً إنها مأساة متكررة ، فكم رزئت الأمة بأعداد من الحكام والقواد الذين لم يكونوا جديرين ومؤهلين لقيادتها ، ومع إخلاص بعضهم إلا أن جهلهم بالعقيدة الصحيحة كان سبباً في إخفاق إخلاصهم ، ونكبة أمهم وشعوبهم ، ومن هؤلاء القائد «أحمد عرابي» الذي تصدى لقيادة الثورة والجهاد ، وخلفه جموع الأمة وعلمائها ، ولكنه كان غير خليق بالقيادة بسبب ما ذكرنا .

وفي بلاد المغرب العربي ، وبعد جهاد طويل ضد الفرنسيين نكص «أحمد الريسوني» (المتوفى سنة ١٣٤٣هـ) على عقبيه ودعا القبائل المغربية إلى موالاته الإسبان بعد أن بذلوا له العهود والوعود وعقد صلحاً معهم^(١) .

وفي عمان استنجد السلطان «سعيد بن سلطان البوسعيدي» (المتوفى سنة ١٢٧٣هـ) بالإنجليز سنة ١٢٢٤هـ ، ونقض عهده مع الإمام سعود بن عبدالعزيز ، وقاتل عماله في نواحي عمان ، ثم استعان بحكومة إيران سنة ١٢٢٥هـ على قتال أهل الدعوة فانهزم ، ثم عاد فأصلح بعض أمره .

وعقد معاهدة تجارية مع بريطانيا سنة ١٢٥٥هـ ، جاء فيها : «إن رعايا صاحب الجلالة البريطانية يمنحون الحرية الكاملة في الدخول والإقامة والمتاجرة والمرور مع بضائعهم في جميع أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط» قال : جورج رنس : ومعنى ذلك ولو من حيث المبدأ ، أن تفتح أمام الأجانب مناطق يصر كثيرون من زعماء الداخل على إحصاها في وجوههم .

كما عقد معاهدتين مع الفرنسيين ، الأولى سنة ١٢٢٢هـ ، والثانية سنة

(١) الأعلام ١/٢٥١ .

١٢٦٠هـ ، ومعاهدة مع الحكومة الأميركية سنة ١٢٤٩هـ وقعها إدموند روبرتس في القصر السلطاني بمسقط^(١) .

وفي بلاد المغرب الأقصى وقع خلاف بين سلاطين الدول العلوية ، واشتد النزاع بين الأخوين «عبد العزيز» و«عبد الحفيظ» ابني «الحسن بن محمد الحسني العلوي» . وكانت البلاد مستقلة ، فاتخذ «عبد العزيز» من ممثلي الألمان أنصاراً ، واتخذ «عبد الحفيظ» من الفرنسيين أولياء ، وخلع «عبد العزيز» بفاس .

وانتظم الأمر «لعبد الحفيظ» ، واثارت عليه القبائل وقام أخ ثان له «المولى زين» بثورة في مكناس ، فعمد عبد الحفيظ كما يقول الزركلي : إلى أفطع الخطط وأسوأها ، فطلب عون الحكومة الفرنسية ، وسرعان ما أجابت فقضت على الثورتين ، وأعلنت حمايتها للمغرب بعد أن أمضى عبد الحفيظ معاهدة ٣٠ مارس ١٩١٢ المعروفة بمعاهدة الحماية^(٢) .

وهكذا ضاعت البلاد ، ونكب العباد ، وتسלט الكفار بأناس أهملوا مصالح الأمة وجروا بلادهم وشعوبهم إلى هاوية الاستعمار ، بخلافاتهم الدنيوية ومولاتهم للكفار واستعانتهم بهم .

وبعد فهذه وقفة متأنية قمنا خلالها بجولة سريعة لنستطلع موقف الأمة الإسلامية من هذه القضية ؛ قضية الولاء والبراء فيما ندرسه من حقبة زمنية وقد رأينا في هذه الوقفة أن السواد الأعظم من المسلمين كانوا مؤمنين بهذه العقيدة ، واعين لها إلى حد كبير ، إلا أن الغلو قد مزج فهمهم لهذه العقيدة

(١) المصدر السابق ٣/ ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧٧ .

فتتج عن ذلك أن زادوا على البراءة من الكافرين وبغضهم ، البراءة من كل ما يأتي من عندهم وبغضه حتى ولو كان شيئاً نافعاً مما كان له آثار وخيمة في حياتهم .

ومع كل هذا فإن باستطاعتنا أن نعتبر أن عقيدة الولاء والبراء في القرنين الثالث عشر والرابع عشر^(١) الهجريين كانت متماسكة وقوية إلى درجة كبيرة وذلك على المستوى الجماهيري للأمم ، وقد دللنا على ذلك بما لا نود إعادته .

أما الضعف والخلل الذي طرأ على هذه العقيدة فهذا إنما كان وجوده عند فئة من حكام المسلمين الذين أمعنوا في موالاته الكافرين وألقوا إليهم بالمودة ، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين .

وعرفنا أن هذا الانحراف هو الذي أصاب عقيدة الولاء والبراء في الصميم ، ووقع منها في مقتل ، لأنه يميع على المسلمين شخصيتهم وهويتهم ، ويزيل عنهم تميزهم عن غيرهم ، ويفقدون بالتالي أبرز مقوماتهم ، ويسهل على الأعداء بعد ذلك احتوائهم وابتلاعهم .



(١) إلى منتصفه تقريباً ، ثم خبت جذوة هذه العقيدة بعد أن ظهر مفعول الغزو الفكري .

الفصل الرابع

غربة العقيدة الصحيحة و مقاومتها

إن الناظر إلى الحالة العقدية عند المسلمين في القرنين الماضيين ، وما طرأ عليها من انحرافات وزيادات طغت على العقيدة الإسلامية ، وحجبت نورها ، ليدرك من أول وهلة كما ذكرنا من قبل أن هذه العقيدة قد باتت غريبة بين خضم من العقائد الباطلة وركام من البدع والخرافات والتصورات الفاسدة ، ويرى أن الناس قد ابتعدوا بعداً عظيماً عن العقيدة الصحيحة ، وذلك بفعل عوامل كثيرة أحدثت أثرها على مدى قرون طويلة ، فأصبحوا متشبثين بأغشية من الجهل والسذاجة والخرافة على أنها من صميم الدين وكل ما خالفها فهو غريب ومردود .

فمن ثم لم نكن نستغرب ما آلت إليه هذه العقيدة من غربة ، وما تعرضت له من رد وهجوم ، لأنها بالفعل كانت غريبة عن واقع السواد الأعظم من المسلمين .

وأي أمر غريب عن واقعهم ومألوفهم فلا مكان له في حياتهم ، خصوصاً إذا كان هذا الأمر يطرق عليهم باباً من أبواب الدين التي أوصدوها على أنفسهم وعقولهم ، وويل لمن يحاول طرق هذه الأبواب الموصودة ، فضلاً عن أن يحاول فتحها ، فإن ذلك في حسهم جرم عظيم ، وانتهاك لحمى الإسلام الذي أحاطوه بسياج منيع فلا يجروؤ أحد على الوصول إليه .

فالصوفية بطرقها وطقوسها ، والمتكلمون بجدلهم وفلسفاتهم ، مع ما صاحب ذلك من تعصب مذهبي وتقليد مقيت أحدث في حياة الناس وواقعهم مزيجاً منحرفاً اتخذ الدين له اسماً ، وبقدر ما ينغمس المرء منهم في حمأة ذلك المزيج يكون عندهم قد أخذ من الدين بأوفر نصيب .

وقد اتخذ هذا المزيج العجيب صوراً شتى نراها عند حديثنا عن الحالة العقدية وانتشار مظاهر الشرك الأكبر والأصغر والغلو المفرط في الأولياء ، وهيمنة الصوفية على حياة الناس ، وقعود الناس عن الأخذ بالأسباب والركون إلى الغيبات والخوارق والكرامات ، وطغيان الإرجاء والتقاعس عن العمل ، والجمود العلمي ، والانكباب على علم الكلام والمنطق والفلسفة تصنيفاً وتدريساً واعتقاداً ، واشتداد الأغلال المذهبية ، ومصادرة الدليل ، واستهوال إعادة فتح باب الاجتهاد ، فيولد الطفل فيحنك بجرعة من ذلك المزيج .

ولا بد له مع بواكير الشباب ، ورحيل الصبا من طريقة يسلكها ، وجدالات كلامية يعتقدها ، ومذهب من المذاهب يتعصب له ، كل بحسب بلده الذي ترعرع فيه ، فيقال للواحد منهم مثلاً : الشافعي مذهباً الأشعري معتقداً الأحمدي طريقة .

وهكذا تعاظم هذا البلاء وعم وطم ، فلاتكاد ترى منتسباً للعلم سلم من أوضاع هذه اللوثات الثلاث ، فمن هنا لم يكن بمستغرب على السواد الأعظم في ذلك الوقت أن يبادر إلى إنكار ما خرج عن هذا المؤلف المنحرف ، والمزيج العجيب ، ويشن عليه غارات شديدة تحت راية الانتصار للدين ، والجهاد ضد أعداء سيد المرسلين ، حتى ولو كان ذلك دعوة صادقة للرجوع إلى حقيقة الدين الذي ابتعدوا عنه .

أعتقد بعد هذا كله أنه يمكن أن نفسر إلى حد كبير الهجمة الشرسة والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث التي جدد أمرها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأتباعه ، وما اعترض سبيلها من عقبات ، وما اكتنفها من مصاعب ووصل الأمر إلى حد الحكم بكفرهم واستباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وإنفاذ الجيوش إلى عقر دارهم ، ومقاتلتهم على أنهم كفار ، وأن مقاتليهم مجاهدون في سبيل الله .

وسنحاول في هذا المقام أن نلقي الأضواء على غربة العقيدة الصحيحة ، وما منيت به من حرب وصراع مرير بعد أن قدمنا بين يدي ذلك القصد إطلالة سريعة على حياة المسلمين في ذلك العهد المظلم ، الذي كان من الطبيعي فيه أن تلقى أي دعوة للإصلاح والعودة إلى الطريق المستقيم جميع مظاهر العنف ، وشتى طرق المقاومة والبطش والتنكيل ، وسوف يكون محور الكلام دائراً حول المقاومة العنيفة التي جوبهت بها دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله ، لأنها كانت هي الحركة الإصلاحية التي تبنت العقيدة السلفية ، وسارت عليها في تلك الفترة .

لم يكد يمضي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري حتى كانت الدولة السعودية الأولى قد امتدت رقعتها من الخليج العربي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً ، ومن نواحي حضرموت ونجران جنوباً إلى مشارف الموصل ومعان شمالاً .

وقد أقلق هذا التوسع السريع جهات عديدة ؛ فالدولة العثمانية قد كبر على سلاطينها أن ينتزع منهم الحرمين الشريفان اللذان كانا يقويان من

مكانتهم في العالم الإسلامي ، وكذلك الزيود في اليمن ، والرافضة في إيران خاصة بعد توالي حملات أهل الدعوة على العتبات والأضرحة التي يقدسها الشيعة في العراق^(١) .

وهناك الإنجليز والفرنسيون الذين انزعجوا من ذلك الخطر الداهم الذي بات يهدد مصالحهم ، ويقضى على آمالهم ، وهناك أيضاً والي مصر محمد علي باشا الذي رأى في تلك الدولة الفتية تبديداً لأحلامه التوسعية^(٢) .

ولكن ذلك كله مع خطورته كان لا يعد شيئاً أمام هياج الرأي الإسلامي العام ، وسخط السواد الأعظم من المسلمين على هؤلاء المحتلين للحرمين الشريفين الذين انتهكوا الحرمات بزعمهم ، وأزالوا كثيراً من مظاهر الشرك والبدع التي ألفوها ، وصاروا يتقربون بها إلى الله .

على أن من أهم الأسباب لاستيلاء أهل الدعوة على الحرمين الشريفين

(١) ويأتي على رأسها تلك الحملة الكبيرة التي قادها الإمام سعود في أواخر إمامة والده الإمام عبد العزيز عام ١٢١٦هـ إلى كربلاء واقتحامها وهدم القبة المنسوبة إلى الحسين رضي الله عنه والاستيلاء على ذخائرها وكنوزها . انظر عنوان المجد في تاريخ نجد ١/ ١٢١ لعثمان ابن بشر . مكتبة الرياض الحديثة .

وعندما سقطت الدرعية عام ١٢٣٣هـ على يد قوات محمد علي باشا بعث شاه العجم وملك الرافضة في إيران إلى محمد علي رسالة يعبر فيها عن فرحته الشديدة وبعث إليه بسيف من حديد توارثه ملوك الرافضة وخاتماً من فيروزج . . انظر نص الرسالة في ملحق رقم ١٨ ص ٤٠٠ في كتاب الدولة السعودية الأولى لعبد الرحيم عبد الرحمن ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩ م .

(٢) ينصح بقراءة كتاب «قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية» د . سليمان بن محمد الغنام .

هو منعهم من الحج من قبل أشراف مكة المتتابعين على حكمها^(١) .

وقد كان لهذا الاستيلاء أصداء سياسية واجتماعية واسعة النطاق في العالم الإسلامي الذي أدهشه خروج الحرمين الشريفين من حوزة الدولة العثمانية ذات القوة والهيمنة ولعل ما قام به أهل الدعوة من إحياء لمعالم الدين المندرس ، وهدم لصروح الشرك المشيدة ، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وإعادة للأمر إلى نصابها قد فاق عند الناس خبر استيلائهم على مكة والمدينة .

ويذكر مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتي خبر استيلائهم على مكة عام ١٢٢١ هـ وكيف أنهم أمروا بمنع المنكرات والتجاهر بها كشرب الدخان والأراجيل في المسعاة ، وبالمحافظة على الصلوات في الجماعة ، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير والمقصبات ، وإبطال المكوس والمظالم ؛ وكانوا كما يقول قد خرجوا عن الحدود في ذلك حتى إن الميت لا يستطيع ذووه غسله ودفنه إلا بعد دفعهم ضريبة مالية ، بالإضافة إلى كثير من المظالم والمغارم التي أحدثوها على المبيعات والمشتريات وعلى البائع والمشتري ، ومصادرة الناس في أموالهم ودورهم .

(١) وأولهم الشريف مسعود الذي كاتبه أهل الدعوة فمنعهم . ثم الشريف مساعد الذي أبى دخولهم هو الآخر ثم جاء الشريف أحمد بن سعيد فلم يسمح لهم بأداء فريضة الحج . وتمت على عهد ذلك الشريف مناظرة بين عالم بعثه أهل الدعوة إلى مكة وبين علمائها ، ولكن دون أن تسفر هذه المناظرة عن نتيجة . ثم ولي الشريف سرور فراسلوه ، فوافق على أن يقبض منهم ضريبة ، فأبوا عليه ذلك . إلى أن جاء الشريف غالب فراسلوه كأسلافه ، فتهددهم ثم جهز جيشاً لقتالهم عام ١٢٠٥ هـ وطال أمد الحرب بين الشريف غالب وبين أهل الدعوة إلى أن تمكنوا من دخول مكة في ٨ محرم سنة ١٢١٨ هـ . انظر : تاريخ مكة للسباعي . وعنوان المجد في تاريخ نجد .

والأهم من ذلك كله ترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والمهمات ، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور ، والصور والزخارف وتقبيل الأعتاب ، والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق ، واختلاط النساء بالرجال ، وهدمت جميع القباب المبنية على القبور والأضرحة ، وعاهدهم الشريف غالب على منع ذلك ، بعدما أقيمت مناظرة مع علماء الحرم وأقاموا عليهم الحجة بالأدلة القطعية التي لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة .

ثم يذكر الجبرتي ما حدث من الأمن والرخاء بعد ذلك فيقول : « فعند ذلك أمنت السبل ، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة ، وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات »^(١) .

وفي عام ١٢٢٢ هـ أحضر الإمام سعود^(٢) أمير الـركب المصري وسأله عن المحمل ، فقال هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم فأمره بعدم المجيء به بعد هذا العام وتوعده بإحراقه لو عاد به^(٣) .

فيا ترى ما هي ردود الفعل التي حدثت لما قام به أهل الدعوة من جهود لإصلاح الأحوال العقدية ، وكيف قوبل هذا الإصلاح من سواد المسلمين ، وما هي الأصداء التي نتجت عنه ؟

في الواقع أن امتناع كثير من الحجاج بل امتناع أقطار بأكملها عن القدوم

(١) عجائب الآثار ٣/ ١١٦ .

(٢) في تاريخ الجبرتي : مسعود الوهابي والصحيح ما ذكرنا .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٩ . وسيأتي مزيد من الإيضاح لقضية المحمل عند حديثنا عن البدع في الفصل السادس إن شاء الله .

للحج متذرعين في ذلك بمنعهم ممن ينعتونهم بالوهابية - كان من أوائل ردود الفعل التي دوى صداها في أرجاء العالم الإسلامي .

يقول الجبرتي رحمه الله عن أحداث عام ١٢٢٣هـ : «ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي للناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحدا يأتي الحج على الطريق المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزممر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشيء»^(١) .

وقد أدى الاتهام الظالم لأهل الدعوة بمنع الناس من الحج إلى تشويه سمعتهم ونفور السواد الأعظم منهم^(٢) .

ولم يكتف أهل البدع والمحدثات بمقاطعة الحج وادعائهم بمنع أهل الدعوة لهم من ذلك؛ بل لجأوا إلى وسائل أخرى كانت أنكى في النيل والتشهير بأهل الدعوة، ومن ذلك قطع جميع المساعدات والهبات

(١) المصدر السابق ٢٤٧/٣ .

(٢) ذكر ابن بشر أن الإمام سعود أمر عماله في النواحي أن يمنعوا الحجاج التي تأتي من جهة الشام واستامبول خوفاً من انتفاض الشريف غالب عليهم ، عنوان المجد ١/١٣٩ . وفي رسالة من الإمام عبد الله بن سعود إلى محمد علي يرجع أنها كانت في عام ١٢٣١هـ يوضح أن رد الحجاج القادمين من مصر في عهد والده « وأظن ذلك صحبة المحمل » كان بإيعاز من الشريف غالب خوفاً من قيامهم بفتنة في الحرم وأن الدولة العثمانية إذا تعهدت بعدم إحداث فتنة فيسمح لهم بالحج ويكون ذلك تحت الحماية . وقد طلب الشريف غالب من والده أن يتولى إرسال مضمون ذلك إلى الدولة ، ثم غير وبدل في الرسائل على لسان الإمام سعود بما يورث الإحن والعداوة مع العثمانيين . الدولة السعودية الأولى . ملحق ١٦ ص ٣٩٤ .

والصدقات عن مكة والمدينة ويأتى في مقدمة ذلك الأموال المخصصة للحرمين من قبل الدولة العثمانية ^(١) .

وقد تسببت هذه المقاطعة الشديدة أو الحصار الاقتصادي في هياج الرأي العام عند المسلمين ، وتحويله ضد أهل الدعوة ، خصوصاً بعد أن أخذ يسري تنفيذها ، وضح كثير من أهل الحرمين الذين كانوا لا يتعيشون إلا عن طريق تلك الموارد ، «وخرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم ، ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك ، وأتوا إلى مصر والشام ومنهم من ذهب إلى اسلامبول يتشكون من الوهابي ، ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من إجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التى بأسماء رجال الدولة كالفراسة والكناسة ونحو ذلك» ^(٢) .

ولنا أن نتصور ما أحدثه هؤلاء المهاجرون من أصداء واسعة المدى في أوساط المسلمين بسبب رحيلهم وتشكيهم من أهل الدعوة ، ومن مظاهر السخط والنقمة التى سادت المسلمين لأجل ما أصاب أهل الحرمين الذين

(١) كانت الدولة العثمانية تجعل للحرمين مخصصات مالية وأخرى عينية من الغلال ، وتبعث بها سنوياً إلى الحرمين فتوزع على أهلها خصوصاً العلماء وطلبة العلم والفقراء والمجاورين وكثيراً من الأهالي ، وقد تسبب ذلك في تكاسل الأهالي فيهما ؛ وماذا عليهم وقد كفوا مئونة العيش وكلفته . ومع أن هذه حسنة من حسنات هذه الدولة ، إلا إنه كان الأجدر بها أن تنشئ المشاريع في أرض الحرمين وأن توجد الأعمال للأهالي لكيلا يكونوا اتكاليين تحت رحمة الآخرين فيحل بهم من المآسي ؛ كما وقع لهم عندما قامت الدولة العثمانية بقطع تلك المساعدات حين استولى أهل الدعوة على الحرمين . انظر تاريخ السباعي والكلام حول تلك القضية .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤٧ .

لهم مكانة خاصة عندهم ، وإننا لنكاد نلمس آثار هذه المقاطعة الشديدة في تحويل الرأي العام عند المسلمين خصوصاً عند أهل الحرمين ضد أهل الدعوة ، حيث ألقوا باللائمة عليهم فيما حل بهم من نكبة ومصيبة ، ولجأوا إلى البلدان الأخرى يقصون ما أصابهم ، وما وقع لهم من نقص المعيشة وتقلب الزمان ، وأخذوا ينالون من أهل الدعوة ويدعون إلى الخلاص منهم ، ليس انتصاراً للدين ، بقدر ما هو انتصار للنفوس وحظوظها من المعاش والمتاع الزائل .

وهنا نرى أنه لا بد لنا من وقفة عند نقطة جدية بالانتباه ، قل من تعرض لها ممن تناول بالدراسة أصدقاء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومقاومة المناوئين لها ، ونعني بذلك تأثير الأحداث السياسية والاقتصادية في صد الناس عن الدخول في الدعوة ، فمع الحالة العقدية المتدهورة في ذلك الوقت إلا إن الأحداث المذكورة كان لها دور بارز في ذلك الصد .

فقد رأينا حين استولى أهل الدعوة على الحرمين الشريفين ، وقاموا بإزالة مظاهر الشرك والبدع والمنكرات ، وإبطال المظالم ، ونشر التوحيد والسنة ، وإحياء العدل ، أنه قد انتشر الرخاء ، وساد الأمن ، وانحلت الأسعار^(١) ، وفاضت الأقوات ، فكيف لو استمر الحال على ذلك من توطيد الأمن وإقامة العدل ، ونشر العقيدة الصحيحة ، وهم في أقدس بقعة يؤمها عشرات الآلاف من المسلمين سنوياً ، فيرون عدل هؤلاء الفاتحين ، وتطبيقهم لأحكام الشريعة؟ حتماً سيكون لذلك أبلغ الأثر في نفوسهم ، فكبر الحال عند ذلك

(١) انظر عجائب الآثار ١١٦/٣ وذلك ببركة تلك الدعوة الصادقة ، صار الأردب من القمح بأربعة ريالات بعد أن وصل سعره إلى ثلاثمائة وعشرة ريال .

على أهل البدع ، وأرقهم ما آل إليه أمر هذه الدعوة من نصر وتمكين ، وخافوا أن تتسع دائرة الدعوة ، وتحدث بين الناس تغييراً فيهبوا ضد سلطانهم الغارق في البدع والمنكرات والظلم .

عند ذلك امتنعوا عن الحج تظاهراً بمنع أهل الدعوة لهم ، ولجأوا إلى قطع جميع المساعدات والمخصصات عن بلاد الحرمين مما تسبب في نشوء أزمة اقتصادية خانقة دفع أهل الحرمين ثمنها ، وألقي بتبعاتها على أهل الدعوة .

فكان لتلك التصرفات التي قام بها رؤوس المبتدعة أثر عظيم في تشويه سمعة أهل الدعوة ، وفي تهيج الرأي ضدهم ، وأخذوا يشنون دعاياتهم وتلفيقاتهم للنيل من أهل الدعوة . كذلك الدعاية التي تقول إنهم يبغضون النبي ﷺ ويتقصصون من جنبه الكريم . وكان أخذهم لما احتوته الحجرة النبوية الشريفة من ذخائر وأموال كفيلاً بتصديق الناس لهذه الدعاية الخطيرة . وكانوا كما يقول الجبرتي يرون أن أخذها من الكبائر العظام ، وقد وضعها في الحجرة ضعاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم^(١) .

فامتناع الحجاج عن أداء فريضة الحج ، وقطع المخصصات والمساعدات المالية عن الحرمين الشريفين كانا من أوائل ردود الفعل التي أحدثت تأثيراً على المستوى الجماهيري .

ثم جاءت الخطوة الكبرى وهي إعلان الحرب وتجريد الجيوش لغزو أهل الدعوة ولتحرير الحرمين من أيديهم ، ولكن هل كان هذا الحدث أمراً

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٤٨ .

معتاداً ، بمعنى أن الدولة العثمانية قامت بهذه الخطوة استعادة لسيطرتها على الحرمين ، ورداً لاعتبارها كما كان يحدث لها في كثير من الأقاليم والثورات ، أم أن الموقف هنا كان مختلفاً عما سبق؟

الواقع أن العثمانيين في تعاملهم مع أهل الدعوة جنحوا إلى أمر خطير جداً وهو تكفيرهم لأهل الدعوة ، واعتبارهم من الخوارج لا من حيث الخروج عليهم فحسب ، بل من حيث الدعوة التي حملوها وأعلنوها ، واعتبروا قتالهم جهاداً ومن يقتل منهم شهيداً .

ففي رسالة من والي الشام كنج يوسف إلى والي مصر محمد علي باشا بتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣ هـ يحثه فيها على إجابة أمر السلطان لقتال أهل الدعوة وجاء فيها : وأنكم ستنفذون الأمر بكل رغبة وقبول وأنكم ستنصرون الدولة العلية التي تتمنون لها الدوام الأبدي . . . وستبذلون جهدكم في مقاتلة أولئك الوهابيين الخوارج ، وفي سبيل جلائهم عن أرض الحرمين الشريفين ، وإنقاذ هذه الأرض وأهلها من شر هؤلاء الخوارج وفسادهم^(١) .

وجاء في رسالة لمحمد علي رداً على المرسوم العالي الذي جاء من الأستانة :

« حتى وقفت لتنظيف البلدين المباركتين وتطهيرهما من لوث وجود الخوارج أن الدرعية مقر نحوسة هؤلاء الطائفة الخائفة طائفة الخوارج ما لم تشاهد ولم تلق صدمة القاهرة من العساكر السلطانية الذين لهم مآثر الظفر وما لم يصبح أكثر هؤلاء الخوارج طعمة سيوف الغزاة ولم تدخل

(١) انظر ملحق ٢ ص ٣٤٥ في الدولة السعودية الأولى .

البقية الباقية من هؤلاء الخوارج داخل سلك الإيمان بأن يتوبوا ويستغفروا قلباً وروحاً...^(١) .

وجاء له فى رسالة أخرى : وظاهر بالتواتر خروج أكثر قبائل العربان بطريق الحج منذ عشرين سنة عن طريق أهل السنة المستقيم وتبعيتهم للسعود المردود وكونهم أشد كفراً من الكافر الخارجي المذهب^(٢) .

وبلغ الأمر أن السلطان العثماني بعد أن تمكنت جيوشه من استعادة الحرمين الشريفين ، وإحراق الهزيمة بأهل الدعوة أن تلقب بخادم الحرمين الشريفين ؛ لأنه استخلصهما من الكفار ، وبعث بالرسل إلى الأقاليم والأمصار تحمل المراسيم والأوامر إلى خطباء المساجد بأن يدعوا للسلطان بهذا اللقب ثلاثاً على المنابر يوم الجمعة .

وفي ذلك يقول الجبرتي رحمه الله : «وفي آخره^(٣) وصل من الديار الرومية (يعنى التركية) واصل على يده مرسوم فقرئ بالمحكمة . . . ومضمونه الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر ، بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان السلطان ابن السلطان بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان المغازي خادم الحرمين الشريفين ، لأنه استحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين ، وغزت الخوارج ، وأخرجتهم منها ؛ لأن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين ، ولخروجهم على

(١) انظر ملحق ١٠ ص ٣٧٠ في الدولة السعودية الأولى . وآثرنا نقل هذه العبارات على ركاكتها كما جاءت في الوثيقة .

(٢) انظر ملحق ١١ ص ٣٧٥ في الدولة السعودية الأولى .

(٣) آخر جمادى الثانية عام ١٢٢٨ هـ .

السلطان ، وقتلهم الأنفس ، وأن من قاتلهم يكون مغازياً ومجاهداً وشهيداً إذا قتل»^(١) .

ثم تولى كبر ذلك النزاع محمد علي باشا الذي استطاع بإرسال حملاته المتتابعة وبمعاونة فرنسا وبريطانيا من هزيمة أهل الدعوة في عقر دارهم ، وتقويض دولتهم ، وهدم الدرعية عاصمتهم^(٢) .

وقد كانت الأوامر تصدر الى الفقهاء والمجاورين في الأزهر بقراءة صحيح البخاري بقصد حصول النصر لإبراهيم باشا على أهل الدعوة^(٣) ، وهذه مع كونها بدعة فإنها كانت لا تصنع في أغلب الأحيان إلا في الشدائد ، وفي قتال الكفار خاصة ، كما وقع عند مجيء الفرنسيين وعند حروب الدولة العثمانية مع الروس وغيرهم .

أما الاحتفالات التي أقيمت في مصر بعد أن تم النصر على أهل الدعوة ، والقضاء على دولتهم فخيرها يفوق الوصف ، فقد زينت مدينة القاهرة سبعة أيام (٢٧ ذي الحجة - ٤ محرم) ونصبت الصواوين خارجها ، وأخرجوا من المدافع مائة وعشرة مدافع حيث كان ينطلق منها في الساعة الواحدة ما يقرب من ثمانين ألف قذيفة ، هذا من دون بنادق الخيالة ، والناس كانوا ملازمين للسهر والزينة ليلاً ونهاراً .

وكانت أكثر الزينات من صنع الإفرنج وحول مساكنهم . . ؟ وتوسع

(١) عجائب الآثار ٣/ ٤٠٦ .

(٢) انظر حول ذلك : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين . بعنوان محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية ص ١٨٥ .

(٣) عجائب الآثار ٣/ ٥٦٨-٥٧٩-٥٨١ . وهي عدة أوامر متكررة صدرت بعد إبطاء النصر وتأخر الظفر .

الناس في ذلك جداً ، وأسرفوا ، فكان كل من تخيل بفكره شيئاً ملعوباً أو تصويراً ذهب الى الترسخانة حيث الأخشاب والصناع فيعمله على طرف الميري^(١) حتى يبرزه إلى الخارج ، ويأخذ على ابتكاره البقشيش^(٢) .

وإذا كان هذا غريباً فإن الغريب حقاً هو مشاركة كثير من العلماء والفقهاء للناس في هذه الاحتفالات ، حيث تواطئوا مع الحكام واتفقوا معهم في حرب الدعوة السلفية ، وفي الابتهاج بما أحرز من نصر وغلبة على أتباعها ، حتى لقد وصل بعضهم إلى حد الإسفاف ، وخرجوا في ذلك عن الأوضاع الشرعية والأدبية كما يقول الجبرتي^(٣) .

فالكثير من العلماء كانوا يرون تكفير أهل الدعوة الذين يسمونهم بالوهابية ، وقليل منهم لم يكونوا يرون ذلك ، ومن هؤلاء الجبرتي رحمه الله حيث يقول : « وفيه^(٤) وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز وصحبتهم أسرى من الوهابية نساء وبنات وغلماً نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون أحرار^(٥) » .

والذي يظهر أن الجبرتي رحمه الله كان من القلة الذين فقهوا حقيقة هذه الدعوة ومالوا إليها ، وليس أدل على ذلك من كلامه حين استولى أهلها على الحرمين ، ووصفه لدعوتهم أنها رجوع إلى ما كان عليه أهل القرون المفضلة من هدى ودين ، وكيف أنهم أقاموا عمود الدين ، ومنعوا المنكرات

(١) الميري : الحكومة .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٦٠٠ .

(٣) المصدر ٣ / ٥٩٤ .

(٤) أي في شهر صفر سنة ١٢٣٥ .

(٥) المصدر السابق ٣ / ٦٠٦ .

التي أعظمها الشرك ، وكيف أنه دفع التهمة الساقطة التي أطلقها أهل
الابتداع ضدهم وهي منع الناس من الحج . بل إن هناك نصاً من كلام
الجبرتي له دلالة المهمة وهو قوله : « وفيه ^(١) وصلت الأخبار أيضاً من
عبدالله بن سعود ^(٢) أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به البلدة وقتلوه عند
باب همانيون ، وقتلوا أتباعه أيضاً في نواح متفرقة فذهبوا مع الشهداء » ^(٣) .
فقوله رحمه الله : فذهبوا مع الشهداء يدل على أنه يرى أنهم على الحق ،
وأنهم قد استشهدوا في سبيله .

ولكن من يجرو في ذلك الزمن العصيب الذي ترأس فيه المبتدعة ،
وتسلط فيه الخرافيون أن ينصف أهل الدعوة فيصرح بأنهم على الحق ، وما
سواهم على الضلال ، أو حتى يتوقف في تكفيرهم أو يحكم بإسلامهم .

هذه بعض مظاهر الصراع بين أهل الدعوة وبين خصومهم من أهل البدع
الذين لم يكتفوا ببدعهم وخرافاتهم وشركياتهم حتى أخذوا يكفرون أهل
الدعوة ويستحلون دماءهم وأموالهم ، ويعتبرونهم من الخوارج .

وإن كانت هذه المرحلة من الصراع قد تبلورت في صورة الصراع
السياسي أكثر من غيره ، إلا أن الصراع الفكري كان هو الأقوى والمستمر
خصوصاً بعد أن تم إسقاط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤ هـ .

وذلك عندما انطلقت الدعايات الكاذبة ، والتهم الباطلة التي أثارها
عباد القبور ، ومجاورو الأضرحة من المتصوفة وغيرهم ضد أهل الدعوة في

(١) أي في جمادى الأولى عام ١٢٣٤ هـ .

(٢) في الأصل : مسعود والصحيح ما ذكرنا .

(٣) المصدر السابق ٦٠٠ / ٣ .

أرجاء العالم الإسلامي الذي كان غارقاً فيما سبق أن وضحناه من حالة متدهورة. فانكمش الناس عن هذه الدعوة ، ونفروا منها ، وأخذوا يطعنون فيها ، وينالون من حملتها ، ويحذرون بعضهم من قبولها أو حتى السماع لها ، ويتناقلون الإشاعات فيما بينهم مما روجه المبتدعة الذين كبر عليهم ما وصلت إليه الدعوة من مكانة وانتشار ، وخافوا أن يجتثوا من الأرض ؛ كقولهم عن أهل الدعوة إنهم يكفرون المسلمين ، ويبغضون النبي ﷺ وأصحابه وأولياء الله الصالحين ويطعنون في أئمة المذاهب المعبرين إلى غير ذلك من الأقوال المردولة والإشاعات الساقطة .

والداهية أن تنتقل هذه الأقوال المكذوبة ، والدعايات المختلقة من إشاعات يتناقلها الناس في كل مكان إلى جمهرة من العلماء والفقهاء ممن تصدوا للتدريس والتأليف فيلتقفوها دون تبيين وتثبت ، ويودعوها مؤلفاتهم كحقائق لا جدال فيها .

وزاد الأمر سوءاً أن يكون جزء لا بأس به من هذه المؤلفات من مناهج التعليم الأساسية التي يعكف على تدريسها ودراستها ألوف من العلماء والطلبة في كثير من الأمصار ، وعبر حقبة زمنية متوالية .

ولعل أظهر مثال على ذلك هو الفقيه المعروف بابن عابدين الحنفي صاحب الحاشية المشهور المسماة بـ «رد المحتار على الدر المختار» ، فقد ذكر في باب البغاة تحت قول صاحب المتن (ويكفرون أصحاب نبينا ﷺ) مايلي : «علمت أن هذا غير شرط في مسمى الخوارج ، بل هو بيان لمن خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه ، وإلا فيكفي فيهم اعتقادهم كفر من خرجوا

عليهم كما وقع في زماننا في أتباع عبد الوهاب ^(١) الذين خرجوا من نجد وتغلبوا على الحرمين ، و كانوا ينتحلون مذهب الحنابلة ، لكنهم اعتقدوا أنهم المسلمون ، وأن من خالف اعتقادهم مشركون ، واستباحوا بذلك قتل أهل الشر وقتل علمائهم حتى كسر الله تعالى شوكتهم وخرب بلادهم ، وظفر بهم عساكر المسلمين عام ثلاث و ثلاثين ومائتين وألف ^(٢) .

وكذلك ما فعله صاحب الهامش على سنن النسائي المطبوع في الهند في الطبعة النظامية سنة ١٢٩٦ هـ حين قال في صفحة ٤١٢ : ثم ليعلم أن الذين يدينون دين عبد الوهاب النجدي ^(٣) ، ويسلكون مسالكه في الأصول والفروع ويدعون في بلادنا باسم الوهابيين وغير المقلدين ، ويزعمون أن تقليد الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم شرك ، وأن من خالفهم هم المشركون ، ويستبيحون قتلنا أهل السنة ^(٤) وسبي نساينا وغير ذلك من العقائد الشنيعة التي وصلت إلينا بواسطة الثقات ، وسمعنا بعضاً ، فهم أيضاً فرقة من الخوارج ، وقد صرح به العلامة الشامي في كتابه (رد المحتار) ^(٥) يعني ابن عابدين .

(١) ومن المعلوم أن هذا ليس اسماً للشيخ محمد رحمه الله ، بل اسم والده ، وهذا من جهل صاحب الحاشية ببداية الأمور في هذه الدعوة . وإن من يقرأ في كتابات المؤرخين والعلماء حول هذه الدعوة ليجد تخليطاً عجيباً وتليساً مبيتاً يعلم أقل المطلعين على أمر هذه الدعوة خطأ وجهله . وقد رأيت من ذلك شيئاً كثيراً من خلال قراءتي لعدد لا بأس به من هذه المؤلفات . والسبب الأول في ذلك أنهم لم يعرفوا عن هذه الدعوة إلا من خلال أعدائها .

(٢) حاشية ابن عابدين ٢٦٢ / ٤ دار الفكر الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

(٣) وهذا من جهله أيضاً .

(٤) أي سنة يقصد ياترى . ؟ .

(٥) نقلاً عن مقدمة صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان . للشيخ محمد رشيد رضا .

وهكذا انساق هؤلاء العلماء وغيرهم كثير فأودعوا كتبهم ومؤلفاتهم العلمية كثيراً من هذه الإشاعات التي كانت رائجة في زمانهم عن الدعوة السلفية التي جدد الله أمرها على أيدي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه رحمهم الله ، وحكموا فيها بكفرهم ، وعدوهم من فرق الخوارج وبذلك تعمقت شقة الخلاف واتسع مجالها بدخولها الى صلب المناهج التعليمية ، حيث كانت خطوة خطيرة تولى كبرها جماعة من العلماء الذين لم يدركوا من أمر هذه الدعوة في كثير من الأحيان إلا ما يتناقله العوام من حكايات رثة وإشاعات كاذبة .

ولعل مفتي مكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان (المتوفى سنة ١٣٠٤هـ)^(١) يأتي على رأس العلماء الكثيرين الذين استماتوا في محاولة إطفاء نور هذه الدعوة ، والكيد لها ، والطعن في دعائها ، والنيل من مؤسسها ، وتأتي رسالته التي خصصها في هذا المقام في مقدمة نشاطه الذي دأب عليه طوال عمره الطويل للقضاء على هذه الدعوة .

وقد قام بطباعة هذه الرسالة في أول مطبعة أنشئت في مكة المكرمة في زمنه واستطاع بمعاونة أمراء مكة ورجال الدولة أن يطبع منها أعداداً كثيرة ، ونسخاً وفيرة ، ويوزعها على حجاج الأفاق ، فعم نشرها ، واستطال شرها ، وتناقل الناس محتواها ، وسرت فيهم سريان النار في الهشيم ؛ إذ الزمان زمان بدعة وخرافة والنفوس غارقة في ألوان من البدع والمخالفات .

(١) الأعلام ١/ ١٢٩ .

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (المتوفى سنة ١٣٥٤هـ)^(١) في مقدمته للرد العظيم على هذه الرسالة وهو «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي رحمه الله (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ)^(٢) أن الناس تناقلوا مفتريات أحمد زيني دحلان وبهتانه في كل الأقطار ، وصدقها العوام وكثير من الخواص ، وكان لها أثر بالغ وذلك حين اتخذ المبتدعة والحشوية والخرافيون رواياته ونقلوه الموضوعة والواهية المنكرة ، وتحريفاته للروايات الصحيحة حججاً يعتمدون عليها في الرد على دعاة السنة المصلحين .

ويذكر أيضاً أن هذه الرسالة قد فنيت ولم يبق منها شيء بين الأيدي ، ولكن الألسن والأقلام لا تزال تتناقل كل ما فيها من غير عزو إليها ، ودأب البشر العناية بنقل ما يوافق أهواءهم فكيف إذا وافقت هوى ملوكهم وحكامهم؟! .

ثم يقول الشيخ : كنا نسمع في صغرنا أخبار الوهابية المستمدة من رسالة دحلان هذا وأمثاله فنصدقها بالتبع لمشايخنا وآبائنا ، ونصدق أن الدولة العثمانية هي حامية الدين ولأجله حاربتهم وخضدت شوكتهم . وأنا لم أعلم بحقيقة هذه الطائفة إلا بعد الهجرة إلى مصر والاطلاع على تاريخ الجبرتي وتاريخ الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، وأن الدولة العثمانية ما حاربتهم إلا خوفاً من تجديد ملك العرب وإعادة الخلافة الإسلامية سيرتها الأولى^(٣) .

(١) الأعلام : ١٢٦/٦ .

(٢) الأعلام : ٥٣/٦ .

(٣) صيانة الإنسان ص ١١ . لعل هذا واحد من الأهداف التي سعت إليها الدولة العثمانية في حربها مع الدعوة السلفية ، بل إن الدولة العثمانية كانت ترى أنها حامية للدين الذي فهمته ، فاعتبرت حربها مع الدعوة من هذا الباب حرباً دينية وجهاداً مقدساً .

وهذه الرسالة في حقيقتها تدور على قطبين اثنين كما قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

القطب الأول : قطب الكذب والافتراء على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه رحمهم الله .

القطب الثاني : قطب الجهل بتخطئة الشيخ فيما هو مصيب فيه ^(١) .

وقد جاء في هذه الرسالة من الافتراء والمغالطات والكذب ما الله به عليم ، وحاول دحلان من خلالها أن يتظاهر بالدعوة إلى وحدة المسلمين وعدم تفريق كلمتهم ، واعتبر أن الجماعة المأمور بلزومها هم الأكثرون عدداً في كل عصر وأن أهل الدعوة قلة مفارقة للجماعة . وتلك جهالة ظاهرة !

وهذه دعوى براءة يلوح بها أهل البدع والضلال في كل زمان ومكان في وجوه أهل السنة من المصلحين ، واتهامهم بتفريق جماعة المسلمين ، وشق كلمتهم ويتخذون من قلة عددهم غرضاً للطعن في دعوتهم وإصلاحهم .

ونسوق هنا بعض ماورد في هذه الرسالة من مفتريات ساقطة ، وأشياء لا يكاد يصدقها إلا ضعاف العقول وفاقدو البصائر ممن أوغرت صدورهم ببغض أهل السنة والجماعة ، وتشربت قلوبهم بحب البدع والمنافحة عنها .

وقد أعمت البدع دحلان ، فانطلق في دهاليزها المظلمة يكيل التهم الباطلة ويحشد الادعاءات الكاذبة ، وأجلب بخيله ورجله في محاولة منه لإطفاء نور هذه الدعوة المباركة ، ولكن الله عز وجل أبطل مكره وأحبط كيده فكان كما قيل :

(١) المصدر السابق ص ١١ .

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
وهذه بعض ماحوته رسالته من مفتریات وأباطیل :

أولاً : منع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أتباعه من مطالعة كتب الفقه
والتفسير والحديث وإحراقه لكثير منها .

ثانياً : إذن الشيخ لكل من اتبعه أن يفسر القرآن بحسب فهمه حتى همج
الهمج على حد قوله .

ثالثاً : تفرس العلماء للشيخ في صغره بأنه سيكون من أهل الإلحاد
والضلال ، وحتى والده كان من هؤلاء المتفرسين .

رابعاً : قول الشيخ لأتباعه : إنى أدعوكم الى الدين ، وجميع ما هو
تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ، ومن قتل مشركاً فله الجنة .

خامساً : حكم الشيخ وأتباعه بكفر الأمة منذ ستمائة عام .

سادساً : استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

سابعاً : انتهاكهم حرمة النبي ﷺ بارتكابهم أنواع التحقير له ولمن أحبه .

ثامناً : قوله عن الشيخ وأتباعه : كانوا إذا أراد أحد أن يتبعهم على
دينهم طوعاً أو كرهاً يأمرونه بالإتيان بالشهادتين أولاً ، ثم يقولون له : اشهد
على نفسك أنك كنت كافراً ، أو اشهد على والدك أنهما ماتا كافرين ،
واشهد على فلان وفلان أنه كان كافراً ويسمون له جماعة من أكابر العلماء
الماضين ، فإن شهدوا بذلك قبلوهم وإلا أمروا بقتلهم ، وإن كان الداخل
معهم قد حج حجة الإسلام فحجته باطلة لأنه كان مشركاً .

تاسعاً : ولع الشيخ في أول أمره بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذباً

كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وطليحة الأسدي وأضرابهم .

عاشراً : قوله عن الشيخ : كان يضمّر في نفسه دعوى النبوة ولو أمكنه إظهار النبوة لأظهرها ، وكان يقول لأصحابه : إنى أتيتكم بدين جديد ، ويظهر ذلك من أقواله وأفعاله .

حادي عشر : طعن الشيخ في مذاهب الأئمة وأقوال العلماء .

ثاني عشر : عدم قبوله من دين الإسلام إلا القرآن ظاهراً ويؤوله هو وأتباعه حسب مرادهم .

ثالث عشر : رده لأحاديث النبي ﷺ وأقاويل الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين .

رابع عشر : رفضه للإجماع والقياس الصحيح .

خامس عشر : ادعاؤه الانتساب إلى مذهب الإمام أحمد كذباً وتسترأ وزوراً ، والإمام أحمد منه بريء .

سادس عشر : كان الشيخ يأمر أتباعه بحلق رؤوس النساء اللاتي يتبعنه .

سابع عشر : قول العلماء في رواية (قرنا الشيطان) في الحديث^(١) أنهما مسيلمة الكذاب وابن عبد الوهاب .

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي . باب قدوم الأشعرين وأهل اليمن برقم : ٤٣٨٧ (الفتح ٩٨/٨) . ورواه مسلم برقم : ٥١ كتاب الإيمان . باب تفاضل أهل الإيمان فيه ٧١/١ ولفظه : أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال : «إلا إن الإيمان هاهنا . وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدابين عند أصول أذناب الإبل ، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر» .

ثامن عشر : وضع دحلان وغيره من طغام المبتدعة عدة أحاديث في الشيخ و أتباعه في الطعن والتنفير عليهم . كحديث « سيخرج في ثاني عشر قرناً في وادي بني حنيفة رجل كهية الثور ، لا يزال يلحق براطمه ، يكثر في زمانه الهرج والمرج . . » إلخ ذلك الحديث المختلق وغيره من الأحاديث المكذوبة المفتراة على رسول الله ﷺ (١) .

تاسع عشر : ترديده بأنه من المحتمل أن يكون الشيخ من عقب ذي الخويصرة التميمي الذي جاء فيه حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري (٢) لأن الشيخ من تميم .

عشرون : قوله : وأما ما نقل عن بعض العلماء أنه استصوب من فعل النجدي الذي جمع البدو على الصلاة ، وترك الفواحش الظاهرة ، وقطع الطريق ، والدعوة إلى التوحيد (٣) ، فهو غلط حين حسن فعله ، ولم يطلع على ما ذكرناه من منكراته ، وتكفيره الأمة من ستمائة سنة ، وحرق الكتب الكثيرة ، وقتله كثيراً من العلماء وخواص الناس وعوامهم .

(١) الدرر السنية في الرد على الوهابية ص ٥٥ أحمد بن زيني دحلان . . ط ٤ . ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م . مطبعة البابي الحلبي . القاهرة .

(٢) الحديث : بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : أعدل يا رسول الله ، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : « دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » .

رواه البخاري كتاب استتابة المرتدين . باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس منه برقم ٦٩٣٣ (الفتح ١٢ / ٢٩٠) .

(٣) وهذا دليل على انتشار الدعوة وتأييد بعض العلماء لها ، وانزعاج دحلان وغيره من المبتدعة من هذا الانتشار والتأييد .

واحد وعشرون : نبش قبور الأولياء وأمره لبعض أتباعه في الأحساء أن تجعل بعض قبور الأولياء محلاً لقضاء الحاجة .

ثاني وعشرون : منع الشيخ زيارة النبي ﷺ (١) .

هذا قليل من كثير مما حشيت به هذه الرسالة ، ولسنا هنا في مقام الرد على ما جاء فيها من مفتريات ، فقد تصدى لذلك الشيخ محمد بشير السهسواني رحمه الله من علماء الهند فكشف عوارها وأظهر زيفها وبطلانها في كتابه «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان»

وبقدر ما يتعجب القارئ عظم هذه المفتريات ، وفداحة هذه المكذوبات فإنه سيصاب بتعجب أكبر حين يرى هذه المفتريات والإشاعات تنتشر في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، فيتلقفها العلماء قبل العامة على أنها حقائق مسلمة ، ويعمل أهل البدع على تضخيمها ونشرها فيصدقها الناس في كل مكان إلا من رحم الله ، فتثور ثائرتهم وتتحد كلمتهم في صدّ هذه الدعوة والوقوف في وجهها ، ومحاربتها ، والتضييق عليها .

وقد تولت الدولة العثمانية رسمياً حرب هذه الدعوة السلفية في جميع المجالات العسكرية والفكرية والإعلامية ، وتسابق العلماء في رحابها في الرد على هذه الدعوة ، والنيل منها ، لعلمهم أن هذا وأمثاله مما تقر به عين الدولة ويرضي حكامها .

وقد تألب أهل البدع على اختلاف طوائفهم من متصوفة ومتكلمة ومتمذهة وغيرهم ، واستطاعوا في ظل هذه الدولة أن ينالوا من أهل السنة والجماعة ، ويتناولوا عليهم بالإيذاء مع قلة عددهم وضعف حيلتهم وهوانهم على الناس وغربتهم بينهم .

(١) هذه المفتريات منقولة عن رسالة دحلان السابقة ص ٤٢ - ص ٥٨ .

وما كادت شمس القرن الثالث عشر تشرق على العالم الإسلامي حتى غدت دعوة التوحيد التي جدد أمرها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب منبوذة ومحاربة في شتى الأقطار ، وأضحت كلمة «الوهابية» تهمة خطيرة يطلقها أرباب البدع والخرافة ضد كل داعية إلى الإصلاح والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح من عقيدة وصراط مستقيم ، وقد كانت هذه التهمة كفيلة بنبذ من أطلقت ضده ، ووسيلة سهلة لاستعداد رجال السلطة والحكم عليه ، وإنزال ما عنّ لهم من عقوبات وإيذاء .

فهذا الشيخ محمد بهجت الأثري يقول عن شيخه العلامة محمود شكري الألوسي : وهتف مع شدة وطأة الاستبداد الحميدي بضرورة تطهير الدين من أوضار البدع التي طرأت عليه ونبذ التقليد الذي هو علة العلل في انحطاط المدارك والأفكار ، وشن الغارات الشعواء على الانحرافات المتأصلة في النفوس والتقاليد السخيفة التي شب عليها القوم وشابوا . . . فغاظ ذلك أصحاب العمامم المكورة . . . وصاروا يشنعون في مجالسهم وينبزون بهوابي وهي كلمة ينفر منها السواد الجاهل حيث توحى إليه أبالستهم زخرف القول زوراً ، ويذكرون لهم عن الوهابي أنه منكر للرسول وعدو لجميع المسلمين يريق الدماء ويستحل الحرمات^(١) .

ولقد كان العلامة محمود شكري الألوسي في العراق يحمل على أهل البدع كما قدمنا ، فعاداه أرباب البدع وسعوا به لدى والي بغداد عبد الوهاب باشا؛ فكتب إلى مرجعه السلطان عبد الحميد الثاني ، فصدر الأمر بنفيه من بغداد إلى بلاد الأناضول ، فأخذه وابن عمه والحاج حمد العسافي النجدي

(١) أعلام العراق ص ١٠٠ .

مخفورين وما كادوا يصلون الموصل حتى قام أعيانها وسعوا لدى السلطان عبد الحميد حتى سمح له بالعودة إلى بغداد^(١) .

وفي بغداد أيضاً أُوذي «الشيخ علي علاء الدين الآلوسي» (المتوفي سنة ١٣٤٠هـ) وكان الجامدون من فريق المقلدة يشنعون عليه وينبذونه «بالوهابية»^(٢) .

وفي الموصل كان الشيخ «ملا أحمد بن الكولة» من المصلحين الذين جاهروا بالدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونبذ الخرافات والبدع ، وقد تألب عليه المشايخ وأصحاب الطرق وشكوه إلى والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي ، ورغم إلحاحهم على الوالي وإصرارهم على أذية ابن الكولة ، فإنهم لم يثبتوا أمام حججه القوية ، فتركوه وشأنه ، واستمر في دعوته حتى توفي سنة ١١٧٠هـ .

وكان ابنه «ملا محمد» قد سار على نهج والده في الإنكار على المبتدعة ، فتألب عليه الناس وسافر إلى بغداد وديار بكر وتقلد القضاء فيها ، كما تقلد القضاء في الموصل ، وكان كلما حل في مدينة جاهر بدعوته إلى الحق ، فيلاقي مقاومة عنيفة وبقي صابراً محتسباً . ويروي ياسين بن خير الله الخطيب العمري عنه أنه كان يؤيد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويدعو إليها في الرجوع إلى الكتاب والسنة^(٣) .

وفي بلاد الشام أُوذي الشيخ عبد القادر بن مصطفى الشهير بابن بدران الحنبلي (المتوفى سنة ١٣٤٦هـ)^(٤) لما أنكر على بعض المتصوفة ما يثبتونه في

(١) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٣) من مقدمة ترجمة الأولياء في الموصل الحذباء ص ٢٦ لسعيد الديوبه جي .

(٤) الأعلام ٣٧/٤ .

الناس من خرافات وسخافات ورموه بأنه زنديق وأنه وهابي^(١) ، وكما يقول أحدهم : « وإنه ليؤلمك كثيراً أن تعلم أن هذا الفاضل الراحل قد توفي في مدرسة من مدارس الأوقاف في غرفة حقيرة ، وأن الألم ليزداد في نفسك إذ تعلم أن جنازة هذا العالم الشيخ بدران لم يمش وراءها أديب أو عالم أو لم يحس بها أحد على الأرجح . تلك هي حالة هذا العالم الأديب عاش شريفاً فقيراً ومات كما عاش^(٢) . »

وذكر الشيخ الطنطاوي أن الوهابية كانت تهمة مخيفة في الشام ، ويقول : « ولقد عوقبت مرة في المدرسة لأنهم أمسكوني بالجرم المشهود في حلقة الشيخ عبد القادر بدران صاحب المدخل^(٣) » .

وقد كانت كتب العقائد السلفية ومؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية محظورة وممنوعة في الدولة العثمانية ، وكذلك كل كتاب يرون فيه شائبة الوهابية ، وحتى ندرك شدة كراهية الأتراك للدعوة السلفية نسوق القصة الآتية التي وقعت في الربع الأول من القرن الرابع عشر في مكة المكرمة :

فقد نعى إلى عثمان باشا والي الحجاز في عهد العثمانيين أن كمية من الكتب السلفية (الوهابية) وردت باسم أحد الوهابيين المجاورين في مكة من الهند ، وفي الحال أصدر أمره بإحضار صناديقها إلى مقر الحكومة ووضع عليها حراساً ، ولما علم الحراس أن الصناديق بها كتب وهاوية أخذوا يقفون عليها ويضربونها بأحذيتهم ، وفي يوم من الأيام قرر عثمان باشا البت في

(١) وتعني كلمة وهابي جميع ما ذكره الزيني دحلان من مفتريات وأكاذيب .

(٢) منتخبات تواريخ دمشق ص ٧٦٣ محمد أديب الحصني . وقد حاول بعضهم الاعتذار بأنه لم يعلم بوفاة أحد . ولكن أهل البدع والتصوف والتعصب قطعوا الطريق على كل معذر .

(٣) ذكريات ٧٨/١ .

مصير تلك الكتب فأحضر عنده شيخ الإسلام العثماني والقاضي التركي ونفراً من الهنود المعروفين بميلهم إلى الوهابية ، ولما فتحت الصناديق وجدت فيها كتب مؤلفة باللغة الفارسية والأردية للشيخ صديق حسن ومؤلفين آخرين في الهند .

ثم دعوا ترجماناً ليقرأ لهم اسم الكتاب واسم المؤلف حيث يأخذ شيخ الإسلام التركي الكتاب من الترجمان بواسطة منديله الحريري خشية أن تلمس أصابعه غلاف الكتاب ويسلمه للبasha الذي يقوم بتقليبه بين يديه ويقرأ اسم الكتاب واسم المؤلف في سخرية واستهزاء ثم يمسكه بيديه ويمزقه شر تمزيق ويلقيه أمامهم ويأخذ غيره ، واستمر كذلك حتى أتى على جميع ما في الصناديق من الكتب القيمة ومزقها ، ولم يبق من كل الكتب غير نسخة واحدة من كتاب «بلوغ المرام»^(١) .

وحسبنا أن الشيخ محمود شكري الآلوسي لما قام بتأليف كتابه (غاية الأمان في الرد على النبهاني) وأراد أن يطبعه في مصر لم يتمكن من وضع اسمه على الكتاب ، بل كتب : تأليف أبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي لئلا يتضح اسمه خوفاً على نفسه ، وذلك أن العلماء السلفيين في ذلك العصر كانوا يخافون على أنفسهم في معارضة أهل البدع والخرافين .

ومن جملة الأسباب لذلك أن السلطان عبد الحميد الثاني قد قرب المشايخ من أهل الطرق من الصوفية وأنصار البدع ، فلذلك خاف الشيخ محمود شكري من إظهار اسمه على الكتاب وكذلك صاحب المطبعة فرج الله زكي خاف على نفسه ، ولم يذكر اسمه إلا رمزاً (ف ، ج ، ز) ولا اسم مطبعته ولا البلد التي فيها المطبعة .

(١) ذكريات ص ٢٥ . أحمد علي . الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ . منشورات نادي الطائف الأدبي .

ومع ذلك فلم يتمكنوا من توزيعه إلا عندما أخذت الدولة العثمانية بالقوانين الوضعية الأوربية ، وأعلنت الدستور ، وكان الدستور يقضي بحرية العقائد والأديان ، فعند ذلك تم توزيع الكتاب^(١) .

وفي مكة أودى الشيخ أبو بكر بن محمد خوير مفتى الحنابلة (المتوفى سنة ١٣٤٩هـ) ونكب في أيام الشريف حسين بن علي فحبس ثمانية عشر شهراً ، ثم نحواً من سبعين شهراً (سبع سنين وثلاثة أشهر) لمعتقده السلفي ، وإنكاره على عباد القبور والأضرحة ، ولم يزل مسجوناً حتى دخل الملك عبد العزيز مكة فاتحاً وأخرجه من سجنه^(٢) .

وفي حماة في بلاد الشام لما أنكر الشيخ حسن الرزق (المتوفى سنة ١٣٣٠هـ) البدع وحاربها ودعا إلى الإصلاح ثار أذعياء العلم فأناروا عليه العامة باسم الدين ، واضطرت الحكومة إلى زجه في السجن يومين ، تسكيناً لهياج الرعاع سنة ١٣٢١هـ ، ومنعت الناس من مخاطبته ومجالسته . فأقام لا يختلط بالناس عاماً كاملاً^(٣) .

وفي تونس ألف الشيخ إبراهيم الرياحي (المتوفى سنة ١٢٦٦هـ)^(٤) . رئيس المفتين في تونس رسالة في الرد على الوهابية^(٥) .

وفي بلاد المغرب كان الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي (المتوفى

(١) انظر ذلك في ترجمة الآلوسي في مقدمة الكتاب المذكور . والترجمة للشيخ محمد بن عبد الله السبيل ص ١١ . المطبعة العربية . لاهور سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ .

(٢) الأعلام ٧٠ / ٢ .

(٣) المصدر السابق ١٩٠ / ٢ .

(٤) الأعلام ٤٨ / ١ .

(٥) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٣٨٩ محمد بن محمد مخلوف . دار الكتاب العربي . بيروت .

سنة ١٣٦٥هـ^(١) شديداً على أهل البدع ، شديد الإنكار عليهم ، مندداً بالطوائف وأرباب الأهواء الذين أدخلوا في الدين الإسلامي ما ليس منه ، حتى شوهوا وجهه معتقداً أن كل تأخر حل بالإسلام والمسلمين إنما أتى من هاته النزعات والبدع .

وقد وقع له مع بعض الطوائف ما وقع إذ كان يندد بهم ، وينكر عليهم في دروسه التفسيرية بسلا ، فشكوه إلى سلطان المغرب المولى حسن الأول وورد عليه مكتوب يطالبه بالتخفيف من ذلك ، شيء جعل الطوائف تشمت به ورغم هذا كله فلم يزد تشبثه بالسنة والذود عن حياض المبادئ الصحيحة إلا قوة وثباتاً^(٢) .

وفي ولاية قزان^(٣) في روسيا كان الشيخ العلامة المحقق عبد النصير أبو النصر ابن إبراهيم القورصاوي المتوفي ١٢٢٧هـ^(٤) متبعاً لمذهب السلف مجافياً لما أحدثه الخلف . يظهر عقيدته ومذهبه دون مبالاة منه لكثرة الجهال والمقلدين والجامدين .

وعندما سافر إلى بخارى سنة ١٢٢٣هـ وجاهر بمخالفة البدع ودعا إلى العمل بالكتاب والسنة قام عليه علماء بخارى وكفروه ورفعوا أمره إلى الأمير حيدر بن معصوم البخاري وحرصوه على قتله . فدعاه الأمير وجمع العلماء المذكورين فحصلت المناظرة بينهم فحكموا بابتداعه بل بكفره ووجوب قتله

(١) الأعلام ١/ ١٢٠ .

(٢) من أعلام الفكر المعاصر ١٢/ ١ . عبدالله الجراري .

(٣) وتلفظ : قازان أيضاً وتقع في حوض الفلغة شرقي روسيا الأوروبية وهي ذات حضارة إسلامية عريقة . انظر : المسلمون في الاتحاد السوفيتي ص ٢٧ محمد إسماعيل .

(٤) من أهل قورصا التابعة لولاية قزان .

إن لم يرجع عن مذهبه ، فلما رأى أن لا خلاص منه ولا مناص إلا بالتوبة والرجوع عن مذهبه أظهر التوبة في الظاهر عن مذهبه - وفي الحقيقة تاب عما يجب منه التوبة - وقرأ متن العقائد النسفية من أوله إلى آخره ، وقال إن معتقده هو هذا . فاطلقوا سبيله وأمروا بإحراق كتبه الموجودة وأمروا منادياً ينادي بصورة الحادثة وبأن من يوجد عنده^(١) شيء من كتبه المؤلفة ، ولم يأت به لدار القضاء والإمارة يكون دمه هدرأ .

ومع ذلك قيل إن الأمير حيدر كان يندم على عدم قتله^(٢) .

وفي بلاد الهند كانت الدعوة السلفية تلقى مقاومة من رجال الطرق والمبتدعين هناك .

وقد قاد تلك المقاومة أحمد رضا البريلوي وألف كتاباً أسماه : «الكواكب الشهائية في كفرات أبي الوهابية» قال فيه على سبيل المثال لا الحصر : «إن الوهابية وزعماءهم كفر لوجه كثيرة ، ونطقهم بالشهادة ليس ينافي الكفر»^(٣) .

وقال : «إن الطائفة الوهابية ثبت كفرهم بآلاف الوجوه والأسباب» .

وقال : «إن الوهابيين مرتدون ومنافقون لأنهم يتظاهرون بالإسلام وبالشهادة» .

وقال : «إن الوهابيين أرذل من إبليس وأفسد منه وأضل ، لأن الشيطان لا يكذب وهؤلاء يكذبون»^(٤) .

(١) في الأصل : يوجد فيه وهو خطأ .

(٢) تلفيق الأخبار وتلفيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ١٧/٢ تأليف م . م . الرمزي . الطبعة الأولى . ١٣٢٥ هـ المطبعة الكريمة والحسينية ببلدة «اورنبرغ» .

(٣) على النقيض من مذهب المرجئة الذي يدين به غالب هؤلاء المبتدعة .

(٤) ومن قال : إن الشيطان لا يكذب ، وقد قال ﷺ لأبي هريرة في الحديث الذي رواه البخاري في القصة المعروفة : « صدقك وهو كذوب» .

وقال : «إن الوهابيين أخبث وأضر من الكفرة الحقيقيين من اليهود والوثنيين وغيرهم» .

وقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ابن تيمية كان يهذي جزافاً وأفسد نظام الشريعة ، وأنه مبتدع ضال .

وقال : إن الشوكاني عقله ناقص مثل متأخري الوهابية وكان فاسد المذهب^(١) . إلى غير تلك الهراءات والسخافات التي أخذ ينفثها هذا المصدر ضد دعاة أهل السنة والجماعة .

ولعل ذروة هذه المقاومة العنيفة التي شنها الطرقية والمبتدعة ضد الحركة السلفية في الهند هي التآمر والخيانة ضد رجالها وحملتها هناك .

فعندما قام الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد (المتوفى سنة ١٢٤٦هـ) بحركته المعروفة ودعا إلى نبذ البدع والخرافات ، وأقام دولة على هذا الأساس ، وأعلن الجهاد في سبيل الله ، وحقق عدة انتصارات ، وبينما كان الشيخ رحمه الله وجيشه يخوضون معركة حامية مع جموع الشيخ المتآمرة مع المحتلين الإنجليز في تلال بالاكوت عام ١٢٤٦هـ ، انخذل عدد من القبائل المسلمة عن أرض المعركة ، وخانوا الشهيد رحمه الله في أخرج الأوقات ، نتيجة لتواطئهم مع الشيخ ، كل ذلك وقع لاتهامه بالوهابية .

وأُسفرت المعركة الغادرة عن مقتل الشيخ وكثير من أنصاره ، لينتصر

(١) نقلاً عن : الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية

٣٤٣ . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة . جامعة أم القرى . ١٤٠٦ .

١٤٠٧هـ لعبد الوهاب خليل الرحمن .

الوثنيون الشيخ ، ويجثم الاحتلال الإنجليزي بعد ذلك قرابة قرن وربع قرن على أرض الهند^(١) .

يقول الشيخ عبد الحي الحسني عن الشيخ أحمد بن عرفان : « فأحيا كثيراً من السنن المماتة ، وأمات عظيمًا من الإشرار والمحدثات ، فتعصب أعداء الله ورسوله في شأنه وشأن أتباعه حتى نسبوا طريقته إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي ولقبوهم بالوهابية ، ورغبوا إلى الكفار وصاروا أولياءهم في السر حتى انحازوا عنه في معركة «بالاكوت» فنال درجة الشهادة العليا وفاز بين أقرانهم بالقدح المعلى ، وبلغ منتهى أمله وانقضى أجله في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف»^(٢) .

وقبل ذلك دس بعض هؤلاء المبتدعة السم للشيخ المجاهد في عشائه ، ولكن الله نجاه منه بعد أن أغمي عليه بضعة أيام^(٣) .

وكان دعاة الشيخ أحمد بن عرفان قد كفرهم العلماء المبتدعون في عصرهم كما فعل بالشيخ محمد علي الرامبوري (المتوفي سنة ١٢٥٨هـ) حيث كفروه وأحرقوا «تقوية الإيمان» للشهيد إسماعيل الدهلوي ، وسعوا به إلى الحكام فأمرؤا بجلائه عن مدراس^(٤) .

ويذكر الشيخ محمد السنوسي أنه اجتمع بالشيخ رحمة الله الهندي

(١) المصدر السابق ص ٢٦٦ . وانظر : أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد ص ٦٩ لسعيد الأعظمي ، دار القلم ، دمشق . ط ٢ ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٣١ / ٧ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن . الهند . ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .

(٣) تاريخ الإسلام في الهند ص ٤١٩ عبد المنعم النمر . الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م . دار العهد الجديد للطباعة . القاهرة .

(٤) نزهة الخواطر ٧ / ٤٥٤ .

(المتوفى سنة ١٣٠٦هـ)^(١) في مكة المكرمة في ٢٩ ذي القعدة عام ١٢٩٩هـ وقال : وبالمناسبة سألته عن السلطان صديق حسن صاحب التفسير والتأليف الأخيرة التي نشرت بالمطابع الهندية والشرقية على ما يتراءى في أثنائها من خرق سياجات المجتهدين والاقتصار على ما يصل من الحديث ونحو ذلك مما يدل على عقلية الرجل ، فأخبرني أنه رئيس الوهابية ^(٢) ، ولا يجلس في مجلسه إلا من يشتم الأئمة الأربعة ^(٣) .

وقد تصدى كثير من سني علماء بلاده ^(٤) ، وغيرها من البلاد الهندية للرد عليه بتأليف نشرت في المطابع الهندية . فكشف لي بذلك عن الضمير المستكن ^(٥) .

وقبله كان الصوفي الشهير أحمد بن إدريس (المتوفى بصبيا سنة ١٢٥٣)^(٦) يكره الوهابيين ، ويحمل عليهم وعلى عقيدتهم حملات شديدة يوم كان في أم القرى ^(٧) .

ومع هذه الحرب الشرسة التي شنها المبتدعة على الدعوة السلفية وأتباعها خفت أصوات كثير من العلماء والمصلحين عن مقاومة ما تموج به

(١) الأعلام ١٨/٣ . وهو مؤسس المدرسة الصولتية في مكة المكرمة .

(٢) وتلك تهمة تكفي في عقولهم إسقاط منزلة وعدالة من وصم بها .

(٣) وهذا كذب واضح ، والمعلوم من سيرة صديق حسن خان غير هذا .

(٤) يقصد المتكلمين على مذهب الماتريدي ، والأحناف المتعصبين .

(٥) الرحلة الحجازية ١٠٩/٣ لمحمد بن علي السنوسي . والسنوسي هو الآخر على مذهب

الأشاعرة في الأصول وعلى مذهب المالكية في الفروع . ووافق شن طبقة .

(٦) الأعلام ٩٥/١ . وهو مؤسس الطريقة الإدريسية الأحمدية .

(٧) تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ١١٥ . عبد الواسع

ابن يحيى الواسعي اليماني . مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .

المجتمعات الإسلامية من بدع وخرافات وانحرافات ، بل ربما تلبس بعضهم بها خشية الأذى من جماهير البدعة الهوجاء .

يقول الشيخ محمد المجذوب : « وإذا البدع التي تلتهم عقائد العامة هي التي تفرض نفسها على شيوخ المسجد ، حتى لا يجرؤ هؤلاء على مخالفتها وإعطاء حكم الشريعة فيها ، خشية أن ينزوا بالوهابية والسلفية . . ونحو ذلك من الألقاب »^(١) .

وحين أراد بعض المصلحين منع ما يسمى بالأغاني الدينية وتسييحات الفجر التي تؤرق النائمين ، ثار الناس ، واتهم هذا المصلح بأنه يريد منع المؤذن من توحيد الله .

ثم يعقب على ذلك بقوله : « وانتبه إلى هذا الزعم الخبيث الذي يتهم المصلحين بأنهم يريدون منع الناس من التوحيد ! أنه الحجة نفسها التي يلقيها الشيطان على السنة الغوغاء حين يتهمون المصلحين ببغض الرسول ﷺ لا لسبب سوى أن هؤلاء يدعون إلى الوقوف بالأذان عند صيغته النبوية دون تزيد ، فلا يجهر المؤذن بغير ألفاظه التي جاءت في عصر النبوة . . فإذا هؤلاء يضحجون ويصرخون : يا غارة الله ! . . إن أولئك يريدون منع الناس من الصلاة على الرسول ﷺ »^(٢) .

وهذه شنشنة يعرفها أهل السنة والجماعة من أنصار البدع وناشري الخرافة فإذا قيل إن المولد بدعة ، وإن التوسل بالرسول ﷺ حرام ، وإن الرحال لا تشد إلا لثلاثة مساجد ، ولا يجوز أن تشد إلى القبور حتى ولو

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٣ . ط ١٣٩٠ هـ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

كان ذلك قبر النبي ﷺ ، تصايح المبتدعة في كل مكان هاتفين : إن هؤلاء يغيضون النبي ﷺ .

وقد رأينا حين أبطل أهل الدعوة البدع في الحج كيف هتف المبتدعة في كل مكان وتعالص صيحاتهم قائلين : إن الوهابية يمنعون الناس من الحج .

وهكذا حوربت عقيدة السلف حرباً لا هوادة فيها ، وشن عليها المبتدعة هجوماً عنيفاً واستطالوا على أتباعها وتعدوا عليهم بألوان من الإيذاء ؛ فقد رأينا كيف أمر بنفي بعضهم ، وهجر فريق منهم ، وسجن طائفة أخرى منهم ، واستحلال دمائهم ، وإجبارهم بحد السيف على التراجع عن معتقدهم وأخيراً التآمر والخيانة والتواطؤ مع الكافرين ضدهم ، حتى أصبحت عقيدة السلف الصالح في القرنين الماضيين غريبة عن واقع المسلمين ، محاربة في غالب الأقطار والبلدان .

ونتيجة لما جوبهت به دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من صد ورفض وإعراض ، وللموقف السلبي والسيء الذي وقفه السواد الأعظم من المسلمين ، أغلقت على المسلمين أبواب من الخير كانت جديرة بانتشالهم وإخراجهم مما هم فيه من هوة وتخلف ، وكفيلة بإصلاح أوضاعهم ، وجعل الأمة تستيقظ من سباتها الطويل وتتقي مؤامرات الأعداء ومخططاتهم التي تهدف إلى القضاء عليها .

ولكن ذلك لم يكن ليحدث بسبب سيادة أهل البدع وتسلطهم على الناس ، فكان لذلك الصد العنيف تأثير كبير في زيادة التخلف والهبوط ، وانزلاق الأمة في دركات الجهل والضعف والفرقة .

وإن مما يزيد في حسرة المسلم أن يرى أنه في الوقت الذي كانت تحارب

فيه هذه الدعوة ، وتتألب ضدها جماهير الأمة ، ويصدها العلماء قبل العوام ، كانت أوروبا الصليبية تعد عدتها ، وتجهز جيوشها لغزو العالم الإسلامي والسيطرة عليه . وقد نجحت بالفعل في تحقيق أهدافها ؛ وذلك للأحوال العقدية والعلمية المتردية التي كان من أشدها تلك المقاومة العنيفة التي لاقتها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث .



الفصل الخامس

هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على علماء العقيدة ومؤلفاتها

يعتبر الخليفة العباسي المأمون (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) أول من أدخل الفلسفة اليونانية إلى المسلمين ، وفتح الباب على مصراعيه لدخول هذه الانحرافات الفكرية إلى الأوساط العلمية في الأمة الإسلامية التي كانت ترد مورداً عذباً واحداً هو الكتاب والسنة ، فتعكر ذلك المورد الصافي ، فكان لذلك أعظم الأثر في حياة المسلمين .

«وتشير رواية إلى أن المأمون هو الذي طلب من صاحب جزيرة قبرص خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد ، فأشار عليه خواصه بإجابة المأمون إلى طلبه بهدف إحداث الفتن بينهم . فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها»^(١) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ، فقد وقع ما جاء في فحواها من تيقن الإفساد والدمار الذي تحدثه هذه السموم الفكرية ، وجنت الأمة المسلمة ثمار ترجمتها ودفعت الثمن غالياً ، ولذلك انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - المأمون على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم الفلسفية بين أهلها^(٢) .

(١) الإسلام والمذاهب الفلسفية ص ٩٧ . د . مصطفى حلمي . دار الدعوة . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ - بدأت حركة الترجمة من أيام خالد بن يزيد بن معاوية ت ٨٥ هـ =

ومن عجائب الأمور أن حركة الترجمة هذه كان قد تولى العمل بها والإشراف عليها أناس ليسوا بمسلمين ، من يهود ونصارى ومجوس وطوائف شتى ، فما عسى أن تكون النتيجة حين أسندت حركة الترجمة إلى تلك الطوائف الحاقدة على الإسلام التي انطلقت في ظل رعاية الدولة وفي كنف تشجيعها تتبارى في إخراج تلك السموم من مكائنها لحقن فكر المسلمين وعقولهم بها؟

وبصرف النظر عن صحة الرواية التي أشارت إلى طلب المأمون لفلسفة اليونان وإرسال حاكم قبرص إياها له بغية الإفساد والوقية بين العلماء ، فإن تهافت هؤلاء المترجمين من أعداء الإسلام على القيام بترجمة هذه الفلسفة ليؤكد لنا أن هناك مؤامرة خفية أو اتفاقاً على الأقل بين هذه الفئات الحاقدة لتدمير المسلمين من الداخل ، وغزوهم فكرياً بهذه السموم الخطيرة .

وقد تكفل المأمون بتبني حركة الترجمة لهذه اللوثات الفكرية «وحث الناس على دراستها . وفي عهده نالت هذه المؤلفات رواجاً عاماً ، ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً ، وأقبل الشباب هم الآخرون على إتقان هذه المواد ، وجاء به كل كهديّة إلى بلاط المأمون السخي ، وأكرموا بالجوائز والصلوات والمناصب العالية ، وهكذا فإن الدولة العباسية أصبحت منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم ، وقد ظل عمل الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد

= ثم في عهد أبي جعفر المنصور ثم في عهد الرشيد حيث توسع فيها يحيى بن خالد بن برمك ، ثم ازدهرت في عهد المأمون الذي أشرف عليها بنفسه وسخر إمكانات الدولة لصالحها حتى إن المترجم ليأخذ عدل ما ترجمه ذهباً . فهو الأول حقيقة وعملاً لأن الترجمة قبله شيء لا يكاد يذكر بالنسبة لما وقع في عصره .

المأمون حتى القرن الرابع الهجري تقريباً»^(١) .

ومع أن حركة الترجمة شملت غالب مؤلفات فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس ، إلا أن كتب أرسطو هي التي نالت القبول والإعجاب في أوساط العالم الإسلامي العلمية أكثر من غيره .

«ولعل من سوء حظ العالم الإسلامي أنه لم يحظ من فلاسفة اليونان إلا بمن كان أبعد وأجهل من الجميع في تفهم روح الأديان السماوية ومفاهيمها وحقائقها ، وكان أكبر داعية للفكرة المادية ومن كبار أنصارها ومؤيديها»^(٢) .

هذا ولقد عورضت هذه الفلسفة في بادئ الأمر ، وتصدت طائفة من العلماء للرد عليها خلال عدة قرون ، ولم يأل علماء السنة والجماعة جهداً في محاولة دحرها غير أن هذه الفلسفة كانت قد استحوذت على مشاعر الكثيرين من العلماء وعقولهم . ولم يكد يطل القرن الثامن الهجري على العالم الإسلامي حتى غدت للفلسفة والمنطق اليونانيين الهيمنة على جميع الأوساط العلمية فيه .

«وكان يعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يفهم المرء مسائلهما وبحوثهما ، ولم يكن لأحد أن يتجرأ على القول بإزائهما أو ضدهما ، ولم يكن المحدثون والفقهاء فرسان هذا الميدان ، وجل ما كان يسعهم هو أن يفتوا

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام . الجزء الثاني . شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٦٣ . أبو الحسن الندوي دار القبة . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ . وسوء الحظ هنا من باب أن بعض الشر أهون من بعض ، وإلا فمن سوء الحظ أصلاً ترجمة هذه الفلسفات العقيمة على اختلافها وتفاوت انحرافاتهما .

بحرمتها ، إلا إن هذا السيل ما كان يقف بهذا ومثله من الأعمال ، فقد كان العالم الإسلامي يعيش تحت ضغطهما^(١) .

ومع إجماع سلف الأمة على ذم الكلام وأهله والتحذير منه حتى قال الشافعي رحمه الله : «حكمني في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر ، وينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام»^(٢) ، إلا إن كثيراً ممن جاء بعدهم ألقوا بذلك التحذير عرض الحائط ، وأخذوا يقبلون بنهم على ما حذرهم منه سلفهم الصالح من تلك العلوم الضارة ، حتى خلفوا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وراءهم ظهرياً .

وأصبح العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه يموج بالفلسفة والمنطق وبعلم الكلام الذي حاول أربابه أن يخلطوا قواعد المنطق والفلسفة بالكتاب والسنة فجاءوا بهجين بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه كل البعد .

وقد جاء شيخ الإسلام ابن تيمية في عصر سادت فيه هذه الفلسفات والمنطق وعلم الكلام ، وأصبحت مهيمنة على أنحاء العالم الإسلامي على اتساعه يتوارثها المسلمون جيلاً بعد جيل على أنها من العلوم المقدسة والمعارف المحترمة «ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقد صريح واستعراض علمي حر للفلسفة والمنطق ، وإلى إزاحة الستار عن مواضع

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٩/١٠ . وذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن السلف قد اتفقوا على ذم الكلام والمتكلمين وصنفوا في ذلك مصنفات . وذكر من هؤلاء السلف : الشافعي وأحمد ابن حنبل ومالك وأبا يوسف . انظر كتاب «النبوات» ص ٨٥ . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

ضعفها العلمية ، وقد أنجز حاجة الساعة هذه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقام بنقد الفلسفة اليونانية ومحاسبتها العلمية مؤيداً بحوثه بالدلائل والبراهين ، وناظر أرسطو مناظرة علمية وجهاً لوجه ، ذلك الذي كان علماء الفلسفة يعتبرونه شخصية فوق مستوى البشر وغنية عن النقد والرد»^(١) .

لقد بذل شيخ الإسلام رحمه الله جهوداً عظيمة في نقد هذه التيارات المنحرفة عند المسلمين فنقد الفلسفة وعلم الكلام والمنطق ، وتصدى بالردود القوية على أشياع هذه التيارات ، ووجه الأنظار إلى المنهج الرباني الذي يجب على المسلمين أن يتجهوا إليه ولا يلتفتوا إلى غيره .

وقد كانت هذه المحاولة الفريدة من شيخ الإسلام جديرة بإنهاض المسلمين من كبوتهم التي أوقعهم فيها سلوك هذه التيارات ، وإرجاعهم إلى الصراط المستقيم الذي ابتعدوا عنه كثيراً ، ولكن شاء الله تعالى ألا تثمر هذه المحاولات إلا بعد حين من الدهر^(٢) .

واستمر المسلمون بعد ابن تيمية على نفس السبيل التي نابذها وقاومها ، يقبلون عليها ، ويقدمونها ، دائبين في الإعراض عن المنهج القرآني وجمد المسلمون في القرنين الماضيين على ما كان متداولاً في القرون التي هيمنت عليها هذه التيارات الفلسفية والمنطقية والكلامية .

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ١٦٧ .

(٢) وذلك حين قام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بتجديد الدعوة السلفية التي أوشكت على الاندثار في منتصف القرن الثاني عشر الهجري . وقد كانت الثمرة الأولى لجهود شيخ الإسلام ابن تيمية تلاميذه المتميزين ، ثم شاء الله أن تخرج ثمارها العظيمة على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه الذين اعتمدوا كثيراً على التراث العلمي الذي خلفه ابن تيمية وتلاميذه وإظهاره للناس . وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

واستطاع أنصار هذه التيارات أن يغلقوا الأبواب في وجه الدعوة التي حملها ابن تيمية ويصدوها صداً عنيفاً لتظل بعيدة عن واقعهم .

وبذلك ساعدوا في إحداث مزيد من الانزلاق الخطير الذي كانت الأمة تهبط فيه وسدوا باباً كان من الممكن أن ينقذ الأمة ويتشلها مما وقعت فيه من دركات .

وحين كانت الفرصة مهيأة مرة أخرى لبعث الجهود التي بذلها شيخ الإسلام ابن تيمية من جديد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فقد ضاعت للمرة الثانية على أيدي علماء الكلام والفلسفة والمنطق ، وقبوت تلك المحاولة مقاومة شديدة كما وضحنا ذلك عند حديثنا عن غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها .

وفي الفترة التي ندرسها ازداد الأمر سوءاً بعكوف العلماء على مؤلفات هذه التيارات ، لا لينتقدوها ، بل ليضعوا عليها الحواشي والشروح والتقارير ، ويزيدوا في تعقيدها ونشرها بين المسلمين .

ولم يكن هناك بد للعلماء البارزين في ذلك العصر من الاحتفاء بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة ، فبذلك يتصدر في الدروس والوظائف ، ويتفوق على الأقران ، ويكون الظهور والبروز .

فهذا الدردير المالكي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ شيخ علماء المالكية في الأزهر يصرف كثيراً من نشاطه وجهده في التصنيف في تلك العلوم ولكن على طريقة المتأخرين النائية عن التجديد والابتكار ، والاكتفاء بالحواشي والشروح والنظومات .

فله في ذلك المضمار : نظم الخريدة السنية في التوحيد وشرحها ، وله

أيضاً: شرح مقدمة نظم التوحيد لمحمد كمال الدين البكري، وشرح على رسالة التوحيد من كلام دمرداش، وله: التوجيه الأسنى بنظم الأسماء الحسنی^(١).

أما معاصره الشيخ الصبان (المتوفي ١٢٠٦هـ) فله حاشية على شرح العصام على السمرقندية وحاشية أخرى على شرح الملوى على السلم^(٢). وللشيخ محمد بن محمد بن عبد القادر المالكي الأزهري الشهير بالأمير الكبير حاشية على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة، وحاشية على شرح الملوى على السمرقندية^(٣).

ومن الكتب والمؤلفات التي راجت في ذلك العصر: الشرح الصغير على السلم للشيخ الملوى، شرح الشيخ عبد السلام على جوهرة التوحيد، أم البراهين، شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني، شرح أم البراهين للحفص، مختصر السعد على التلخيص، شرح القطب على الشمسية، إلى غير ذلك.

وقد شغف العلماء بهذه العلوم وما صنف فيها وعكفوا على تدريسها. فهذا الحبيب بن علي البوسليمانى السوسي المغربي (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ) عكف زمناً على تدريس «أم البراهين» وشروحها، وحاشية الدسوقي عليها، و«شرح الكبرى» للشيخ عليش، وصنف «شرح السلم» مطول في المنطق^(٤).

(١) عجائب الآثار ٢/ ٨٨.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٨.

(٣) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣/ ١٢٦٨. عبد الرزاق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. ١٣٨٠هـ تحقيق: محمد بهجت البيطار.

(٤) الأعلام ٢/ ١٦٦.

وهذا محمد السنوسي لما اجتمع بالشيخ حبيب الرحمن الهندي عام ١٣٠٠ هـ بالمدينة سارع لتوّه في قراءة كتاب «الهداية الحكيمة بشرح المبيدي» وهو متن في المنطق والطبيعي والإلهي ، وابتدأ قراءة الكتاب المذكور ضحوة الاثنين تاسع المحرم ، وجعل الوقت المختص بالقراءة فيما بعد صلاة العشاء . يقول السنوسي : فكنا نستغرق أكثر الليل في الدرس . . . إلى أن يسر الله لي ختم الكتاب . . . ليلة الجمعة الثالث عشر من المحرم وأنشدته عند الختم قولي :

جزيت حبيب الله عني بخير ما	يجازي به عمن بعلم تعلما
أفدت بإقرائي هداية حكمه	وتحرير ما فيها بما منك أحكما
بتقريرها طنبنا ليلي أربعا	بها قد ختمناها لديكم تفهما
وإني على ما قد أفدتكم لشاكر	لأنك قد أسديت بالعلم أنعما
فلا زلت تهدي من يؤمك طالبا	وهذا مرادي منكم اليوم تمما ^(١)

ولا ندري كيف تكون الهداية بالمنطق ، ومؤكد أنها هداية بعيدة عن هداية الكتاب والسنة .

وحتى تزداد الصورة وضوحاً نضرب على ذلك مثالا واحداً لنكشف صفحة قائمة من صفحات تلك الفترة ، لنرى إلى أي مدى وصلت الحالة الفكرية ، ونرى كيف كان يعايش العلماء قضايا العقيدة ومباحثها .

فقد سئل الشيخ إبراهيم بن محمد التادلي المتوفي سنة ١٣١١ هـ عن قول الغزالي : (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فأجاب السائل قائلاً : قول الإمام

(١) الرحلة الحجازية ٣/ ١٢١ .

الغزالي رضي الله عنه (ليس بالإمكان أبدع مما كان) كما في السؤال هو بظاهره لا يصلح لأنه يقتضي محالاً كالعجز فيجب تأويله ، وباب التأويل واسع يحتمل محامل كثيرة ؛ منها ما يرجع للظاهر كالجري على قواعد علم التوحيد وغيره من العلوم العقلية وعلى قواعد علم العربية وغيره من العلوم الشرعية ، ومنها ما يرجع للباطن كعلم الكشف .

والثاني ليس نحن من أهله^(١) ، وأهله لا يتكلمون فيه ، بل يشتغلون بما هو أهم منه كالفكر والذكر والصلاة وتلاوة القرآن ، ويقولون إن الإنسان مطلقاً تصدر عنه مقالات ظاهرها منكر شرعاً ، بحيث لو تبدل حال قائله وراجع نفسه لأنكره ؛ كما قيل في قوله تعالى في سورة يوسف حكاية عن نبي الله يوسف عليه السلام : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ فإن ظاهره مخالف لقواعد التوحيد من عصمة الأنبياء من الصغائر فضلاً عن الكبائر فضلاً عن الكفر فضلاً عن الموت عليه^(٢) .

يقول الفقيه : محال الكذب ، إلخ وقد أجيب عنه بأجوبة منها :

جواب السيوطي رضي الله عنه : إن صدر منه ذلك السؤال حال استيلاء

(١) والأولى أن يقول : لسا من أهله للاختصار .

(٢) هذا الاستشهاد لا يسلم لقائله . وليس يقدح في العصمة كما توهم . وقد أجيب عن الآية بالوجوه التالية : الأول : أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام وللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام ، ويقول الداعي اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين . الثاني : أنه سأل ذلك عند احتضاره كما ثبت قريباً من ذلك عن نبينا محمد ﷺ في مرض موته حيث جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول : « اللهم في الرفيق الأعلى » . الثالث : أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم . والجمهور على القول الأول كما ذكر الشوكاني . انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٤٩٣ ، فتح القدير ٣/ ٥٧ . دار الفكر . بيروت . ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الخوف عليه حتى ينسى ويدهش عن الجواب والمحال ، وهو (والله أعلم)
أحسن الأجوبة كما أشار الشهاب على الشفاء في فصل خوفه ﷺ ، وكما
صدر من قول الحلاج رضي الله عنه : (ما في الجبة إلا الله) ونحو ذلك .

واللائق بالكامل أن ينظر في القول وفي قائله ؛ إن كان من أكابر العلماء
والأولياء كالغزالي وصدر منه كلام ظاهره في بادي الرأي منكر عقلاً وشرعاً
أن يجريه على حكم التشابه ؛ فيصرفه عن ظاهره إجماعاً ثم يقول على
مذهب السلف : الله أعلم بمراده ^(١) .

وعلى مذهب الخلف يجريه على قواعد العربية أولاً ، ثم على قواعد
العلوم الشرعية كالنوحيد ، وليجتهد غايته في تصحيحه ولا يبادر للإنكار ؛
فقد قالوا : اعتقد ولا تنتقد ، فإن كان فارغاً من تلك العلوم فليمسك عن
الكلام خوف الوقوع في المحذور خصوصاً في مسألة كلامية .

فقد عد الإمام السنوسي رضي الله عنه في شرح المقدمات ، من أوجه
الشرك بل من أصول الكفر - الجهل بالقواعد العقلية والجهل باللسان العربي
فراجع إن شئت لتكون على بصيرة في ذلك .

وإذا رجعنا للقواعد العربية فتكلم على مفردات هذا التركيب أولاً ثم
على مركباته إذ المفرد سابق طبعاً على المركب ، ولأن الحكم على الشيء فرع
تصوره لقول السلم : وقدم الأول عند الوضع إلخ . . . فتحتاج إلى
استحضار قواعد العلوم العربية الاثني عشر المشهورة أو جلها ، فتقول :
ليس فعل ماض حقيقة في نفس الحال ، وقد تكون للنفي المطلق مجازاً ،
فلعل هذا الكلام صدر من الغزالي في حالة فنائه ^(٢) ، فقال في الحال : ليس

(١) بل هو مذهب أهل التفويض والتجهيل . انظر ص ٣٤ القواعد المثلى لابن عثيمين .

(٢) بمثل هذا الانحراف الخطير وغيره من عقائد المتصوفة لبس الزنادقة وأعداء الإسلام على =

في الإمكان إلخ وتفهم منه أن في غير تلك الحال : يكون في الإمكان أبدع منه ، أو تقول : هي للنفي مطلقاً فيجىء الإشكال المتقدم ثم تقول : الإمكان مصدر أمكن الشيء جاز وهو عند المتكلمين ثلاثة كما أشار له الشيخ الطيب شيخ شيوينا رحمهم الله عند قول المرشد : وجائز إما قبل الأمرين إلخ .

فجعلوا الإمكان انذاتي ثلاثة أقسام ، ثم تقول : وهل المراد الإمكان العقلي أو العادل أو الشرعي ، كما ذكره في تقسيم الحكم إلى ثلاثة أقسام ، وأشار إليها في المرشد بقوله : وحكمنا العقلي قضية ، ثم تقول أبدع اسم تفضيل من بدع ، وأبدع الله الخلق أوجدهم وخلقهم لا عن مثال ، واسم تفضيل يدل على المشاركة والزيادة على أصل الفعل ، وهل النفي مسلط على المقيد وهو أصل الفعل ، أو على القيد وهو الزيادة أو عليهما معاً وما يتعلق بأبدع . وكان مشترك بين معان ، فيكون تاماً وناقصاً ، ويكون بمعنى صار كقوله تعالى : ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِبِينَ ﴾ كما ذكره في بحث كان - فأنت ترى كم في كل لفظ من الاحتمالات .

هذا باعتبار الألفاظ المذكورة ، فإذا جوزنا احتمال الحذف في الكلام أو أوجبناه اتسع الخرق على الراقع ، فقد يحتمل الحذف في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره ، وقد يحتمل حذف مضاف أو مضافين فأكثر ؛ ولذا قال

= العوام والجهال ، بل على العلماء كما نرى ، واستطاعوا تضليلهم وغوايتهم ونفت أحقادهم وهم آمنون بعد ذلك في رحاب تلك العقائد الهدامة ؛ فلا يمكن مؤاخذه المرتدين والزنادقة مهما قالوا أو فعلوا بحجة الفناء . واليوم يحدث شبيه بهذا ولكن تحت ستار البحث وحرية الفكر والتعبير عن الآراء ، فلا يؤاخذ القائل المرتد مهما قال في الإسلام بتلك الحجة . إتجاه واحد للكيد والمؤامرة وإن تعددت الصور والأشكال .

جمهور الأصوليين : إن دلالة الألفاظ ولو ألفاظ القرآن ظنية لا تفيد اليقين إلا بانضمام تواتر أو غيره .

وهذه المسألة من علم التوحيد المطلوب فيه القطع واليقين ، ولا ينفي في الظن فيه من الحق شيئاً .

ثم تقول هل المراد فيمكن أحسن مما وجد في الماضي ، وأما في الحال فيمكن ، أو في الاستقبال . وأما في غيره فيمكن أو لا يمكن أبدع مما سبق في العلم القديم ، أو كان مجردة عن الزمان (الله أعلم بالمراد . . .) وقد قال الشيخ إبراهيم التادلي عن قول الغزالي : ليس في الإمكان أبدع مما كان . لعله صدر من الغزالي في حالة فناءه^(١) .

وقد كتب الزبيدي (المتوفى سنة ١٢٠٥هـ) حول هذه المسألة ست عشرة صفحة وذلك أثناء شرحه للإحياء . كما تكلم عليها صاحب الذهب الأبريز وغيرهما . بل لقد كانت هذه الكلمة الصغيرة التي أطلقها الغزالي مجالاً رحباً لتنافس العلماء في دفع المعنى الظاهر لتلك العبارة ، وحشد الردود والشروح في ذلك^(٢) .

وفي الوقت نفسه كانت تلك العبارة معتركاً ضيقاً لا يدخله إلا الفطاحلة من العلماء في نظر أهل العصر ، ويمتحنون فيه إذا نزلوا في مدينة أمام شيوخها والمتصدرين فيها ، كما وقع ذلك للمؤرخ الجزائري الذي قام بزيارة الشام^(٣) .

(١) من أعلام الفكر المعاصر ٢٤٧/٢ عبدالله الجاروي .

(٢) لا أظن أن الغزالي قد خطر بباله أن عبارته تلك ستكون هي الشغل الشاغل للعلماء من بعده على مدار القرون ، وأنهم سيحتفلون بها ، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في حملها على غير ظاهرها .

(٣) يراجع موسوعة عبد الرحمن الجبرتي . الموسوعة عبارة عن مؤتمر حول الجبرتي أقيم في القاهرة . في بحث بعنوان : مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي .

هذا مثال مؤسف له دلالة الخطيرة ، ومؤشر دقيق يشير إلى أن الأمة في هذه الفترة قد بانت عن المنهج الرباني في عقيدته الواضحة بوناً شاسعاً ، وانشغل علماءها بأمور ساقطة ، وقضايا تافهة لا تستحق الوقوف عندها ، أو العكوف عليها بالشرح والدراسة ، بل لقد كان الواجب ألا يوقف عندها إلا بالنقد والإبطال ، ولكن أنى يحدث مثل هذا ، وفقد الشيء لا يعطيه .

وياليت القرآن الكريم والسنة النبوية قد حظيا من أولئك العلماء بمثل ما حظيت به عبارة الغزالي تلك . ولكن المتكلمين هم أبعد الناس عنهما وعن أتباعهما كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى^(١) .

وبمثل هذا الغناء كانت تنصب اهتمامات العلماء وتنضب جهودهم في الانشغال به ، وتفنى الأعمار في تحصيل تلك العلوم العقيمة التي تحجر العقول ، وتبلد الأفهام ، وتضيق النفوس ، وتقسي القلوب ؛ فلم يعودوا قادرين على الرجوع إلى المنهج الرباني والعقيدة الصحيحة ، وبينها وبينهم حجاب كثيف يحول دون رجوعهم إليها ، وليس لديهم وقت للتفكير في أحوال المسلمين وقضاياهم ؛ لانشغالهم بهذه العلوم التي كانوا يرون أنهم يخدمون بها الأمة ، ويقومون بواجبهم من خلالها .

وبعد ذلك فلا بد لنا من عدة وقفات سريعة نقف فيها مع ما أوردناه من مثال لنرى مدى الانحدار الذي وصل إليه جمهور العلماء في القرنين

(١) مجموع الفتاوى ٩٥/٤ . ويذكر رحمه الله أن هؤلاء المتكلمين من أجهل الناس بالحديث حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم به منهم . وهم أيضاً لا يعلمون معاني القرآن ولا يحفظونه . ويقول رحمه الله أن ثقة حدثه أن بعض أئمة المتكلمين تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر فأعطوه جزءاً من الربعة فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . المص ﴾ حتى قيل له : ألف لام ميم صاد .

الماضيين والعلوم التي كانوا يعايشونها ، وإذا كان هذا هو حال العلماء فكيف يكون حال أمتهم التي تنقاد خلفهم ، وتثق فيهم ثقة عمياء .

الوقفه الأولى : هيمنة التأويل - ذلك الطاغوت^(١) - على فكر علماء المسلمين وعقولهم حتى غدا كسيف معلق يسله من شاء من المبتدعة في وجه النصوص الشرعية .

وقد أضفوا على ذلك الطاغوت هالات من التقديس والتبجيل ، وجعلوه من صميم العقيدة ، مع أنه قاعدة غير منضبطة على الإطلاق .

ثانياً : إيمان العلماء بانقسام العلم إلى ظاهر وإلى باطن ، فالعلم الظاهر هو ما يكون بالتعلم ويدخل تحت هذا النوع جميع العلوم بما في ذلك العلوم الشرعية . والعلم الباطن يحصل بالكشف^(٢) ، وهذا في الحقيقة من تأثيرات الصوفية التي تعتبر ذلك التقسيم من أهم عقائدها .

وقد يسمون الأول بعلم الشريعة ، والثاني بعلم الحقيقة ، فيزهدون في الأول وربما لا يرفعون به رأساً ، وينتقصون الفقهاء لأجله ، بينما يمتدحون الثاني ويفخرون به على من سواهم .

(١) انظر كسر هذا الطاغوت وإبطاله للعلامة الرباني ابن قيم الجوزية في مختصر الصواعق المرسلة للشيخ الموصلي ص ١١ - ٨٢ . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

(٢) يقول الغزالي عن هذا العلم : علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم . . . وهو علم الصديقين والمقربين . . . فهو عبارة عن نور يظهر في القلب ، عند تطهيره وتركيبته من الصفات المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه تربيته للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم . . . الإحياء ٣١ / ١ .

وقد نتج عن ذلك كما سنعرف إهمال شديد لعلوم الشرع وغيرها من العلوم المهمة بحجة أنها من علوم الظاهر التي لا ينبغي للخاصة أن يصرفوا أوقاتهم فيها . وحفلوا بعلم الكشف الذي ليس هو إلا محض خيال وأوهام ، واجتيال شياطين .

ثالثاً : ومن لوثات الصوفية وأوضارها التي اعتذر بها عن الغزالي - الفناء ، وقد يعبر عنه بالكشف ؛ حيث قال : إن الإنسان مطلقاً تصدر عنه مقالات ظاهرها منكر شرعاً . . . إلخ .

ثم قال في آخر الجواب : لعله صدر من الغزالي في حالة فناءه ، ثم خلط في هذا المقام بين رسل الله وصفوة خلقه وبين أعداء الله من زنادقة المتصوفة من أمثال الحلاج وغيره .

فيمكن بعد ذلك لكل زنديق أن يطعن في الإسلام ويستحل المحرمات بدعوى الكشف والفناء دون أن يجرؤ أحد على مؤاخذته^(١) .

رابعاً : إنزال كلام الرجال منهم بمنزلة كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وجعل كلامهم ولغتهم بل وكفرهم بمنزلة الكتاب والسنة ، وذلك بصرف الكلام عن ظاهره إجماعاً كما زعم .

ولا أدري أي الجرمين في ذلك أعظم ، أهو جعلهم كلام البشر بمنزلة كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، أم هو صرف كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن ظاهرهما .

أما الجرم الثالث فهو ادعاؤه الإجماع على وجوب صرف الأدلة الشرعية

(١) سوف نتعرض لتلك القضية عند حديثنا عن الصوفية .

عن ظاهرها^(١) ، اللهم إن كان يعني إجماع أحزاب البدع والضلالة فنعم .

خامساً : طغيان ما يسمى بمذهب الخلف على معاهد المسلمين في الشرق والغرب ، وقصور فهمهم لمذهب السلف ، والخلط بينه وبين مذهب المفوضة الذين يقولون : الله أعلم بمراده ويعنون بذلك أن ما خاطب الله به المؤمنين من آيات الصفات وغيرها أشياء غير مفهومة ، أو من قبيل المتشابه .

سادساً : قولهم (اعتقد ولا تنتقد) هذا يصح في باب العقائد المبنية على نصوص الكتاب والسنة حيث يجب الإيمان بها دون جدال ، أما أن تنسحب هذه القاعدة على كلام البشر فأمر لا يسلم به البتة ، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم عليه السلام .

سابعاً : قول السنوسي إن من أوجه الشرك وأصول الكفر الجهل بالقواعد العقلية ؛ أما أن يجهلوا العقيدة الصحيحة ويحرفوها ويؤولوها فليس ذلك من أصول الكفر ، إنما أصول الكفر عندهم هو الجهل بقواعد مختلفة وآراء منحرفة وهذا ضلال مبين . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثامناً : قوله : «إن جمهور الأصوليين قالوا بأن دلالة الألفاظ ظنية حتى ألفاظ القرآن ظنية لا تفيد اليقين إلا بانضمام تواتر وغيره» . هذه الداهية من سموم الفلسفة وعلم الكلام ، وكل تلك الضلالات من تقديم عقولهم

(١) بل قال جمهور المتكلمين إن ظواهر النصوص كفر تقتضى التمثيل . لذا وجب صرفها عن ظاهرها وقال قائلهم :

وكل نص أوهم التشبيه أوله أو فوض ورم تنزيها
تعالى الله عن قول هؤلاء الظالمين علواً كبيراً . وقد أجاد الرد عليهم في تلك المسألة شيخ الإسلام في رسالته التدمرية في القاعدة الثالثة ص ٦٩ . تحقيق محمد عودة السعوي ، ط ١
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، طبع شركة العبيكان . الرياض

وأهوائهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ وهذا أحد الطواغيت الأربعة التي حطمها ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة^(١) .

هذه بعض الوقفات السريعة التي تلقي لنا بعض الأضواء على الحالة الفكرية في الفترة المدروسة ، فكل تلك الزوبعة التي أثرت على أيدي علماء الكلام حول تلك العبارة الشنيعة التي تلفظ بها الغزالي والتي كفره بها جمع من العلماء لم يكن ثمة داع لها على الإطلاق ، ولكن تعودهم على الخوض الدائب في مشكلات علم الكلام ، وإضاعة الأوقات والجهود في أمثال هذا الهراء جعلهم يستمرئون الخوض في أية قضية مهما كانت تفاهتها ، بل ويتنافسون في المسارعة إلى الخوض فيها وكشف لججها كما يزعمون .

وقد طغى المذهب الأشعري على العالم الإسلامي منذ القرن الخامس ، ولم يكن ليرتد عن ناحية إلا وجد بها مذهب آخر كالْمذهب الماتريدي الذي غلب على الأحناف أكثر من غيره .

وقد ظل المذهب الأشعري صاحب السيادة الكاملة ، والهيمنة التامة ، واعتقد غالبية الناس أنه مذهب أهل السنة والجماعة ، مما جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يشدد في نقده «ويتعرض له كثيراً حتى يحو من الأذهان ذلك السلطان الذي كان يتمتع به هذا المذهب في معظم أقطار الإسلام»^(٢) .

ولكنه مع ذلك ظل هو الغالب على المعاهد الإسلامية ، وجاء القرن

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة .

(٢) ابن تيمية السلفي ص ٢٣ . د . محمد خليل هراس . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ . مكتبة الصحابة - بطنطا . وما زاد الأمر غموضاً هو مرور أبي الحسن الأشعري بثلاث مراحل كان آخرها رجوعه إلى مذهب السلف وإن بقيت عليه بعض الآثار من المرحلتين السابقتين .

الثالث عشر الهجري والحال كما هي عليه من سيادة للمذاهب الكلامية متمثلة في المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي .

وحين ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وسرت أخبارها في البلدان لقيت مقاومة عنيفة من قبل أرباب المذاهب الكلامية ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك عند حديثنا عن الإرجاء ؛ إذ يعتبر الإرجاء من أبرز العقائد الكلامية وثمره من ثمارها . ولم تفلح الجهود التي بذلت من قبل أتباع الدعوة السلفية في مقاومة المذاهب الكلامية التي ظلت سائدة في غالب الأقطار ، وقد كاد أن يعود ما اندثر من معارك وقعت زمن شيخ الإسلام ابن تيمية مرة ثانية ، حيث عاد المبتدعة يتهمون أتباع الدعوة السلفية بالتشبيه والتجسيم ، وبأنهم مبتدعة^(١) .

ولما حج ابن سلطان المغرب وكان معه نفر من العلماء عام ١٢٢٦ هـ قال أحدهم للإمام عبد الله بن سعود بعد أن افتتح أهل الدعوة بلاد الحرمين في مناقشة مع الإمام : بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوي فقال لهم : معاذ الله إنما نقول كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة^(٢) . . .

وقد كانت هناك محاولة أخرى جادة بذلت في أواخر القرن الثاني عشر الهجري في بلاد المغرب الأقصى للقضاء على المذهب الكلامي المتمثل في المذهب الأشعري ؛ وذلك حين قام المولى محمد بن عبد الله السجلماسي

(١) غاية الأمانى ١/ ٩٢ .

(٢) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ٤/ ١٤٥ . الشيخ أحمد بن خالد السلاوي . المطبعة المصرية . ١٣١٢ هـ .

العلوي ملك المغرب (المتوفى سنة ١٢٠٤هـ)^(١) بمحاولة منه لإرجاع الناس إلى مذهب السلف ، والقضاء على مذهب الخلف الذي يدور حول علم الكلام ، فقد كان «ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية وكان يحض الناس على مذهب السلف والاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة بلا تأويل . وكان يقول عن نفسه إنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً»^(٢) .

ولكن تلك المحاولة وئدت مع طلوع فجر القرن الثالث عشر الهجري بوفاة المولى محمد ، حيث قام خلفه على العرش من بعده وأمر الناس بالرجوع إلى كتب المتكلمين ومصنفات المقلدين . وعلى الرغم مما قام به المولى محمد من جهود لمقاومة المذهب الأشعري وإحياء المذهب السلفي إلا أن تلك الجهود كانت ضعيفة الجدوى ، وذلك لعدم وجود نهضة فكرية وعلمية مواكبة لها .

(١) الأعلام ٢٤١/٦ وقد كان المولى محمد بن عبد الله من خيار ملوك الدولة السجلماسية العلوية بالمغرب وهو أول من اتخذ مراكش عاصمة له . كان مولعاً بالجهاد في البحر . استطاع أن يرد هجمات الفرنسيين والبرتغاليين وجعل في كل ثغر حامية قوية من رجال البحرية ، وعمل لإصلاح ما أفسدته الحوادث في الدولة وبنى مدناً ومساجد ومدارس وأنشأ مجموعة كبيرة من المراكب الحربية والبحرية وأنفق أموالاً طائلة على فكك أسرى المسلمين من أيدي الأفرنج وقد بلغ عددهم ٤٨٠٠٠ أسير ، وهابته ملوك الأفرنج ووفدت عليه رسلهم بالهدايا ، وازدهر المغرب في أيامه ، وراجت بضاعة العلم وله تأليف بإعانة بعض الفقهاء منها كتاب «مساند الأئمة الأربعة» انظر الاستقصا ٩١/٤ .

(٢) الاستقصا ١٢٠/٤ وقد كانت للمولى محمد انتفاضة أخرى للقضاء على الركود الفقهي السائد في ذلك العصر حتى كان ينهى عن قراءة المختصرات كمختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما وكان يحض الناس على قراءة الرسالة والتهذيب وغيرها من الكتب المتقدمة ، حتى خلفه المولى سليمان فصار يحض الناس على قراءة المختصر ويبذل في حفظه الأموال الطائلة .

ولم يفلح تبني هذا السلطان لعقيدة السلف في نشرها بين الناس حين لم يتبناها العلماء، وظلت كما كانت غريبة ومحاربة من قبل أرباب الكلام وعلمائه.

ونستطيع أن نقول إن الهيمنة في الفترة التي نقوم بدراستها كانت للمذاهب الكلامية التي كان يساندها السلاطين والحكام ويقفون بجانبها رغبة منهم في احتواء العلماء المؤمنين بها للوقوف بجانبهم.

وقد رأينا عند حديثنا عن غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها كيف استطال أرباب الكلام على أتباعها بالإيذاء والتعدي، وكيف أهدرت دماؤهم، واستبيحت أعراضهم، وكيف كان يمتحن العلماء السلفيون بقراءة كتب الكلام، ويكرهون بالقوة على اعتناق عقائد المتكلمين التي ما أنزل الله بها من سلطان، كما فعل مع الشيخ عبد النصير القورصاوي حين أمر بقراءة متن العقائد النسفية من أوله إلى آخره وأجبر على اعتقاده تحت وطأة السيف ورهبة السلطان.

أما المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر وغيره فلم توفق إلى تدريس المذهب السلفي، أو حتى تحاول ذلك، وظلت كما هي عليه دوماً من تبين للمذاهب الكلامية وإعراض بل وعداء متوارث لمذهب السلف.

ومع ما يدرس في الأزهر من مذاهب فلسفية قديمة وحديثة فيها من الكفريات والضلالات الشيء الكثير. إلا أن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لم يسمح بتدريسها أو النظر فيها، ولم يفسح لها المجال مطلقاً^(١).

(١) انظر: ابن تيمية السلفي ص ١٩٩.

ولا يزال المذهب الأشعري غالباً على بلاد الإسلام رغم التنافس الشديد بينه وبين المذهب السلفي^(١).

كما لا يزال التراث الكلامي والجدل الذي خاضته الفرق هو المعني بدراسته، وكان الأولى عزل ذلك التراث جملة، ودراسته دراسة تاريخية بحثه، لبيان زوايا الانحراف فيه، وأسباب هذا الانحراف، وتجنب نظائرها^(٢).

ولم تكن الفلسفة وعلم الكلام في يوم من الأيام دافعة إلى العمل الإيجابي المثمر «ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة، ولم تدفع بالبشرية إلى الأمام شيئاً مما دفعتها العقيدة، التي تقدمت البشرية على حداتها في تيه الزمن، وظلام الطريق.

لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة، إذ إن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها، ويطفئ إشعاعها وإحياءها... ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها، وفي هذا القلب الذي يضيق عنها^(٣).

وهكذا قتلت العقيدة يوم أن مزجت بعلم الكلام، وأصبحت ضعيفة الأثر عديمة الفائدة. فإذا كانت العقيدة القرآنية تعطي «إيماناً مفصلاً كما قال جندب بن عبد الله (تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً) والقرآن

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

يصف لنا ربنا وأن له وجهاً ويداً وسمعاً ، وبصراً ، ويعدد لنا أسماءه وصفاته : فهو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار . . . ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته ، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنار كأننا نراهما ، فإن طريقة المتكلمين غاية ما عندهم إيمان مجمل لا يعطي علماً وافياً ، ولا تصوراً واضحاً^(١) ، ولا يخفى ما في هذه الطريقة من نضوب للعاطفة وتبديد للطاقة .

فحين يأتي المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم فيقولون : إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين للعالم ولا محايث له ؛ فإن هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هي مستلزمة صفة ثبوت ؛ ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك في الخالق : ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم .

وكذلك كونه لا يتكلم ، أو لا ينزل ، ليس في ذلك صفة مدح ولا كمال ، بل هذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ، ومنها ما لا يتصف به إلا الجماد أو الناقص . . فمن قال : لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة من قال : لا هو قائم بنفسه ولا بغيره ، ولا قديم ولا محدث ، ولا متقدم على العالم ولا مقارن له . ومن قال : إنه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم لزمه أن يكون ميتاً أصم أعمى أبكم^(٢) ، فما عسى أن تكون النتيجة؟

(١) العقيدة في الله ص ٤٠ د. عمر الأشقر. مكتبة الفلاح. الكويت. الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

(٢) التدمرية ص ٦٠ .

وما تأثير ذلك في حياة الناس ، وهل يمكن أن تكون ذلك دافعاً لهم إلى العمل المثمر البناء؟ أي عقيدة تلك! وأي ضلال هذا!

«وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق وأنه لا شريك له ، ويظنون أن هذا هو المراد بـ(لا إله إلا الله)»^(١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن توحيد المتكلمين : «فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع ، فيقولون : هو واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث : وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد ، وهم يحتاجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب ، وأن هذا هو معنى قولنا : لا إله إلا الله ، حتى قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع . ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ أولاً - لم يكونوا يخالفونه في هذا ، بل كانوا يقولون بأن الله خالق كل شيء ، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضاً ، وهم مع هذا مشركون»^(٢) .

ولهذا لم يحفل المتكلمون بتوحيد الألوهية ، وإنما كان غاية همهم هو تقرير توحيد الربوبية^(٣) .

ويقول رحمه الله : «الذين يقولون التوحيد هو توحيد الربوبية ، والإلهية

(١) العقيدة في الله . ص ٣٢ .

(٢) التدمرية ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨٦ .

عندهم هي القدرة على الاختراع ، ولا يعرفون توحيد الإلهية ، ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود ، وأن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ .

قال عكرمة : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون : الله ، وهم يعبدون غيره . . . وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام إلى أن قال : فإن هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم وييده كل شيء . . . ومع هذا فلم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له ؛ بل عبدوا غيره وكانوا مشركين شراً من اليهود والنصارى ، فمن كان غاية توحيدِهِ وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيدِهِ توحيد المشركين .

وهذا المقام وأي مقام !!! زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين المسلمين ، والتبس فيه التوحيد بعبادة الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام^(١) .

ثم قال رحمه الله : «فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه ، فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر ، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين^(٢) ، أو أحدهما ، مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة ، فأقرار المرء بأن الله رب كل

(١) مجموع الفتاوى ١٠٣/٨ .

(٢) يعني بالأصلين : توحيد الألوهية وتوحيد الاتباع لنبية محمد ﷺ ، أو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وقد تحدث عنهما بعد ذلك .

شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترب به إقراره بأنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأن محمداً رسول الله، فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»^(١).

وقد ترتب على إهمال توحيد الألوهية عند المتكلمين أثر خطير من شيوع للشرك الأكبر وعبادة لغير الله عز وجل، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وكما سنراه فيما بعد. ولم يلق ذلك أية مقاومة من قبل علماء الكلام لانحراف منهجهم الذي أفنوا أعمارهم في السير عليه.

كما أن كثيراً من المتكلمين قد أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها^(٢)، ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها، وظنوا أن هذا من تمام التوكل^(٣)، وقد روج بعض المتكلمين من المتأخرين أن الاعتقاد بتوليد الأسباب لتنتجها يناقض ويعارض الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوادث، وهونوا من شأنها تهويناً يؤدي إلى تعطيل التفكير وربط الأسباب بالنتائج^(٤).

ولا شك أن ذلك ساعد على مزيد من الانحطاط الذي وقعت فيه الأمة، وزاد الانحطاط ظلمة «جدل المتكلمين الذين بلبلوا الأفكار وضيعوا العامة في متاهات العمى والجهل بشؤون دنياهم، وأبدلوا العمل الإسلامي - الهادف إلى الكسب والسعي نحو تجسيد الفضيلة الخلقية في المجتمع - بالجدل العقيم الذي لا نهاية له.

(١) التدمرية ص ١٩٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٨/ ١٧٥.

(٣) المصدر السابق ٨/ ١٧٧.

(٤) الثقافة الإسلامية المستوى الرابع ص ١٠٥ محمد المبارك. مطابع جامعة أم القرى. مكة المكرمة.

لقد كمنت هذه الأمراض الفكرية في المجتمع الإسلامي آنذاك ، وأصبح العامة في وضع اجتماعي مقلق ، فإذا مالوا مع المتكلمين أضاعوا دينهم ، وإذا تصوفوا ضيعوا دنياهم»^(١) .

«إن مذهب السلف ذو علاقة بالأمة وبعقيدة المجتمع ، أما عقيدة المتكلمين من أهل السنة»^(٢) بقيت بين أسوار المدارس لا يعرف عنها المجتمع شيئاً فالتكلمون في كتبهم المشهورة اشتغلوا بالرد على أفلاطون وأرسطو وآراء اليونان وآراء أخرى مذهبية فأضاعوا قومهم . . . وأبسط شيء للعوام أنهم يريدون ما وافق الكتاب والحديث . . . ولذا خسرت الأمة ، ولا سبب سوى إهمالها . فقد علمائنا خصيصة تربية الأمة فأضاعوا المكانة وصاروا أجنب عنها ، أو أنهم غرباء لا يعرفونها ولا تعرفهم ومن زمن بعيد من يوم تكونت المدارس أهملنا عقيدة الأمة ، فصار لا يشترك فيها السواد الأعظم . . .»^(٣) .

إن تحول العقيدة إلى قضايا جدلية ومشكلات ذهنية كان انحرافاً أوقعه المتكلمون في الأمة . إن أقصى ما فعله هؤلاء أن أحالوا العقيدة إلى مجرد معرفة باردة لا تتعدى الأذهان .

أما مهمة العقيدة الحقيقية فلا تقف عند المعرفة ، وإنما تهدف إلى الحركة

(١) الاتجاهات التحررية والرجعية وموقف الإسلام منها ص ٢٦٠ الدكتور محسن العابد ضمن كتاب «الدين والمجتمع» وهو عبارة عن دراسات ومحاضرات قدمت في ملتقى الندوة الإسلامية بالقيروان ١٩٧٧م بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي (انظر مبحث الشرك والبدع من هذه الرسالة حول الاحتفال بالمولد) وزارة الشؤون الثقافية . تونس .

(٢) أهل السنة هنا يعني في مقابل الشيعة ، أما السنة بالمعنى الخاص (السنة والجماعة) فيخرج منها المتكلمون .

(٣) ذكرى أبي الثناء الآلوسي ص ٤٠ المحامي عباس العزاوي . شركة التجارة والطباعة ز م م الصالحية بغداد سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

من وراء ذلك ، وأن تكون قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع . «وأن ترجع البشرية إلى ربها ، وإلى منهجه الذي أراد لها ، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التي كتبها الله للإنسان ، والتي تحققت في فترة من فترات التاريخ ، على ضوء هذا التصور عندما استحال واقعاً في الأرض ، يتمثل في أمة ، تقود البشرية إلى الخير والصلاح والنماء»^(١) .



(١) خصائص التصور الإسلامي ص ١٠ .

الفصل السادس

انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات

ويشتمل على :

أولاً : انتشار مظاهر الشرك .

ثانياً : انتشار البدع وتفشي الخرافات .

أولاً : انتشار مظاهر الشرك

إن الدارس لهذه الفترة التي نعنى بها ليصاب بدهشة عظيمة فيما حل بالمسلمين ، من شرك تعددت مظاهره ، واختلفت أشكاله ، حتى لكأنما عقيدة التوحيد قد قضي عليها تماماً ، وأن الموحدين قد انعدموا من الأرض ، فلم يعد هناك إلا من أشرك بالأولياء في عبادة الله ، فهو يدعوهم رغباً ورهباً .

إننا لا نغلو إذا قلنا إن الأمة في هذين القرنين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات ، وأنها انحرفت في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً ، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم .

لقد ضرب الشرك الأكبر بأطنابه في ديار الإسلام ، وانتشر في غالب القرى والبلدان فشيدت القباب على الأضرحة ، وأنشئت المساجد على القبور ، وأقيمت مزارات ومشاهد ، وزينت بالسرج والقناديل ، وزخرفت

بأنواع الزخارف ، وكسيت من غالي الديباج ونفيس الستارات ، وحليت أبوابها ونوافذها بسبائك الذهب والفضة وطلائهما ، وأهديت عقوداً من اليواقيت والآلئ والزبرجد وغيرها ، فقصدها القاضي والداني ، ولجأ إلى رحابها المسافر والمقيم ، وهرع نحوها العلماء قبل الجهال ، والكبار قبل الصغار ، والجميع يرتمون بساحاتها ، ويتمرغون في جنباتها ويلثمون أعتابها ، فتراهم من حولها يطوفون ، وبأصحابها يستغيثون ويستعينون ، وفي عرصاتهما يهرقون دماء نذورهم وقرابينهم ، وكل هذا من الشرك الأكبر وصورة من صور الوثنية ، وإن اختلفت الأسماء ، وتبدلت الهيئات والأشكال .

يقول الإمام الصنعاني - رحمه الله - : « والنذور بالمال على الميت ونحوه ، والنحر على القبر والتوسل به ، وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كان تفعله الجاهلية ، وإنما يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً ، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً ، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني . . . وكذلك تسمية القبر مشهداً ، ومن يعتقدون فيه ولياً ، لا يخرج عنه اسم الصنم والوثن ؛ إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام ، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت ، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم : على الله وعليك ، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها ، وهو بعينه فعل المشركين في الأصنام ، كما قلنا في الأبيات النجدية :

أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرة أهلت لغير الله جهلاً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلاً ويلتمس الأركان منهن بالأيدي^(١)
ومهما حاول أنصار البدعة ومروجو الشرك في الأمة أن يتمحلوا
الأعذار، ويتحلوا الأدلة، ويردوا البراهين أو يؤولوها لتهوين ما وقع في
حياة الأمة من مظاهر كثيرة للشرك الأكبر والأصغر، فإن ذلك لا يغير من
الحقيقة شيئاً^(٢).

ولسنا هنا في مقام الرد عليهم ونقض شبههم، وتعرية مواقفهم، فقد
تولى ذلك علماء السنة والجماعة الذين أبطلوا مذهب هؤلاء القبوريين من
أسه، وكشفوا عن عواره وزيفه^(٣).

ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية

(١) تطهير الاعتقاد عن أدران الالحاد. ص ٥٧٤-٥٧٥. ضمن رسائل الجامع الفريد.
تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي. طبع على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميع.
الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ. طبع شركة العبيكان. الرياض. والأبيات المذكورة من قصيدته
الطويلة التي بعث بها إلى الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين بلغته دعوته
ومطلعها:

سلام على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي
انظر عنوان المجد: ٥٤/١.

(٢) وهذه من أعظم البلايا في الدين حيث رزئت الأمة بطغمة من هؤلاء المنافحين عن عبادة
القبور والواقفين في طريق الحق يصدون عنها ويبغونها عوجاً، والمتربصين بأهل التوحيد
والسنة. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٣) وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم والإمام المجدد الشيخ محمد
ابن عبد الوهاب وأولاده وأحفاده وتلامذتهم إلى زمننا هذا، والعلامة الصنعاني والإمام
الشوكاني وعلامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي وعلامة العراق محمود شكري
الألوسي، وعلامة الهند صديق حسن خان القنوجي وغيرهم رحمهم الله تعالى
أجمعين.

إلى الشرك ، وتحذير النبي ﷺ منها ، وتشديده في ذلك قبل وفاته ، كقوله ﷺ
في الصحيحين : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .
يحذر ما فعلوا » .

قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن
يتخذ مسجداً ^(١) ، وقوله ﷺ : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها
المساجد السرج » ^(٢) .

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور
مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » ^(٣) .

وقوله ﷺ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم
اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ^(٤) ، وقوله ﷺ : « لا تجلسوا على القبور ، ولا
تصلوا إليها » ^(٥)

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، برقم ١٣٣٠
(الفتح ٣/ ٢٠٠) . ورواه مسلم برقم ٥٢٩ كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على
القبور ٣٧٦/١ .

(٢) رواه الترمذي برقم ٣٢٠ كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً .
وحسنه ، وحسنه أيضاً الشيخ أحمد شاكر أيضاً ١٣٧/٢ . وضعفه الشيخ الألباني في
إرواء الغليل برقم ٧٦١ ، والحديث له شواهد كثيرة كما قال لكن بدون «السرج» الإرواء
٢١٢/٣ .

(٣) رواه مسلم برقم ٥٣٢ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على
القبور ٣٧٧/١ .

(٤) رواه مالك في الموطأ ١/ ١٧٢ ، والإمام أحمد في مسنده ٢/ ٢٤٦ وغيرهما . وصححه
صاحب النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد ص ١١٥ .

(٥) رواه مسلم برقم ٩٧٢ كتاب الجنائز باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه
٦٦٨/٢ .

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسة رأيها في أرض الحبشة فيها تصاوير ، قال ﷺ : « إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله »^(١) .

وأمر ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته »^(٢) .

ونهي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه^(٣) ، وجاء في رواية أخرى النهي عن الكتابة على القبور^(٤) .

أقول مع تضافر الأدلة على التشديد في هذا الأمر الخطير ، فإن الأمة في غالبها لم تلتفت إلى هذه النصوص ، أو تحاول العمل بها ، وأقبلت في معظمها تشيد القباب وتبني الأضرحة وتقيم المشاهد وتحدث المزارات حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور ، وتذكر فضله وتحت عليه فاستجابت الأمة لها ، ومعاذ الله أن يكون ذلك .

وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً ، واحتجوا بقولهم : إن بعض السلف استحسّن ذلك ، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنفاتهم التي يعكف

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، برقم ٤٢٧ (الفتح ٥٢٣/١) . ورواه مسلم برقم ٥٢٨ كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٥/١ .

(٢) رواه مسلم برقم ٩٦٩ كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر ٦٦٦/٢ .

(٣) رواه مسلم برقم ٩٧٠ كتاب الجنائز ، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ٦٦٧/٢ .

(٤) رواه الترمذي برقم ١٠٥ كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها وقد صححه الشيخ الألباني في الإرواء برقم ٧٥٧ .

على دراستها الطلاب^(١) .

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية ، والمزارات الوثنية في الأمة هم الشيعة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع : «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك ، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد ، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم ، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان^(٢) كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه ، وغيروا ملته ، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد»^(٣) .

وانتقل هذا الوباء إلى المسلمين ، وتعاضم مده ، ووقع ما حذر منه النبي ﷺ أمته من الشرك العظيم .

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في تلك الفترة في الصور التالية :

أولاً : بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور :

على الرغم من النصوص الشرعية التي أوردنا طرفاً منها ، وتنهى أشد النهي عن بناء المساجد على القبور ، وعن الصلاة فيها ، وعلى الرغم من

(١) أدب الطلب ص ١٧١ . الامام محمد بن علي الشوكاني . مركز الدراسات والأبحاث اليمنية . صنعاء ١٩٧٩ م . وهذا محض افتراء على السلف حيث تقولوا عليهم ما لم يقولوا . ثم هب أنه قد صح ما ذكره هؤلاء من استحسان بعض السلف فلا حجة في استحسان من استحسنت مخالفة الشرع كائناً من كان كما قاله الشوكاني رحمه الله .

(٢) من كبار علماء الشيعة الإسماعيلية في مصر .

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧ / ١٦٢ .

تعيين قبر النبي ﷺ في ذلك النهي إلا أن الخلوف من المسلمين لم يراعوا لهذه النصوص حرمة فيقفوا عند حدودها وذلك حين بنوا قبة على قبره الشريف . وما زال الملوك يبالغون في تحسينها وتزيينها ورفع سمكها ، ويقومون بإهدائها كثيراً من قناديل الذهب والفضة والجواهر الفاخرة واللآلئ الثمينة والأحجار الكريمة وقطع الألماس التي لا تقدر بثمن .

ويتحدث محمد ليب البتونوي^(١) صاحب «الرحلة الحجازية»^(٢) عن كسوة الحجر الشريفة وعن مدخراتها وكنوزها . فيذكر أن الخيزرانة أم هارون الرشيد هي أول من كسا الحجر الشريفة ، وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين .

ثم يتحدث عن مدخرات هذه الحجر ، ويصف ما فيها من المجوهرات والألماس والذهب والفضة فيقدر ثمنها بسبعة ملايين من الجنيهات^(٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه التقديرات بالجنيه كانت بعملة تلك

(١) الأعلام : ١٥/٧ .

(٢) قام برحلته تلك رفقة الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٣٢٧هـ لأداء فريضة الحج .

(٣) الرحلة الحجازية . ص ٢٤٧-٢٤٩ . مطبعة المعارف . الناشر محمد سعيد كمال . الطائفة . الطبعة الثالثة .

من هذه المدخرات إحدى وثلاثون مشكاة ذهبية مرصعة بالألماس والزمرد والياقوت وكثير من ثريات الذهب والفضة ومائة مصباح وستة من الذهب والفضة أيضاً . ومقابل الوجه الشريف حجر من الألماس البرلاني في حجم بيضة الحمام الصغير ، يحيط به إطار من الذهب المرصع . ويقدر ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، ويسمى بالكوكب الدرّي لشدة تألقه ، وهو مثبت في لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة . بالإضافة إلى كثير من عقود الآليّ والمرجان وشمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، وإلى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة ، ومباخر مرصعة ، والعديد من المصاحف المجوهرية ، والتحف الفاخرة وكثير من الأساور والأقراط وخلافها .

الأيام ، وأنها لو قدر ثمنها بالعملات الحالية لبلغت مئات الملايين وربما بلغت الألف .

هذا التقدير الذي ذكره البتوني كان في عام ١٣٢٧ هـ ، فكيف كان الحال عام ١٢٢٣ هـ حين استولى أهل الدعوة على المدينة المنورة ، وأخذوا ما كان بالحجرة النبوية الشريفة من ذخائر وكنوز لينفقوها في الجهاد في سبيل الله وفي مصالح المسلمين ؟

وهذه الذخائر والجواهر كما يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي أرسلها ووضعها خساف العقول^(١) من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم ، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء .

فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة فارتدت معنى لا حقيقة ، وارتسم في الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالاً للنبي ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها ، والنبي ﷺ منزّه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبياً عبداً ولم يختار أن يكون نبياً ملكاً^(٢) .

وذكر الجبرتي رحمه الله أن ملوك المسلمين في زمانه كانوا بأشد الحاجة

(١) هكذا في الأصل . ولعلها ضعاف أو سخاف .

(٢) عجائب الآثار ٢٤٨/٣ . والحديث كما في مجمع الزوائد ١٨/٩ رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح .

إلى الأموال ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئاً ، بل ربما أرسلوا من مدخراتهم الخاصة هدية إلى الحجرة ، في نفس الوقت الذي كان يفرضون على رعاياهم الضرائب والمكوس والمصادرات^(١) ، والأهم من ذلك إنفاقها في الجهاد ورد هجمات الصليبيين وغاراتهم ، وإخراجهم من أقطار المسلمين التي كانوا يحتلونها. ولكن تلك كانت أمنية حال دون تحقيقها انحراف العقيدة وسوء الفهم .

والعجب بعد كل هذا مسارعة أولئك الجاهلين بعد أن زالت دولة أهل الدعوة وانحسر ظلها عن الحرمين الشريفين في إرسال الأموال والمدخرات إلى الحجرة الشريفة ، ورد بعض ما أخذ منها إليها ، ورأوا في ذلك الفعل المحدث أنهم أسدوا إلى الإسلام أعظم خدمة ، وأنهم ردوا للمقام النبوي والحجرة الشريفة ما فقدها من هيبة واحترام^(٢) .

ولم يقف الأمر عند قبر المصطفى ﷺ ، بل تعداه إلى غالب القبور المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ، فعمرت عليها المساجد ، وبنيت عليها القباب ، وأقيمت لها الموالد .

ولم يهتم هؤلاء في التثبت من صحة نسبة هذه القبور للمدفونين فيها ، فذاك لعمر الله أمر لو فعلوه ما بقي لهم من ضريح تصح نسبته إلى نبي من

(١) ذكر الجبرتي أن أهل الدعوة عبوا أربع سحاحير (صناديق كبار) من الجواهر المملأة بالألماس والياقوت العظيمة القدر . ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة الماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام . ونحو مائة سيف قراياتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الألماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم وغير ذلك . عجائب الآثار ٢٥٠ / ٣ .

(٢) لذلك كانوا يرون أن أخذ أهل الدعوة لهذه المدخرات من الكبائر ، وقد كان لهذا الفعل ردود فعل واسعة على مستوى العالم الإسلامي ، ورأى الناس في ذلك انتهاكاً لمقام النبي ﷺ وانتقاصاً له ؛ بل وصل الأمر إلى تكفيرهم والحكم بردتهم من أجل ذلك .

الأنبياء ؛ لأن جميع هذه القبور المنسوبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معروفة ؛ فإن القبر المتفق عليه هو قبر النبي ﷺ بين قبور الأنبياء جميعاً^(١) ، ومع أن جميع قبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - غير معروفة ، فإنه لم يبق نبي إلا له قبر معروف ومزار مشهور .

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن القبر الذي بجبل لبنان بالبقاع ، ويقال له قبر نوح ، كان قد ظهر في أثناء المائة السابعة ويذكر أن جيران القبر حدثوه أنهم شموا من القبر رائحة طيبة ووجدوا عظماً كبيرة ، فقالوا هذه تدل على كبير خلق البنية ، فقالوا - بطريق الظن - هذا قبر نوح وكان بالبقعة موتى كثيرون من جنس هؤلاء^(٢) .

وهكذا طمست البدعة بصائرهم حين جهلوا أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأن جسامهم لا تبلى - عليهم من ربهم أفضل الصلاة والسلام - كما ثبت في الحديث^(٣) .

ويذكر القياياني (المتوفى سنة ١٣٢٠هـ)^(٤) عدداً من الأضرحة والمزارات المنسوبة إلى الأنبياء في بلاد الشام التي زارها هناك بعد نفيه من مصر في أعقاب الثورة العرابية في بداية القرن الرابع عشر الهجري ، ومن هذه القبور:

مزار يحيى بن زكريا عليه السلام في صيدا في جنوب لبنان في قمة جبل

(١) وفي قبر الخليل عليه السلام خلاف ، والجمهور على أن الموضع المعروف هو قبره كما حكى ذلك شيخ الإسلام . مجموع الفتاوى ٤٤٥ / ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ٤٥٩ ، ٦١ / ٢٧ .

(٣) رواه النسائي . انظر : صحيح سنن النسائي برقم (١٣٠١) للشيخ الألباني .

(٤) الأعلام ١٨٥ / ٦ .

يشرف على البلد والبحر وهو في غاية النضارة كما يقول^(١) .

وذكر أنه مر على مشهد منسوب إليه أيضاً في مغارة في ضيعة سبسة بفلسطين^(٢) مع أن المقام المشهور الذي دفن فيه رأس يحيى بن زكريا عليه السلام كما يقولون يقع في دمشق في قلب الجامع الأموي وله قبة وشباك^(٣) ، ولا يثبت من هذه المواضع شيء .

وهناك أيضاً مقام ثالث في الجامع الأموي بحلب «حيث توجد حجرة تعرف بـ (الحضرة النبوية) يقال إن بها رأس يحيى بن زكريا عليه السلام في صندوق جرن، وقيل إن بها عضواً من أعضاء نبي الله زكريا عليه السلام في صندوق مرمر .

أما صندوق الجرن الشريف فهو في وسط الحجرة من الخشب على صفة ضريح عليه كسوة من مخمل مزركش بالقصب الفضي مكتوب فيه بعض سورة مريم ، وهذه الكسوة أنعم بها المرحوم السلطان عبد العزيز خان سنة ١٢٩١هـ . . . وهذه الكسوة التي هي قبل الكسوة الحاضرة أرسلت إلى استانبول ، ووضعت هناك في محل الآثار القديمة ، وعلى هذه الكسوة الجديدة فوق سنام الضريح عدة شالات ثمينة عجمية وهندية ، ومما يوجد في الحضرة مصحف شريف مكتوب على قفا أول صفحة منه (هذا المصحف الشريف بقلم المغيرة بن شعبة الصحابي رضي الله عنه بخط كوفي) على أن

(١) نفحة البشام في رحلة الشام ص ٦٢ . محمد بن عبد الجواد القاياتي . دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٣) شهر في دمشق . عبد الله بن خميس . مطابع الرياض - ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

خط هذا المصحف مغربي لا كوفي، ولا دليل على أنه خط المغيرة بن شعبة^(١).
ويقول الغزي (المتوفى سنة ١٣٥١)^(٢) بعد أن ذكر الخلاف في الدين :
«وعلى كل حال فليس يخلو الجامع من أثر شريف نبوي جدير أن تفتخر
حلب بوجوده»^(٣).

ولا يمتنع في عرف هؤلاء المولعين بالأضرحة والمشاهد أن يكون للنبي أو
الولي أكثر من ضريح ومشهد في أكثر من بلد، ولهم في ذلك تبريرات
ساقطة سنشير إلى بعضها قريباً .

ونعود الآن إلى ما ذكره القاياتي من الأضرحة والمشاهد النبوية
المنسوبة إلى الأنبياء في الشام :

مزار شمعون^(٤) في الجانب الشرقي من صيدا يخرج إليه أهل البلد في
الغداة والعشي لشم الهواء^(٥) مع أن هناك مزاراً مشهوراً للاسم نفسه في
قضاء كلز من أعمال حلب^(٦)

مزار صيدون في وسط البساتين في صيدا. يقولون أنه من الأنبياء
أيضاً^(٧).

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/ ٢٤٤ .

(٢) الأعلام ٥/ ٢١٧ .

(٣) نهر الذهب ٢/ ٢٤٧ .

(٤) منهجنا هنا أن نذكر الأضرحة التي زعموا أنها لأنبياء سواء أصبحت نبوتهم أم لم تصح .
ومن هؤلاء كثير ممن قيل إنهم أنبياء من بني اسرائيل ، ولم يرد عندنا في ديننا ما يصدق أو
يكذب ذلك . ومن هؤلاء شمعون وصيدون وكالب وغيرهم . والله أعلم بحقيقة الحال .

(٥) نفحة البشام ص ٦٣ .

(٦) نهر الذهب ٢/ ٣٧١ .

(٧) نفحة البشام ص ٦٣ .

مزار داود عليه السلام في جنوب غرب صيدا على نحو ساعة^(١) ، مع أن هناك مزاراً آخر منسوباً إليه في قضاء كلز من أعمال حلب^(٢) .

مزار أيوب عليه السلام ، ومزار صالح عليه السلام في يافا بفلسطين^(٣) . مع أن هناك في حزموت في وادي سر يوجد قبر طويل عليه قبة كبيرة يزعم الناس أنه قبر صالح عليه السلام ، والتاريخ لا يثبت وجود قبر صالح عليه السلام في حزموت لأنه مات في الحجاز^(٤) .

ضريح الخليل عليه السلام وعليه قبة وبابه من فضة ، وضريح إسحاق عليه السلام .

وضريح يعقوب عليه السلام ، وضريح يوسف عليه السلام . وكل تلك الأضرحة داخل مسجد كبير في مدينة الخليل^(٥) .

ضريح يونس عليه السلام في بلدة (حلحول) بين القدس والخليل . وكان به عمارة جديدة لم تكمل^(٦) ، كما يقول المقياتي مع أن هناك جامعاً كبيراً به ضريح في قرية نينوى في العراق يدعى «جامع النبي يونس» وهو أحد الجوامع الكبيرة المقصودة بسواد الموصل^(٧) .

(١) المصدر السابق ص ٦٤ .

(٢) نهر الذهب ٣٧١ / ٢ .

(٣) نفحة البشام ص ٨٦ .

(٤) تاريخ حزموت السياسي ص ٥٣ صلاح البكري الطبعة الثالثة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر .

(٥) نفحة البشام ص ٨٦ .

(٦) المصدر السابق ص ١٠١ .

(٧) جوامع الموصل في مختلف العصور . ص ٧٣ - ص ١٠٦ سعيد الديوه جي مدير متحف الموصل مطبعة شفيق . بغداد ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م .

وأعجب من ذلك أن القاياتي نفسه ذكر أنه أثناء خروجه من نابلس مر في الطريق على ضيعة يقال إن فيها مزار سيدنا يونس عليه السلام . وهذا المزار عبارة عن قبة صغيرة ومن داخلها غار يقال إن فيه قبر نبي الله يونس^(١) .

ضريح الأسباط إخوة يوسف عليه السلام في نابلس^(٢) .

ضريح موسى عليه السلام في الشام في المحل المشهور بالقدم^(٣) .

ضريح ذي الكفل عليه السلام في جبل قاسيون في دمشق^(٤) .

هذه بعض القبور التي ذكرها القاياتي في بلاد الشام ونسبت إلى الأنبياء . ونذكر الآن بعض القبور الأخرى المنسوبة إلى الأنبياء التي ذكرها غيره :

ضريح يوشع عليه السلام في معرة النعمان بالشام^(٥) .

ضريح شيث عليه السلام^(٦) في معرة النعمان ، مع أن هناك جامعاً كبيراً في الموصل يسمى جامع النبي شيث داخله ضريح يعتقد أنه مدفون فيه .

«ولم يكن قبر النبي شيث^(٧) معروفاً قبل القرن الحادي عشر للهجرة حيث رأى أحد ولاة الموصل في ذلك القرن مناماً يدل على موضع

(١) نفحة البشام ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٥ .

(٥) تاريخ معرة النعمان ١/ ٣٥٦ محمد سليم الجندي . تحقيق عمر رضا كحالة . وزارة الثقافة

والإرشاد القومي . مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .

(٦) وكان نبياً كما قال الحافظ ابن كثير . انظر البداية والنهاية ١/ ٩٢ .

(٧) في الأصل : شيث بالثاء ، والأصح ما أثبتناه وهو ما ذكره ابن كثير وغيره .

القبر! فبني الضريح ، ثم بني عليه جامع كبير^(١) .

ضريح الخضر عليه السلام في معرة النعمان في مغارة هناك^(٢) ، وهناك مغارة في الصالحية بدمشق تسمى مغارة الأربعين يقال إنه مات بها أربعون نبياً جوعاً^(٣) .

وهناك قبر منسوب إلى هود عليه السلام في حضرموت^(٤) ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن العامة في دمشق يسمون قبراً بحائط مسجد دمشق بقبر هود ، وأن الراجح أنه قبر معاوية رضي الله عنه^(٥) .

مع أن هذه القبور ليست ثابتة كما سبق وقلنا^(٦) بل غالبها مكذوب ومصطنع .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وغالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء^(٧) أن يدعى أنه رأى مناماً أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه : إما رائحة طيبة ، وإما توهم خرق عادة ونحوها وإما حكاية بعض الناس : إنه كان يعظم ذلك القبر^(٨) .

(١) جوامع الموصول ص ٢١٣ .

(٢) تاريخ معرة النعمان ١ / ٤٦٨ .

(٣) الرحلة الحجازية ٢ / ٣١٤ محمد السنوسي .

(٤) تاريخ حضرموت السياسي ص ٥٣ .

(٥) مجموع الفتاوى ٢٧ / ٤٤٧ - ٤٩١ .

(٦) عدا قبر إبراهيم الخليل الذي رجح الجمهور صحته كما ذكر ذلك شيخ الإسلام . انظر هامش (١) ص ٢٧٨ .

(٧) يعني المعتقدين بصحة هذه القبور .

(٨) وقد تجتمع كل هذه الأمور في كثير من تلك القبور فيكون أحدهم رأى مناماً أخبر فيه بأن قبر فلان من الأنبياء أو غيرهم في المكان الفلاني ، ثم يدعى أنه شم رائحة طيبة تنبعث منه ، ثم ينقل عن بعض المنسوين للصالح أنه كان يعظم ذلك القبر ، ثم يدعى أن للمقبور إن وجد!! كرامات وخوارق .

فأما المنامات فكثير منها ، بل أكثرها كذب ، وقد عرفنا في زماننا بمصر والشام والعراق من يدعي أنه رأى منامات تتعلق ببعض البقاع أنه قبر نبي ، أو أن فيه أثر نبي ونحو ذلك ، ويكون كاذباً ، وهذا الشيء منتشر ؛ فرائي المنام غالباً ما يكون كاذباً ، وبتقدير صدقه فقد يكون الذي أخبره بذلك شيطان ، والرؤيا المحضة التي لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه ، ورؤيا من الشيطان»^(١) .

فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة ، فلا بد من تمييز كل نوع منها عن نوع^(٢) ، وبعضهم يكون مستنده في ذلك - وما أكثرهم - حكاية يحكيها عن مجهول ، «حتى إن منهم من يقول : حدثني أخي الخضر أن قبر الخضر بمكان كذا»^(٣) فانظر إلى هذا الهراء .

وكل هذه الأمور التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ويستند إليها هؤلاء القبوريون في إثبات هذه القبور ونسبتها إلى الأنبياء كالمنامات وظهور رائحة طيبة ونحوها وتعظيم بعض الناس لها . كل هذه من التبريرات الساقطة والحجج الواهية ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

وفي حلب «يوجد هناك مسجد يعرف بمسجد النبي منسوب إلى نبي يدعى كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ، ومكتوب تحت الضريح قصيدة

(١) رواه البخاري ، كتاب التعبير ، باب القيد في المنام ، برقم ٧٠١٧ (الفتح ١٢/٤٠٤) ، ورواه مسلم برقم ٢٢٦٣ . كتاب الرؤيا ٤/١٧٧٣ .

(٢) مجموع الفتاوي ٢٧/٤٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٢٧/٤٥٨ .

نظمها الشيخ علي بن مصطفى الميقاتي منها :

مقام عليه هـيـة و جـلـالـة تدل على التحقيق ما شاع واشتهر
بأن الذي هذا الضريح يضمه نبي له في الذكر شأن وفي الأثر
فزر لنبي الله يا طالب الهدى وصل عليه مثلما جاء في الأثر
وسل عنده الحاجات تظفر بنيلها فما خاب عبد بالنبين انتصر
ويقول الغزي بعد أن ذكر أمر هذا الضريح : «وعلى كل حال فلا بأس
من زيارته على من توهم من وجوده . فقد قال في طبقات الصوفية للعلامة
المنائي : إن الأرض لأجسام الأنبياء والأولياء كالماء للسّمك فيظهرون
بأماكن متعددة ، ويزار كل مكان قيل عنه إنه فيه نبي كريم أو ولي عظيم»^(١) .
وهذه أيضاً من تبريراتهم الساقطة التي يموهون بها على عقول العامة ،
ويخدعون بها السذج والمغفلين في نسبة هذه القبور إلى الأنبياء .

فإن الهيبة والإجلال الذي يضطرم في نفوس هؤلاء القبوريين المتعلقين
بكل ضريح والمشدوهين بكل مقبور دليل عندهم على صحة النسبة ، فكيف
إذا اشتهر عند الرعايا وشاع عندهم أن ذلك القبر هو للنبي فلان؟ فإن هذه
يحقق صدق النسبة ويؤكد صحة الادعاء .

وليس أعجب من ذلك إلا تلك الخرافة التي نسجها الصوفية حول
الأنبياء والأولياء وأن الأرض لأجسامهم كالماء للسّمك فيظهرون بأماكن
متعددة ، محاولة منهم لتبرير الأضرحة المتكررة لكثير من الأنبياء والأولياء ،
كما رأينا فيما سبق من وجود عدة أضرحة لنبي واحد في أماكن متفرقة ، بل

(١) نهر الذهب ٢/ ١٢٨ .

لم يعد الأمر يحتاج إلى تثبت وتحقيق عند هؤلاء ، بل يكفي في عرفهم الفساد أن يقال إن في المكان الفلاني قبر النبي فلان ، حتى لو نسب لذلك النبي أكثر من قبر ، فلا يضيرهم ذلك أبداً ، والغاية عندهم كما ستضح لنا فيما بعد هي ما عبر عنه الميقاتي في البيت الرابع بقوله :

وسل عنده الحاجات تظفر بني لها فما خاب عبد بالنيسين انتصر
فإن ذلك دينهم وغايتهم التي يدورون حولها ، ويروجون لأجلها
الأباطيل .

وندع الآن ما نسبته الجهال والمبتدعة من قبور إلى الأنبياء ، لننتقل إلى الأولياء والصالحين بل وحتى من غيرهم لنرى مئات بل ألوفاً من القبور والأضرحة المنسوبة إليهم ، والعجيب في الأمر أن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم قد نسبت لهم أضرحة ومشاهد في بلدان لم يموتوا فيها ، بل ربما لم يطئوها مطلقاً .

فهذا الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه مات بدمشق ودفن فيها^(١) ، ومع ذلك فله قبر معروف وضريح كبير في الاسكندرية . «ولم تستطع بلدية الاسكندرية نقل هذا الضريح المزعوم لتوسيع الشارع الضيق الذي يقع فيه الضريح نظراً لمظاهر الاستياء التي عمت بين الناس الذين لا يتشككون ولو لحظة واحدة في صحة هذا المقام ، ويروون حول ذلك خرافات كثيرة ، مثل قصة العامل الذي أصيب بالشلل حين عزمت البلدية على نقل الضريح ، مما جعل البلدية تلغي فكرة نقل الضريح ، وتحايل لتوسيع الشارع من جانبيه»^(٢) .

(١) انظر : الإصابة : ٤٥ / ٣ ، سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٣٥ .

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١ / ١٥٢ . د. سعاد ماهر . مطبعة الأهرام التجارية . =

وهذا الحسين بن علي رضي الله عنهما^(١) سبط رسول الله ﷺ استشهد بكريلاء بالعراق ودفن بدنه بمكان استشهاده ، وأما رأسه رضي الله عنه فالراجح أنه دفن في المدينة كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى^(٢) ، ومع ذلك فله مقام عظيم وضريح كبير ومسجد مشهور معروف باسمه في مدينة القاهرة ، يقول عنه صاحب الخطط التوفيقية^(٣) :

«هذا المسجد هو الحرم المصري والمشهد الحسيني المنفرد بالمزايا السنية والأنوار الحسينية ، اعتنى الأكابر والأمراء في كل عصر بعمارته وزخرفته وإعلاء شأنه ، وفرشه بالفرش النفيسة وتنويره بالشموع والزيوت الطيبة في قناديل البلور ونجفاته ، ورتبوا له فوق الكفاية من الأئمة والمؤذنين والبوابين ونحوهم وقراء لقراءة القرآن والدلائل^(٤) والتوسلات ، ووقفوا عليه أوقافاً جمّة^(٥) .

= نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . ط ١٩٧١ م .

وإنني أتوقف في تصديق هذه الحكاية ، بل أميل إلى نفيها ، لأن هذه وأمثالها واحدة من آلاف الحكايات والمخترعات التي يختلقها الجهال والدجالون من مجاوري الأضرحة وعباد القبور ، وينشرونها بين الناس . والأقرب من هذا إن صحت الحكاية أن هؤلاء العمال كغيرهم مأخوذون برهبة الضريح ، وهيبة الموقف ، ومن يؤمنون بقدرة الأضرحة على النفع والضرر ، وخاصة أن ذلك الفعل في حس العامة يعتبر من الموبقات التي لا تغتفر ، فلعل صاحبهم هذا لم يتمالك نفسه ، ولم يستطع التحكم في أعصابه للموقف العصيب الذي يقفه ، فلم يستطع تحريك يديه خوفاً ورهبة ، وتلك حالة نفسية قد تقع لمثل هؤلاء في مثل تلك المواقف عندهم ، وقد يكون ذلك كذباً وفعله تمثيلاً كي لا ينقل الضريح . ولو غدونا نصدق كل ما يلقفه هؤلاء السفهاء لصرنا في أمر مريع .

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٨٠ . الإصابة : ١/ ٣٣٢ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٤٨٢ .

(٣) هو علي باشا مبارك المتوفى سنة ١٣١١ هـ انظر الأعلام ٤/ ٣٢٢ .

(٤) يعني دلائل الخيرات للجزولي وهي أذكار مبتدعة وصلوات على النبي ﷺ مختلفة يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى .

(٥) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ٢/ ٢٨٢ .

وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في إبطال صحة ذلك المشهد ، وأورد من الأدلة والحجج في ذلك الشيء الكبير ، وبين أن العبيدين في آخر دولتهم أقاموه ، ونقل أقوال العلماء السابقين في بيان زيفه وكذبه^(١) .

ولكن مجاوري الأضرحة وعباد القبور يأبون ذلك أشد الإباء ، وقد يقبلون التشكيك في أشياء ثابتة ، ولكنهم لا يقبلون أبداً التشكيك في صحة هذا المشهد ، ويوقنون أشد اليقين أنه للحسين ، ولا يرفعون بغير ذلك رأساً . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض الشيوخ المشهورين بالعلم والدين قالوا إنه قبر نصراني^(٢) .

وليس ذلك بغريب أبداً ، ففي الجزائر كان الشعب هناك يؤم ضريحاً في بعض المناطق الشرقية ويتبرك بأعتابه ثم اكتشف أن هذا القبر كان لراهب مسيحي ولم يصدق الناس ذلك حتى عثروا على الصليب في القبر^(٣) .

وفي مدينة حلب مشهد يعرف بمشهد الحسين ، وسبب إحداثه كعادة القبوريين قصة خرافية تقوم على منام كاذب ، وأشخاص مجهولين^(٤) .

وقد ذكر الغزي أن هذا المشهد كان مهملاً ثم بدىء في إصلاحه ، وفي سنة ١٣٠٢ هـ جددت بعض جدرانه ، وبعد بضع سنين أهدى السلطان عبد الحميد ستاراً حريراً مزركشاً بآيات قرآنية وضع على المحراب وفرشت أرض قبلته

(١) مجموع الفتاوى ٢٧ / ٤٥٠ - ٤٩٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧ / ٤٦٠ .

(٣) صفحات من تاريخ الجزائر ص ٣٢٤ د . صالح خرفي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢ / ٢٨٠ وتراجع القصة هناك . وقد ذكر شيخ الإسلام أن المشهد الذي في حلب لا أصل له . مجموع الفتاوى ٢٧ / ٤٦٩ .

بالطنافس الجميلة ، وجدد ترخيم أرض الصحن ، ورتب له إمام ومؤذن وخادم وموظفون يقرءون كل يوم أجزاء شريفة ، والنفقات على ذلك كله من صندوق أملاك السلطان عبد الحميد في حلب^(١) .

وهناك الكثير من القبور التي نسبت إلى الصحابة وقد يصح منها شيء وهو القليل النادر ، والغالب منها لا يصح ، والسبب في ذلك كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «أن عامة أمر هذه القبور والمشاهد مضطرب مختلق ، لا يكاد يوقف منه على العلم إلا في قليل منها بعد بحث شديد ؛ وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام ، ولا ذلك من حكم الذكر الذي تكفل الله بحفظه حيث قال : ﴿إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] . بل قد نهى النبي ﷺ عما يفعله المتبدعون عندها^(٢) .

ونحن نذكر بعد ذلك جملة من القبور المنسوبة إلى الصحابة رضوان الله عليهم بنيت عليها القباب والمساجد ، وشيدت عليها الأضرحة وزينت بأنواع الزينات وأوقدت السرج والقناديل فيها .

فمن تلك القبور قبر أبي أيوب الأنصاري^(٣) رضي الله عنه في الأستانة (القسطنطينية) ، وقد بني عليه جامع ضخم هو «أقدس جامع في الأستانة» كما يقول صاحب دليل الأستانة^(٤) .

ويقول عنه السنوسي الذي زاره في مطلع القرن الرابع عشر الهجري :

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٨٢ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٤٤٨ .

(٣) الإصابة ١/ ٤٠٥ . سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٠٢ .

(٤) دليل الأستانة ص ٤٩ محمد شكري الناعمة . مطبعة جرجي غرزوزي . الاسكندرية

١٩٠٩ م .

«فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة ، وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها، خطيبه جلال الدين أفندي، فكان لوجود مدفن ذلك الصحابي في تلك البلاد فخر لمقر السلطنة الإسلامية من بلاد الروم»^(١) .

ويذكر السنوسي أنه زار ثلاثة قبور نسبت إلى حفصة وأم سلمة وأم حبيبة أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن في دمشق . وقد تعجب من ذلك لأنهن مدفونات في المدينة^(٢) .

وزار قبر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها في دمشق أيضاً، مع أنها ماتت في مكة بعد مقتل ولدها عبد الله بن الزبير بأيام قليلة^(٣) .

ويذكر أبو الثناء الألويسي^(٤) أنه في أثناء عودته من رحلته إلى الأستانة عام ١٢٦٣ هـ مر في طريقه ببلدة «طور خال» بحجرة منمقة البناء يقول الناس هناك إن فيها صحابياً يسمى كيسك باش، «وينقلون في شأنه حكايات تستوحش منها غواني الصحة غاية الاستيحاش، ومثل ذلك كثير في أكثر البلدان قد اتخذ الناس فيها قبوراً هي عندهم من السماك أسمى وشغفوا بها شغف المجنون بليلى وإن هي إلا أسما»^(٥) .

وذكر أيضاً أنه رأى قبة في نصيبين يزعمون أنها لسلمان الفارسي مع أنه

(١) الرحلة الحجازية ٢/ ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣١٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٨٧ . الإصابة ٤/ ٢٣١ .

(٤) الأعلام ٧/ ١٧٦ .

(٥) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ١٨ مطبعة ولاية بغداد . سنة ١٢٩٣ هـ .

وهذا الاسم الذي عدوه صحابياً ليس معروفاً، ولم يكن عند الصحابة من الألقاب الأعجمية ولا من غيرها شيء، ولعله من اختراع الأعاجم هناك، شأنهم في ذلك كشأن غالب المسلمين في تلك الأزمنة .

رضي الله عنه دفن في المدائن^(١) .

وهناك ضريح في معرة النعمان لرجل يدعى عطا الله يزعمون أنه صحابي^(٢) ، ولا يعرف في الصحابة مثل هذا الاسم .

وهناك ضريح في بلدة الرها من أعمال حلب يقال إنه لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما^(٣) مع أن جابراً توفي في المدينة^(٤) ، وكان آخر الصحابة موتاً بها^(٥)

وقد ذكر محمد بن خليفة النبھاني (المتوفى سنة ١٣٦٩هـ)^(٦) عدداً من الأضرحة المنسوبة إلى الصحابة في البصرة ؛ منها ضريح الزبير بن العوام وضريح عتبة بن غزوان وضريح طلحة الخير ، وضريح المقداد بن الأسود وضريح عبد الرحمن بن عوف وضريح أنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين^(٧) ، مع أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مات بالمدينة ودفن بالبقيع^(٨) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض أصحابه حدثه «أنه ظهر بشاطئ الفرات رجلان ، وكان أحدهما قد اتخذ قبراً تحبى إليه أموال ممن

(١) المصدر السابق ص ٩١ وانظر سير أعلام النبلاء ٥٠٥/٢ والإصابة ٦٢/٢ .

(٢) تاريخ معرة النعمان ٤٦٨/١ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٥٤٢/١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٩٢/٣ .

(٥) الإصابة ٢١٣/١ .

(٦) الأعلام ١١٦/٦ .

(٧) التحفة النبھانية في تاريخ الجزيرة العربية ص ٦٢ منشورات مركز دراسات الخليج العربي .

جامعة البصرة (٣٧) ١٩٨٠ مستل من الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ .

(٨) الإصابة ٤١٧/٢ . سير أعلام النبلاء ٩٢/١ .

يزروه وينذر له من الضلال ، فعمد الآخر إلى قبر ، وزعم أنه رأى في المنام أنه قبر عبد الرحمن بن عوف ، وجعل فيه من أنواع الطيب ما ظهرت له رائحة عظيمة^(١) فلعل ما ذكره شيخ الإسلام هو الذي ذكره النبهاني ، لأن أكثر تلك المشاهد مكذوبة كما عرفنا ذلك .

وكذلك المقداد بن الأسود مات بالمدينة ودفن رضي الله عنه في البقيع^(٢) .

وقد ذكر النبهاني أن الدولة العثمانية قد أعفت أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف ، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة ، يعني الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً ، وقامت والددة السلطان عبد العزيز بترميم القبر ، وتكبير المسجد ، فصار جامعاً حسناً! .

وفي سنة ١٢٩٣هـ ورد أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير هذه المراقدة الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون) .

ثم في سنة ١٣٠٥هـ أمر السلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القبر وتعمير المسجد ، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباحر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين .

وهذه الأثاثات صارت على نظارة شعبان باشا والي البصرة سنة ١٣٠٦هـ ، والأدوات المذكورة باقية إلى اليوم تحت يد القيم ، يبرزها وينشر الحلل على الضريحين في المواسم الإسلامية والليالي المباركة^(٣) .

(١) مجموع الفتاوى ٤٥٩/٢٧ .

(٢) الإصابة ٤١٧/٢ . سير أعلام النبلاء ٣٨٦/١ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ - ص ١١٨ .

وفي سوس ببلاد المغرب الأقصى مدفن يعتقد أنه به ثلاثة أنبياء ، وهناك أيضاً مدفن آخر يعتقد أنه لسبعة من الصحابة ؛ يقول أحدهم : «وينبغي أن لا يستبعد شيء من هذه الأخبار ، لا من نسبة الصحبة لهؤلاء السبعة ، ولا من دفن الأنبياء المذكورين بالمحل المذكور بل يجب علينا التسليم في ذلك كله ! ، واعتقاد تعظيم القبور المذكورة بما يعد تعظيماً ! ، وبكل ما يليق من الاحترام ، ولو على تقدير توهم الصحبة ، لا سيما مع ما انضم إلى ذلك من الشيوع وتواطؤ الألسنة على ما ذكر خلفاً عن سلف»^(١) .

فالغاية عندهم كما سنرى هي تعظيم القبور مهما كان المقبور ، فكيف إذا ما شاع عند العامة وتواطأ عند الغوغاء مع العلم الباطن الذي يدعيه دجاجة المتصوفة ، وزنادقة الطريق .

وإذا تجاوزنا ما نسب إلى الصحابة من قبور ، وغالبها مكذوب كما رأينا ، نجد أن ما نسب إلى من جاء بعدهم لا يكاد يحصر ، فقد بني على كل قبر يعتقد أنه لولي ولكن على طريقة الصوفية في تحديد الأولياء التي يوضع فيها كثير من الدجالين والمارقين والمجانين بجانب أولياء الله الصالحين .

لقد كانت عمارة الأضرحة والقباب على القبور ظاهرة بارزة لتلك الفترة التي ندرسها ولم يكن يعمر مسجد أو جامع إلا على ضريح ، وقل أن يعمر مسجد لغير ذلك .

ويذكر صاحب الخطط التوفيقية علي باشا مبارك أن الموجود في زمنه في القاهرة وحدها مائتان وأربعة وتسعون ضريحاً^(٢) . ومن أشهرها ضريح

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/ ٢٧٢ العباس بن إبراهيم السملالي ، المطبعة الملكية . الرباط ١٩٧٤ م .

(٢) الخطط التوفيقية ١/ ٢٤٤ .

الحسين ، وضريح السيدة سكيئة ، وضريح السيدة نفيسة ، وضريح السيدة زينب ، وضريح الإمام الشافعي ، وضريح الليث بن سعد ، وكل هذه الأضرحة قد بني عليها جوامع ومساجد .

وتذكر الدكتور سعاد ماهر أن الأضرحة المشهورة يزيد عددها في مصر على الألف^(١) . ومن أشهر الأضرحة خارج القاهرة ما يسمى بضريح السيد البدوي في طنطا .

ولم تكن الأقطار الأخرى أحسن حالاً من القطر المصري . ففي الشام مثلاً عشرات من الأضرحة والمزارات المشهورة ، وقد ذكر القاياتي الأضرحة التي زارها فبلغت أكثر من أربعين ضريحاً ، وقد ذكرنا بعضاً منها^(٢) .

وقد ذكر عبد الرحمن بك سامي الذي قام بزيارة إلى الشام عام ١٨٩٠م التربة والأضرحة والمزارات في دمشق وضواحيها فبلغت مائة وأربعة وتسعين موضعاً^(٣) .

أما نعمان قسطلالي فقد عد فيها أكثر من أربعة وأربعين ضريحاً . وهذه هي المشهورة منها ، وذكر أن للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبراً ، لكل واحد منها قبة ويزار ويتبرك به^(٤) .

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١/ ٤٤ فإذا طرحنا من هذه الألف ما ذكره صاحب الخطط وهو الموجود في القاهرة البالغ مائتين وأربعة وتسعين كان المتبقي هو سبعمائة وستة ويكون هذا هو عدد الأضرحة خارج القاهرة في نواحي متفرقة من القطر المصري . وهذا هو المشهور فقط .

(٢) انظر : نفحة البشام في رحلة الشام .

(٣) القول الحق في بيروت ودمشق ص ٩٧ دار الرائد العربي . بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

(٤) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ص ١٣١ دار الرائد العربي . بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

وفي الأستانة عاصمة السلطنة العثمانية يوجد أربعمئة وواحد وثمانون جامعاً لا يكاد يخلو جامع فيها من ضريح^(١) .

وفي الهند يوجد أكثر من مائة وخمسين ضريحاً ما تزال موجودة إلى يومنا هذا كما ذكر أحد الباحثين^(٢) وهذه هي الأضرحة الكبيرة المشهورة التي يؤمها الآلاف من الناس .

وفي بغداد كان يوجد أكثر من مائة وخمسين جامعاً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وقل أن يخلو جامع منها من ضريح^(٣) .

وفي الموصل يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحاً مشهوراً كلها داخل جوامع^(٤) .

وهذا كله بالنسبة إلى الجوامع ، أما المساجد وهي التي لا تقام فيها الجمعة فهي تزيد على الجوامع أضعافاً مضاعفة ، ولم يكن يخلو مسجد منها من ضريح إلا في النادر القليل ، وهناك أيضاً الأضرحة التي تكون في الزوايا والتكايا ، وهناك أيضاً الأضرحة المكشوفة التي لم يبن عليها جوامع أو مساجد ، وتلك كثيرة أيضاً .

ولا تخلو مدينة من المدن في تلك الفترة من تلك الأضرحة على مستوى العالم الإسلامي كله^(٥) . بل لم يعد البناء على القبور قرابة عند هؤلاء

(١) دليل الأستانة ص ٤٨ .

(٢) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية . ص ١٣٩ .

(٣) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ٧٢ / ١ محمد رؤوف السيد طه الشبخلي خريج الكلية العسكرية في استانبول سنة ١٣٢١ هـ . مطبعة البصرة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

(٤) ترجمة الأولياء في الموصل الحدياء . أحمد بن الخياط الموصلي . تحقيق سعيد الديوه جي . مطبعة الجمهورية . الموصل ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

(٥) باستثناء نجد وملحقاتها وذلك بفضل دعوة الشيخ محمد التي نفع الله بها .

فحسب ، بل صار ذلك ميداناً فسيحاً للتنافس بين البلدان ، والتفاخر بتلك الأضرحة ، وبمقدار ما يحوزه البلد من أضرحة الأولياء تكون أفضليته عند الناس ويرغب في سكناه والمجاورة فيه وإذا افترض أن هناك بلداً لم يتشرف بحياسة شيء من هذه الأضرحة فإنه لا يعدم من أهله من يخلق أكذوبة وإشاعة يدعي فيها أنه رأى رؤيا أن المكان الفلاني من البلد يوجد به قبر ولي من الأولياء ، فيسارع الناس إلى البناء على ذلك الموضع المزعوم ، وإذا به يغدو بعد أيام قلائل مزاراً يهرع إليه أهل البلد .

وأقبل السلاطين والملوك والأمراء على عمارة المشاهد والأضرحة ، وتنافس الأثرياء والموسرون في ذلك العمل الذي كانوا يرونه أعظم قربة لهم وتعلق الناس بذلك أيما تعلق ، وكان كثير من الملوك والحكام في ذلك الزمن يلجئون إلى عمارة تلك الأضرحة والإنفاق عليها ليس إيماناً بها بقدر ما كان إرضاءً لمشاعر الناس ومحاولة لكسب ولائهم والعمل على إلهائهم بتلك الأضرحة التي تعبد من دون الله عز وجل ، واطمئناناً على الأقل من ثوراتهم وتمرداتهم نتيجة لما كان يمارسه هؤلاء الحكام من ظلم وطغيان .

«إن تشييد أكثر المقامات والمشاهد كان لغاية سياسية فإن رجال الحكم الذين كانوا يريدون أن يعززوا حكمهم ، ويجعلون له صبغة دينية فإنهم كانوا يقربون أرباب الطرق ويشيدون المراقد والمشاهد»^(١) .

وهكذا كان الحال في جميع الأقطار الإسلامية ؛ في الحجاز واليمن وأفريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها .

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

وأخذت تلك الأقطار تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها؛ إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر ، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون .

بل لقد كان ذلك علامة على صلاح وعدل من يفعله من الحكام والأمراء ؛ فمن كان منهم مكرماً للأولياء بزعمهم ، يبنى الأضرحة على قبورهم ، ويشيد القباب عليها ، ويزور تربهم ويمرغ خديه على عتباتهم فهو الحاكم الصالح المحبوب عند رعيته ولو كان من أظلم الظالمين .

ويذكر أحمد بن الحياط (المتوفى سنة ١٢٨٥هـ) أن الذي دفعه إلى تأليف كتابه «ترجمة الأولياء في الموصل الحدياء» هو ما رآه من والي الموصل في زمنه (نجيب باشا) ومحبه للأولياء ، وزياراته المتكررة لمداfterهم ومشاهدهم ، وأن ذلك من توفيق الله له لأن من أحب قوماً فهو معهم ، وقد أهده مؤلفه المذكور^(١) .

ولم يكن باستطاعة أحد في ذلك الزمن أن يقف أمام ذلك الطوفان العظيم من التعلق بالقبور وتعظيم الموتى إلا ما كان من حال الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وأتباعه ، وأفراد قلائل لا يلبث أن تخمد دعوتهم .

وقد ذكر القاياتي مقام إبراهيم بن أدهم وما أعد فيه من خلوات لنوم الغرباء ، ووصف بنائه ، وقال إن ملوك الزمان قد خدمته^(٢) .

وكثيراً ما يذكر في تراجم الحكام والأمراء - ضمن محاسنهم - تجديد الأضرحة وإقامة المشاهد .

(١) ترجمة الأولياء في الموصل الحدياء ص ٢٦ .

(٢) نفحة البشام ص ٦٦ .

كما ذكر على سبيل المثال المولى محمود باشا باي تونس (المتوفى سنة ١٢٣٩هـ) والمولى حسين باشا باي تونس (المتوفى سنة ١٢٥١هـ)^(١) .

وهذا السلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمن العلوي سلطان المغرب (المتوفى سنة ١٣١١هـ)^(٢) كان كما يقول عنه السملالي : «زواراً للصالحين ، وأولياء الله المفلحين ، كثير التطواف على أمكنتهم ، بحثاً عن أضرحتهم ، وكم جدد لهم من مقام وشيد من قباب فخام . . . »^(٣) ثم شرع يذكر ما بناه من أضرحة وما جدده منها .

وعندما مات الصوفي المشهور خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي عام ١٢٤٢هـ^(٤) بنى السلطان عبد المجيد خان على قبره قبة عظيمة ، ومسجداً ، وعدة مقاصير للمريدين والمتجردين ، ومطبخاً ، وبركة عظيمة للماء^(٥) .

ولم يقتصر الأمر على بناء الأضرحة والقباب على قبور الأنبياء والأولياء والصالحين بل تعدى ذلك إلى البناء على من له رئاسة دنيوية ، وإن كان من أفجر الفجرة وقد يوصي أحدهم بذلك^(٦) .

ولما مات والي الشام أحمد حمدي باشا سنة ١٣٠٣هـ في بيروت ، أمر السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير زاوية لمدفنه ، يصرف عليها من

(١) أعيان القرن الثالث عشر ص ٢٦٤ خليل مردم بك . لجنة التراث العربي . لبنان ١٩٧١ م .

(٢) الأعلام ٢/ ٢٢١ .

(٣) الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام ٣/ ١٧٢ .

(٤) الأعلام ٢/ ٢٩٤ .

(٥) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١/ ٥٨٦ .

(٦) أدب الطلب ص ١٧٠ .

ماله الخاص أربعة وستون ألفاً صاعاً^(١) .

وللمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي نص هام في بيان تعلق الناس واهتمامهم ببناء الأضرحة؛ حيث ذكر سفر والي مصر حسن باشا، وأنه لم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر ، فلم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة ، ثم قال بعد ذلك : «ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد لهلك عليه أهل الإقليم أسفاً وبنوا على قبره مزاراً وقبة وضريحاً يقصد للزيارة»^(٢) ، فإن ذلك ديدن أهل العصر ، ووباء خبيث قلّ من نجا منه .

ووصل الأمر أحياناً أن يبنى على قبر صعلوك كان يقطع الطريق جامع وقبة ، كما صنع الخديوي إسماعيل سنة ١٢٨٠ هـ برجل يدعى صالح أبو حديد كان قاطع طريق ، ويعمل له حضرة كل أسبوع ومولد كل عام ، وأوقف عليه أوقافاً تفي بإقامة شعائره المبتدعة^(٣) .

ويعلق صاحب الخطط التوفيقية عند الحديث عن هذا الجامع بقوله : «وهو جامع عظيم لم يبن لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والعلوم الذين انتفع الكثير بعلومهم ومعارفهم ، ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان ، وطالما نبه عليها كثير من المؤلفين في كتبهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(٤) .

(١) حلية البشر ١/ ١٤٠ . وفي هامش الصفحة لمحقق الكتاب الشيخ محمد بهجت البيطار قوله : الصدقة الجارية ليست بتعمير الزاوية ، وهذا المبلغ يكفي لتعليم عشرات من الطلاب كثيراً من العلوم والفنون والآداب .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٣٢ .

(٣) الخطط التوفيقية ٣/ ٣٣٨ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٤٠ والبناء على القبور لا يجوز سواء أكان الميت فاضلاً أم لا . وأصل قصة الشيخ صالح هذا أنه كان على رأس عصا به تقطع الطريق وتقتل المارة وتسلبهم ، =

وهذا المجذوب علي البكري ، الذي كان يطوف الشوارع عرياناً ، قام أخوه بعد موته وعمد إلى أحد مساجد القاهرة واجترأ نصفه ظلماً وجعله ضريحاً لأخيه ليرد إليه الناس من كل أنحاء القطر^(١) .

وفي حلب يوجد مسجد عرف بمسجد العريان يعتقد أنه أهل المحلة الموجود بها ، ويقولون إنه عرف بالعريان لأنه كان في أكثر أوقاته يغلب عليه الحال فيتجرد من ثيابه^(٢) .

« وليس هذا فحسب ، بل إن هناك مقامات لدواب هؤلاء الشفعاء (يعني الأولياء) تقدم إليها النذور ، ويوقد عليها البخور ، والويل لمن تحدّثه نفسه بالاعتراض ، أو يسول له عقله الانتفاض »^(٣) .

ويذكر الشيخ محمد المجذوب أن في اللاذقية حضرة يقال إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي . . لا تزال حتى اليوم تزار وتبخّر^(٤) .

= وعندما كشف أمرهم فر صالح إلى بيت مغنية مشهورة وادعت أنه مجنون ووضعت في رجليه قيداً من حديد ، وقد اعتقل لسانه من شدة الخوف ، ثم شاع عنه بين الناس أن له كرامات وأخباراً بالمغيبات وكان ذلك بفعل المجتمعين من حوله من الأوباش ، وأقبل الناس عليه بالهدايا والنذور لاستكشاف المغيبات واستمر على هذا إلى أن مات وكان ما كان .

(١) عجائب الآثار ١٥٥/٢ . وقد كان ذلك قبل احتلال الفرنسيين لمصر بسنوات .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٣٥/٢ .

(٣) مشكلات الجليل في ضوء الإسلام ص ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٤ . وقد حدثنا أحد أساتذتنا الأفاضل في السنة المنهجية عام ١٤٠٩هـ

وهو الدكتور مصطفى حلمي أن البلدية في الاسكندرية عزمت على نقل ضريح من أحد الطرق فثار الغوغاء هناك واستنكروا نقل الولي من قبره ، ولكن البلدية أصرت على عزمها ، وكانت المفاجأة أن القبر كان يضم عظام حمار!! ولكن المثل السائر في مصر هو (تحت القبة شيخ) . انظر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١/٤٦ . حتى ولو كان المدفون حماراً .

ولطالما تعدى هؤلاء القبوريون على المساجد والمدارس ظلماً وعدواناً وحولوها إلى ترب يدفنون فيها من يعتقدونهم من الأموات وبينون عليها الأضرحة والقباب .

ويتحدث العلامة الشيخ عبد القادر بن بدران عن تعدي الناس على المدارس وأوقافها في دمشق ، خصوصاً دور الحديث ، وأنه أراد أن يستقصي أوقاف كل مدرسة ويصفها ولكنه كما يقول لم يجد إلا هباء منثوراً لتعدي الناس عليها ، ولم يبق من ذلك إلا قبر الواقف : «فمن ثم ترى بستاناً وهو نزهة الناظرين ، وفيه قبة عالية بها قبر عظيم ، فإذا سألت عنه قيل لك : هذا قبر الولي الفلاني ، أو الصحابي ويسميه باسم غريب ، ويكون أصل ذلك البستان مدرسة أو جامعاً ، فاختلس مكانهما وغرس بالأشجار ، وأعطى القبر لقب ولي أو صحابي وربما قيل عنه نبي ، ثم مع مرور الزمن يخترعون له مناقب وكرامات ، ويعلقون الخرق فوقه لصرف أفكار البسطاء نحوه ، وإقبالهم على زيارته ، وبذل الدراهم لخدمته ، فيجعلونه كشجرة يقصدون ثمرها بكرة وعشياً» .

ثم يذكر مثلاً على ذلك فيقول : «كما أنني حرت في معرفتي للمدرسة الكروسية ، فلم أقدر على معرفة محلها لاندراسها ، ودخولها في الدور ، فبينما أنا أفتش ، إذ برجل قال لي : هذا مقام السلمي وهو صحابي جليل وهذا الزقاق يسمى باسمه .

فنظرت في ترجمة واقف المدرسة ، فإذا هو السلمي ، فاهتديت إلى مكانها ، وأريت صاحبني ترجمته وأعلمته بأنه ليس بصحابي ، وصاحبني هذا من أهل العلم الذين لهم تلامذة في زمننا فما ظنك بالعوام»^(١) .

(١) مناداة الأطلال ومسامرة الخيال ص ٥٣ المكتب الإسلامي . دمشق ١٣٧٩ هـ .

وقد أولع العثمانيون خاصة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثاراً لأنبياء أو غير ذلك .

ففي الطريق الجبلي إلى غار حراء بناء متين تعلوه قبة طوله ستة أمتار في مثلها عرضاً في ثمانية ارتفاعاً ، وفي أرض هذا البناء حجر أملس أسود ، به شق في وسطه ، يقال إنه المكان الذي شق فيه صدر الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ويعلق صاحب «مرآة الحرمين» اللواء إبراهيم رفعت باشا (المتوفى سنة ١٣٥٣هـ)^(١) على ذلك بقوله : «اللهم إن هذا بهتان عظيم مبين ظنه الناس صدقاً وتوارثوا هذا الظن حتى بلغ من نفس السلطان عبد العزيز أن حركه لبناء قبة على هذا المكان المزعوم في سنة ١٢٧٩هـ ، وقد وجدت هذا مكتوباً في جدارها الجنوبي محلي بماء الذهب»^(٢) .

وبالقرب من الهفوف كان يوجد هناك عين ينبع منها الماء الحار صيفاً وشتاء تسمى «بعين نجم» ، كان العوام يعتقدون أن من به عاهة إذا اغتسل في هذه العين يبرأ ، وقد خشي بعض أهل العلم السلفيين الفتنة على الناس ، واختلال عقائدهم فدفنوها سداً للذريعة ، وبعد انقيادها لزامام الدولة العثمانية أعادوها كما كانت وبنوا عليها قبة ومباني لطيفة فعاد الناس يتتابون إليها»^(٣) .

(١) الأعلام ٣٩/١ .

(٢) مرآة الحرمين ٥٩/١ بدون تاريخ طبع واسم مطبعة ، رحلات عبد الوهاب عزام ص ٣٤٦ الرسالة . الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م .

(٣) تاريخ نجد ص ٥٣ العلامة محمود شكري الآلوسي . الناشر المكتبة العربية . بغداد المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٣هـ . وما تزال هذه العين موجودة إلى يومنا هذا كما حدثني من زارها .

ولم يكتف العثمانيون بعمارة الأضرحة والقباب على قبور أهل السنة ، بل كانوا يهتمون بالعتبات المقدسة عند الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية ويديرون شؤونها من خلال دائرة الأوقاف العثمانية ويسرون السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارتها^(١) .

وحين أظهر الله عز وجل أهل الدعوة على عباد القبور والأضرحة ، ونصرهم عليهم ومكن لدولتهم ، أعادوا الأمور إلى نصابها ، وقاموا بهدم تلك الأضرحة والقباب وتقويض معالمها في مكة والمدينة والحجاز وغيرها كان ذلك عند الناس أمراً عظيماً ، وكفراً مبيناً ، إذ ذلك خلاف المعهود عندهم وما نشئوا عليه وورثوه عن أسلافهم ، وانقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً .

وننقل نبذة للمؤرخ محمود فهمي المهندس (المتوفى سنة ١٣١١هـ)^(٢) ذكر فيها خبر استيلاء أهل الدعوة على الطائف وما قاموا به من هدم للأضرحة والقباب ؛ يقول : «وهدم جميع القبور الطاهرة وكان من ضمن هذه القبور قبر العباس عم النبي ﷺ^(٣) أشهر وأفخر محل يزار في أنحاء بلاد العرب في جماله ونظامه وطهارته»^(٤) .

وقال بعد ذكر دخولهم مكة سنة ١٢١٨ : «وأمر في الوقت بهدم ما ينوف عن ثمانين قبة فاخرة البناء كانت على قبور ذراري الرسول ﷺ وعليها

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٨٠٣/٢ - ٨١٢ .

(٢) الأعلام : ١٨٠/٧ .

(٣) هكذا قال والصحيح أنه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . أما العباس فمجمع على موته في المدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، ودفن في البقيع . انظر الإصابة ٢/٢٧١ وسير أعلام النبلاء ١٠٠/٢ .

(٤) البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ١/١٧٥ مطبعة بولاق ١٣١٢هـ .

مدار رونق مكة وبهجتها وسواها جميعها بالأرض حتى القبة التي على قبر خديجة رضي الله عنها^(١) .

لقد كان ما قام به أهل الدعوة من هدم لتلك الأضرحة والقباب سبباً في نفور السواد الجاهل من الناس ، ومخالفاً لما ألفوه عبر الأزمنة من تعظيم القبور وتقديس لها ، لذا سرعان ما بادروا بعد انحسار ظل دولة أهل الدعوة عن الحجاز بإعادة البناء على القبور من جديد ؛ فأقاموا الأضرحة وبنوا القباب .

واستمر الوضع على ذلك حيناً من الدهر حتى تولى الشريف عون (المتوفى سنة ١٣٢٣هـ)^(٢) فكلمه الشيخ أحمد بن عيسى (المتوفى سنة ١٣٢٩هـ) وأشار على الشريف بأن يهدم جميع القباب ، فهدمها وأزال ما كان في القبور من تشييد وغلو في جميع الحجاز وما حولها إلا ما كان من قبر حواء وخديجة وابن عباس في الطائف فإنه تركه مخافة من تشويش السلطان عبد الحميد الثاني^(٣) .

ثم أعاد القبوريون أكثر تلك القباب حتى فتحت مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ على يد الملك عبد العزيز وجيشه من الإخوان فأزالوها نهائياً والحمد لله ، وشنع عليهم أنصار البدعة وعباد الأضرحة وكبر على العوام هدم ضريح السيدة خديجة وبيت السيدة فاطمة والمولد

(١) المصدر السابق ١/ ١٧٦ .

(٢) الأعلام ٩٧/٥ .

(٣) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ١/ ٧٥ محمد بن عثمان بن صالح القاضي . الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م مطبعة الحلبي . القاهرة . ويذكر البتوني سبباً طريفاً لمنع هدم قبر حواء هو اعتراض القناصل الأجانب في جدة على ذلك بحجة أن حواء أم لجميع الناس وليست أمّاً للمسلمين فقط ، وكما قيل : شر البلية ما يضحك . الرحلة الحجازية ص ١٥ .

النبوي لاحتفاء الأتراك بها زمن دولتهم^(١) .

وفي ريف المغرب الذي كان يحتله الأسبان ، قامت القبائل هناك بثورة عارمة ضدهم ، حين بنى الأسبانيون مراكزاً للحراسة بقرب ضريح مقدسه القبائل^(٢)

وعندما استولى الأسبان على مدينة تطوان بالمغرب الأقصى عام ١٢٧٦ هـ قال أحد الفقهاء يرثي قائلاً :

فالدين يبكي بدمع	يحكيه صوب الغمامة
على مساجد أضحت	تباع فيها المدامة
كم من ضريح ولي	تلوح منه الكرامة
علق فيه رهيب	صليبه وجامه
تطوان ما كنت إلا	بين البلاد حمامة ^(٣)

فالجهد من أجل الأضرحة ، والدفاع عنها ، والبكاء لهدمها ، والرثاء لها من سمات تلك الفترة . وهل ضاع الدين وانتصر الصليبيون إلا بهيمنة تلك الأضرحة واللجوء إلى أصحابها من دون الله عز وجل ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١] .

(١) تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ٩١/٣ . الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن . مطابع مؤسسة النور . الرياض . الطبعة الأولى .

(٢) الإعلام بمن حل مراكز وأغمت من الإعلام ١٩٥/٣ غير أن سلطان المغرب صالحهم ودفع دية قتلاهم أربعة ملايين ريال ! .

(٣) الاستقصا ٢٠٥/٤ . أعيان القرن الثالث عشر ص ١٩٩ .

وكما كان لبيوت الأصنام في الجاهلية سدنة وحجاب ، فكذلك كان الحال بالنسبة لتلك الأضرحة ، حيث يقوم ألوف من السدنة في أرجاء العالم الإسلامي بخدمتها ورعايتها ، ويعيشون في رغد وثراء من ورائها .

وكان سادن الضريح سيداً مطاعاً ، وشخصاً مهاباً ، يستمد طاعته وهيبته من الضريح الذي يقوم على سدنته . وكان التعدي عليه كفيلاً بإثارة مظاهر السخط والاستياء عند جمهور الناس ، بل كان العلماء يهيجون عند حدوث شيء من ذلك ، ويستنكرون أيما استنكار . فعندما صودر أولاد سعد الخادم - وهم سدنة ضريح السيد البدوي - هاج العلماء في الأزهر وامتنعوا عن التدريس إنكاراً لمن قام بمصادرته ، ولم يعودوا إلا بعد أن طيبت خواطرهم ووعدوا بتلبية رغبتهم^(١) .

وكانت سدانة الأضرحة وظيفه متوارثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وتنتقل في عقبهم وذرائعهم ولا ينزعها منهم إلا ظالم كما يزعمون ، ولم تكن لتتزع من أسرة إلا ليعهد بها إلى أسرة أخرى .

كما وقع للشریف عون الرفیق حين نزع خدمة ضريح خديجة رضي الله عنها من الشيخ عبد الله باروم ، وأنعم به على غيره . فما كان من المذكور إلا أن سافر يتشكى إلى حكام الأستانة حيث تحقق له ما أراد ، وذلك بعد أن مات الشریف عون . وظل في خدمة الضريح المذكور حتى وفاته^(٢) .

(١) عجائب الآثار ٤٢/٣ .

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ٢٤٣/٢ الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير . اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي . أحمد علي . من مطبوعات نادي الطائف الأدبي . الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ . ١٩٧٨ م .

وكثيراً ما تقرأ في تراجم العلماء أن أحدهم كان متولياً على خدمة الضريح الفلاني ، فهذا الشيخ علي قدسي (المتوفى سنة ١٢٩٥هـ) ، ابن مفتى الشافعية كان ناظراً لأوقاف زاوية علي البدوي في شعب عامر وخادماً لضريح الشيخ العادلي بمحلة الشامية ، وأن هاتين الوظيفتين كانتا في بيتهم يتوارثونها خلفاً عن سلف^(١) .

أما الضريح المنسوب إلى موسى الكلیم عليه السلام فيقوم على خدمته بيت الحسيني من قديم . والمعروف أن في بيتهم الإفتاء أيضاً^(٢) .

وربما تولى سدانة الضريح واحد من ذرية الميت كما وقع لضريح الشيخ عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة ١١٤٣هـ)^(٣) . «حيث يشرف عليه أحد أحفاده»^(٤) .

ولضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني حيث كان يقوم عليه الشيخ سليمان الجيلي أحد ذريته^(٥) .

وكان سادن الضريح في الغالب من الأعيان المرموقين .

ويقول القاياتي الذي ذهب إلى زيارة ضريح السلطان إبراهيم بن أدهم كما كانوا يطلقون عليه في مكان يدعى جبلة بالقرب من اللاذقية : «ولقد زارنا من أهل جبلة حضرة مفتى أفندي الشيخ طه من وجهاء البلد وأعيانها المعتبرين وله شهرة بالسخاء والفتوة ، وهو ناظر وقف السلطان إبراهيم

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٢٢ .

(٢) نفحة البشام ص ٩٥ .

(٣) الأعلام ٤/ ٣٢ .

(٤) نفحة البشام ص ١٣٤ .

(٥) الرحلة الحجازية ٢/ ٢١٩ .

الذي يدير حركة الضريح والمسجد والحرم»^(١) .

والشيخ سليمان الجيلي الذي مرّ ذكره آنفاً ، كان نقيباً للأشراف في بغداد^(٢) .

وقد كان لتلك الأضرحة أوقاف كثيرة تدر عليها وعلى سدنتها الأموال الوفيرة ، هذا غير العطايا الجزيلة والهدايا الثمينة والنذور التي تقدم إليها من قبل المولعين بها تقريباً إلى أصحابها^(٣) .

وحسبنا على ذلك أن نعلم أن ما كان يصل إلى ضريح الجيلاني في السنة من أموال الزائرين يفوق ما كانت تصرفه الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين في السنة الواحدة بأضعاف مضاعفة . وأن ما كان يدخل عليه من أوقافه يفوق ذلك أيضاً .

يقول السنوسي : «بلغني عن الشريف المشير الشيخ السيد سليمان الجيلي أحد ذرية الشيخ عبد القادر نقيب الأشراف ونقيب زاوية جده ببغداد أنه لما قدم إلى الحج منذ ثلاثة أعوام ، وقد بلغت قيمة ما أهده السلطان من الخيل والمجوهرات إلى المليونين فرنكاً ، وكان مع الركب فسأل أمين الصرة عن مبلغ مصاريف الدولة العلية على الحرمين الشريفين ، ولما علمه استصغره جداً وقال له : إن خطباء المسلمين في جميع الدنيا ينادون بأن

(١) نفحة البشام ص ٧٠ .

(٢) الرحلة الحجازية ٢/ ٢١٩ .

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «والكسب الذي يكسب بمثل ذلك خبيث من جنس كسب الذين يكذبون على الله ورسوله يأخذون على ذلك جعلاً ، ومن جنس كسب سدنة الأصنام الذين يأمرون بالشرك يأخذون على ذلك جعلاً . فإن هذه الأمور من جملة ما نهى عنه من أسباب الشرك ودواعيه وأجزائه . مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٠٩ .

السلطان خادم الحرمين الشريفين ، وهذا المبلغ اذا اعتبرنا منه مصاريف
الركب ، ونظرنا لخصوص ما ينال أهالي الحرمين مع كون أوقاف المسلمين
على الحرمين من الممالك العثمانية بيد نظارة الأوقاف لا نجد فيه نسبة معتبرة .
وأنا بموجب نظارتي على زاوية جدي في بغداد يصلني كل سنة من زيارات
أهل الأقطار مبلغ أكثر مما يصل للحرمين من الدولة فضلاً عن مداخيل وقف
الزاوية في سائر الجهات وهي أيضاً في نفسها أكثر من هذا المبلغ تصل إلى
النقباء والعلماء والمجاورين وتصرف في الإيقاد والتحصيل^(١) والإطعام العام
على مر الأيام^(٢) .

ويتحدث محمد سليم الجندي (المتوفى سنة ١٣٧٥ هـ)^(٣) ، عن المقام
المنسوب إلى يوشع عليه السلام في معرة النعمان فيقول : «ولهذا المسجد
أوقاف كثيرة ، كان يتفق عليه من ريعها ثم أصبحت نهباً مقسماً بين المتولين
والتغلبين ، فلم يبق إلا النزر اليسير منها . . .» .

وذكر أكثر من خمسين وقفاً منها بساتين وحقول وأراض ومزارع^(٤) ،
وهذا النزر اليسير فكيف بالكثير الذي نهب !!؟ وقد ذكر الجبرتي عن سدنة
الأضرحة أنهم أغنى الناس^(٥) .

وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء
القباب عليها وصرفوا جهودهم وأموالهم ، وشغلوا عقولهم وقلوبهم بتلك

(١) التحصيل فرش الحصر جمع حصير .

(٢) الرحلة الحجازية ٢/ ٢١٩ .

(٣) الأعلام ٦/ ١٤٨ .

(٤) تاريخ معرة النعمان ١/ ٣٦٠ .

(٥) عجائب الآثار ٣/ ٤٢٦ .

الأعمال التي لا طائل من ورائها إلا وقوع الشرك وفشو المنكرات ، وإضاعة الأعمار والأوقات .

وكان كل ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم وتوفير وسائل العيش الكريم لهم ، وتقوية الأمة التي كان أعداؤها في الخارج يتربصون بها الدوائر .

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله : «وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبلسية^(١) تكاثرت الأوقاف على القبور ، وبلغت مبلغاً عظيماً، حتى بلغت غلات ما يوقف على المشهورين منهم ما لو اجتمعت أوقافه لبلغ ما يقتات به أهل قرية كبيرة من قرى المسلمين ، ولو بيعت تلك الحبايس الباطلة لأغنى الله بها طائفة عظيمة من الفقراء ، وكلها من النذر في معصية الله»^(٢) .

وكان التعلق بآثار الأنبياء والصالحين ، والتفتيش عنها، وتصديق كل ما ينسب إليهم من آثار سمة بارزة من سمات تلك الفترة التي نقوم بدراستها .

«ففي جامع الكريمة في حلب رخامة صفراء في الجدار بارزة السطح ، في وسطها حجر فيه صورة قدم غائص يقولون إنه أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام فيزار ويتبرك الناس به وينقلون عنه الكرامات ، وكان قد سرقه أحد الأعاجم من أحد بيوت مكة المكرمة بقصد أن يضعه في أحد جوامع بلده لتحرز شرفاً جديداً ! . فأخذ منه ووضع في ذلك الجامع^(٣) .

(١) يعني بذلك البناء على القبور وإيقاد السرج فيها وتخصيصها .

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور . نقلاً عن الجامع الفريد ص ٥٢٨ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٩٨/٢ .

وفي حمام الواساني في حلب ، جرن^(١) أسود يذكر أن الخليل عليه السلام اغتسل منه ولم يزل هذا الأمر مشهوراً حتى الآن ، وهو حمام مبارك يدخله الناس للتبرك بآثار الخليل عليه السلام ويحصل لهم الشفاء من أمراضهم خصوصاً النساء^(٢) .

«وفي حلب كان يوجد مشهد الخليل عليه السلام فيه قدم من الحجر ينسب إليه يعرف بمقام إبراهيم»^(٣) .

وهناك مزار بفلسطين يعرف بمحل حزن يعقوب^(٤) ، ولم يبق على هؤلاء الجهال إلا أن يقولوا : هذا المحل الذي أكل الذئب فيه يوسف عليه السلام . وفي الأستانة في سراية طولغيو ، يوجد ما يسمى بالآثار النبوية ومحلها من أعظم المزارات هناك ، يخرج لها السلطان في خاصة رجاله ليلة السابع والعشرين من رمضان كل سنة فيتبرك بمشاهدتها ويبيح التبرك بها بقية أيام الشهر^(٥) .

وفي كشمير يوجد في إحدى المدن هناك مسجد يعرف بمسجد «حضرة بال»^(٦) يعتقد أنه فيه شعيرات من شعر النبي ﷺ ، وفي إحدى المرات عام ١٩٦٣م اختفت تلك الشعرات فثار المسلمون ثورة عارمة وقاموا بمظاهرات متصلة .

(١) قال في مختار الصحاح : الجرن (بتسكين الراء) والجرين موضع التمر الذي يجفف فيه ، ص ٤٣ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ١٩٧/٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٦٨/٢ .

(٤) نفحة البشام ص ١٠٣ .

(٥) الرحلة الحجازية ٧٥/٢ محمد السنوسي .

(٦) بال : معناه شعر ، واسم المسجد منسوب إلى الشعرة . والمعنى مسجد حضرة الشعرة .

ولم تهدأ الأمور في كشمير إلا بعد إعادة تلك الشعرات إلى مكانها ،
حيث وجدت الشعرات في نفس صندوقها موضوعاً في مكانه بمسجد
«حضرة بال»^(١) .

وفي صحن الجامع الأموي بحلب ثلاث درجات الشانية منها
محزوزة^(٢) ، من جنوبيها إلى شماليها حزاً مستقيماً متى بلغت الشمس أذن
الظهر . قيل إن الخضر عليه السلام هو الذي حزها ، والصحيح أن الذي
حزها هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي الميقاتي^(٣) .

وفي مكة المكرمة كثير من الآثار التي يتبرك بها الحجاج كل عام ؛ فمن
ذلك غار حراء في جبل النور ، وغار ثور ، وبيت المولد النبوي كما
يقولون .

وفي الجبل الشمالي من منى توجد مغارة ، يقولون : إن إبراهيم عليه
السلام سكن فيها مع هاجر ، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر في جوف
الجبل ومن خارجها مصلى في مكان يقولون عنه إنه مذبح إسماعيل ،
وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل ، فيها فلح^(٤) كبير يزعمون أن تلك
السكين التي أراد أن يذبح بها إبراهيم ولده ، فلتت من يده رحمه للذبيح

(١) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص ١٥٢ وفي أيامنا هذه من شهر جمادى الأول من
عام ١٤١٤ هـ فرضت القوات الهندية حصاراً على المسجد نفسه حيث قيل : إن مجموعة من
المجاهدين الكشميريين اعتصموا به . ولعل السر في اعتصامهم به دون غيره علمهم أن
السلطات الهندية لا تقدم على نفسه ، لما له من قدسية واهتمام عند الناس هناك . وقد
استسلموا بعد مضي شهر من الحصار .

(٢) محزوزة : أي مقطوعة . انظر مختار الصحاح ص ٥٦ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/ ٢٥١ .

(٤) الفلح : هو الشق أو القطع . انظر مختار الصحاح ص ٢١٤ .

فغاصت في هذا الصخر ففلحته على ما ترى وهذا الاعتقاد باق بمكة إلى يومنا هذا! (١) .

ولا يكاد يوجد بلد من البلدان يخلو من بعض هذه الآثار المزعومة ، وما أسهل أن يقوم أحد الدجالين فيزعم أنه رأى في منامه أن الأثر الفلاني للنبي فلان ؛ فيصبح ما ادعاه أثراً مقدساً يتبرك به الجهال ، ويتعاهدون الحفاظ عليه جيلاً بعد جيل .

لقد كان هذا حال جميع الأقطار الإسلامية ، تتنافس فيما بينها على إحداث الأضرحة والقباب والمشاهد ، وتتسابق إلى تعظيمها وتقديسها .

وأصبحت حياة الناس مرتبطة أشد الارتباط بهذه الأضرحة والقبور ، وامتألت بحبها جوانحهم ، وشغفت بها قلوبهم ، فهم يلجئون إليها في الشدائد والملمات ، ويلتمسون منها أسباب النصر ودحر الأعداء ، ويطلبون منها الرزق والولد والشفاء من الأمراض ويتحرون الدعاء في رحابها ، ويرون أنه مستجاب لا يرد .

ويرد إليها المظلومون والمضطهدون لعلها تكشف ما بهم ، وتكف أيدي الظالمين عنهم ، ويأوي إليها الفقراء والمحاويج ليعيشوا في كنفها وعلى ريع أوقافها ، وما يقدم لها من نذور وقرابين ، ويفر إليها العصاة والمجرمون فيعتصمون بها ، ويلوذ بها الخائفون فلا يلحقهم أذى ولا تمتد إليهم يد ما داموا في حرمها الآمن .

ويزورونها في المناسبات والأعياد، وتكون آخر عهدهم إذا ودعوا

(١) الرحلة الحجازية ص ١٩٦ محمد ليبب البتوني .

الأهل والبلدان ، وأول شيء يبدأون به إذا عادوا إلى أوطانهم ، أو نزلوا في بلد غريب ، وكثيراً ما تتحرك الجيوش من رحابها بعد أن تطلب من أربابها أن تمنحهم أسباب الفوز والظفر .

وإذا رزق أحدهم بمولود فسرعان ما يحمله إليها لتبارك في عمره ورزقه ، ومن كان عقيماً سأل منها الولد ، ومن كانت عانساً رجت منها بعلاً .

«ولا تكاد تخلو قرية من إله صغير يقدم الناس له ولأتباعه الذبائح ويقسم به الأطفال ، وتقام له الموالد ، وهناك آلهة أكبر يمكن أن تعتبر آلهة مناطق ، ومقرها المدن ، وتلك يهرع لها إذا تعذر على الإله الصغير أن يحقق الآمال ، ويمضي الزمن ولا يحقق هذا ولا ذاك أملاً ولكن الناس في غيهم سادرون»^(١) .

ومن هنا كانت هذه الأضرحة أكبر الصوارف عن رسالة المسجد الحقيقية التي كانت تؤدي في عهود المسلمين الأولى على خير وجه ، بل زاد الأمر على ذلك حين غدت هذه الأضرحة آلهة من دون الله يصرف لها كثير من العبادات ، وأصبحت هي الدين عند الناس ، وقل من خرج من دائرتهم أو أنكر عليهم .

ثانياً : الاستغاثة والاستعانة بأصحاب هذه الأضرحة في الشدائد والأزمات ودعاؤهم من دون الله عز وجل :

يذكر أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة بالسلطة السنارية في السودان قصة مفادها أن جارية قتلت سيدها بقبة الشيخ خوجلي ، فسجن أولاد خوجلي وضربوا وتوعدوا بالقتل لاتهمهم بقتل المذكور ، فما كان من الشيخ

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٣٨ د/ أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٧ م .

إبراهيم عبد الدامغ^(١) ، وهو من المعتقدين في الشيخ خوجلي والمحبين لأولاده إلا أن هرع إلى ضريح الشيخ خوجلي وأنشد قصيدة تربو على الثلاثين بيتاً يتوسل فيها بالشيخ خوجلي والصالحين من قبله ، ويستغيث بهم ويستعين بهم في دفع الضيم الذي لحق بأولاد الشيخ خوجلي وتبرئة ساحتهم والاقتصاص ممن ظلمهم . يقول ذلك الشيخ :

اليوم يا خوجلي يا غوث من ذعرا	أبناؤك الغر من بين الورى أسرا
سموا الصوصاً وقالوا إنهم قتلوا	نزيلهم في جوار الناس والفقرا
وأبطنت شرهم كل الطوائف من	ذوي الصدور وأهل الرأي والأمرا
والأمر أشكل والآراء قد عميت	عما يقال ولا شخص لهم عذرا
وقد عهدناك طوداً يستغاث به	لدى الشدائد والأمر الذي عسرا
كم مرة صاح محزون فكنت له	في الحال خير مغيث عندما قهرا
وكم أذاك كئيب القلب في نوب	أعيت فجاء له النصر الذي انتظرا
وكم أجبت بقفر الأرض منقطعاً	عن الرفاق وكنت العون والوزرا
إن لم تكن ناصراً أبناء صلبك من	يرجوك تنجده في الدهر إن عثرا
لك العناية من رب العباد فقم	مشمر الساق في تبيان من غدرا
والشبل في الغيل إن ضبع له عرضا	قامت لنصرته في الحين أسد شرا
والعرب كانوا إذا جار بهم نزلا	حموه بالرمح والسيف الذي شهرا
وبين أربعكم بل عند مسجدكم	ذل الجوار وحقاً عهدكم خفرا
وضيفكم لعبت فيه المدى وغدا	رهين رمس فهلا سركم ظهرا

(١) الدامغ ليس من أسماء الله تعالى .

لا غرو إن لم تقم في الحال معتقلا
 ولا يزار بعيد اليوم قبرك إن
 والخطب قد عم والأبناء قد سجنوا
 ألا إغاثة قطب الوقت تنجدهم
 ألا الذين هم في العد أربعة
 ألا من البدلا تأتي إغاثتهم
 ألا الأئمة سلوا غضب غارتهم
 ألا الأولى عددوا من بعدهم ظهوروا
 ألا سر بهم يسري بعسكره
 ألا الجنيد ألا الجيلاني ينصرهم
 ألا الرفاعي ألا المشهور سيدنا
 ألا من الشاذلي نصر يبين لنا
 ألا أبو مدين يأتي على عجل
 أما إلى الحاتمي سيف يصول به
 ألا رجال لنصر القوم ينتدبوا
 عسى بجاه أولاك القوم ينقذهم
 ندعوه بالمصطفى والآل أجمعهم
 أن لا يرى ضدنا ما قد يسر به
 وصل ربي على المختار ما طلعت

سهم الإصابة في نحر الذي فجرا
 ونيت عن هذه جزماً بغير مرا
 ألا غياث للمهوف غدا حذرا
 ألا الإمامان أعني صحبة الوزرا
 أهل الولاية والسر الذي بهرا
 ألا من العشر سيف النصر قد شهرا
 ألا معين ألا من قام وانتصرا
 بالانتصار ألا معروفهم حضرا
 ضرب الإله الذي نالوا به ظفرا
 ألا الدسوقي ألا المتبولي منه قرا
 أبو اللثام الذي كم فك من أسرا
 ألا لمرسيهم أسياف من قهرا
 ألا من الغرب أبطال من النصرا
 ألا من الشرق أعلام من الكبرا
 من الذين هم قد سרمدوا سحررا
 رب العباد بلطف يعجز النصرا
 وأهل بدر ومن آوى ومن نصرا
 ولا نرى دهرنا في عمرنا كدرا
 شمس النهار وما بدر السماء بدى

ثم يعقب كاتب الشونة على ذلك بقوله : «وقد حصلت بركة الجميع فأنطق الله الجارية ، وأقرت بقتل سيدها ، وقتلت به ، وأنقذ الله ذرية الشيخ خوجلي ببركة أبيهم . نفعا الله به وبجميع من ذكر فيها ومن لم يذكر من الأولياء»^(١) .

وهكذا حشيت هذه القصيدة بعشرات من التوسلات الشركية والاستغاثات الكفرية وطلب المدد والنصر والعون من غير الله تعالى ، من أناس يعتقد فيهم ذلك الشاعر الجاهل ، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً حتى يتعدوا بالنفع إلى غيرهم .

وهذا الشيخ محمد بن عبد الجواد القاياتي كان من جملة المنفيين إلى الشام بعد القضاء على الثورة العراقية^(٢) واحتلال الإنجليز الصليبيين لأرض مصر الكنانة وخيانة الخديوي توفيق لدينه وأمانته ؛ فكان طيلة مقامه هناك يزور الأضرحة ويستغيث بأصحابها ويستشفع بهم في كشف كربته .

يقول محمد القاياتي بعد أن زار الضريح المنسوب إلى إبراهيم بن أدهم في بلدة جيلة بقرب اللاذقية : «ولقد أنشأ الفقير قصيدة استغائية وشكوى حال واقعية وجعلتها في صورة عرض حال»^(٣) بسبب ما وقع لنا من الغربة والارتحال ، وقدمته لجنابه ، وألقيتها في رحابه ، متوسلاً إلى الله بكل أحبابه ، ومفاتيح أبوابه :

(١) تاريخ السلطنة السنارية ص ١٠٧-١٠٩ . أحمد بن الحجاج أبو علي كاتب الشونة . دار إحياء الكتب . ط ١٩٦١ م .

(٢) نسبة إلى قائدها أحمد عرابي ، المذكور سابقاً .

(٣) عرض الحال هو المعروض في لغتنا الدارجة اليوم .

جئت والوقت بالكارم أظلم
مأمل الآملين في كل خير
معدن الجود في الوجود فزره
حرم الأمن كعبة اليمن لكن
قطب غوث يغيث من حل فيه
ما أتى حيه طريد خطوب
بحر فضل يعم فيض عطاه
جئت في حالة افتقار وذل
وفؤادي على الضريح ينادي
مسنى الضر من عوادي الزمان
من مجيري إن جار دهري جهاداً
فالتفت سيدي لعبد ذليل
رد عنه كيد الزمان ودارك
يا إمام العلوم أنجد مريداً
قد عرضنا عليه قصة حال
جئت ضيفاً في حيكم ونزيلاً
أنت باب للفتح والمنح حقاً

أبتغي العون من جناب ابن أدهم
ملجأ الخائفين إن أفرط الهم
فحماء لكل مغنى ومغنى
بيته للوفود غير محرم
ويحل المقود ما لم يحتم
يشتكيها إلا وأجلى وأنعم
كل راج لذلك اليم يم
وانكسار والله بالحال أعلم
مال هذا الجريح غيرك مرهم
وقد الحجر في الضمير وأخرم
واجترى عادياً علي وأجرم
وتعطف واسمع له وتكرم
أرض مصر^(١) فالكرب فيها تجسم
هو بالحب في جنابك مفرم
ثم ننهي في الحال عما تقدم
زائراً ذلك المقام المعظم
والنوال العميم منك لقد عم

(١) قاتل الله أمثال هؤلاء القبوريين، وهل أضاع أرض مصر وغيرها من بلاد المسلمين إلا هؤلاء الجهال بشرهم وجهلهم وجوئهم إلى أصحاب الأضرحة والقبور لطلب الانتصار والعون وما دام الأمر هكذا عند أولئك الجهال فلا ضير عليهم أن يتكلموا عن الحرب، ويتزوا على أنفسهم ويتقاعسوا عن الجهاد واسترداد الأوطان ما دام أن لهم من دون الله أرباباً في كل قطر تحت أطباق الثرى يهرعون إليهم ويلجئون إليهم إذا اشتدت الخطوب فيقومون بدحر المعتدين وطرد المحتلين.

فتحنن يا ابن الكرام علينا
شد يا ابن أدهم الرجال عليهم
واعترضهم إن جئت عارض رمح
عظم الكرب والبلاء علينا
فالنزال النزال وأجلب عليهم
بشرتني بشائر الظن فيكم
فتعطف يا قطب وارحم وادفع
عن نزيل وقل مرادك تم^(١)
وأبدهم بجيش سر عرمرم^(٢)
ونسيم القبول لما تبسم
عن نزيل وقل مرادك تم^(٣)

هذه صورة من مئات بل من آلاف الصور المزرية التي كان يوج بها العالم الإسلامي من انتشار مظاهر الشرك ، ووقوع السواد الأعظم في كثير منها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولعل هذه الصورة وما شابهها تفسر لنا شيئا من السقوط السحيق والواقع الأليم الذي عاشته أمتنا الإسلامية وما تزال تعيشه .

وذلك حين كان يدهم الأمة عدو أو ينزل بها خطب فلا تستعد كما يجب إن هي استعدت أصلاً لأن عندها من الأرباب ما لم يخل منهم قطر ولا مصر ، فإذا دهمهم خطر فسرعان ما يهرع كل أهل بلد إلى مربوبهم (مقبورهم) الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فيلوذون به ويستغيثون بجنابه ويصرخون ويتمرغون ببابه راجين منه دفع الخطر وحصول الظفر ، معتقدين أنهم قد أخذوا بأعظم الأسباب ، وطرقوا أنفع الوسائل .

(١) وهل هناك أعظم من الذل والانكسار الذي يقوم به مثل هذا الرجل على عتبة ذلك الضريح .

(٢) الجيش العرمرم : هو الجيش الكبير . انظر مختار الصحاح ص ١٨٠ .

(٣) نفحة البشام ص ٦٦-٦٨ .

فهذا القاياتي الذي عاش مرارة الهزيمة وتمكن الكفار من بلاد المسلمين ، ثم نفى إلى بلاد الشام وبقي فيها مشرداً كان يطلب من أصحاب الأضرحة نصر الأمة وكشف الغمة وإنهاء الغربة ، وقد رأينا في قصيدته التي حشاها بالفاظ الشرك الأكبر كيف عقد آماله على أعتاب ذلك الضريح ليتدارك صاحبه أرض مصر ويقوم بطرد المحتلين بجيش عرمرم .

وكان الواجب على مثل القاياتي وهو محدود في زمرة العلماء في ذلك الزمن أن يلجأ إلى الله وحده ، ويطلب العون والمدد والنصر منه وحده دون غيره ، وكان الأجدر به وهو يجوب بلاد الشام لزيارة الأضرحة أن يحث الناس هناك على الجهاد ضد المحتلين الصليبيين بدلاً من التذلل والانكسار بين عتبات الأضرحة وتراب القبور .

وقد ذكر الجبرتي حادثة قال عنها إنها جزئية من جملة الجزئيات ولكنها تدل على ظاهرة عامة ، وهي اتكال الناس على الأضرحة في نصرهم ودفع عدوهم ، وملخص الحادثة أن رجلاً صيرفياً قال : إن السيد أحمد البدوي بالشرق والسيد إبراهيم الدسوقي في الغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى ، وكان ذلك زمن الحملة الفرنسية على مصر فبلغ الفرنسيين ذلك فسجنوه ثم أطلق بعد أن ضرب مائة سوط^(١) .

وذكر الشيخ رشيد رضا أنه عندما زحفت روسيا على مدينة بخارى فزع الناس إلى الاستغاثة بحامي بخارى ، كما يسميه أهلها ، شاه نقشبند^(٢) . فلم يغن عنهم شيئاً .

(١) عجائب الآثار ٢/ ٢١٢ .

(٢) المنار ١/ ٤١٥ .

وهذا محمد السنوسي حين كان راكباً في البحر ، وهاجت الرياح ، وتلاطمت الأمواج حتى كادت السفينة أن تغرق ، أخذ يستجير كما يقول بكل ما يستحضره من الأولياء كي يكشفوا كربته ، ويذكر أنه رأى ثلاثة من كبار الأولياء زاروه في منامه ، وأخبروه بسلامتهم ووصولهم إلى البر آمنين وكان منهم عبد القادر الجيلاني ، فأنشأ هذه الأبيات :

من ضاق عنه لأمر مسلك الحيل فماله غير عبد القادر الجيلي
فهو السريع لما يدعى إليه إذا ضاق الخناق على من ضل في السبل
فناد باسمه فيما عز مدركه تلق العناية قد جاءتك بالأمل
غوث يغيث الذي يدعوه متصراً بغاية الحزم إذ يأتيه عن عجل^(١)
إلى آخر قصيدته التي طفحت بالشرك وفاضت بالكفر .

وهذا الشيخ أمين بن محمد الجندي الحمصي الشافعي (المتوفى سنة ١٢٥٦هـ) ، لما قبض عليه عامل حمص وحبسه بإسطبل الدواب ، حين أخبر أنه هُجَا السلطان محمود خان^(٢) ، فبدلاً من أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ويسأله أن يكشف كربته ، أخذ ينظم قصيدة طويلة ، يستغيث بالنبي ﷺ ويتوسل به نذكر منها :

توسلت بالمختار أرجى الوسائل نبي لمثلي خير كاف وكافل
دعوتك يا الله مستشفعاً به فكن منجدي يا منتهى كل أمل

(١) الرحلة الحجازية ٨٥ / ٣ .

(٢) هو السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول زعيم حركة التغريب في تركيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله في الباب الثاني . ولعل سياسته تلك هي التي جعلت من الجندي يهجو ، ووقعت الأمة في تلك الفترة بين جماهير القبوريين وقيادات التغريبيين . فالله المستعان .

سألتك كشف الضر عني بجاهه
 فإني بطه مستغيث وراغب
 وإخوانه الرسل الكرام جميعهم
 وبالخلفاء الراشدين وآله
 وحاشاك أن لا تستجيب لسائل
 إلى الله فهو الغوث في كل هائل
 وباقي النبيين البدور الكوامل
 وأصحابه الغر الثقات الأمثال
 إلى آخر قصيدته تلك .

وفي اليوم الرابع من حبسه دخل سليم بن باكير الدنادشة ، أحد العربان ،
 حمص قهراً ومعه مائتا فارس ، فقتلوا العامل المذكور شر قتلة وخرج الجندي
 من الحبس وفرج الله عنه ببركة النبي ﷺ كما يقول البيطار^(١) .

ولما وقعت فتنة في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام
 بادر الشيخ حسين بن علي بن عبد الكريم الأنصاري المدني (المتوفى بعد سنة
 ١٢٠٠هـ) إلى قبر الرسول ﷺ بقصيدة : «أنشأها متوجعاً باكياً ولحضره
 صاحب الرسالة شاكياً» :

أخي إذا ما جئت في سوح أحمدا
 وناد وقل يا سيد الرسل نجدة
 لقد طال هذا الكرب واشتد عسره
 وكدر وجه الدهر بعد ابتهاجه
 تضرع له وامدد إلى نحوه يدا
 تفرج عنا ما أقام وأقعدا
 وشتت جيش الصبر طراً^(٢) وبددا
 ونغص عيش المؤمنين ونكدا
 إلى أن قال :

فيا سيد الكونين صار الذي ترى
 ويا كهف من يلوي عناناً ببابه
 من الحزن والكرب الذي قد تردد
 ويا خير من نودي سريعاً فأنجدا

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١/ ٣٣١ .

(٢) طراً : بضم الطاء يعني : جميعاً . انظر مختار الصحاح ص ١٦٤ .

تلاطم بحر الكرب واشتد موجهه على أهل حق بالجوّار تأكدا
 عسى نظرة منكم تؤلف بينهم ليصبح سيف الدين في الكفر مغمدا^(١)
 وصدق الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حين قال :
 «أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء
 ويخلصون في الشدة ، ومشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة .
 والدليل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
 نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ^(٢) .

وقد كان هؤلاء القبوريون يحثون غيرهم على زيارة الأضرحة
 والانكسار على أعتابها والتذلل لأصحابها وطلب الحاجات منهم وينشدون
 الأشعار في ذلك .

«يقول الشيخ يوسف بن عمر البشتاوي مستغنياً بيحيى الحصور عليه السلام ^(٣) :

باكر مصلى بني أمية في الدجا	واعطف على كنز السماحة معرجا
وارقب مهب الجود من أعتابه	والزم لذيالك المقام أخا الحجا
يم وقف متضرعاً بجنابه	وابسط أكف الفقر في باب الرجا
وادعوه يا يحيى الحصور وقل له	عظفاً على حان إليك قد التجا
ياسيداً وصف الإله كماله	في محكم التنزيل أضحي مدرجا
ذو الجاه يرجى في الخطوب ولم يزل	عند الشدائد مسعفاً ومفرجا
إني رجوتك حاجة فاشفع بها	عند الكريم ومن رجاك فقد نجا

(١) حلية البشر ٥٥٧/١ .

(٢) عقيدة الموحدين ص ١١٩ وهي القاعدة الرابعة من القواعد الأربع التي ذكرها الشيخ رحمه الله .

(٣) عند زيارة الضريح المنسوب إليه في جامع بني أمية الكبير في دمشق .

عجل بها يا ابن الكرام أجب أجب فالأمر ألبأ للجاج وأحوجا
سل خالقي فيما رجوت إجابة واسأله لي من كل ضيق مخرجاً^(١)
ويقول الشيخ أمين الجندي الحمصي حينما دخل المقام المنسوب إلى
يوشع عليه السلام في المعرة :

قلبي لشمس جمال حسنك مطلع أفهل يرى فيه لغيرك موضع
ما لي إليك وسيلة في نيل ما أملتـه إلا نبـيك يوشع
كهف به أهل المعرة قد نجوا من هول كل معرة تتوقع^(٢)

فقد كان يعتقد القبوريون أن البلاء والشر يندفع عنهم بفضل هؤلاء
المدفونين عندهم كما يقول الجندي ، وأن الخير والرخاء يجلب إليهم بواسطة
هذه الأضرحة ، وأنهم ينصرون ويدفعون الأعداء ببركتها ، « وكانت كل
مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء ، فهو الذي يحميها من
العين ومن الغارات ومن نكبات الطبيعة ، ومن طمع الطامعين »^(٣) .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام رائع وموفق في الرد
على هذا الاعتقاد الخاطيء ، الذي لم تزل الأمة تجني ثمرته المرة بوقوعها لقمة
سائغة للأعداء المتكالبين عليها من كل مكان ، وفريسة سهلة للجهل
والتخلف والمرض والفقر ، آثرنا لأهميته أن ننقل طرفاً كبيراً منه يقول
رحمه الله :

(١) حلية البشر ٣/١٦٠٧ .

(٢) تاريخ معرة النعمان ١/٣٥٦ .

(٣) تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري ١/٢٦٢ د . أبو القاسم
سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٨١ .

«وأما ما يظنه بعض الناس من أن البلاء يندفع عن أهل بلد أو إقليم بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين ، كما يظن بعض الناس أنه يندفع عن أهل بغداد البلاء لقبور ثلاثة : أحمد بن حنبل ، وبشر الحافي ، ومنصور ابن عمار ، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الأنبياء الخليل وغيره عليهم السلام ، وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها ، أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي ﷺ وأهل البقيع أو غيرهم .

فكل هذا غلو مخالف لدين الإسلام ، مخالف للكتاب والسنة والاجماع ؛ فالييت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله ، فلما عصوا الأنبياء وخالفوا ما أمر الله به ورسله ، سلط عليهم من انتقم منهم . . . وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره فمن خالف أمر الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئاً .

وكان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان ، على أفضل أمور الدنيا والآخرة لتمسكهم بطاعة الرسول ، ثم تغيروا بعض التغير بقتل عثمان رضي الله عنه ، وخرجت الخلافة النبوية من عندهم وصاروا رعية لغيرهم ، ثم تغيروا بعض التغير فجرى عليهم عام الحرة من القتل والنهب وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم من قبل ، والذي فعل بهم ذلك وإن كان ظالماً معتدياً فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنِى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وقد

كان النبي ﷺ والسابقون الأولون مدفونين في المدينة .

وكذلك الشام كانوا في أول الإسلام في سعادة الدنيا والدين ، ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم ، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل وفتحوا البناء الذي كان عليه وجعلوه كنيسة ، ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم»^(١) .

ومع انتشار الأضرحة بالآلاف في أرجاء العالم الإسلامي انتشر الشرك الأكبر ، وتعددت مظاهره ، ووقع غالب الناس في وهدة ولم يكذب ينجو منه إلا القليل .

فعند القبر المنسوب إلى هود في حضرموت يحدث من الشرك الأكبر ما يعجز القلم عن وصفه ؛ شأنه في ذلك شأن كل الأضرحة في البلاد الأخرى . «وقد بلغ في تقديس هذا الضريح ، فتراهم يشدون الرحال لزيارته وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للآلات والعزى يستعينون به ويتجهون إليه ، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات واستئزال البركات ودفع الكربات»^(٢) .

وفي المخلاف السليماني كان الناس يعتقدون في مقبور عندهم يسمى أبو سبعة ، يطلبون منه ما يطلب العبد من الرب من الاستغاثة والتوكل^(٣) .

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٣٥-٤٣٧ .

(٢) تاريخ حضرموت السياسي ص ٥٣ .

(٣) نفح العود في سيرة دول الشريف حمود ص ٩٤ للشيخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي .
دار الملك عبد العزيز . تحقيق محمد أحمد العقيلي - الرياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

وعند قبر ابن عربي في دمشق يمارس القبوريون شتى ألوان الشرك الأكبر .
يقول أحد الزائرين لدمشق : «لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق
فوجدت فثاماً من الناس يغدون إليه ويروحون . . وجدتهم يطوفون حوله
ويتوسلون به ، ويعلنون دعاءهم له من دون الله . . وجدت المرأة تضع خدها
على شبك الضريح وتمرغه وتنادي : اغثني يا محيي الدين . . وجدت
الصبايا البريئات يجئن إليه ، ويمددن أمامه الأكف ويمسحن الوجوه
ويخشعن ويتضرعن»^(١) .

وفي الهند يوجد كما ذكرنا سابقاً أكثر من مائة وخمسين ضريحاً اتخذ
الناس أصحابها أرباباً من دون الله عز وجل .

ومن هذه الأضرحة ضريح الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني^(٢) «وهو من
الأضرحة العظيمة ومن أبنية الملوك والأمراء وزادوا فيه وقتاً بعد وقت ،
وأصبح قبره مرجع الخلائق في العصر الأخير ، ويطوفون حوله ويعملون
ويصنعون على قبره جميع الأعمال اللائقة بالمعبود كالسجود والندور وما
أشبه ذلك»^(٣) .

وضريح الشيخ علي الهجوري في لاهور في باكستان وهو من القبور
العظيمة ، «والناس يزورونه كل سنة بل كل يوم ، ويطوفون حوله ويسجدون
له ، ويقدمون الندور ويستغيثون به ويطلبون العون والممدد . .»^(٤) وعشرات
من الأضرحة غيرهما .

(١) شهر في دمشق ص ٦٤-٦٥ .

(٢) نسبة إلى بلدة ملتان في الهند .

(٣) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٧ .

وفي طنطا بمصر يريض الشرك الأكبر في الجامع الأحمدى المنسوب إلى ضريح المدعو بالسيد أحمد البدوي ، يقول الشيخ جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ^(١) حين قام بزيارة مصر سنة ١٣٢١ هـ : «ولما وصلنا طنطا . . . وأدنا الظهر والعصر والمغرب والعشاء في الجامع الأحمدى ، وشاهدنا الغلو في الزيارة الأحمدية ، كالسجود على عتبة الضريح ، والتمسح بقفصه^(٢) ، مما لا يختلف الفقهاء من أرباب المذاهب على منعه وحظره ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣) .

وفي القاهرة توجد الأضرحة الكبيرة التى تعبد من دون الله عز وجل ؛ كضريح الحسين المنسوب إليه ، وضريح الامام الشافعى وضريح الليث بن سعد وغيرها وضريح الست نفيسة^(٤) ، وللمصريين فيها اعتقاد عظيم من قديم .

(١) حلية البشر ١/٤٣٦ ، الأعلام ٢/١٣٥ .

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأما التمسح بالقبر - أي قبر كان - وتقبيله وتمريغ الخد عليه فنهي عنه باتفاق المسلمين ، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء ، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هذا من الشرك» . مجموع الفتاوى ٢٧/٩٢ .

(٣) جمال الدين القاسمي وعصره ص ١٣٦ ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي . ومما ينبه له أن الصلاة في تلك المساجد المبنية على القبور لا تجوز وقد ذكرنا الأحاديث التي تنهى عن ذلك في أول هذا الفصل . انظر مجموع الفتاوى ٢٧/١٤٠-١٥٨ ومنها قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» متفق عليه . والصحيح أن الصلاة في تلك المساجد لا تصح ويجب إعادتها وهو اختيار الإمام ابن قدامة . انظر المغنى ١/٧٥٦ دار الفكر . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م . وقد أخطأ الشيخ القاسمي بصلاته في هذا الجامع ؛ ومن كان يجرؤ في ذلك العصر ليقول إن الصلاة في تلك المساجد لا تجوز !! .

(٤) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . توفيت في القاهرة سنة ٢٠٨ هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٠/١٠٦ والبداية والنهاية ١٠/٢٧٣ والدر المنثور في طبقات ربات الخدود ص ٥٢١ .

يقول الحافظ الذهبي رحمه الله : «ولجبهة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف ، ولا يجوز مما فيه من الشرك ، ويسجدون لها ، ويلتمسون منها المغفرة ، وكان ذلك من دسائس العبيدية»^(١) .

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : «والى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً ، ولا سيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة^(٢) مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز»^(٣) .

ولا زال الناس هناك يعتقدون فيها ، ويقسمون بها ، ويصرفون لها ولبقية الأضرحة هناك ألواناً عديدة من العبادة التي صرفها لغير الله شرك أكبر . ولا يكاد يوجد ضريح في تلك الفترة إلا اتخذ رباً من دون الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثالثاً: الذبح والنذر للأضرحة^(٤) :

لم يكتف القبوريون بالدعاء لتلك الأضرحة والاستغاثة بها من دون الله

(١) سير أعلام النبلاء ١٠٦/١٠ . وقد أخطأ الذهبي رحمه الله في قوله : «والدعاء مستجاب عند قبرها بل وعند قبور الأنبياء والصالحين» . ١٠٧/١٠ وهو قول ليس له أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا قال به أحد من السلف الصالح كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية . مجموع الفتاوى ٢٧/١١٥-١٢٣ . ويقول رحمه الله : فإذا كان قد حرم اتخاذها مساجد والإيقاد عليها ، علم أنه لم يجعلها محلاً للعبادة لله والدعاء . ١٨١/٢٧ .

(٢) ولعلها بشعة .

(٣) البداية والنهاية ١٠/٢٧٤ .

(٤) انظر : الباب العاشر من كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب . باب ما جاء في الذبح لغير الله . والباب الثاني عشر منه . باب من الشرك النذر لغير الله .

عز وجل ، والسجود لها ، والطواف حولها ، وتقبيل أعتابها ، وتمريغ الخد في ترابها ؛ بل سارعوا إلى ذبح القرابين في ساحاتها ، تقرباً إلى أربابها ودفعاً للشّر والأذى بزعمهم ، تماماً كالذي كان يفعله عباد الأصنام في جاهليتهم عند أصنامهم ، وبادروا إلى تقديم النذور لأصحابها .

يقول السملالي : «فائدة : أخبرني صاحبنا الفقيه أبو سرحان المغازي رحمه الله أن بعض الأولياء اجتمع بالشيخ أبي العباس السبتي فقال له الشيخ : إذا أتيت لضريحي بصدقة فاجعلها ذبيحة لأن الروحانيين من الجن ملازمون للضريح وهم ينتفعون بدم الذبيحة وظلفها دون غيرها فإنه لا يحصل لهم منها كبير فائدة»^(١) .

وما من شك أن ذلك المتكلم ليس هو أبا العباس السبتي وإنما هو من شياطين الجن الذين يتقصّدون إغواء بني آدم وإضلالهم عن سواء السبيل كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله^(٢) .

وذكر رحمه الله أن الشياطين تتمثل على صورة بعض المشايخ من الأحياء والميتين لتضل بني آدم ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب^(٣) .

وقد كان الحكام والأمراء والأعيان والقواد يبذلون أموالهم في ذبح القرابين لتلك الأضرحة ، ويسرفون في إراقة دمائها في ساحاتها .

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغमत من الأعلام ١/ ٣٢٥ .

(٢) مجموع الفتاوى ٨٢/ ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٥٩ وما بعدها .

فعندما تولى السلطان الحسن بن محمد (المتوفى سنة ١٣١١هـ^(١)) مقاليد الحكم في بلاده سارع إلى تقديم الذبائح إلى الضريح الإدريسي^(٢) .

وعند مغادرة الفرنسيين للقاهرة سنة ١٢١٦هـ هرع قائد الجيش العثماني حسين باشا القبطان إلى زيارة المشهد الحسيني وذبح فيه خمس جواميس وسبعة كباش ، واقتسمتها خدمة الضريح ، وحلّق تاج المقام بأربعة شيلان كشميري ، وأخذ قياس المقام ليصنع له ستراً جديداً^(٣) .

ولما اشتد مرض الشيخ على الدرقاوي وكثر هذيانه ، بادر والده فذهب بذبيحة إلى ضريح إزاء المدرسة التي كان يدرس فيها؛ لما سمعه من أن ما أصابه ربما جاءه من تلك المدرسة^(٤) .

وهذا المدعو بأبي حمارة الذي قام بثورة عنيفة عام ١٣٢١هـ ضد سلطان المغرب ، بدأ ثورته بحضور موسم مشهود لقبيلة الحياينة حول قبر محمد بن الحسن الجناتي - معتقد القبيلة ، ووليها الصالح - وتحضره قبائل أخرى فشهد الموسم ، واشترى سبعة ثيران وذبحها قرباناً على قبر الولي المذكور ، فكان لذلك أثر بالغ في إثارة مشاعر القبائل وسوقهم تحت رايته ، ثم بدأ ثورته التي امتدت زهاء سبعة أعوام^(٥) .

(١) الأعلام ٢/ ٢٢٠ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/ ٢٣٩ .

(٣) عجائب الآثار ٢/ ٤٧٩ .

(٤) المعسول ١/ ٢٠٧ محمد المختار السوسي . وللشيخ علي حكاية مأساوية سترد إن شاء الله في فصل الصوفية .

(٥) أعلام المغرب العربي ١/ ٣٠٨ عبد الوهاب بن منصور - المطبعة الملكية . الرباط ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م وسوف نورد نبذة عن أبي حمارة هذا في فصل الصوفية أيضاً في الموضع المناسب .

يقول الامام الشوكاني رحمه الله : «ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه وراء حائط الإسلام ، ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين : أن كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر ، متقرباً به إليه ، راجياً ما يضمن حصوله له منه . فيهل به لغير الله ، ويتعبد به لوثن من الأوثان ؛ إذ إنه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً وبين قبر لميت يسمونه قبراً . ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغنى من الحق شيئاً ، ولا يؤثر تحليلاً وتحريماً»^(١) .

ويذكر البتونني أن بعض سدنة الأضرحة في أرياف مصر يرسلون عجلاً صغيراً في حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولي ، ولا يزال سائباً على حرите في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهي منها ، وأربابها لا يجسرون على طرده أو إهانته خوفاً من الولي الذي هو في حمايته حتى يأتي مولده فيأخذه السدنة سميناً معلوفاً ويذبحونه ويتفجعون به^(٢) .

وهذه السوائب من العجول للأولياء - كما يقول الشيخ رشيد رضا - هو ماكان يصنعه المشركون من تسييب للأصنام ونهى عنه القرآن^(٣) .

أما النذور فيحدثنا محمد بن سليم الجندي عن طريقته فيقول : «إذا مرض أحد و كان عزيزاً على ذويه ، أو كان غائباً عنهم ، أو كان يتوقع نعمة ، أو يخشى نقمة ، ينذرون له كبشاً يذبحونه ، أو طعاماً يصنعونه ، في

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور . نقلاً عن الجامع الفريد ص ٦٠٤ .

(٢) الرحلة الحجازية ص ١٩٤ كما يصنع الهندوس حين يطلقون الأبقار في الحقول والأسواق .

(٣) المنار ١/ ٤١٥ .

مقام رجل من الصالحين فإذا برئ من مرضه ، أو عاد من سفره أو بلغ ما يأمله دعا أهله جماعة من أقربائهم وأحبائهم ، وربما راح فريق من غيرهم معهم ، وذهبوا جميعاً إلى ذلك المقام للإيفاء بالنذر . . .^(١) .

وقد انتشرت تلك النذور الشيطانية انتشاراً عظيماً ، وصرفت فيها الأموال استجلاً للخير أو توقياً للشر ودفعاً له .

ففي محلة الضوضو بحلب ، قبة على قارعة الطريق ، فيها دفين يسمونه الشيخ محمد الضوضو ، يعتقد أنه أهل المحلة ، ويروون له كرامات ، ويندرون له الزيت^(٢) .

وفي المعرة مغارة يزعم الناس هناك أنها مقام الخضر ، والعامّة تنذر له البرغل المطبوخ بالدردار ، وهو نوع من النبات عندهم ، ويسمى ذلك الطعام المفحومة ، ومنهم من يذبح الخرفان وهذا النذر يسمى الحناء أيضاً^(٣) .

وعلى ضريح الشيخ عطا الله بالمعرة يزعمون أنه صحابي يعلقون على شبابه خروفاً من ثياب المريض ، ويندرون له زيتاً ليوقد عند ضريحه .

وعلى ضريح الشيخ محمد الرشيد يندرون له (معلقاً) يجتمع النساء عنده إذا برئ المريض أو حضر الغائب ، ويشتوين معلقاً ويأكلنه (والمعلق هو جزء من الحيوان يشتمل على الكبد والرئة والقلب والمرئ وما عليها من شحم)^(٤) .

(١) تاريخ معرة النعمان ٣٤/٢ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣٤٨/٢ .

(٣) تاريخ معرة النعمان ٤٦٨/١ .

(٤) المصدر السابق ٤٧٠/١ .

وعلى ضريح الشيخ دبس : ينذر له الناس خبزاً و دبساً^(١) .
وفي حلب بمحلة خراب خان مدفن الشيخ خليل الرام حمداني يعتقد أنه
أهل المحلة و يزورونه وينذرون له قناديل تسرج عند ضريحه^(٢) .
وفي شرقي المعرة مسجد ومقام يزعمون أن فيه قبر أويس القرني^(٣) ؛
يعظمه أهل المعرة ويكثرون زيارته ، وتقريب القرابين والوفاء بالنذور
فيه^(٤) ، وقد ينذرون لبعض الأشجار ويعلقون عليها الخرق كما ذكر
السنوسي^(٥) .

رابعاً : الاستشفاء وطلب البرء من الأضرحة :

لم يحفل الناس في القرون المتأخرة بشؤون الصحة وتعلم الطب وعلاج
الأمراض كما كان ينبغي ، ومع توالي القرون وعزوف المسلمين عن الطب
لا يتعلمونه ولا يعملون به لجأ الناس إلى الأضرحة يستشفون بأصحابها ،
ويطلبون معافاة المرضى منهم وعلاج ذوي العاهات فيهم فبانوا عن الطب
الذي يقوم على اتخاذ الأسباب بوناً شاسعاً وأوغلوا في الانحدار في هاوية
الدجل والخرافة والشرك .

ويذكر المؤرخ الحضرمي صلاح البكري أن طائفة العلويين في حضرموت
يضعون في قباب موتاهم إنائين : واحد للنقود ، والآخر للزيت الذي يقدمه
المريض لطلب الشفاء .

(١) المصدر السابق ٤٧١/١ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٣٨/٢ .

(٣) مع أن أويساً قتل في صفين مع علي رضي الله عنه كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في
الإصابة ١١٧/١ .

(٤) تاريخ معرة النعمان ٣٦٣/١ .

(٥) الرحلة الحجازية ٢٤٧/٢ .

وذكر أن بعض المرضى يببالغون في الضلال فيأكلون من تراب بعض تلك القبور طلباً للشفاء، وذكر أنه مرض وهو صغير بالحمى فذهب إلى قبة الهدار العلوي ، وأكل قليلاً من تراب قبره ، وقبل ضريحه ، وتوسل إليه ليذهب الآلام ، ووضع في خزانته بعض النقود ، ثم عاد إلى البيت وهو يرتعد من الحمى ، وأنه كما يقول من حسن حظه شفي في اليوم الثاني ولكن من سوء حظه كما يقول أن زاد اعتقاده في الهدار واعتماده عليه من دون الله ، وأنه ذهب إلى السوق وابتاع رطلاً من زيت السمسم ، ووهبه لخزانة الضريح .

ثم يقول : وهكذا ذكرت صاحب القبة في السراء والضراء خفية وجهرة وهو لا ينفعني شيء ، ولم أذكر الله عز وجل الذي هو أقرب إلي من حبل الوريد ، ويده كل شيء»^(١) .

ويقول : «ويبالغ بعض الدجالين من أصحاب السلطة الروحية فيسقون المريض ماءً ممزوجاً ببزاقهم للشفاء ، ويتجرع هذا المريض المغفل ذلك البزاق القذر وهو مسرور كل السرور متوهماً أن الشفاء آت لا ريب فيه»^(٢) ، وعلى شاطئ بلدة القلمون في الشام قبر يعلق الناس به خرقاً صغيرة يقطعونها من ثيابهم الخلقة يسمونها آثاراً لأجل شفاء المرضى^(٣) .

وفي حلب كان إذا تعسر مخاض المرأة سقوها شيئاً من السمن المذاب ، وبعضهم يحضر لها حربة مركوزة عند أضرحة بعض الصالحين ، فتتوكأ عليها تبركا وهي على الكرسي إلى أن تضع^(٤) .

(١) تاريخ حضرموت السياسي ص ١١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٣) رحلات الإمام محمد رشيد رضا ص ٢١ جمع الدكتور يوسف ابيش . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧١ م .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٤٤ .

واعتماد بعض الناس هناك أن يسافروا إلى ضريح الشيخ ربح زاعمين أنهم يشفون من ربحهم^(١) ، والناس يقصدونه من أماكن بعيدة يشربون من ماء ينبع في جانب قبره فيبرءون من علة الربح^(٢) ، وللناس في قبر أبي العلاء المعري اعتقاد عظيم يبيتون على قبره شربة ماء ويستعملونها للبرد من الحمى^(٣) .

وفي مدينة طنطا يطلب الناس هناك من ضريح عز الرجال وهو أحد تلاميذ البدوي شفاء الأطفال^(٤) ، ويطلبون من ضريح الشيخة صباح في طنطا كذلك إبراء النساء من العقم ، ومن ضريح محمد الحدرى المعروف بالعمري شفاء أمراض الروماتيزم لأن الذين يلجئون إليه يتدحرجون أمام باب الضريح الذي هو عبارة عن منحدر واضح من الأرض^(٥) .

وهناك زاوية بيت الكيالي التى يقول عنها الغزي : «هي الآن عامرة وللناس اعتقاد حسن بمن دفن فيها ، فيقصدونها للاستشفاء من الأدوية وينذرون لها النذور^(٦) .

(١) المصدر السابق ١/ ٢٧٤ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٧١ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٤١٨ .

(٤) الحكومة الباطنية ص ١٦٧ ، د. حسن محمد الشرقاوي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ . وهذا الكتاب من شر الكتب المؤلفة حديثاً في التصوف ويدور على ترويح الشرك الأكبر في هذا العصر ، ويهون من شأنه أيما تهوين ، ويبرر لعباد القبور شركهم وكفرهم ، ويحاول عرض كل ذلك في أسلوب جديد يناسب روح هذا العصر ، ويحتاج الكتاب إلى مجلد كبير للرد عليه والتحذير منه .

(٥) المصدر السابق ص ١٧٥ .

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/ ٢٧٢ .

ويحسن بنا أن نتحدث في هذا المقام عن الرقى والتمايم^(١) تلك التى قضت بانتشارها على ما بقي من بصيص للتوحيد فى النفوس وجعلتها أسيرة للدجل والخرافة والجهل ، وقطعت الطريق أمام كل باحث عن التطبيب والعلاج عبر الأسباب المشروعة وقد استولى ذلك الشر المستطير على أكثر المسلمين إلا من رحم الله ، وكانت هذه التمايم والرقى تسيطر على غالب شؤون الناس ، يستشفى بها من الأمراض ويحترز بها من الأدوية والعلل ، ويتقى بها الكثير من الشرور ، ويطلب بها الرزق والولد .

إذا فما الداعي إلى الأطباء بعد ذلك وإلى الأخذ بالأسباب ما دام أن هناك من هذه التمايم والرقى ما يقوم بالحاجة ، كما كانوا يتصورون ، بل لقد كانوا يرون أن الأطباء الحقيقيين هم صانعو الرقى والتمايم فى كثير من الأحوال .

يقول علي باشا مبارك واصفاً لحال القاهرة التى كانت تعتبر من أفضل مدن المسلمين فى زمنه : « ولم يكن بالمدينة أطباء يعانون المرضى ، بل كانوا يعولون فى ذلك على ما تصفه العجائز ، وعلى أقوال الدجالين والمشعبذين ، فإذا مرض إنسان ذهب أهله فطرقوا له الودع^(٢) والفول ، وحسبوا له النجم ، وقاسوا أثره ، فما أخبرهم به الدجال اعتمدوه وكتبوا له الأحجة^(٣) أو بخروه باللبان والجلد ، وعلقوا عليه الخرز وكانت لهم خرزات ، كل واحدة يزعمون أنها تبرئ داءً ؛ فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة ، وللرقة

(١) انظر الباب الثامن من كتاب التوحيد . باب ما جاء فى الرقى والتمايم .

(٢) فى مختار الصحاح : الودعات خرز بيض ، تخرج من البحر ، تتفاوت فى الصغر والكبر ، الواحدة ودعة . ص ٢٩٧ .

(٣) الأحجة جمع حجاب ، وهو ما يحجب الشر أو المرض بزعمهم وهو بمعنى التهمة .

خرزة بيضاء مصغرة تسمى خرزة الرقبة، ولهم أحجار يحكونها للخضة - أي الفزعة - وللحمى، ويسمونها حجر الشفاء، ومن لسع حكوا له الخرتيت، أو وضعوا على اللسعة فصاً، ويسمى فص العقرب، وغير ذلك^(١). ولم ينج من شر هذه التماائم والرقى حتى من قل حظهم في الإسلام.

فالخديوي توفيق - الذي احتل الإنجليز مصر في حكمه ونكبت البلاد في عصره - كانت عنده امرأة مختصة لذلك الشر تدعى الست عائشة الكوديا حيث كانت تقوم بتبخيره وملابسه، وبتلاوة العزائم والتماائم عليه^(٢).

وهذا المدعو صالح بن عبد الله الزادي (المتوفى نحو سنة ١٢٦٠هـ) يقول عنه محمد المختار السوسي^(٣): «كان سيدي صالح مقصوداً في عصره بالرقى والتماائم والدعوات معروفاً بذلك، فلا يخلو مكانه من الواردين، وكان إذا رأى من أطل المكث عنده يقول: إن أردت دعوة أو تميمة أو رقية فها هي عندي، وإن أردت مائدة ممدودة وفراشاً مبسوطاً فعليك بسيدي إبراهيم بن سليمان. يقول ذلك لأن هذا غني كريم موطوء العتبة بكرة وعشياً بالوارد والصادر»^(٤).

ويقول عن محمد بن أحمد السعيد (المتوفى سنة ١٣١٦هـ): وكان الناس ينتابونه للرقى والتماائم والتطبيب^(٥).

(١) الخطط التوفيقية ١/١٩٩.

(٢) كشف الستار ص ٣٦. والكوديا هي العرافة التي تتعامل مع الزار وتخاطب العفاريت. انظر بعض ماكانت تقوم به في المنار ١/٥٦٤ ومابعدها.

(٣) الأعلام ٧/٩٢.

(٤) المعسول ١/١٤٦.

(٥) المصدر السابق ١/١٤٧.

وهذا واحد ممن يسمونهم بالأولياء ويدعى الحسن السوسي الهشتوكي (المتوفى سنة ١٢٧٩هـ) كان يصنع التماثم لإخراج من وقع في أزمة أو أحاطت به كربة، يقول أحدهم : «وكان بعض الناس معتقلاً وطال سجنه ، وتعذر خلاصه ، وكان له بي تعلق ، فكلمته في شأنه ، فكتب تيمة فقال لي : قل له يجعلها عند رأسه ، ففعلت فسرحت بعد اليوم واليومين»^(١) .

وكانت ولادة الشيخ محمد الحامد (المتوفى سنة ١٣٨٩هـ) بعد انقطاع حمل أمه عدداً من السنين ، حتى شكا والده إلى بعض خواصه انقطاع حمل زوجته فأخبروه أنه كان في حمص شيخ مبارك ! اسمه الشيخ سليم خلف ، يكتب بعض الكلمات على ورقة ، يعطيها لمن تشكو إليه انقطاع حملها فتلحسها ، فتحمل بإذن الله تعالى ، ولقد توفي ، لكن ولده الشيخ محمد أبو النصر يقوم مقامه في هذا . وتمت كتابة الورقة وحملت بالمذكور^(٢) .

وهذا محمد بن أحمد المانوزي (المتوفى سنة ١٣٦٥هـ) انقطع في أعوامه الأخيرة في مسكنه بمكناس يشتغل بالرقى والتماثم^(٣) .

خامساً : الاعتصام بالأضرحة :

وفي تلك العصور المظلمة كانت تلك الأضرحة الوثنية حرماً آمناً يهرع إليها المجرمون والفارون ، ويلجأ إليها الخائفون ، ليأمنوا في رحابها ، ويستريحوا في ظلالها . ولم يكن ليجرؤ أحد من الحكام في ذلك الزمن أن ينتهك حرمة ضريح لاذ به مجرم أو عاذ به فار فيلقى عليه القبض مهما كان

(١) الإعلام بمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ١٦٩/٣ .

(٢) الشيخ محمد الحامد ص ١٢ عبد الحميد طهماز . الطبعة الأولى ١٣٩١هـ - ١٩٧١م . دار القلم . بيروت . دمشق .

(٣) الإعلام ٢٤/٦ .

جرمه ومهما بلغت جنايته . وكثيراً ما عفى عن اللائذين بالأضرحة من المجرمين إكراماً للمدفونين فيها أو خشية ورهبة من انتقامهم وبأسهم ، أما إن كانوا قد أصروا على إنزال العقاب بهؤلاء المجرمين المحترمين بالأضرحة فإنهم يترصدونهم ويتربصونهم بعد أن يحكموا الحصار حولهم حتى يبارحوا حرمها فيمسكون بهم ، وإلا فلا يمد أحد لهم يداً ما داموا معتصمين بها .

ويذكر السملالي سبباً لتأمين المعتصمين بالأضرحة والزوايا ، فيقول عند ترجمة أبي عمر بن أحمد الأمين القسطلي من متصوفة القرن العاشر : «ولما غضب الوزير على مشوري ، من أصحابه ، احترام بزواية الشيخ ، فبعث الوزير إلى الشيخ بالأمان عليه ، فقال المشوري يقتلني ، فقال : يقتله الله إن قتلك ، فلما قتله سلط الله على الوزير أكلة في جسمه فتمزق ، ومن ذلك الوقت احترام الناس والسلطان زاويته غاية الاحترام ، وصار الأمراء يتحامون من احتى بها خوفاً من العاهات^(١) .

وهناك حكاية أخرى أوردها السملالي بقوله : «ومن كرامات القطب الجزولي^(٢) رضي الله عنه أن بعض من احترام به لما أخرج كرهاً عليه من ضريحه الشريف رأى بعضهم مناماً : الشيخ رمى بيدي ورجلي من أخرجته في طنجير يغلي بباب قبته ، فأصبح المجترىء المذكور معطل الجوارح المذكورة ، وما زال يبلى بالمصائب والعياذ بالله من التجروء على أوليائه ؛ فإن الله تعالى يغار عليهم»^(٣) .

(١) الإعلام بمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ١/ ٣٣٥ .

(٢) هو محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» الذي يأتي الحديث عليه . مات عام ٨٧٠هـ عن ١٢٦٦٥ مريداً . الأعلام ٦/ ١٥١ .

(٣) الإعلام بمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ٥/ ٩٣ .

وبصرف النظر عن هاتين الحكايتين وغيرهما مما ينشره القبوريون ، فإن الاحترام بالأضرحة وتأمين المحترمين بها ناشيء في الدرجة الأولى عن اعتقاد القبوريين في هذه الأضرحة ، وأنها تجلب النفع وتكشف الضرر ، وتغيث المكروب ، وتؤمن الخائف ، فلا غرو أن يكون رحابها أماناً للفارين ، وملجأ للفرعين والمطلوبين .

ففي عام ١٢٠١ هـ غزا سلطان المغرب قبيلة اشراقة بأحواز^(١) فاس فنهبهم وشردهم فلجأوا إلى ضريح الشيخ أبي الشتاء بغشتالة فعفا عنهم^(٢) . وعندما وقع خلاف بين سلطان المغرب المولى محمد بن عبد الله ، وبين ولده المولى يزيد ، اعتصم الثاني بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش ، فأرسل والده جنداً وأمرهم بالتضييق عليه حتى يمنعوه من النزول من الحرم ! - كما يقولون - ولم يزل يزيد معتصماً بالضريح حتى هلك والده^(٣) .

وحين خلعت قبيلة الرصامنة وغيرها من القبائل طاعة المولى هشام ، وبايعوا أخاه المولى حسين بن محمد ، وزحفوا إلى مراکش ، فلم يرع المولى هشاماً إلا طبولهم تقرع حول القصبة ، وأرهقوه وأعجلوه عن ركوب فرسه ، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي فعاذ به وثابت إليه نفسه ، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى أسفي^(٤) .

(١) الأحواز : جمع حوزة وهي الناحية وجمعها نواحي . انظر مختار الصحاح ص ٦٨ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١١٧/٤ .

(٣) المصدر السابق ١١٨/٤ - ١٢٤ .

(٤) المصدر السابق ١٣٤/٤ . وأسفي اسم لبلدة في المغرب تقع في البحر .

وعندما هجا الحاج العربي المشرفي السيد عبد الله بن أحمد احترام بضريح المولى إدريس نحو عامين^(١) .

ولما ثار الناس على والي فاس من أجل المكس سنة ١٢٩١هـ ، هدموا داره وانتهبوا أثاثه ، واستصفوا موجوده ، وأرادوا قتله ، فاختلفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة ، ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه فأقام به وأمن على نفسه^(٢) .

وهذا المدعو بابن نونة كان أحد الثائرين على الأمير عبد القادر ، فلما هزم فر إلى ضريح الغوث سيدي «أبي مدين» رضي الله عنه في قرية العباد ، ثم دخل الأمير تلمسان . ومن الغد توجه إلى زيارة الغوث ، ووجد ابن نونة متعلقاً بأستار الضريح ، لائذاً به فأمنه ، وعفا عنه ، وتقبل فيئه^(٣) وأمره على قيادة طائفته^(٤) .

وعندما عزم نائب الوالي في القاهرة على الفتك بأحد مدعي الولاية لاذ بمقام الإمام الشافعي ، فخوفه الناس من انتهاك حرمة الضريح ، فلم يقربه ، ثم إن هذا الفار غادر المقام المذكور إلى مقام الليث حتى يستطيع الفرار منه ، ولكن ما إن خرج منه حتى قبض عليه وقتل^(٥) .

وهكذا عظمت هذه الأضرحة الوثنية ، وسميت كل تربة منها بالحرم ، حتى لقد فاقت الحرمين الشريفين حرمة وتعظيماً بعد أن رفراف الأمن على

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام ٥٢/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٤٧/٣ .

(٣) يعني : رجوعه . انظر مختار الصحاح ص ٢١٦ .

(٤) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ١٧٠/١ محمد عبد القادر الجزائري . دار

اليقظة العربية . تعليق ممدوح حقي . الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

(٥) عجائب الآثار ٢١٢/٣ .

قباها ، وأطمأن المجرمون في رحابها .

ومما يدل على ذلك ما جاء في مذكرة الاحتجاج التي قدمها حمدان بن عثمان خوجة^(١) (المتوفى حوالي سنة ١٢٦١هـ) بتاريخ ١٥ محرم ١٢٤٩هـ- ١٨٣٣م إلى وزير الحربية الفرنسي وعدد فيها الأخطاء التي ارتكبتها حكاهم الجزائر الفرنسيون وشكايات الجزائريين ضدهم ، وكانت هذه المذكرة عبارة عن ثمانية عشر بنداً .

جاء في البند الثامن منها قوله : «مقتضى ديننا وسياستنا ، احترام الأولياء واحترام تربتهم حتى أن من هرب إلى تربة ولي ، ولو كان عليه قصاص شرعي ، لا نخرجه من التربة ، بل نترصد خروجه بنفسه ، احتراماً لذلك الولي ، وتعظيماً لمن أطاع الله؛ فهي بمنزلة الجوامع في الاحترام^(٢) واشتراك الناس في زيارتها والاحتماء بها^(٣) .

ولا أدري كيف أباح هؤلاء القبوريون لأنفسهم أن يجعلوا أضرحتهم تلك بمنزلة المسجد الحرام الذي من دخله كان آمناً ويسمونها حرماً^(٤) ، ومع

(١) من المقاومين للاستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه كما قال عنه الزركلي . الأعلام ٢/ ٢٧٤ .
(٢) بل هي أشد وأعظم ، وليس للجوامع عندهم حرمة إلا إذا احتوت على تلك الأضرحة كما رأينا .

(٣) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص ١٥٢ .

(٤) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وليس بيت المقدس مكان يسمى «حرماً» ولا بتربة الخليل ولا بغير ذلك من البقاع إلا ثلاثة أماكن ؛ وذكر حرم مكة وهو باتفاق المسلمين ، وحرم المدينة وهو حرم عند الجمهور من غير إلى ثور ، والثالث وادي وج وهو حرم عند الشافعي لا اعتقاده صحة الحديث الوارد في ذلك ولم يثبت . ثم قال : وأما ما سوى هذه الأماكن الثلاثة فليس حرماً عند أحد من علماء المسلمين ، فإن الحرم ما حرم الله صيده ونباته ، ولم يحرم الله صيد مكان ونباته خارجاً عن هذه الأماكن الثلاثة» . مجموع الفتاوى ١٥/ ٢٧ .

أن أهل العلم قد اختلفوا فيمن وجب عليه القتل ثم لجأ إلى الحرم لاثماً به ، فذهب إلى تأمينه جمهور التابعين وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد وكثير من العلماء ، وقالوا لا يقتل في الحرم ، بل يضيق عليه ويعالج حتى يخرج منه ، فإذا خرج أقيم عليه الحد .

وذهب الإمامان مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه الحد في الحرم ^(١) ، وليس من شأننا في هذا المقام أن نستعرض أدلة الفريقين وحججهما ، وإنما الذي يعيننا هو اختلاف أهل العلم فيمن ارتكب جناية خارج الحرم ثم عاذ به هل يقتص منه في الحرم أم لا ^(٢) .

أما هؤلاء القبوريون فقد اتفقوا على تأمين المعتصمين بالأضرحة و ألا يمسه بفساد حتى ولو كان جرمهم عظيماً ، واستحقوا عليه القصاص والقتل ، وإنما غاية ما عندهم التضيق عليهم حتى يبارحوا تلك الأضرحة فيقيموا عليهم الحدود ؛ بل إنهم في كثير من الأحيان يصفحون عنهم كما رأينا اتقاء للأضرحة وتقرباً إليها .

سادساً : الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس كلها :

بالإضافة إلى ما سبق ذكره حول هذه الأضرحة والقبور ، وما تسببت به من وقوع الشرك في الأمة وانتشاره بين صفوفها ، فإننا نذكر في مقامنا هذا بعض الجوانب التي تبين من خلالها أن هذه الأضرحة والقبور قد أصبحت

(١) انظر الخلاف حول ذلك في : المغني لابن قدامة ١٠ / ٢٣٠ وأحكام القرآن لابن العربي ١ / ٣٧٣ وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام ٢ / ٤٩ .

(٢) أما من الحد في الحرم فارتكب ما يوجب القتل أقيم عليه القصاص في الحرم . قال ابن قدامة : لا نعلم فيه خلافاً . المغني ١٠ / ٢٣٣ وإنما الخلاف فيمن فعل ذلك خارج الحرم ثم لجأ إليه .

مهيمنة على حياة الناس كلهم علمائهم وعوامهم إلا من رحم الله، وأن حياتهم غدت مرتبطة أشد الارتباط بهذه الأضرحة، ومن هذه الجوانب :
* إكرام الضيوف والوافدين بتيسير زياراتهم للأضرحة والقبور والمشاهد :

ونرى ذلك واضحاً في رحلة القياياتي إلى الشام حين كان ينزل إلى كل بلد فيستقبله علماءها وكبرائها ، ويكون أعظم قرى يقدمونه لذلك الضيف هو الذهاب به إلى الأضرحة والمشاهد الموجودة في بلدتهم، ويعبر عن ذلك القياياتي نفسه حيث يقول : «فيذهبون بنا إلى مزارات الصالحين ومدارس المعلمين والمتعلمين^(١) ، فزرنا في هذا البلد (نابلس) ضريح الأسباط ..»^(٢) .

ويقول عن أحد العلماء الذين استقبلوه في دمشق الفيحاء : «ودعانا إلى منزله أيضاً .. وصار يتودد إلينا ، ويتردد علينا كثيراً ، ويذهب بنا إلى بعض المزارات بنفسه، فممن زرنا بها من الصحابة الكرام أوس بن أوس الثقفي من أهل الصفة ومنهم سيدنا بلال الحبشي مولى الصديق ومؤذن الإسلام»^(٣) .

وذكر أن مفتي القدس استقبلهم في مشهد الكليم عليه الصلاة والسلام أيام مولده وأكرمهم غاية الإكرام ، وقدم لهم وللحاضرين عشاء من مطبخه الخاص ، وأرسل وقت النوم فرشاً وألحفة للغطاء^(٤) .

ويتحدث القياياتي عن مقامهم بصيدا فيقول : «فكنا مدة إقامتنا بها

(١) وكثيراً ما كانت تحوي تلك المدارس أعداداً لا بأس بها من الأضرحة .

(٢) نفحة البشام ص ١٠٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣١ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٦ .

نأخذ الغذاء منها بكرة ونذهب إلى مزار من المزارات ، ونمر على البساتين ذهاباً وإياباً ونقضي مدة النهار خارج البلدة إلى أن يرجعنا إليها الليل والمبيت»^(١) .

كما نرى ذلك واضحاً في «الرحلة الحجازية» لمحمد السنوسي ، وبالطبع كان هناك أناس يسمون بالمزورين يقومون بتزوير الغريب القادم إلى البلد مقابل مبلغ من المال .

يقول السنوسي عندما زار ميناء جدة : «وقد خرجنا صبيحة يوم السبت (من ذي القعدة) عام ١٢٩٩ هـ لمزاراتنا، فزرنا داخل البلد مدفناً لبعض آل البيت ، وخرج بنا المزورون إلى المقبرة خارج البلد، وفي مبداها قبة منسوبة لأمناء حواء ، يقولون إنه على مدفن رأسها، وهناك بيت أبيض يبعد عنها خمسين خطوة يزعمون أنها محل سرتها، ثم تحدث عن ابتزاز هؤلاء المزورين للحجاج وإيذائهم لهم واستجدائهم غير المؤدب»^(٢) .

وكان السنوسي لدى وصوله لكل مدينة يبادر إلى الذهاب إلى مزاراتها شأنه شأن كل غريب في ذلك الزمن؛ يقول لدى وصوله دمشق : «وأقيمت يوم الخميس غرة ربيع الأول في بيت الأمير الجليل أبي محمد عبد القادر بن محيي الدين الحسيني»^(٣)، وخرجت صبيحة الجمعة للزيارة فتبركت بالمزارات»^(٤) .

وهذا هو الهدف عندهم من زيارة المزارات . التبرك الذي يضم كل أنواع الشرك الأكبر ومظاهره ، أما أن تكون زياراتهم شرعية للعظة والاعتبار

(١) المصدر السابق ص ٦٤ .

(٢) الرحلة الحجازية ١٦١/٢ .

(٣) يأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالى في الفصل التالي .

(٤) المصدر السابق ٣٠٨/٢ .

والدعاء للأموات فذلك أمر طمسته الزيارة البدعية بما حوته من شرك وبدع^(١) .
ويقول السملالي ناقلاً من أحد المؤرخين المغاربة حول زيارة الناس
للقبور السبعة المنسوبة إلى الصحابة : «وهؤلاء السادات السبعة لهم فضل
مشهور من قديم الزمان يقصدهم الناس بالزيارة من كل فج عميق في كل
فصل من فصول السنة ، ولا سيما في فصل الربيع ، يكون الزوار في غاية
الكثرة ويتلقاهم أهل كل زاوية من زوايا ركراكة بالضيافة والإكرام»^(٢) .

وهذا أبو الثناء الألوسي حين قام برحلته من بغداد إلى استامبول كان
يزور الأضرحة في كل بلدة يمر عليها ؛ يقول حين مر على سيواس :
«وتشرفت فيها بزيارة مرقد حضرة الشيخ شمس السيواسي ، قدس عزيز
سره ، فظهر لي ظهور الشمس في رابعة النهار امتلاء قدره وعلو قدره»^(٣) .

وكان يصف بعض ما يختلج في نفسه ويضطرم في جوانحه تجاه بعض
القبور . يقول : «حتى أتينا قرية يقال لها (قارحين) وهناك قبر عليه قبة ثلجية
قد زرنا فلم نحس منه بروحانية»^(٤) ، ثم طفق يطنب في ذكر الأضرحة
والمشاهد التي قام بزيارتها في أثناء رحلته ذهاباً وإياباً .

وكان أهل طرابلس الغرب يسافرون إلى بلدة حنزور لزيارة ضريح
مشهور هناك يدعى «سيدي عبد الجليل» في غالب شهور السنة^(٥) .

(١) انظر حول الزيارة الشرعية والزيارة البدعية مجموع الفتاوى ٢٧ / ٣٠ - ٣١ .

(٢) الإعلام لمن حل مراکش وأغامت من الأعلام ٢٧١ / ٣ .

(٣) نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول ص ٣٢ مطبعة ولاية بغداد ١٢٩١ هـ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٥) اليوميات الليبية ١ / ٢٦٠ ، ٤٧٥ حسن الفقيه حسن ، من منشورات جامعة الفاتح ، مركز
دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي . تحقيق : محمد الأسطى . عمار جحيدر .
الجمهورية العربية الليبية ١٩٨٤ م .

وكان الناس إذا عادوا من سفر ، أو قدموا إلى بلد فإن أول عمل يقومون به هو زيارة تلك الأضرحة ، والتقلب في عرصاتها طلباً لقضاء الحاجات واستئزال البركات .

فهذا السيد عمر مكرم نقيب الأشراف في مصر (المتوفى سنة ١٢٣٧هـ)^(١) الذي كان له دور كبير في تربع محمد على باشا على عرش مصر ، ثم كافأه على ذلك بأن نفاه إلى دمياط ثم إلى طنطا ، واستمر في النفي قرابة الأربعة عشر عاماً ، كان أول ما بدأ به لدى عودته إلى القاهرة أن توجه إلى ضريح الشافعي لزيارته^(٢) .

وقبل خروج الفرنسيين من القاهرة بعد وقوع الصلح مع الجيش العثماني الذي كان رابضاً خارج المدينة ، كان كبار القواد العثمانيين يدخلون القاهرة ، ويزورون ضريح الشافعي والمشهد الحسيني وضريح الشعراوي وغيرها من الأضرحة^(٣) .

بل لقد بلغ من هوس بعض العثمانيين وولعهم بهذه الأضرحة أن قام جماعة منهم باصطحاب ستة من كبار الإنجليز لتفريجهم على مواطن مزارات المسلمين في القاهرة^(٤) ، ولقد بالغ هؤلاء القبوريون في تعظيم شأن زيارة تلك الأضرحة حتى قال قائلهم :

زيارة أهل الله من أعظم الذخر وكنز الفلاح في القيامة والحشر^(٥)

(١) الأعلام ٦٧/٥ .

(٢) عجائب الآثار ٥٩٩/٣ .

(٣) المصدر السابق ٤٧٤/٢ .

(٤) المصدر السابق ٤٩٤/٢ .

(٥) الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام ٢٧٠/٣ .

وكثيراً ما ترد في تراجم العلماء والأمرء عبارة «وكان يزاور الصالحين أحياء أمواتاً»^(١) ، وبالطبع لا تكون في الغالب إلا زيارات بدعية .

وكان شد الرحال إلى تلك المشاهد الشريكة أعظم قرابة عند أولئك الجهال ، ويستعذبون لأجلها مشقة الأسفار ، ويقتحمون الأهوال والأخطار وكان العلماء في غالب الأحيان هم أول من يشدون الرحال ويتكلفون عناء السفر ومشقته ؛ وذلك داء قديم في الأمة ، وأوذي من أجله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مع مطلع القرن الثامن الهجري .

وظل علماء السوء وأنصار البدعة يتوارثون الحفاظ عليه والمنافحة عنه ، ويزيد في طغيانه تكالب القبوريين ونهمهم بعبادة الأموات والغلو فيهم ، حتى غدا داء مزمناً ميثوساً من الخلاص منه ، بل لقد وصل الغلو بهم إلى قول بعضهم بإسقاط فريضة الحج عمن يشد الرحال إلى بعض الأضرحة التي يعظمونها ويعبدونها من دون الله عز وجل فكثير من أهل الشام يتوافدون لزيارة مقام إبراهيم بن أدهم . «وكان لبعض العامة اعتناء عظيم في هذه الزيارة ؛ إذ يعتقد أنه إذا زار سبع مرات يسقط عنه فرض الحج . . .»^(٢) .

وفي مصر يذكر البتونوني أن بعض العوام هناك لديهم اعتقاد سائد «من أنه يجيء يوم ينقطع فيه طريق الحج إلى مكة ، وعندها يحج الناس إلى مقام السيد البدوي في طنطا»^(٣) ، بل إن العامة في مصر لتعتقد فعلاً أن زيارة ضريح البدوي يعدل حجة كاملة^(٤) .

(١) المصدر السابق ٢٦٩/٣ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٧٤/١ .

(٣) الرحلة الحجازية ص ١٣٢ .

(٤) الحكومة الباطنية ص ١٧٨ وقد علل المؤلف الدكتور حسن الشرقاوي ذلك بتعليل باطل ، بأنه يجوز أن ذلك لعدم الاستطاعة للحج . . . الخ . وقد سبق أن نبهنا إلى خطورة ذلك الكتاب . انظر هامش (٤) ص ٣٣٦ .

وفي الهند يعتقد أتباع الشيخ معين الأجميري الذين يعدون بالآلاف أن زيارة ضريح شيخهم سبع مرات يكفي عن زيارة مكة للحج^(١) .

وإلى جانب غلو هؤلاء القبوريين في زيارة الأضرحة ، كان كثير منهم يحرص على ملازمة تلك الأضرحة والمجاورة فيها والصلاة إليها ، ويعدون ذلك نسكاً وقربة ؛ كما ذكر ذلك عن إدريس بن محمد العمراوي أنه كان ملازماً للصلاة في ضريح سيدي فاتح^(٢) .

ويذكر عن الحسن المراكشي الشريف (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ) أنه «أقام بضريح عبد السلام بن مشيش نحو الثمانية عشر عاماً يؤدب أولاد الشرفاء ، ويؤذن بالضريح الشريف»^(٣) ، وربما أفنى بعضهم عمره في الانتقال بين الأضرحة للمجاورة فيها .

جاء في ترجمة عبد الرحمن اللكهنوي السندي (المتوفى سنة ١٢٤٥هـ) :
«ثم سار إلى (أجودهن) وجاور قبر الشيخ فريد الدين مسعود الأجودهني مدة من الزمان ، ثم قدم «اجمير» وعكف على ضريح الشيخ معين الدين حسن السجزي برهة من الدهر . . . ثم ساح في البلاد ودخل لكهنؤ سنة أربع عشرة ومائتين ، وعكف على قبر الشيخ محمد مينا رحمه الله سبع سنين . . .»^(٤) .

وذكر الشيخ رشيد رضا أنه كان مرة في قبة الإمام الشافعي وكان ثم جماعة من أكابر علماء الأزهر وأشهرهم ، فأذن المؤذن العصر مستدبراً

(١) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص ١٣٥ .

(٢) الإعلام لمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ٣/٣٦ .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧١ .

(٤) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/ ٢٥٣ .

القبلة، فقال لهم : لم لم يستقبل هذا المؤذن القبلة كما هي السنة، فقال أحدهم : إنه يستقبل ضريح الإمام .

وذكر أيضاً أنهم لا ينكرون على من يستقبل قبر الإمام في صلاته^(١) .

وإذا كان هذا هو حال العلماء فقل لي بربك كيف يكون حال العوام الذين يرون في هؤلاء العلماء قدوة متبعة وأسوة حسنة ؟ .

* البيعة في الأضرحة وتسيير الجيوش من رحابها :

اعتادت الدولة العثمانية أن تقيم في جامع أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حفلة تقليد السيف ، «وهي حفلة تقام كلما ارتقى أمير من آل عثمان إلى عرش أجداده ونودي به سلطاناً ، فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ، ويقلد سيف عمر بن الخطاب في حفلة عظيمة تقوم مقام التتويج عند ملوك أوروبا، وعند تقليد السيف يصلي ركعتين عند ضريح أبي أيوب الأنصاري»^(٢) .

وقد كان الناس في تلك الفترة حكاماً ومحكومين يحرصون على القيام بالبيعة في رحاب تلك الأضرحة كما بويع المولى سليمان سنة ١٢٠٦ هـ داخل ضريح المولى إدريس^(٣) .

واعتادت بعض الجيوش أيضاً قبل أن تبارح قواعدها لملاقاة الأعداء، أن يكون آخر عهدها بالبلاد تلك الأضرحة، لتنتقل من رحابها

(١) المنار ٩٠٦/١ .

(٢) دليل الأستانة ص ٤٩٠ . استمبول وحضارة الخلافة الإسلامية ص ١٦٣ برنارد لويس . تعريب وتعليق د . سيد رضوان علي الدار السعودية للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م جدة . الرياض . الدمام .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٢٩/٤ .

لخوض المعارك بعد أن طلبت النصر منها .

كما ذكر ابن أبي الضياف أن الباي أحمد ملك تونس حين كان يخرج للقضاء على بعض الثورات يزور ضريح الشاذلي^(١) .

وأنه حينما أراد مرة أن يرسل جيشاً مكوناً من سبعة عشر ألف مقاتل لمساعدة العثمانيين في حربهم مع الروس أمر قائده بالتوجه إلى أحد الأضرحة هناك ليأخذوا من مشهده صنجقاً^(٢) ، وأن يزوروا بعض الأضرحة الأخرى قبل السفر^(٣) .

وهذا طاهر باشا الأرئودي (المتوفى سنة ١٢١٨هـ) الذي قام بانقلاب ضدوالي التركي في القاهرة كان يطوف على الأضرحة لزيارتها ويطلب من سدنتها الدعاء له بنجاح الانقلاب الذي قام به^(٤) .

* شئون أخرى :

ولما وقع صراع بين الأحناف والشوافع حول مشيخة الأزهر بسبب تعيين أحد مشايخ الأحناف شيخاً للأزهر ، هرع الشوافع بقيادة الشيخ محمد بن الجوهري الشافعي إلى ضريح الإمام الشافعي ، ولم يزالوا فيه حتى نقضوا ما أبرمه العلماء والأمراء وردوا المشيخة إلى الشافعية^(٥) .

(١) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ص ٧٣ .

(٢) الصنjq هو : العلم والراية .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٩ .

(٤) عجائب الآثار ٢/ ٥٦٥ . والجدير بالذكر أن هذا الانقلاب فشل بعد مضي أقل من شهر على وقوعه ودفع طاهر باشا حياته ثمناً لذلك ، وخلفه محمد علي باشا الذي تولى مصر في ظروف غامضة ما تزال تحتاج إلى توضيح .

(٥) المصدر السابق ٢/ ٤٤٢ .

* إعفاء اللحي عند سدنة الأضرحة :

يقول الجبرتي : «وفي يوم الجمعة (من شهر ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ) ذهب المذكور^(١) إلى مقام الشافعي وأرخى لحيته على عاداتهم ! التي سنّها السدنة ليعفيها بعد ذلك من الحلق !!»^(٢) .

* جعل الأولاد في ذمة الأضرحة والموتى :

يقول السنوسي : «وزرنا مقام الشيخ عبد الغني النابلسي العالم الشافعي وعنده ألهمت^(٣) أن أجعل ولدي في ذمة الشيخ محيي الدين^(٤) ، رجاء أن يكون من العلماء^(٥) ، فاسترجعت رفقائي إلى مقام الشيخ محيي الدين ، وأشهدتهم بذلك ، ولقبت ولدي بمحيي الدين»^(٦) .

وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس ، وأصبحت مهيمنة على شئونهم ، وشغلت تفكيرهم ، وتبوأّت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة ، وكانت رحي تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات ، والتعلق بهم من دون الله عز وجل فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة ، ودعاء أصحابها واستشارتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف لغيرهم ، وقد كان العلماء وللأسف الشديد

(١) المذكور هو أحد الضباط الكبار التابعين لعثمان بك البرديسي أحد زعماء المماليك المرموقين .

(٢) المصدر السابق ٥٩٤ / ٢ لأنهم كانوا يعززون المخالفين بحلق اللحي ، فإذا أعفاها عند الضريح سلم من ذلك .

(٣) لا شك أنه كان إلهاماً من الشيطان .

(٤) هو ابن عربي الحاتمي .

(٥) وهل ضاع العلم إلا بمثل هذا الهراء ! .

(٦) الرحلة الحجازية ٣١٤ / ٢ .

يتقدمون العامة ، ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به .

وبالرغم مما تسببت فيه تلك الأضرحة من وقوع الشرك في الأمة وانتشار مظاهره بين أفرادها فإن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل زاد البلاء ، وعظم الغلو والشرك كما سنرى في الفقرات التالية .

سابعاً : الشرك الأكبر من خلال ما يسمى بالمدائح النبوية :

انتشر في هذين القرنين بشكل كبير ما يسمى بالمدائح النبوية ، وتسابق الشعراء والعلماء في ذلك المضممار ، واعتقد الكثير منهم أن هذه المدائح سبب لزوال الأهوال وكشف الكروب ، وأنها تكفي وحدها في نجاة قائلها يوم القيامة ، وفي نيل صاحبها لشفاعته المصطفى ﷺ ، وأنها شفاء للأسقام ، وفارجات للهموم ، إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي تكشف لنا سر ذلك التهافت الغريب على هذه المدائح التي لم تتفق على شيء كاتفاقها على الإمعان في الغلو والشرك ، حتى إن الباحث ليخرج بنتيجة مؤكدة أن تلك المدائح النبوية في العصور المتأخرة قد انحرفت عن صورتها الصحيحة ، وهي مدح المصطفى ﷺ والثناء عليه دون إطرأ أو غلو^(١) ، واستحالت إلى شرك صريح هو عين ما حذر منه ﷺ حين قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »^(٢) .

(١) كمدح الشعراء له ﷺ في صدر الإسلام ، مثل مدح حسان بن ثابت ، ومدح عبد الله بن رواحة ومدح كعب بن زهير ، ومدح كعب بن مالك ، ومدح العباس بن مرداس السلمي رضي الله عن الصحابة أجمعين ، وكمدح غالب الشعراء والعلماء في العصور المتقدمة .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم : ١٦] ، برقم ٣٤٤٥ (الفتح ٦/ ٤٧٨) .

ولا نكاد نعثر على قصيدة من تلك القصائد التي يرى ناظموها أنهم يمدحون بها المصطفى ﷺ إلا وجدناها تطفح بالتوسلات الشركية ، والاستغاثات الكفرية ، والويل لمن رام الإنكار عليهم ، أو حاول أن يوضح الحق لهم .

ولنستمع إلى الشيخ عبد الصمد الأرمنازي حيث يمدح المصطفى ﷺ :

يا نبياً سمت به الأنبياء	لست أخشى ولي إليك التجاء!
فأضاءت بنوره الأرجاء	كنت نوراً وكان آدم طيناً
إن مدح النبي فيه الشفاء	أيها المادحون طيبوا نفوساً
أو دهتني الخطوب والضراء	ما رماني الزمان منه بسهم
داركتني الألفاف والسرائر	وتوسلت بالمشفع إلا
في المهمات إذ يعم البلاء	يا رفيع الجنب أنت المرجى
ليس لي في الأمور عنك غناء ^(١)	كن مجيري يا خير هاد لأنني

ويقول المدعو بالسيد محمد أمين الدمشقي في قصيدته التي يمدح بها

النبي ﷺ :

إلا بمدحي المصطفى العدناني	مالي من الأحوال حسن تخلص
أثنى عليه الله في القرآن	لا تدرك المداح وصف من الذي
يوم الزحام وخفة الميزان	كن لي مغيثاً يا شفيعاً بالورى
أنت المشفع بالمسيء الجاني	أنت الملاذ لنا وأنت عياذنا
ء بلحظة أغدو بها بأمان ^(٢)	أرجوك تلحظني ختام الأنبياء
	ويقول أيضاً من قصيدة أخرى :

(١) حلية البشر ٢/ ٨٥١ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٢٣١ وما بعدها .

يا خاتم الأنبياء الغر يا سندي
يا من إذا لاذ مأسور الذنوب به
قرعت بابك أرجو الله يرحمني
وقد رجوتك في التفريج من كرب
بلغت جهدي بمدح فيك أنظمه
فالشاعر استفرغ وسعه وبذل جهده كما يقول في مدح النبي ﷺ معتقداً
أن ذلك سبب لنيل شفاعته ﷺ .

ويقول أحمد بن العربي البلغيثي :
واذر الدموع وقل بصوت خافت
أبغي التعلق بالنبي محمد
يا خير من يرجى لكل ملمة
إن لم تغثني يا منائي عاجلاً
أنت الذي قد كنت نوراً أولاً
العرش والكرسي وكل مصور
ويقول محمد بن إبراهيم العاري :
أحاول مدح من جا بالثاني
فطه للنوائب أرتجيه
أجل المتقين ومصطفاهم
رسول الواحد الملك المهيمن
من الأحوال ينقذ كل مؤمن

يامن هو المقصود في الأزمات
فهو الشفيع للمذنب وجناة
يا من به المنجى من الهلكات
بشفاعة أضحى بها في ثبات
أصلاً لكل الكون في النشآت
من نورك المكنون في المشكاة^(٢)

ومن هو عمدي فيما دهاني
ومن ألم وشر أختشيه
ملاذ العاجزين وملتجاهم
غيث الخائفين بكل موطن
نمته دوحة قرشية من

مدائحها ثمار الخير تجنى^(٣)

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٣٥ .

(٢) الإعلام بمن حل مراکش وأغامت من الأعلام ٢/ ٤٢٢ .

(٣) حلية البشر ٣/ ١٣١٨ .

ويقول عبد السلام الشطي :

إليك رسول الله أشكو نوائباً لقد أنحلت جسمي وأعمت بصيرتي
وقد زاد بي سقمي وطال تمرضي وقد ضاق بي صدري وصرت بحيرة
وحالي لا يخفك تفصيل شرحه فجد لي بكشف الشر واقل عريضتي
فيا خير خلق الله يا أشرف الوري على بابك العالي أنخت مطيستي
وفيك لقد أملت نيل مقاصدي إلا وأرجوك يا مختار إبراء علتي^(١)

وقد احتفل العلماء والشعراء في هذين القرنين بقصيدة البردة
للبوصيري ، ونسجوا على منوالها المنحرف مئات من القصائد ، وتباروا في
تشطيرها^(٢) ، وفاق كثير من تلك القصائد البردة في الغلو والإطراء ، حتى
لقد ارتبط المدح عندهم بالغلو فكلما ازداد الواحد منهم غلواً وشركاً كان
مدحه أعظم .

ومن اعتنى بتشطير البردة : عبد القادر بن عبد اللطيف الرافعي (المتوفى
سنة ١٢٣٠هـ)^(٣) من علماء طرابلس الشام ، وجميل بن مصطفى العظم
(المتوفى سنة ١٣٥٢هـ) من أدباء دمشق له مؤلف سماه «تفريج الشدة في
تشطير البردة»^(٤) ، والشيخ أحمد بن شرقاوي الخليلي المالكي (المتوفى سنة

(١) النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل ص ٣٧٨ ، محمد كمال الدين بن محمد
الغزي ، تحقيق وجمع : محمد مطيع حافظ ، نزار أباطة ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٢ هـ -
١٩٨٢ م .

(٢) التشطير هو : أخذ الشاعر بيتاً لغيره فيجعل لصدرة عجزاً ولعجزه صدرأً مراعيأً تناسب
اللفظ والمعنى بين الأصل والفرع . انظر : المعجم الأدبي ص ٦٨ جبور عبد النور .
بيروت ، دار العلم للملايين . الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .

(٣) الأعلام ٤٠ / ٤ .

(٤) المصدر السابق ١٣٩ / ٢ .

١٣١٦هـ) من فقهاء الصعيد بمصر^(١) . وغيرهم كثير .

أما الذين تصدوا لشرحها فكثيرون نذكر منهم : الشيخ حسن العدوي (المتوفى سنة ١٣٠٣هـ) من علماء الأزهر^(٢) ، ومحمد بن الشيخ حمودة (المتوفى سنة ١٣٣١هـ) .

ويذكر الشيخ محمود شكري الألوسي أن الشيخ أبا السعود السويدي سقط يوماً من سطح داره؛ فتألم ألماً شديداً فشطّر قصيدة البردة فما تم تشطيرها إلا وزال السقم عنه^(٣) ، وكان الأطفال الصغار يحفظون البردة ويرددونها عند احتفالاتهم بحفظ القرآن الكريم^(٤) ، وكثيراً ما تنشد البردة عند السير بالجنّازة إلى القبر^(٥) ، وعموماً فإن غلو البردة وإطرائها الخاطيء كان سبباً جوهرياً في اشتهاها وعلو ذكرها بين السواد الأعظم من المسلمين .

ثامناً : الغلو في أهل البيت والأشخاص :

ونعني بالغلو هنا ما وقع عند أهل السنة وليس الغلو الذي يعتقده الشيعة على سائر طوائفهم وفرقهم

لقد نشأ انحراف عظيم في محبة أهل البيت عند المسلمين في القرون

(١) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٤٠٩ محمد بن محمد مخلوف . دار الكتاب العربي . بيروت .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠٧ .

(٣) المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ١٣٨ محمود شكري الألوسي . تحقيق د . عبد الله الجبوري . دار العلوم للطباعة والنشر . ط ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٤٧ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٢٥٦ .

المتأخرة ، وأحدث ذلك الانحراف غلواً مفرطاً في النظر إليهم .

ويمكن أن نلمس عاملين أديا إلى ذلك الغلو ، وهما الفكر الصوفي والفكر الشيعي وقد تبلور ذلك الغلو بهذين الفكرين ، وامتزج بهما تماماً^(١) ، وضاهى ذلك غلو الشيعة وانحرافهم في محبة أهل البيت^(٢) .

وقد كان هؤلاء الغالون يعتقدون أن محبة أهل البيت على الصفة التي اعتقدوها تكفيهم للنجاة عند الله عز وجل ، واعتقدوا فيها نظير اعتقادهم في المدائح النبوية التي قدمنا الحديث عنها قبل ذلك .

وأوضح ما يكون هذا التيار الغالي في القصائد الشعرية التي دبجها الشعراء والعلماء في مدح أهل البيت ، وفي التغني بفضائلهم ، والإشادة بمحبتهم .

يقول المدعو بالسيد محمد بن إسماعيل الحسيني الحنفي الموصلبي يمدح الإمام علياً رضي الله عنه :

أرى صفو عيشي بالخطوب تكدرا وأيسر أمري بالزمان تعسرا
ولكن أنادي إن فؤادي تحيرا أيا سيدي أنجد عبيدك في الورى
بهمتك العظمى جعلت فداكا

(١) وإن كان الفكر الشيعي يعد من روافد الفكر الصوفي . انظر الصلة بين التصوف والتشيع د . مصطفى الشبيبي .

(٢) انظر : غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام . د . فتحي محمد الزغبى . ص ٤٩ حيث تحدث عن إفراط الشيعة في الحب وص ٦٢٣ ؛ وتحدث عن اتجاه الموالى من الفرس الذين دخلوا في الإسلام إلى الغلو ، وأن الغلو الذي منحه الموالى للموكلهم ، نقلوه بعد ظهور الإسلام إلى أهل البيت . الطبعة الأولى ١٤٠٩ - ١٩٨٨ م . مطابع غباشي - طنطا - مصر .

يقينك لا يزداد إن كشف الغطا ورأيك حاشا منه أن يصدر الخطأ

أنادي إذا جار الزمان وإن سطا أبا حيدر الكراري وافر العطا

فقير أتى يبغي جزيل عطاكا

سموت علوماً في الملا ومناقبا وشيدت للدين القويم مراتبا

وأصبحت صهراً للنبي وصاحباً فجد وأجرني كي أقول مخاطباً

لقلبي لك البشرى بلغت مناكا^(١)

ويبدو في هذه الأبيات الأثر الشيعي واضحاً كقوله : ورأيك حاشا منه أن يصدر الخطأ وهو ما يوافق عقيدة العصمة عند الشيعة الإمامية حيث يعتقدون بعصمة أئمتهم^(٢) .

وقوله : سموت علوماً . حيث يعتقد الشيعة بأن علياً كان أعلم الصحابة بعد رسول الله ﷺ على الإطلاق ، ويحتجون بالحديث الموضوع (أنا مدينة العلم وعلي بابها)^(٣) .

ويقول الآخر في الحسين بن علي رضي الله عنهما :
الغياث الغياث يا بن النبي من عدو وحاسد وغبي
ملجأ اللائذين غوث البرايا مأمن الخائفين من كل شيء

(١) حلية البشر ٣/ ١٣٠٨ .

(٢) انظر : عصمة الأئمة في كتاب : دراسة عن الفرق ص ٢٠٣ الدكتور أحمد محمد جلي .

(٣) ومن الذين حكموا بوضعه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقال : والكذب يعرف من نفس متنه . ٥١٥/٧ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية . تحقيق د . محمد رشاد سالم . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ هـ وأسهب رحمه الله في رد تلك الفرية وغيرها من مفتريات الشيعة في ذلك السفر العظيم .

أنت حقاً باب المدينة للعلم بحكم الوراثة الشرعي^(١)
ويقول أحدهم مادحاً أبا الأنوار شيخ السادات في مصر (المتوفى سنة
١٢٢٨هـ)^(٢) :

وعش زينة للدهر إنك روحه فما دمت لا يفنى الزمان ولا يمحي
وإنك للدين القويم ابتهاجه وإنك منهاج الحنيفية السمحا^(٣)
وإنك كهف المسلمين وركنهم وملجؤهم في كل نائبة قبحا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة أزلت لهم عن كل مشكلة جناحاً^(٤)
ويقول الآخر فيه :

وعلى بني العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عداك فيها النار
الجوهر الفرد الذي لم تشتمل أبداً على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يحتار
كناه مــــولاه أبا الأنوار إذ من نوره تتــــولد الأنوار
بعلاه آمنا فمن يؤمن ينل عدناً ونار لظى لها الكفار^(٥)
والأبيات واضحة الغلو في أن أبا الأنوار روح الدهر ، وما دام باقياً فإن

(١) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ١٥٨ محمد سيد كيلاني . دار الفرجاني .
القاهرة . ط ١٩٦٥ م .

(٢) انظر ترجمته في عجائب الآثار ٤١٩/٣ .

(٣) ولا ندرى أي دين يقصد هذا القائل إلا إن كان دين المبتدعة والمارقين ، وإن نعجب من هذا
فعجب من شطر البيت الثاني ، فمتى كان الطريقة يمثلون الحنيفية السمحة وهم الذين
خرقوا حجابها ومزقوا أثوابها .

(٤) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ١٥٦ .

(٥) المصدر السابق ص ١٥٧ .

الزمان محفوظ به ، والدين والمسلمون كذلك . فهو رحمة للخلق ، كاشف للنوائب والمشاكل ، وملجأ للمسلمين فيها ، وأن من آمن باصطفاء أبي الأنوار وصفاته ، فله جنات عدن . ومن يكفر به فالنار هي مصيره ومآله .

أما اعتقادهم الخاطيء في محبة أهل البيت فمنها قول أحدهم :
من الذين إله العرش طهرهم ومن أحبهم لن يدخل النار^(١)
وقول الآخر :

آل طه ذخيرتي المدح فيكم وأرى حبكم هو الإسلام^(٢)
ويقول إدريس بن محمد العمراوي (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ) :

حب آل النبي خير وسيلة وموالاتهم هدى وفضيلة^(٣)
وللشيخ محمد السنوسي قصيدة لامية بها ما يزيد على المائتين وسبعين بيتاً سماها «الأجنة الدنية القطاف بمفاخر سلسلة السادات الأشراف» أولها :

إن المودة في القربى هي الأمل يجري بها ويفوق الأجر والعمل^(٤)
ويقول أحدهم وقد أراد تخميس إحدى القصائد في مدح أهل البيت :

«لما كانت مدائح آل المصطفى هي من أعظم الوسائل للنجاة يوم العرض
والمسائل إلى أن قال : ولهذا شمرت ساعد الجد لتسميتها^(٥) طلباً للشواب
ومحبة لآل النبي الأواب»^(٦) .

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣) الإعلام بمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ٣/ ٣٤ .

(٤) شجرة النور الزكية ص ٤١٤ .

(٥) يعني نظمها انظر مختار الصحاح ص ١٣٢ .

(٦) حلية البشر ٢/ ١٠٥٧ .

وهكذا تهادى الغلو بهؤلاء الجاهلين ، في أهل البيت حين رفعوهم فوق منزلتهم ، واعتقدوا فيهم اعتقادات باطلة ؛ وذلك مثل : أن من أحب أهل البيت حباً منحرفاً كالذي وقعوا فيه ، فقد حرم الله النار عليه ؛ ولا غرابة في ذلك ، فإن الإسلام عندهم هو الغلو في محبة أهل البيت والاستغاثة بهم ودعائهم من دون الله عز وجل ، حتى ولو جاءوا بمثل الجبال ذنوباً وأوزارا .

تاسعاً : الشرك بالأحياء والغلو فيهم :

لم يكتف أهل البدع والضلالة بالعكوف على قبور الموتى وأضرحتهم ، يستشفعون بهم ، ويستغيثون بهم ، ويتوسلون بهم ، وإنما عمدوا إلى كثير من الأشخاص الأحياء ممن نظروا إليهم بمنظور الولاية المنحرف ، فأحاطوهم بهالات من التقديس ورفعوهم فوق مرتبتهم البشرية ، وصرفوا لهم كثيراً من العبادات ، وأشركوا بهم من دون الله عز وجل .

يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار صاحب كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» أن الشيخ طه بن جمعة الدسوقي قد استقر في قرية كفر كرمين بناحية جبل سمعان من أعمال حلب ، واختارها وأقام بها في غار هناك ، تزوره الناس ويأتونه بالنذور والذبائح على عادتهم ، ويعتقدونه ويتبركون بأنفاسه ودعواته ، وحصل الشفا لكثير من المرضى والزمنى^(١) على يده بإذن الله تعالى^(٢) .

ونستطيع أن نقول إن كثيراً ممن عكف على قبورهم بعد موتهم ، كان

(١) جاء في مختار الصحاح : الزمانة آفة في الحيوانات ، ورجل زمن أي مبتلى بين الزمانة ص ١١٦ .

(٢) حلية البشر ٧٥٣/٢ .

الناس خلال حياتهم يلجئون إليهم ، ويتبركون بهم ، ويشركون في كثير من الأحيان بهم .

وقد كان بعض الموالين لمحمد بن علي الإدريسي (المتوفى سنة ١٣٤١هـ)^(١) أثناء حروبهم مع الأتراك يستغيثون به ويقولون « المدد يا مهدي الله، يا إدريسي »^(٢) .

وكان بعض المتصوفة يأمرّون الناس أن يستغيثوا بهم ، كما كان يفعل المدعو أحمد بن زيني دحلان الذي أفنى حياته كما مر معنا من قبل في محاربة الدعوة السلفية ، فقد كان يأمر الأعراب بذلك . ويقول لهم : لا تخافوا من شيء أبداً وإذا حصل لكم ضيق في أمر كان فنادوني ، واستغيثوا بي فإني أغيث الملهوف .

ومن ذلك يقولون : إنه حصل لبعضهم ظمأ شديد حتى أشرف على

(١) الأعلام ٦/ ٣٠٣ .

(٢) الرحلة اليمانية ص ١٠ ، ص ٤٧ شرف بن عبد المحسن البركاتي المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٤هـ وقد كان المؤلف مرافقاً للشريف حسين في حملته عام ١٣٢٩هـ التي قادها لمحاربة الإدريسي .

ومما يجدر ذكره أن الإدريسي كان عميلاً لإيطاليا التي أعلنت الحرب ضد الدولة العثمانية في ليبيا ، فأرادت شغل الدولة بفتح جبهة لها على البحر الأحمر في ساحله الشرقي فوقع اختيارها على الإدريسي إبان وجوده في مصر ، ونفذ مهمته بنجاح ، وأمدته إيطاليا بالمال والسلاح وحالف في آخر أيامه بريطانيا؛ كل ذلك ضد الدولة العثمانية ، ولم يمهله الله طويلاً حيث مات دون الخمسين عاماً . ولا يزال بعض المسنين الذين أدركوا دولة الإدريسي يقصون لنا طرقاً من الخرافات الرائجة التي أشاعها الإدريسي وأتباعه في ذلك العهد كما حدثني بعضهم أنه شاع عند الناس أن اسم الإدريسي مكتوب على أوراق الشجر . وبالطبع فإن غالب أهل المنطقة هناك أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، ويسهل جداً خداعهم والتغريب بهم ، ولا زال بعض الشعر الشعبي المحفوظ في المنطقة يشيد ببعض تلك الخرافات ، والتي منها على سبيل المثال رعي الغنم من غير راع مع الذئب دون أن يسها بأذى ، كرامة بزعمهم للإدريسي .

الهلاك في إحدى البراري ، فتذكر ما قاله الدحلان ، فنأى بأعلى صوته :
يا مولانا وشيخنا السيد أحمد دحلان أغثنى فإني أشرفت على الهلاك ، فما
شعر الرجل المذكور إلا وكأنه صب في جوفه ماء فروي ، وأزال الله ما به من
ظماً .

وسافر بعضهم أيضاً فضل الطريق ، وكان ذلك في ليلة مظلمة فحصل
له كرب عظيم وضيق فتذكر مقالة الأستاذ المذكور ، ونأى بأعلى صوته : يا
سيدي أحمد أنقذني من هذه الحيرة ، فما تم مقالته إلا وضوء أضاء له أبصر
به الطريق ، وفرج الله عنه ما به ببركة هذا الأستاذ من الهم والضيق^(١) .

وقد تمأدى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة
التوحيد فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء ، بل أشركوا بالأشجار والأحجار .
ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من
بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس ،
لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور ، ويطلبون منه إطلاق
ألسنه أطفالهم وهو يعرف عندهم «طوب أبي خزيمة» ، مما حدا بالعلامة
محمود شكري الألوسي إلى التصدي لهذه الخرافة الشيعة بكتابة رسالة
يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ (القول الأنفع في الردع عن زيارة
المدفع)^(٢) .

(١) نفحة الرحمن في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم الشيخ أحمد بن
المرحوم السيد زيني دحلان - ص ٣٣ أبو بكر بن محمد شطا . القاهرة . دار فينوس .
١٣٠٥ هـ .

والمطالع لهذه الرسالة يرى أنها نفحة شيطانية وليست رحمانية ، فقد جاء فيها من البدع
والخرافات ما يعجز مجلد كبير عن رده وإبطاله .

(٢) المسك الأذفر ص ٣٣ .

يقول الشيخ محمد بهجت الأثري : «وكانت العامة تعتقد بهذا المدفع اعتقاد الجاهلية باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؛ إذ تنذر له النذور ، وتعلق عليه التماثم ، وتقبله وتبترك به إلى غير ذلك من المنكرات»^(١) .

ويقول النبهاني : «إنه رأى هذا المدفع عام ١٣٣٢هـ وعام ١٣٤٣هـ ، وقال عنه : وهو معظم عند أهل بغداد حتى إنهم يدخلون رأس كل مولود يولد لهم في ملفظ المدفع تبركاً به إلى حال التاريخ ، وهو موضوع في محل مخصوص يزار ويتبرك به ، ويعتقدون فيه اعتقاداً تاماً»^(٢) .

وفي المسجد الحسيني في القاهرة عمود من الرخام يطوف به الرجال والنساء من العامة ويتمسحون به التماساً للبركات وتقرباً إلى السيد البدوي الذي يزعمون أنه يجلس بجانبه عند زيارة جده الحسين^(٣) .

أما باب المتوفي فهو باب كبير بجانب جامع المؤيد في القاهرة ، كما يقول الشيخ رشيد رضا ؛ ترى الناس نساءً ورجالاً يتمسحون بهذا الباب آناء الليل وأطراف النهار يلتمسون البركات وتفريج الكربات وشفاء المزمين ودفع المصائب ورد النوائب ، وتراهم يقبلون مسامير الباب الحديدية ، ويربطون بها الخرق من آثار الذين يلتمسون شفاءهم من أسقامهم أو عطف معشوقهم عليهم^(٤) .

وكان إتيان الكهان والسحرة والمشعوذين سمة من سمات تلك الفترة ، وامتاز العصر العثماني بظهور مؤلفات في الروحانيات من سحر وطلاسم

(١) أعلام العراق ص ١٤٥ .

(٢) التحفة النبهانية ص ٢٦٣ .

(٣) المنار ١/ ٨٩٣ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ٥٠٠ .

وضرب للرمل وتنجيم^(١) وقد تحدث العلامة القاسمي عن انتشار هذه المنكرات ، وأبدى أسفه وحزنه على إقبال الناس عليها^(٢) .

وحين أيس القواد المغاربة من القضاء على ثورة أبي حمارة- الذي سبق ذكره- رأى بعضهم أن يستخدم السحر والشعوذة في سبيل القضاء عليها^(٣) .
وقد ذكر الشوكاني ساحراً مغرباً قدم اليمن ، وأخذ يعرض أسحاره ، وقد أكرمه إمام اليمن إكراماً زائداً^(٤) .

وذكر صاحب «نيل الوطر» قريباً من ذلك عن المدعو بالسيد أحمد بن عبد الله لقمان حيث يقول : «وكان للمترجم ملكة عظيمة في علم الأسماء والحروف»^(٥) ، ويد قوية على شياطين الجن»^(٦) وما هو إلا ساحر كذاب ، ولكن السحر في تلك الفترة كان عند الكثيرين علماً ومهارة ومهنة مريحة .

وذكر الواسعي : أن رجلاً ظهر في المشرق يخبر الناس بالدفائن (الكنوز) والأسرار وأن الناس فتنوا به ، وقصدوه من كل مكان^(٧) . وذكر خبراً آخر

(١) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٥٤ .

(٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد ص ٢٢١ المكتب الإسلامي . الطبعة الرابعة ١٣٩٩ هـ- بيروت .

(٣) أعلام المغرب العربي ١/ ٣٧٣ .

(٤) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ١/ ٣١٤ مطبعة السعادة . الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ .

(٥) علم الحروف والأسماء كما ذكره صاحب (كشف الظنون) : علم باحث عن خواص الحروف أفراداً وتركيباً . ١/ ٦٥٠ ويعتمد على الطلسمات والعزائم ومعاملة الجن ، وهو علم السحرة والمشعوذين والدجالين وليس له في الإسلام من نصيب .

(٦) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر ص ٢٠ محمد بن زبارة . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

(٧) تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ٣٢٦ عبد الواسع ابن يحيى الواسعي . مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٦ هـ- ١٩٤٧ م .

عن ساحر ظهر في زبيد وادعى النبوة ، وتبعه جماعة من العوام^(١) . وذكر خبراً ثالثاً عن رجل ظهر في تهامة له علاقة بالأسحار والتمويه ، فتبعه جماعة عظيمة من الناس^(٢) .

ويمكننا أن نقول : إن السحر والكهانة والشعوذة في تلك الفترة كانت تلقى رعاية في رحاب المتصوفة ، وما أكثر السحرة والكهان الذين اعتقدتهم العوام أولياء وما أكثر المتصوفة الذين عالجوا ضروب السحر والكهانة والشعوذة .

وفي الموالد الخاصة يتوافد السحرة لاستعراض سحرهم وشعوذتهم . واختصت بعض الطرق الصوفية كالأحمدية والرفاعية والسعدية بذلك الدجل والإفك^(٣) .

عاشراً : الحلف بغير الله عز وجل :

يقول ﷺ : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(٤) .

وفي تلك الفترة السوداء اعتاد الناس أن يحلفوا بغير الله عز وجل من المخلوقين ، وكان حلفهم ينبعث في الغالب من تعظيم المحلوف به ، وخوفهم ورهبتهم منه واعتقادهم في نفعه وضرره .

وما أسهل أن يحلف الإنسان منهم بالله كاذباً ، عامداً متعمداً ، ولكنه لا يجروء أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً .

فالحلف بصحيح البخاري عند كثير منهم ، يفوق الحلف بالقرآن

(١) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٣) انظر : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١٩/١ .

(٤) رواه الترمذي برقم ١٥٣٥ كتاب النذور والأيمان . وقال : حديث حسن .

العظيم ، ويحلف الواحد منهم بالله وبالقرآن كاذباً ، ولا يجترئ أن يحلف بالبخاري كاذباً ، لأن البخاري يزعمه (وهو من الأولياء عندهم) يستشيط غضباً فينتقم لنفسه ممن حلف بصحيحه كاذباً^(١) .

وفي حلب زاوية تعرف بمزار الشيخ جاكير لها شيء من الأوقاف ، وأهل تلك المحلات يعتقدون به اعتقاداً زائداً ، ويحلفون به عند ضريحه المظنونين والمتهمين ، فلا يجسر أحد على الحلف به باطلاً ، لاعتقاده حينئذ أنه لا بد وأن ينكب بجسمه أو ماله أو ولده ، ويحكون في هذا المعنى حكايات كثيرة^(٢) .

«ويقسم كثير من الناس بالأضرحة ، ويخافونها إذا حنثوا في أيمانهم أكثر مما يخاف من الله ، فقد يطلب المشتكي من خصمه أن يقسم على ضريح مقدس خيراً من أن يقسم بالله أو بالقرآن ، ويعتقدون أن لتلك الأضرحة قوة الانتقام إذا كان المقسم حائثاً»^(٣) .

ويقول الإمام الشوكاني عند حديثه على القبوريين وتعظيمهم للأموات : «وأفضى ذلك إلى أن أحدهم يحلف بالله تعالى فاجراً ، ولا يحلف بمن يعتقد من الأموات ، ويقدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت الله ، ولا يقدم عليها عند قبر من يعتقد»^(٤) .

(١) وسنذكر إن شاء الله تعالى بعض التعليقات لاهتمام الناس بالبخاري على طريقتهم المنحرفة .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٥٠٧/٢ .

(٣) تاريخ حضرموت السياسي ص ١٢٠ وقد ذكر صلاح البكري عشرة من الأضرحة المشهورة في حضرموت التي يحلف بها الناس ، ولا يجراء أن يحنثوا بها .

(٤) أدب الطلب ص ١٦٨ .

لقد كان أمراً طبيعياً مع انتشار عبادة الأضرحة والقبور أن ينتشر الحلف بغير الله ، حتى غدا بين الناس أمراً معتاداً لا غبار عليه ، وضمنه الشعراء والأدباء قصائدهم ومثوراتهم .

يقول أحدهم حالفاً بالشيخ محيي الدين ابن الأمير عبد القادر الجزائري :

يميناً بمحيي الدين باشا أبو الهدى سليل الذي من فاق شرقاً ومغرباً
لقد ورث المجد المؤثر والعلا عن الغوث فرد الكون من قد تقطبا^(١)
ويقول الآخر : أقسم بالشمس والقمر ، ونسيم الصبا إذا سرى في
السحر ، لهو البليغ الذي فاق نظمه ونثره^(٢) .

أما الحلف بالنبي^(٣) فهو أمر لا يكاد يفارق الألسن إلا نادراً ، بل لقد كانوا يحلفون بشباك المقصورة المعمولة على قبره ﷺ . فيقول أحدهم إذا أراد أن يحلف : لا وحياء النبي الذي وضعت يدي على شباكه . وما دام أنه قد وضع يديه على شباك المقصورة فكيف له أن يحلف كاذباً ، أما إن لم يكن قد وضع يديه على هذا الشباك ، فالأمر عندهم فيه متسع !! .

وقد كانوا يحلفون بزمزم والبيت والمقام خصوصاً الأعراب ، فيقولون

(١) حلية البشر ٣/ ١٤٤٧ . ومعنى تقطبا : أصبح قطباً أعظم وهو من معتقدات الصوفية الخرافية .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٨٥ . ومن المعلوم أن الله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله عز وجل .

(٣) أجاز بعض العلماء الحلف بالنبي وهو قول عند الإمام أحمد لأنه يجب الإيمان به خصوصاً ويجب ذكره في الشهادتين والأذان ، والجمهور على عدم جوازه وهو الصواب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله . مجموع الفتاوى ٢٧/ ٣٤٩ .

إذا حلفوا وأقسموا : والبيت الحرام ، وزمزم ، والمقام ما فعلنا كذا مثلاً^(١) .
وهكذا زين لهم الحلف بغير الله عز وجل ، وأصبح الله عز وجل أهون
الناظرين إليهم ، وتواطأت قلوبهم على خشية ما اعتادوا الحلف به ، أما
الخوف من الله عز وجل ، والحذر من عقابه وانتقامه ، أما توحيده فهو أمر
طمسته البدع والشركيات والخرافات .

ثانياً : انتشار البدع والخرافات

انتشرت البدع في هذين القرنين انتشاراً ذريعاً ، وأصبحت حياة أكثر
المسلمين ممزوجة بها ، فقلما تخلو منها عبادة أو عمل أو شأن من شؤون
الحياة . فبدءاً بالعبادات التي داخلتها ألوان البدع والمحدثات ، مع إمامة كثير
من السنن والمندوبات ، إلى ما وقع من البدع في الجنائز والمآتم والأعراس
والضيافات والولائم ، وفي كل شؤون الحياة . أضف إلى ذلك بدع الموالد
وما يحدث فيها ، وبدع أرباب الطريق من المتصوفة الذين هم أصل كل شر
في انتشار البدع بين صفوف المسلمين .

والداهية أن تهيمن هذه البدع لا على حياة العوام فحسب ، ولكن على
حياة كثير من العلماء الذين شايعوها ونصروها «وهكذا أصبحنا نرى البدع
في كل مكان تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس^(٢) يعمل بها
الجاهلون ، ولا يستنكف عن تأييدها العالمون ، حتى لقد انتهينا إلى اليوم
الذي ورد ذكره في حديث ابن مسعود إذ قال : يأتي على الناس زمان تكون
السنة فيه بدعة والبدعة سنة»^(٣) .

(١) الرحلة الحجازية ص ٢٤٦ محمد ليب البتنوني .

(٢) بل لقد احتلتها فعلاً كما سنرى .

(٣) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ٣٤ .

وقد كان الناس عند حلول الأزمات والشدائد يفرون إلى هذه البدع كي
تزول أزمته ، وتنكشف شدتهم ، ومن ذلك قراءة صحيح البخاري عند
وقوع الأحداث ، وكذلك ما كان يقوم به أرباب الطريق والعوام من أذكار
مبتدعة ، ومجالس مخترعة .

وقد كان سلاطين المسلمين وملوكهم يرسلون إلى العلماء في زمن
الحروب ليقروا لهم صحيح البخاري^(١) .

ويذكر الجبرتي أن السلطان العثماني في سنة ١٢٠٢ هـ أرسل أموالاً
لتفرق على طلبة العلم في الأزهر؛ ليقروا له صحيح البخاري ويدعوا له
بالنصر^(٢) .

ويذكر أنه حين قدوم الفرنسيين إلى مصر ، وقبل دخولهم القاهرة ، كان
العلماء يجتمعون بالأزهر كل يوم ، ويقراءون البخاري وغيره من

(١) وفي مقام التفضيل بين الصحيحين ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في « هدي الساري »
في سياق تفضيل صحيح البخاري على صحيح مسلم وجهاً من وجوه التفضيل خارجاً عن
موضوع الصحيحين حيث قال بعد كلام طويل : « وإذا تقرر ذلك فليقابل هذا التفضيل
بجهة أخرى من وجوه التفضيل غير ما يرجع إلى نفس الصحيح ، وهي ما ذكره الإمام
القدوة أبو محمد بن أبي جمرة في اختصاره للبخاري قال : قال لي من لقيته من العارفين
عن لقي من السادة المقر لهم بالفضل أن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت ولا
ركب به في مركب ففرق ، قال : وكان مجاب الدعوة ، وقد دعا لقارئه رحمه الله تعالى » .
هدي الساري ص ١٣ . وأقول : لعل تلك المقالة هي الأصل لنشوء بدعة قراءة صحيح
البخاري في الخطوب والأزمات ، وهي مقالة كما نرى لاتصلح أن تكون مستنداً لما اعتاده
كثير من المسلمين واعتقدوه في قراءتهم للصحيح كلما دهمهم خطب أو حلت بهم نازلة ،
وإن كان البخاري رحمه الله مجاب الدعوة فلماذا يلجأ إلى قراءة صحيحه تبركاً بدعائه
لقارئ كتابه؟! ولا يدعى رب البخاري ورب كل شيء مباشرة القائل في محكم كتابه :
﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكَ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ النمل ٦٢ .

(٢) عجائب الآثار ٥٣/٢ .

الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمديّة والرفاعيّة والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأَشَاير ، ويعملون لهم مجالس بالأزهر ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء^(١) .

وخرجت أرباب الأَشَاير بالطبول والزمرور والأعلام والكاسات ، وهم يضحجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، ويذكر أيضاً أن العامة لما التحم القتال ضجوا بالصياح ورفع الأصوات قائلين : يا رب ، يا لطيف ، يا رجال الله ، حتى حلت الهزيمة في خلال ثلاثة أرباع الساعة^(٢) .

واحتل الفرنسيون القاهرة ، فلم يكن لمثل هذه الجموع الفوضوية التي كانت غارقة في البدع والخرافات أن تقاوم الجيش الفرنسي في قوته وتدريبه ونظامه ، وكان الأولى بهؤلاء الطريقة وغيرهم أن يلقوا بطبولهم وأشَايرهم ومزاميرهم ، ويحملوا السلاح ليقاتلوا به الفرنسيين ، بدلاً من صخبهم وضجيجهم وصياحهم بأذكارهم المبتدعة .

كما كان الأولى بعلماء الأزهر الذين كانوا يعكفون على قراءة الصحيح لحصول النصر أن ينظروا ما بين دفتي صحيح البخاري من أحاديث وسنن وسير ومغاز فيقتدوا بما فيها ، ويقوموا بواجبهم في نصح الأمة وقيادتها وتوعيتها ، وحثها على الجهاد والإعداد وبذل جميع الأسباب ، بدلاً من تجزيء صحيح البخاري وقراءته فيما بينهم .

وقد ظل علماء الأزهر وشيوخه يحافظون على هذه البدعة كلما ألت

(١) عجائب الآثار ٢/ ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٨٦ .

بالبلاد مصيبة ، أو داهمتها كارثة ؛ فبعد مرور ما يقارب من تسعين عاماً على مجيء الفرنسيين إلى مصر ، قام الأسطول الإنجليزي بقصف مدينة الإسكندرية وتمكن من احتلالها . يقول القياتي وهو من شيوخ الأزهر :

«وعندما انتشبت الحرب بين الإنكليز وأهل الوطن العزيز ، اجتهدوا غاية الاجتهاد ، في سبيل المدافعة والجهاد ، بأخذ الأهبة والاستعداد . . . وكانت السادة العلماء الأعلام ، ولا سيما أستاذنا شيخ الإسلام ^(١) ، يقرءون كتاب البخاري الشريف ، في الجامع الأزهر الأنور المنيف ^(٢) .

فهل كان يقف دور علماء الأزهر عند هذا الحد ، مكتفين بقراءة البخاري ، معتقدين أن فعلهم ذلك من أعظم أسباب النصر على الأعداء؟! ^(٣)

كتب أحد الفضلاء الأزهرين في جمادى الثانية سنة ١٣٢٠هـ في إحدى المجلات مقالة بعنوان : «بماذا دفع العلماء نازلة الوباء» فقال :

« دفعوها يوم الأحد الماضي في الجامع الأزهر بقراءة متن البخاري موزعاً كراريس على العلماء وكبار المترشحين للتدريس في نحو ساعة جرياً على عادتهم من إعداد هذا المتن أو السلاح الحبري لكشف الخطوب ، وتفريج الكروب ، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدفع والصارم والأسل ^(٤) ،

(١) يعني شيخ الأزهر .

(٢) نفحة البشام ص ٧ .

(٣) ومن الإنصاف أن نذكر أن عدداً من علماء الأزهر كان لهم دور فيما سمي بالثورة العراقية وفي جهاد الإنجليز ، غير أن الدور المطلوب منهم كان أعظم بكثير مما قاموا به .

(٤) الأسل : هي الرماح . انظر : مختار الصحاح ص ٧ .

وفي الحريق مقام المضخة والماء ، وفي الهیضة ^(١) مقام الحیطة الصحیة وعقاقیر الأطباء ، وفي البیوت مقام الخفراء والشرطة ، وعلى كل حال فهو مستنزل الرحمت ومستقر البركات . . . (إلى أن قال) فإننا نعلم أنه قرئ للعربیین في واقعة التل الكبير فلم یلبثوا أن فشلوا ، ومزقوا شر ممزق ، ونعلم أنه یقرأ في البیوت لتأمن من الحریق . . . » ^(٢) .

ویذكر الشیخ محمد سلیمان أنه لما وقعت الحرب بین مصر والحبشة - وقد سبق أن تحدثنا عنها - وتوالت الهزائم على مصر ضاق صدر الخدیوی إسماعیل ، فركب يوماً مع شریف باشا وهو محرج فأراد أن یفرج عن نفسه فقال لشریف باشا : ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها ؟ فقال : یا أفندینا إن الله عودنی إذا حاق بی شیء من هذا أن ألقأ إلى صحیح البخاری یقرؤه لی علماء أطهار الأنفاس فیفرج الله عنی ، فکلم شیخ الجامع الأزهر وكان الشیخ العروسی فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً وأخذوا یتلون فی البخاری أمام القبلة القدیمة فی الأزهر ، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالی ، فذهب الخدیوی إسماعیل ومعه شریف باشا إلى العلماء وقال لهم محققاً : إما أن هذا الذي تقرأونه لیس صحیح البخاری أو أنکم لستم العلماء الذین نعدهم من رجال السلف الصالح ؛ فإن الله لم یدفع بکم ولا بتلاوتکم شیئاً . فوجم العلماء لذلك وابتدره شیخ من آخر الصف یقول له : منک یا إسماعیل ، فإننا روینا عن النبی ﷺ أن قال : «لتأمن بالمعروف ولتنهون عن

(١) جاء فی مختار الصحاح : یقال : بالرجل هیضة : أي به قیاء . ص ٢٩٣ . وهو هنا الوباء الذي یكون القیء من أعراضه وعلاماته .

(٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد ص ٢٥٦ .

المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم» (١).

ويذكر أن الخديوي دعاه بعد ذلك وأجلسه على كرسي أمامه وطلب منه أن يعيد ما قال فقال الخديوي : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال : يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليس الزنا برخصة ؟ أليس الخمر مباحاً ؟ أليس . . . وعدد له منكرات تجري بلا إنكار . فقال : وكيف تنتظر النصر من السماء ؟ فقال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيته ! قال : إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء ؟ ثم ذكر أن الخديوي قرره راتباً خاصاً (٢) .

وهكذا رضي العلماء من قيادة الأمة بهرور الظالمين إليهم ليقرؤوا لهم صحيح البخاري، ومع إحساس علماء الأزهر بخطورة التحولات التي كانت تجري على أرض مصر، إلا أن بعدهم عن عقيدة السلف حال دون إدراكها في كثير من الأحيان .

ولكي ندرك سر العكوف على قراءة ذلك الجامع العظيم من قبل كثير من علماء الإسلام في أوقات الشدائد والحروب؛ نورد أبياتاً من قصيدة ألفت بدار الحديث الأشرفية (٣) ، وقد آل بها الزمن حتى وقعت تحت يد رجل

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في المسند (٥/٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١).

(٢) من أخلاق العلماء ص ٦١ الشيخ محمد سليمان .

(٣) دار الحديث الأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف موسى بن العادل (المتوفى سنة ٦٣٥هـ)، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي، بناها سنة ٦٣٠هـ ووقف عليها أوقافاً كثيرة، ودرس فيها الحديث وغيره من العلوم جمع من أئمة الحديث وعلماء الإسلام : منهم الحافظ تقي الدين ابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣هـ)، والإمام النووي (المتوفى سنة ٦٧٦هـ)، والحافظ أبو الحجاج المزي (المتوفى سنة ٧٤٢هـ)، وغيرهم . انظر : البداية والنهاية ١٣/١٤٦ . ودرس فيها بعد المزي القاضي السبكي، جاء في طبقات الشافعية الكبرى =

نصراني ، فاستنقذها منه الأمير عبد القادر الجزائري واشتراها منه ، وقرئ فيها صحيح البخاري ، واحتفل بعودتها ، والقصيدة للشيخ يوسف بن بدر الدين المغربي (المتوفى سنة ١٢٧٩هـ) ^(١) حيث يقول :

إن البخاري معلوم الإجابة في ما أمه المرء في أقرانه ونحنا
فما توصل محزون به ورجا إلا وأبدل من أحزانه فرحاً
ولا تلاه لكشف الضر ذو هرج إلا تباعد عنه الضر وانفسحاً
فالهج به ورواة فيه قد وصلوا به حديث رسول الله متضحاً
إلى أن قال :

= لابن السبكي عن والده : « لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة كان يخرج في الليل إلى إيوانها فيتهجد تجاه الأثر الشريف ، ويمرغ وجهه على البساط ، وهذا البساط من زمان الأشرف الواقف وعليه اسمه ، وكان يجلس عليه وقت الدرس ، فأنشدني الوالد لنفسه :

وفي دار الحديث لطيف معنى على بسط لها أصبو وآوي
عسى أني أمس بحر وجهي مكاناً مسه قدم النواوي
طبقات الشافعية الكبرى ٣٩٦/٨ عبد الوهاب بن علي السبكي . تحقيق عبد الفتاح الحلو
ومحمود الطناحي الطبعة الأولى . عيسى البابي الحلبي وشركاه .
ومع انحراف الأمة عن منهج سلفها الصالح ، ومع هيمنة القبوريين ، وانتشار عبادة الأضرحة ، وفشو الجهل ؛ آلت هذا الدار العظيمة والمعهد العريق إلى ملكية رجل نصراني ، فأَي هوان أعظم من هذا . حتى جاء الأمير عبد القادر الجزائري فاستخلصها منه ، ولكنها عادت رسماً وشكلاً وليس معنى ومضموناً ، ولم يعد يدرس فيها الحديث إلا بعض المتصوفة على سبيل البركة . فمتى تعود الأمة إلى دور الحديث ، إلى حقيقتها وأصالتها ، وليس إلى رسومها وأطلالها؟! »

(١) الأعلام ٢٣٧/٨ . يقول الزركلي : وله قصيدة سماها « التحديث عن نازلة دار الحديث » في نحو ٤٠٠ بيت ، أولها « الله أكبر هذا علم غمويه » ، وهي غير القصيدة التي سنورد أبياتاً منها .

وللبخاري رجال يستغاث بهم

بجاههم أسأل الرحمن مغفرة
في المحل^(١) أو في الخطب إن فدحا
ونكبة لعدو الدين عاجلة
ورحمة تذهب الأحزان والترحاً
ثم يقول :
تدير بالهلك والتدبير كل رحا

ما خاب من جعل المختار واسطة

فإنه باب فضل الله ما برحت
ووصلة للذي يرجوه واقترحاً
ما نال ذو مطلب دنيا وآخره
سحائب الجود منه تمطر المنحاً
وهكذا صار مفهوم الدين والعلم عندهم ، حيث تحول من منهج كامل
وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون
بها ، ويحسبون أنهم مهتدون . وتحول صحيح البخاري بما حواه من منهج
للنبي ﷺ إلى تقليد بال رتيب ، يتلى في الأزمات ، ويقرأ في الحروب ،
طلباً للنصر ودحر الأعداء .

ومن خلال الآيات السابقة يتبين مدى اعتقاد هؤلاء الجهال في صحيح
البخاري ، ومدى اعتمادهم عليه في رد كيد الكائدين ، وفي نكبة الأعداء
والمعتدين ، نرى ذلك في قول الشاعر :

ونكبة لعدو الدين عاجلة

فلا جرم بعد هذا أن عكف على قراءته العلماء عند وقوع الحروب ،
ومنازلة الغزاة . أما أن يحاولوا إعداد العدة والقوة ، ويتلمسوا سيرة
النبي ﷺ وغزواته وجهاده ، وكيف كان يأخذ بالأسباب ويجتهد غاية

(١) المحل هو الجذب وانقطاع المطر . مختار الصحاح ص ٢٥٧ .

(٢) حلية البشر ٣ / ١٦٠٤ - ١٦٠٧ .

الاجتهاد في تحصيلها ، فإن هذا لم يكد يخطر لهم على بال .

وقد ذكرنا أن الناس كانوا يفرون عند وقوع النوازل إلى البدع ظناً منهم أنها تقيهم بأسها ، وتحميهم من آثارها ، كما رأينا ذلك عند قدوم الفرنسيين إلى مصر .

ويذكر الجبرتي أن الناس انكمشوا عن بدعهم خوفاً من الفرنسيين ، ولكن ما إن سمح لهم الفرنسيون بها ، بل شجعوها ، حتى تسارع الناس إليها ملهوفين عليها . وذكر أن نابليون بنابرت سأل الشيخ البكري عن عدم إقامة المولد النبوي ، بعد احتلال القاهرة ، فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور ، وتوقف الأحوال ، فلم يقبل نابليون ذلك ، وقال : لابد من ذلك ، وأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسي معاونة منه في إقامة هذا المولد ، وأمر بتزيين البلد كالعادة ، واجتمع الفرنسيون يوم المولد ، ولعبوا ميدانهم ، وضربوا طبولهم ودبادبهم^(١) . وقد كان نابليون يواظب على حضور المولد النبوي بنفسه .

وكما أمر الفرنسيون بإقامة المولد النبوي ، وإعادة الشعائر المعطلة ، فكذلك أعيد المولد الحسيني خوفاً منهم ، حيث قام الشيخ السادات بعمله ، وقد حضر نابليون هذا المولد أيضاً ، بل كانوا يجبرون الناس ويقهرونهم على الاحتفال بهذه الموالد ، ويغرمون من يأبى أن يحتفل بها ، ويسمرون دكانه^(٢) .

وإن المرء ليتساءل عن اهتمام الفرنسيين بإعادة هذه الموالد المبتدعة ،

(١) عجائب الآثار ٢/ ٢٠١ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٤٢ ، ومعنى يسمرون دكانه : يغلقونه قهراً بندق المسامير فيه .

وقهر الناس على الاحتفال بها ، ودعمها بالمال . ويجيبنا الجبرتي على هذا التساؤل بما رآه الفرنسيون في هذه الموالد «من الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات»^(١) .

لقد أدرك الفرنسيون ما يقع بسبب هذه الموالد من سلبيات ، وما تستنفده من جهود وأموال ، وتشغله من أوقات وتفكير ، وما في ذلك من صرف للناس عن جهاد المحتلين ومقاومتهم . وهو ما لم يدركه الكثير من العلماء ممن شجعوا تلك الموالد ، أو حتى غضوا الطرف عنها .

ولا شك أن الفرنسيين أدركوا ما لتلك الموالد من مكانة عظيمة في حياة الناس ، لذا سارعوا بإعادتها ، حتى يلأها الناس بها ، وتعود الأمور إلى مجاريها ، وكأن شيئاً لم يحدث ، ويغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً من أبواب الثورة .

«وأخذ الفرنسيون يفكرون فيما يغطون به سخط الشعب المصري ، ويقرب قلوب الناس إليهم ، فرأوا أن من أجدى الوسائل التي قد تؤدي إلى ذلك إحياء الموالد ، كما كانت في سالف الأيام»^(٢) .

أما المسلمون فقد كانت هذه الموالد في حسهم من أعظم شعائر الدين التي يتقربون بها إلى الله عز وجل وإلى أصحاب الموالد أنفسهم ، ويعتقدون وجوب إقامتها والمداومة عليها وبذل الغالي والنفيس لأجلها .

ولكم كانت سعادة الناس بعودة الموالد ، ويسجل ذلك الجبرتي عند

(١) المصدر السابق ٣٠٦/٢ .

(٢) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول ص ١٦١ حسن السندوبي . مطبعة الاستقامة . ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

سوقه لأحداث عام ١٢١٣ هـ وهو عام دخول الفرنسيين : «ومنها أن أهل مصر جروا على عاداتهم في بدعهم التي كانوا عليها ، وانكمشوا عن بعضها ، واحتشموها^(١) خوفاً من الفرنسيين ، فلما تدرجوا فيها ، وأطلق لهم فرنساوية القيد ، ورخصوا لهم ، وسايروهم ، رجعوا إليها ، وانهمكوا في عمل موالد الأضرحة^(٢) التي يرون فرضيتها ، وأنها قرينة تنجيهم بزعمهم من المهالك^(٣) ، وتقربهم إلى الله زلفى في المسالك ، فرمحوها^(٤) في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها ، وانقطاع الأخبار ، ومنع الجالب ، ووقوف الإنكليز في البحر ، وشدة حجزهم على الصادر والوارد ، حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة»^(٥) .

ويجدر بنا أن نقف بعض الشيء مع هذه الموالد التي كان يحتفل بها لنلقي بعض الضوء عليها :

أولاً : المولد النبوي :

يعتبر العبيديون والذين يطلق عليهم زوراً وبهتاناً الفاطميون ، هم أول من ابتدع فكرة الاحتفال بالمولد النبوي ، وجعلوه من الأعياد العامة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومع اختلاف الناس في مولده ﷺ فإن

(١) الحشمة هي الاستحياء . انظر : مختار الصحاح ص ٥٨ .

(٢) في الأصل : مواليد .

(٣) ليت شعري ماذا أغنت عنهم موالدهم تلك ، يوم حل الفرنسيون بساحتهم ، واحتلوا بلادهم ، وساموهم سوء العذاب .

(٤) رمحوها : ضربوا . من باب رمحه الفرس والحمار والبغل أي ضربه برجله . انظر : مختار الصحاح ص ١٠٧ .

(٥) عجائب الآثار ٢/ ٢٤٩ .

هذا لم يفعله السلف ، مع قيام المقتضى له (وهو محبته ﷺ) ^(١) وعدم المانع منه ، ولو كان هذا خيراً محضاً ، أو راجحاً ، لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا ، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا ، وهم على الخير أحرص ، وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعتة وطاعته واتباع أمره ، وإحياء سنته باطناً وظاهراً ، ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ، فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ^(٢) .

وقد قال أحد الذين كتبوا في تاريخ المولد : إن الخلفاء الراشدين لم يفكر أحد منهم في الاحتفال بالمولد النبوي ، لانصرافهم إلى تثبيت دعائم الدين ، أما الأمويون فشغلوا بمنازعة خصومهم من العلويين تارة ، وبالزبيريين والخوارج تارة أخرى ، وبالاتمرار في الفتوحات ، وكذلك كان حال العباسيين بانشغالهم بعداوة الأمويين في بادئ الأمر ثم منازعة أبناء عموماتهم من العلويين ، وكذلك استمرارهم في الفتوحات ، وإزجاء ^(٣) الصوفي والشواتي ^(٤) إلى الأطراف .

ثم قال بعد هذا : ولهذه الأسباب كلها مجتمعة أو متفرقة ، لم تجر

(١) مابين القوسين زيادة من المؤلف .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٢٩٥ . تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي دار المعرفة . لبنان .

(٣) يعني : سوق . مختار الصحاح ص ١٣ . كقوله تعالى : ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الإسراء] .

(٤) الصوفي والشواتي هي الحملات التي كانت ترسل للجهاد وحماية الثغور في الصيف والشتاء .

فكرة اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً إسلامياً ، أو موسماً قومياً ، يحسن الاحتفال به ، على قلب أحد من هؤلاء جميعاً^(١) .

وفي الحقيقة أن هذا الكلام باطل من أصله خصوصاً كلامه على الخلفاء الراشدين ، وقد سبق من كلام شيخ الإسلام ما يرد ذلك . وكذلك كان أهل القرون المفضلة الذين لم يعملوا هذه البدعة ، وهكذا من جاء بعدهم من المسلمين والدول ، حتى نبتت دولة العبيديين الذين استهانوا بالشرائع والسنن ، واستباحوا الحرمات والأعراض ، وتولوا الكافرين ، وأحيوا من البدع ، وأحدثوا منها الشيء الكثير . فكان من جملة ما ابتدعه الاحتفال بالمولد النبوي المختلف في تاريخ وقوعه كما بين شيخ الإسلام .

ومع إقرار الكاتب أن المواسم والأعياد والموالد وما شاكلها من البدع التي لم يأذن الله بها ، ولا ورد فيها ما يشير إلى أن النبي ﷺ أمر بها ، أو أشار إليها ، أو باشروا في قول أو فعل - حاشا عيد الأضحى والفطر - ولم يعرفها أحد من الصحابة ، ولم يشهد بها أحد من التابعين ، ولم ينو بها أحد من الأئمة المجتهدين الذين ضبطوا أصول الشريعة ، وحرروا فروعها ، وبينوا مدلولاتها - فإنه أتى بعد ذلك بأمر عجيب ، وقال كلاماً مؤداه : إن هذه البدعة أصبحت حقيقة واقعة ، وأمرأً جماعياً ! ، وما دامت كذلك فإنه يحسن النظر إلى نتائجها ، فإن كانت نافعة عمل بها ، وإن كانت غير ذلك أهمل أمرها حتى تزول من تلقاء نفسها مع مرور الزمن !

وبعد أن أسس هذه القاعدة الفاسدة ، أراد أن يقيم بناء عليها ، وشرع يعدد ما لهذه الموالد من فوائد ومنافع ، من إقامة الأسواق ، وتبادل السلع

(١) تاريخ المولد ص ١٧ - ص ٢٠ .

والبضائع ، وتعارف الناس . ثم أخذ يستدل بأن لكل زمن أفضيته ، ولكل دهر شرعته ، ولكل عصر تطوراته ، ولكل جيل شؤونه ومبتدعاته ، وأنه ليس في هذه الحياة خير لا يتمخض عن شر ، وليس فيها شر لا يتولد منه خير ، وأن العمدة على صدق النية والاتجاه نحو الفضيلة ، والعبرة بقيمة الفوائد العامة الحاصلة من البدعة! وتغلب المصلحة المرسله على المفسدة العارضة^(١) ، وإجماع الأمة على الأمر له خطره ، والرضاء العام له اعتباره وقدره^(٢) ، إلى غير ما ألقى به من العبارات دون تثبت أو نظر ، وابتداعه لقواعد ما أنزل الله بها من سلطان ، منها تطويع الحكم الشرعي للواقع القائم ، ومحاولة تبرير البدع والمحدثات التي غدت واقعاً يعيشه الناس ، والتي لو عممت هذه القاعدة لبطل بها كثير من شرائع الإسلام .

أما ما ذكره من منافع وفوائد لهذه المحدثات فلا يلتفت إليه ، فالعبرة بما شرعه الله ورسوله ، لا بما يعتقد الناس منفعة ، فإذا حرم الله شيئاً أو رسوله لم يلتفت بعد ذلك إلى ما يزخره أرباب الابتداع والضلال ، ويزينونه عن هذه الموالد .

والله عز وجل قد أخبر أن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، فكون الأمر الحرام فيه بعض فوائد لا يزيل عنه صفة الحرمة . وحكم الله عز وجل ثابت لا يتغير بزمان ولا مكان إلا ما يسوغ

(١) انظر : الفرق بين البدع والمصالح المرسله والاستحسان في كتاب الاعتصام للشاطبي ١١١/٢ تقديم الشيخ محمد رشيد رضا . دار المعرفة . بيروت . لبنان . وهو مبحث ضاف مثل فيه المؤلف للمصالح المرسله بعشرة أمثلة ، وأظهر الفرق بينها وبين البدع ، وأخرس ألسنة المبتدعين . فرحمه الله رحمة واسعة .

(٢) تاريخ المولد ص ٢٣ .

الاجتهاد فيه لأهله المعروفين ، لا لكل أحد . وكشأن المنافحين عن البدع دائماً في إغفال الحقائق ، وذكر ما يروق لهم ، أغفل الكاتب عمداً ما لهذه الموالد من مساوئ وأضرار ، وما فيها من تبيد للطاقات ، وقتل للجهود والأوقات ، ولكن كما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدي المساويا
والنية وحدها لا تكفي في مشروعية العمل ، بل لابد من المتابعة ليكون العمل مشروعاً . أما إجماع الأمة على المولد فأمره عجيب ، فإن كان الأمر كما يقول فلم أطل الاستدلال عليه ، وأجلب بخيله ورجله لإثباته؟! وحاول لي أعناق النصوص للوصول إلى ما يهدف إليه!! وأي أمة أجمعت على إباحة الموالد والأعياد المحدثه ، اللهم إلا أن كانت أمة التصوف والبدع ، ومن تابعهم من دهماء المسلمين . أما رضا العامة ، فصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

وفي الحقيقة إننا لم نسترسل مع هذا الكاتب المعتدل في نظرنا ^(١) الذي تحدث عن المولد وناقش مشروعيته إلا لأن الخطب عظم بتسلط المبتدعة ومداهنة العلماء والحكام لهم إلا من رحم الله . فنجد كثيراً منهم كتب على نفسه طول عمره الانتصار للمولد ، والمنافحة عنه ، وإقامته مهما شق الأمر ، وكلف الثمن ، والغضب ممن لا يحتفل به أو لا يحضره ، فضلاً عما لا يجوزه ، والنيل من أهل السنة الذين يبرءون إلى الله من هذا الاحتفال ،

(١) وصفنا له بالاعتدال ليس عفواً ، إذا قارنا كلامه مع كلام كثير ممن انتصروا للمولد ، وجعلوه فريضة واجبة ، وسنة لازمة لا يجوز التفريط فيها كما قال الجبرتي ، وغلوا فيه غلواً مبيئاً . ويكفي في اعتدال هذا الكاتب إقراره في بادئ أمره أن المولد أمر مبتدع .

وتشويه سمعتهم ، وأنهم من أعداء المصطفى ﷺ الذين ينتقصون منه ، ولا يراعون جنبه ، وأمعن بعضهم في الضلال حتى إن الناظر إلى أقوالهم وأفعالهم ليرى كأنما أصبح الإسلام في حسهم هو المولد ، فمن أجله يوالون ويعادون ، ويحبون ويبغضون .

وكم تنتهك للمسلمين من حرمانات ، وتعطل كثير من شعائر الإسلام وشرائعه ، ولكنهم لا يلقون إلى ذلك بالاً ، وكأن الأمر لا يعينهم . وحسبهم أنهم نصبوا أنفسهم أوصياء على البدعة ، وجاهدوا طول حياتهم للانتصار لها ، وشق صفوف المسلمين وتفريقهم من أجلها .

«على أن فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، كانت قد صارت من الأمور التي ألفتها الأمة ، ودخلت في تقاليدها الهامة ، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والأداء ، وأصبحت عندها من الشعائر التي يعز عليها إغفالها أو ترك القيام بها في أوقاتها التي أضحت مقدسة»^(١) .

ولئن كان بعض حكام المسلمين في العصور المتقدمة يحتفلون بإحياء ذكرى المولد ، فلقد كان لكثير منهم قدم صدق في جهاد التتار والصليبيين ، وأبلوا بلاء حسناً في خدمة الدين وإعلائه . أما في القرنين الماضيين فقد كان يحتفل بالمولد حكام من المسلمين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه^(٢) ، لأن الاحتفال بالمولد صار عند الجماهير المسلمة من أعظم الواجبات التي لا يجوز التهاون فيها .

(١) المصدر السابق ص ٧٩ . وقد كان ذلك انحرافاً وقع فيه السواد الأعظم من الأمة ، لكن مازال العلماء في كل عصر ينكرونه ، ويقيمون الحجة فيه على المتبعين .

(٢) ولا زال بعض العلمانيين إلى اليوم يسيرون على هدي نابليون الصليبي الذي احتفل بالمولد - فيحتفلون به كل عام .

يذكر الجبرتي أنه نودي يوم الثلاثاء ١١ ربيع الأول سنة ١٢٣٠ هـ بزيارة البلد ووقود القناديل ، والسهر ثلاثة أيام بلياليها . . . (١) . وكذلك كان ينادى للاحتفال به كل سنة ، وكان ذلك في عهد محمد علي الذين استمر أولاده وأحفاده من بعده على رعاية شؤون المولد ، وإحياء الاحتفال به طوال سني حكمهم ، مع أن غالبهم كان حرباً على الإسلام ، وكان الواجب عليهم وعلى من حام حولهم من العلماء أن يعملوا على رفع راية الدين وأن يحكموا بما أنزل الله عز وجل ، وأن يعلنوا الجهاد والاستنفار ضد الاحتلال الإنجليزي ، لتحرير البلاد والعباد .

ويذكر صاحب «الخطط التوفيقية» اهتمام الدولة المصرية في عهد خديويها توفيق بالمولد النبوي ، وبالأسرة البكرية المعنية بشؤون المولد ، والمختصة بإقامته ، فيقول : «وللسادة البكرية في ظل الدولة المحمدية العلوية من العناية به في كل عام ما تحدث بزائد شرفه الركبان ، ويفتخر به أهل الزمان على غيره من سائر الأزمان ، لا سيما في عهد الحضرة الفخيمة الخديوية ، وعصر الطلعة المهيبة التوفيقية ، فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوي الشريف إلى حده الأعلى ، وبلغ الاعتناء بعلو شأنه المبلغ الأعلى ، وذلك أنه في أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة ، يدعى إليها كافة مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا والوجوه والأعيان والذوات . . .» (٢) .

ومع كل هذا الإطراء الزائد ، والإشادة العالية ، فقد كان المخصص

(١) عجائب الآثار ٢٨٩/٣ .

(٢) الخطط التوفيقية ٤٤٥/٣ .

المالي للمولد من الحكومة خمسة وثلاثين جنيهاً ، وهو مبلغ وإن كان له قيمة في ذلك الزمن إلا أن عبء التكلفة المادية للمولد يقع على الطائفة البكرية التي كانت تنفق عليه نحو ثلاثمائة جنية ، وهو ما يزيد على ما تنفقه الحكومة بثمانية أضعاف^(١) .

ويقول صاحب «تاريخ المولد» : «وقد اطرده الأمر على ذلك مدة الخديوي عباس حلمي الثاني ، وأيام السلطان حسين كامل»^(٢) .

ثم يذكر أيضاً عناية الملك فؤاد الأول وابنه فاروق الأول بالاحتفال بالمولد ، وتشريفهما لحضوره ، وأمر كل وزارة في دائرتها أن تحتفل بالمولد ، وتعطيل الأعمال ذلك اليوم وجعله إجازة رسمية .

وقد مزجت موالد ذلك العصر بالإضافة إلى عوائدها القديمة بعوائد مستحسنة بزعمهم ومناسبة لروح العصر ، حيث تمر من أمام سرادق الملك فرقة الفرسان ، ثم فرقة الموسيقى الراكبة ، ففرق السيارات الثقيلة والخفيفة برجالها ، ففرقة المدافع المضادة للطائرات ، ثم كتائب من المشاة ، فرجال سلاح الإشارة ، ففرقة القسم الطبي ، وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تحيي جلالة الملك عند مرورها بين يديه ، وبعد الانتهاء من عرض الجيش ، تتقدم بين يدي الملك مشايخ الطرق الصوفية برجالها ومريديها ، حاملين لأعلامهم وشاراتهم^(٣) ، وكل شيخ يمر بين يديه يقف هنيئة لقراءة الفاتحة ،

(١) ولا يحسن أحد أن قلة المخصص المالي للمولد من قبل الحكومة ناتج عن نظرة صحيحة تجاه البدع والمحدثات . ولكنه في اعتقادي كان لبغض القائمين على هذه الدولة لكل ما يمت إلى الإسلام بصله ، حتى لو كان غريباً عنه وألصق به .

(٢) تاريخ المولد ص ١٩٣ .

(٣) الشارة هي اللباس والهيئة . مختار الصحاح ص ١٤٧ .

وتلاوة بعض الأدعية الماثورة ، بطريقتهم المعروفة في القراءة والدعاء ، ثم يهتفون جميعاً بحياة الملك ثلاثاً!!^(١)

ويذكر أيضاً أن السلاطين العثمانيين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي في أحد الجوامع الكبيرة بالأستانة حسب اختيار السلطان . فلما تولى السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٣ هـ - ١٨٧٦ م ، قصر حفلاته التقليدية على الجامع الحميدي ، فعندما تحين الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ، يحضر إلى الجامع عظماء الدولة وكبرائها من الأمراء والعلماء والوزراء ، وجميعهم بالملابس الرسمية ، وكساوى التشريفة ، وعلى صدورهم النياشين بأنواعها . ثم يقفون في صفوف متراسة ، ونظام تام ، انتظاراً لتشريف السلطان وفي هذه الليلة يخرج السلطان من قصر يلديز ممتطياً جواداً مطهماً^(٢) بسرج من الذهب الخالص وقد حف الموكب به ، ورفعت على رأسه الأعلام ، ويسير وسط الجماهير المحتشدة ، حتى يصل إلى الجامع ، فيبدأ في رسوم المولد وفقراته ، حتى تنتهي ، فيعود إلى قصره .

ولم يكن أمر الاحتفال بالمولد يقتصر على الأستانة فقط ، بل هو أمر منتشر في جميع أنحاء بلاد السلطنة^(٣) .

ويتحدث علي باشا مبارك في خططه عن المولد فيقول : « هو اليوم الذي استنار بطلعته الوجود ، وأضاءت منه عوالم الغيب والشهود ، قد جرت

(٢) تاريخ المولد ص ١٩٤ - ص ١٩٩ .

(٣) المطهم : هو المجتمع المدور . انظر : مختار الصحاح ص ١٦٧ .

(٤) تاريخ المولد ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ .

عادة الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً بالاحتفال به، وتعظيمه وإجلاله»^(١).

ثم شرع في وصفه حيث تبدأ مراسم الاحتفال به في العشر الأخير من صفر، ويعين لكل واحد من مشايخ الصوفية ما يخصه من ليالي المولد لإحيائه، ثم تفتح المقارء بمنزل البكرية، حيث يقوم نحو مائتي قارئ بقراءة القرآن، ثم يتلى المولد الشريف بعد حزب البكري، وتوقد الشموع، وتعمل للصوفية حلقات ذكر، وتعد الموائد المزينة بألوان الأطعمة والمأكولات، ويكسى السيد البكري وبقية مشايخ الطرق، ويستمر الاحتفال به أكثر من عشرين يوماً^(٢).

وقد ذكر أحد الرحالة الإنجليز وهو (إدوارد وليم لين) الذي زار مصر عام ١٢٥٠هـ - ١٨٣٤م وصفاً عجيباً لمولد ذلك العام، حيث ذكر أن الناس في أثناء النهار يتسلون في الساحة الكبرى بالأزبكية بالاستماع إلى الشعراء، وهم رواة «قصة أبو زيد»، وبالتفرج على «الحواة»^(٣) وغيرهم.

أما الغواني فقد منعتهن الحكومة من عهد قريب كما يقول، وقد كن في الموالد السابقة من أكثر العاملين في الاحتفال اجتذاباً للمتفرجين، وقد أقيمت بعض المراجيح في الشوارع المجاورة للساحة و«نصبات» لبيع الحلوى، ووصف مواكب الدراويش والطرقية وهم يجوبون الشوارع بذكرهم ولغظهم السريع حتى يسقط بعضهم من أثر الإجهاد الذي يرويه من أعظم الجهاد، ويستمر الحال هكذا، مع تناول القهوة والدخان في فترات الراحة القصيرة.

(١) الخطط التوفيقية ٣/ ٤٤٥.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٤٤٦.

(٣) الحواة هم: جمع حاوٍ وهم نوع من السحرة يقومون بألعاب تعتمد على خفة اليد.

ثم يذكر أن البايع أمر بتنوير المآذن الحاضرة ليلة المولد وليلتين بعده ،
والزيت من عنده لا من أحباس الجوامع ، وفي ضحى المولد تجتمع العلماء
والأعيان بالجامع الأعظم ، ويأتي البايع إليه من قصره راجلاً ، وأمامه
سماطان من أمراء العسكر بلباس المواكب ، يشق بهم سماطين من العسكر
واقفين على أهبة نظامية . ثم يبدأ في قراءة المولد والأبيات ، فإذا جاء ذكر
قول الشاعر :

فقم أيها الراجعي لنيل سعادة

يقوم البايع وكل من كان في الجامع ، ثم تنطلق المدافع من الأبراج
والضواحي ، ثم يكمل المولد ، ثم يجلسون للدعاء ، ويختم بالفاتحة ، ثم
يؤتى بماء السكر لسائر من في الجامع ، ثم مياه الطيب ، وينفض الموكب ،
وتستمر المدافع مترنمة صباح ومساء أيام المولد الثلاثة ، ويكثر فيها العطاء
والصدقات للفقراء الذين يحيون تلك الليلة بالقرآن العظيم ، والأمداح
النبوية .

وذكر ابن أبي الضياف أنه قال للبايع : المناسب أن تخرج من باردو^(١)
راكباً وعندنا بحمد الله من العسكر ما يكفي للوقوف بين باردو والجامع ،
فقال لي : ذلك يفعله السلطان العثماني ، وليس لنا أن نفعل مثله ،
فالمناسب الأدب معه .

ثم قال له : هل ترى أن تحبس شيئاً على هذه المأثرة^(٢) ، فقال لي :
نحبس عليها ملك تونس ، ويستحيل أن من يقوم مقامه يتركها ، ويرضى

(١) اسم قصر البايع .

(٢) بمعنى أن توقف الأوقاف عليها .

لنفسه نسبة الاستخفاف بالمولد النبوي . ثم قال : وكاتب رئيس مجلس الشريعة بالقيروان أبا عبد الله محمد صدام أن يفعل بالجامع الأكبر بها مثل عمل جامع الزيتونة ، وكاتب العامل يعطيه الزيت وما يلزم لذلك ^(١) .
ولنا مع هذا النص ثلاث وقفات سريعة :

الأولى : إشارة ابن أبي الضياف للباي بأن يصف العسكر من قصره إلى الجامع ، ويحمد الله تعالى أن عندهم من العسكر ما يغطي المسافة بين الموقعين . فكأن هذا الجيش أنشئ فقط لمثل هذه الاحتفالات المحدثه ، أما أن يكون درعاً واقياً للبلاد من عدوان الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على تونس ، فهو أمر لم يحتفلوا به كثيراً .

الثانية : تورع الباي عن مشابهة السلطان العثماني دليل على احتفال السلطان بالمولد ، وأنه كان يصف العساكر الكثيرة استقبالاً له عند حضوره المولد .

الثالثة : قلق ابن أبي الضياف على مستقبل المولد في تونس ، وإشارته للملك بحبس بعض الأوقاف عليه ، حتى تستمر هذه البدعة مدفوعة ذاتياً بما أوقف عليها ، وإجابة الباي بأن ملك تونس كله هو حبس على المولد ، وتطمين كاتبه بأنه من المحال لمن يتبوأ منصبه من بعده أن يفرط في هذه المأثرة ، فيوصم بالاستخفاف بالمولد ، وينسب إليه ولا بد الاستخفاف بصاحب المولد ﷺ .

(١) إتحاف أهل الزمان ص ٨٨ - ص ٩٠ .

ويذكر السلاوي أن حكام المغرب الأقصى كانوا يحتفلون بالمولد النبوي، ويسمونه عيداً^(١). يقول عن السلطان المولى الحسن بن محمد: «وعيد بفاس عيد المولد الكريم»^(٢)، وكان ذلك عام ١٢٩٠هـ.

وفي عام ١٢٩٢هـ يقول السلاوي: «ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال، على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم، وجعل في عشرين غدوهم ورواحهم، وتشنت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك، وأنشدت قصائد لأدباء العصر، وبعد العيد (!) كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب، حتى الأمناء والطلبة»^(٣).

وفي يوم المولد تعطل الأعمال رسمياً، يقول الغزي: «وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول تعطل الحكومة، ويقبل الناس إلى الجامع الكبير لسماع قصة المولد النبوي، فيسقون الشراب الطهور، وينشر عليهم اللوز الملبس، وتستمر هذه القصة تتلى في المساجد والجوامع نهاراً، وفي البيوت ليلاً إلى آخر هذا الشهر، وكثيراً ما تتلى في الأماكن المذكورة في غير الشهر المذكور أيضاً، وتصنع لأجلها الولائم الحافلة»^(٤).

وفي بيروت كان يحتفل بالمولد النبوي في الجامع المنسوب إلى يحيى

(١) أجمع المسلمون على أنه لم يشرع لهم إلا ثلاثة أعياد: عيدان في السنة هما الفطر والأضحى، وعيد في الأسبوع هو الجمعة، وما سوى ذلك فهي من الأمور المحدثه التي لم يأذن الله بها.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٣٩/٤.

(٣) المصدر السابق ٢٤٦/٤.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٦٨/١.

عليه السلام . يقول السنوسي لدى زيارته بيروت : «وقد حضرت يوم المولد بجامع سيدنا يحيى فجلس إمامه على منصة الختمة ، وأخذ يترنم بقراءة المولد النبوي ، وهو مولد رجز من نظم الأديب الإسحافي ، والحاضرون يترنمون بالصلاة على النبي ﷺ في كل موقف ، وعند انتهائه وزع القيمون قراطيس من الحلويات الشامية على جميع الحاضرين»^(١) .

أما في دمشق فقد كان يحتفل به بالجامع الأموي ، يقول أحدهم : «وفي يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٦٣هـ : عطلت الحكومة (السورية) بمناسبة المولد النبوي ، وجرى احتفال ضخم بقراءة قصة المولد بعد الظهر بالجامع الأموي ، حضره رئيس الجمهورية . وأقيمت معالم الزينة من مدخل سوق الحميدية حتى باب الجامع ، فرفعت من الأغصان بعض القباب والأقواس ، ونشرت الأعلام على أبواب الحوانيت ، ومدت من أول السوق إلى آخره أسلاك ، علق بها كثير من المصابيح الكهربائية ، ومشت أمام رئيس الجمهورية في مجيئه إلى الجامع وفي عودته مظاهرات شعبية ، وعلت أصوات المتظاهرين بالأناشيد البلدية ، وكان بعضهم يطلق الرصاص في الهواء . وكان منظر السوق في الليل بهيجاً بما اتقد فيه من المصابيح ، ومزدحماً بالمظاهرات التي مشت فيه ، وقد زينت دوائر الحكومة . وفي مساء اليوم التالي أقام نادي فيصل الثقافي في المجمع العلمي حفلة لذكرى المولد ، ألقى فيها الكلمات والقصائد»^(٢) .

(١) الرحلة الحجازية ٢/ ٣٢٤ .

(٢) يوميات الخليل ص ١٤٤ - ص ١٤٦ خليل مردم بك . مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

ولا يخطر على بال أحد أن تلك الاحتفالات بالمولد كانت للحكومات خاصة ، بل كانت الاحتفالات تقام في غالب المدن والقرى والأرياف ، بل إن احتفالات الحكومات والدول ما هي إلا أصداء لما كان يجري في الأوساط الشعبية من احتفالات .

ففي المعرة يحتفل الناس بالمولد في الجامع المنسوب إلى يوشع بن نون عليه السلام ، وفي الجامع العمري الكبير ، لاستماع قصة المولد ، ثم توزع على الحاضرين صرر فيها ملبس ، ويرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ويزورون المقام المنسوب إلى أويس القرني^(١) .

وفي ألع^(٢) يحتفل الناس بالمولد هنا في زاوية للصوفية ومدرسة للعلماء ، وتصبحان عامرتين في ليلة المولد ، فالزاوية بالأذكار ، ورب المدرسة يملأ مجلسه بالأمداح النبوية ، وقد اعتاد العلماء والطلبة الذين يجاورون ألع أن يحضروا في تلك الليلة التي يتلى فيها بالتغني على ألسنة المنشدين قصائد البوصيري من الهمزية والبردة وبانت سعاد ، ثم تقال قصائد نبوية على ألسنة أصحاب القريض من الحاضرين^(٣) .

ويشارك في تلك الاحتفالات جميع الطبقات في المجتمعات ، علماء وعامة ، حكاماً ومحكومين ، ذكوراً وإناثاً ، صغاراً وكباراً . بل إن هناك عادات غريبة يقوم بها بعض العجائز كتلك التي ذكرها صاحب « المعسول » حيث قال : « ومن العادات المولدية أن بعض العجائز من المتحجبات اللائي

(١) تاريخ معرة النعمان ١/ ٣٥٧ .

(٢) بلدة صغيرة من بلدان المغرب الأقصى .

(٣) المعسول ١/ ٣١ .

لا يحضرن في ملعب أحواش تنتحي وحدها إلى زاوية من زوايا حجرتها ،
حيث تعلق ثيابها على عود معروض - ويسمى عندهم أحمال - فتقف إزاءه
فترقص رقصاً متواصلاً ، وهي تغني بأمداح الرسول فرحاً بليلة مولده ،
تفعل ذلك احتساباً وتيمناً بالرسول»^(١) .

ومن العادات أيضاً أنه : «إذا طلعت الشمس في عيد المولد ! ترى بعض
الناس يرقصون لها ، ويقولون ما يدل على أن الشمس إنما استمدت أنوارها
من نوره ﷺ»^(٢) .

وقد مر معنا ما للمولد النبوي من مكانة وأهمية ، وكيف أنه أضحي
عيداً يحتفل به الحكام والرعايا ، ويعظمونه أيما تعظيم ، وليس أدل على ذلك
من أن المولى عبد الرحمن سلطان المغرب أعفى الناس من القتال فيه ضد
إحدى القبائل الثائرة عام ١٢٤٤هـ^(٣) .

وقد وصل الاحتفاء بيوم المولد أن تفتتح المشاريع العامة فيه ، ففي عام
١٢٨٤هـ «كان الشروع بتعبيد طريق إسكندرونة . . . وكان ابتداء العمل به في
اليوم الثاني عشر من ربيع الأول تبركاً وتيمناً . . .»^(٤) .

وفي المولد يتبارى الشعراء والأدباء في نسج القريض ، وإنشاد القصائد ،
وتفويض القرائح بالمدائح النبوية التي لا تكاد تخلو من الشرك الأكبر ،
والغلو العظيم كما مر معنا من قبل .

(١) المصدر السابق ٣٢/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٢/١ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٨٠/٤ .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣٩٦ .

وكان بعض الشعراء يوالون قصائدهم في المولد سنوياً ، فينشئ لكل سنة قصيدة طويلة يقوم بإلقائها في ليلة المولد ، ومن هؤلاء أحمد بن محمد ابن الحاج السلمي الذي كان يوالي قصائده المولدية كل سنة . فمن قصيدته في المولد الشريف سنة ١٢٩٤ هـ :

نور الهدى قد بدا في العرب والعجم سعد السعود علا في الحل والحرم
بمولد المصطفى أصل الوجود ومن لولاه لم تخرج الأكوان من عدم
وله في المولد الشريف قصائد كثيرة ، منها قصيدة همزية ، قالها عام ١٢٩٥ هـ مطلعها :

معشر المسلمين حق الهناء وتوالى السرور والعلواء
ومنها أخرى على وزن التي قبلها ورويها ، قد قالها عام ١٢٩٧ هـ مطلعها :

بشرى بمولد خير العرب والعجم بشرى بأحمد طه المفرد العلم
ومنها قصيدة تائية قالها عام ١٢٩٨ هـ مطلعها :

هنيئاً لك البشرى بنجم الهداية وبالعز والإقبال في كل لحظة^(١)
وهكذا يصل الاهتمام بأمر لم يشرعه الله إلى هذا الحد ، وتحفل به ممالك الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وتهدر فيه الأموال والأوقات ، ويتلهى الناس به أياماً وليالي غافلين عن مخططات الأعداء في ذلك الزمن ، بل وعما يقع من بعض حكامهم الطغاة الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ،

(١) الإعلام بمن حل مراکش وأغमत من الأعلام ٢/ ٤٣٩ .

واستبدلوا الكفار بالمسلمين الذين ظلموهم واضطهدوهم ، لأن هؤلاء
الحكام الأشقياء ما داموا يحضرون هذه الموالد ، ويساعدون على إقامتها ،
ويلقون فيها بفتات موائدهم لرعاياهم الجوعى ، فإنهم بالتالي محبوبون
للإسلام وللرسول ﷺ ؛ لذا لا ينكر أحد عليهم ، بل يلتف حولهم ، ويسار
وراءهم ، ويهتف لهم بالبقاء ، لإحياء هذه الموالد التي هي عند هؤلاء الغوغاء
والدهماء من المسلمين رأس المجد التالد ، الذي لا يجوز أن يفرط فيه .

وأعظم من ذلك أن ينصبه المبتدعة والطرقية علامة وبرهاناً لمحبة
الرسول ﷺ ، فمن احتفل به فهو المحب الصادق ، حتى ولو كان من أفجر
الفاجرين ، ومن أبى الاحتفال ، ونأى عن البدعة ، فهو العدو المبغض وإن
كان من المؤمنين المهتدين ، وتنشأ الفرقة في الأمة ، ويفشو الخصام ، وتطغى
الشحناء . والله الأمر من قبل ومن بعد .

ثانياً : الاحتفالات بالموالد الأخرى :

كل ما سبق إيضاحه إنما هو عن المولد النبوي ، وليت المسلمين اكتفوا
به ، ولكن من شأن البدعة أن تجر إلى مثلها ، ومن عادة أرباب البدع أن لا
يحدثوا بدعة حتى يسارعوا إلى إحداث غيرها ، ومن ذلك إحداث الموالد
الأخرى التي تعين زمنها ضرب من الخرص والتخمين ، والتثبت منزلة لا
يرقى إليها المبتدعة أبداً ، ولا يكثرثون بها غالباً . ففي بداية الأمر كان يقتصر
على الاحتفال بالمولد النبوي ، ثم تعدى ذلك إلى الاحتفال بموالد بعض
الأنبياء ، ثم تعدى إلى موالد كثير من الأولياء والصالحين ، ووصل الأمر
إلى الاحتفال بموالد بعض المعتوهين والمجذوبين ، بل والمحسوبين على
الإسلام .

فمن هذه الموالد مولد موسى عليه الصلاة والسلام ، الذي كان يحتفل به احتفالاً عظيماً في القدس . يذكر القاياتي أنه حضر الاحتفال في الحرم القدسي^(١) بطلوع الصنjq (البيرق) في مولد الكليم ، حيث اجتمع الناس من الأمراء والذوات والعلماء والباشوات ، واصطفت العساكر على الجانبين من باب الأقصى إلى باب قبة الصخرة ، ومعهم متصرف القدس وخرجوا به^(٢) من الباب الشمالي ، وركب معه المفتي ، فصار الحرم مزدحماً بالزوار ، وأرباب الإشارات ، ويقال لهم السيارات^(٣) ، وكذلك الطرقات في حوالي الحرم . وكان طلوعه بعد صلاة الجمعة في أول الموسم ، وما رجعوا إلا في الجمعة الثانية . وبعد صلاتها عمل له احتفال كالأول ، واصطفت العساكر^(٤) .

ثم ذكر زيارتهم للمقام المنسوب إلى موسى ﷺ أثناء احتفالهم بمولده ، وما كابده الزوار من عناء ومشقة ، وبيات تحت المطر في الصحراء ، وبرد قارس ، ووعورة للطريق ، حتى هلك جملة منهم في تلك الرحلة القاسية^(٥) .

وإن الناظر إلى تلك الفترة ليهوله الأمر ، فكأن مهمة العساكر عند المسلمين هي الاحتفالات بهذه الموالد ، والاصطفاف على الطرق لمرور أعلام

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وليس بيت المقدس مكان يسمى «حرماً»» . مجموع الفتاوى ١٤ / ٢٧ .

(٢) يعنى الصنjq .

(٣) وهم من الصوفية .

(٤) نفحة البشام ص ٩٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٦ . وقد ذكر البتنوني أن الناس في فلسطين يحتفلون بهذا المولد احتفالاً عظيماً ، ووصف كثيراً من مظاهر ذلك الاحتفال . الرحلة الحجازية ص ١٦٢ .

الموالد ، وبيارق البدعة ، وكل ذلك يجري في وقت كان اليهود فيه يحيكون المؤامرات والدسائس للاستيلاء على فلسطين التي انشغل المسلمون فيها بهذه الاحتفالات المبتدعة .

ويصل الأمر إلى أن يعرض كثير منهم أنفسهم للتهلكة في سبيل أمور محدثة ، ما أنزل الله بها من سلطان ، ويغامر بعضهم ويستमित للوصول إلى مقام مزعوم نصب في شواحق الجبال ويقطع من أجله الفياقي والقفار ، ويعرض نفسه للأخطار ، ويسقط بعضهم موتى في الطريق ، وقد يحسبهم الآخرون شهداء .

وكان جديراً بمثل هذه الطاقات المهذرة في الباطل ، أن تستغل فيما يعود على الأمة بالخير والنفع ، وفي الإعداد لجهاد أعداء الإسلام الذين كانت جيوشهم تحاصر العالم الإسلامي ، وتخطط لاحتلاله وإذلاله .

وقد ذكر القياياتي يوم طلعوا إلى الصالحية أن ذلك قد وافق يوم الزيارة السنوية لمولد الخليل في قرية (برزة) الكائنة بسفح جبل قاسيون ، فصارت الزوار ترد قافلة من برزة زمرة بعد زمرة ، ومعهم النساء والأطفال ، ومشايخ الطرق والسيارات .

وفي حضر موت يقوم الناس بالاحتفال بمولد هود عليه السلام ، ويزورون الضريح المنسوب إليه ، ويقىمون عنده ثلاثة أيام كل سنة ، ثم يعودون ، وتبقى تلك القرية خالية عن السكان إلا من الحراس الذين يحرسونها^(١) .

هذه بعض موالد الأنبياء التي كان يحتفل بها في مواعيد معينة ، وفي

(١) تاريخ حضر موت السياسي ص ٥٣ .

ظني أن كثيراً من الأنبياء كان يحتفل بموالدهم ، رغم أن تواريخها بالتأكيد مجهولة ، كما أن أكثر القبور والمشاهد المنسوبة إليهم مكذوبة كما رأينا فيما مضى .

وندع ما كان يعمل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من موالد ، لنقف مع ما كان يعمل لغيرهم ، حتى الدجالين والمعتوهين ؛ فإن موالد الأنبياء كانت بالنسبة إلى هذه الموالد كشعرة سوداء في جلد ثور أبيض ، أو العكس .

يذكر صاحب «الخطط التوفيقية» أن الموالد التي كانت تعمل في السنة في مدينة القاهرة وضواحيها ثمانون مولداً ، يحسن بنا أن نوردها هنا لنرى كم كان يهدر في هذه الموالد من الأوقات والجهود والأموال ، حتى غدت شغل المسلمين الشاغل ، حتى لم يبق معها وقت يكاد يذكر لجهاد أو أمر بمعروف ونهي عن منكر ، إلا نزر قليل تشغله بدع أخرى ، وكيف ملأت هذه الموالد على الناس حياتهم ، وسيطرت على عقولهم ، واستولت على اهتماماتهم وجهودهم . ونحن نذكر هذه الموالد حسب الشهور التي تعمل فيها ، وحسب الترتيب الذي رتب به صاحب الخطط ، وهي كالتالي ^(١) :

سبعة موالد في شهر شوال ، وهي : مولد سيدي عبد الوهاب العفيفي ، ومعه مولد سيدي عبد الله المنوفي بقرافة المجاورين ، ولكل منهما حضرة في كل ليلة جمعة ، مولد سيدي أبي سليمان الحجاجي في بولاق ، بخط الواجهة ، مولد سيدي عمر البلقيني بحارة السيارج ، مولد سيدي عمر الأشقر بخط الواجهة من بولاق ، مولد الشيخ علي الجمل ، مولد الشيخ داود أبي سيف بوكالة المقشات من بولاق ، مولد سيدي نصر ببولاق .

(١) حذفنا الفترات الزمنية التي يشغلها كل مولد رغبة في الاختصار .

وخمسة موالد في شهر ذي القعدة، وهي : مولد سيدي علي البيومي
بخط الحسينية، وله حضرة في كل يوم جمعة، ومقرأة في ليلة الأربعاء،
مولد الشيخ محمد العراقي بخط الواجهة من بولاق، مولد الشيخ القاسمي
بقنطرة الدكة بالأزبكية، مولد الشيخ محمد الأخرس، مولد الشيخ أبي
الفضل بخط الواجهة من بولاق.

وعشرة موالد في شهر ربيع الأول وهي : مولد النبي ﷺ بجهة
العباسية، مولد السيدة فاطمة النبوية بشارع زرع النوى بالدرب الأحمر،
ولها حضرة في كل ليلة ثلاثاء، مولد السلطان أبي العلاء الحسيني ببولاق
بشارع السكة الحديد، وله حضرتان في ليلة السبت وليلة الأربعاء، مولد
سيدي سعد الله الحسيني بالدرب الأحمر، مولد سيدي عبد العزيز الدريني
بجزيرة النيل، مولد الشيخ سلامة أبي سرحان بكوم الشيخ سلامة بخط
الموسكي، وله حضرة في ليلة السبت، مولد الشيخ محمد أبي الدلائل بحارة
المذبح من بولاق، مولد الشيخ هلال بحارة زعتر بجوار السلطان أبي
العلاء، مولد الشيخ سليمان الغنام ببولاق، مولد الشيخ درويش
العشماوي بخط العشماوي، ومولد واحد في شهر ربيع الثاني، وهو مولد
سيدنا ومولانا الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ،
وله حضرة في ليلة الثلاثاء، وأخرى في يوم السبت.

وأحد عشر مولدًا في شهر جمادى الأولى، وهي : مولد السيدة سكيئة،
ومولد الشيخ إبراهيم الفار^(١)، بخط الخليفة، وحضرتهم ليلة الخميس،

(١) وهذا المولد خصص عندهم لمن رزقه الله بولد، وأراد أن يعيش، فما عليه إلا أن يأتي به
إلى هذا المولد. نعوذ بالله من العمى والضلال. الخطط التوفيقية ٣٠٦/١.

مولد السيدة رقية بثمان الخليفة، وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد سيدي محمد الأنور بخط الخليفة ، مولد سيدي إبراهيم المناوي بخط الخليفة بدرب الحصر ، وحضرته في كل ليلة أربعاء، مولد سيدي إبراهيم المتبولي بجوار كبري بوابة الحديد ، وحضرته في يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء، مولد سيدي علي الخواص بخط الحسينية ، وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد الشيخ يونس السعدي بباب النصر، وحضرته في كل ليلة جمعة ، مولد سيدي علي الكعكي شارع وكالة الفسيخ من بولاق ، مولد سيدي علي زين العابدين خارج بوابة السيدة زينب، وحضرته يوم السبت مع ليلة الأحد ، مولد سيدي حسن الأنور بقم الخليج ، مولد سيدي محمد شمس الدين الرملي ميدان القطن، وحضرته في كل ليلة جمعة.

وسبعة موالد في جمادى الثانية، وهي : مولد سيدي علي الرفاعي بجهة العباسية، وحضرته تعمل في كل ليلة جمعة ، مولد سيدي إسماعيل الإنبائي بقرية إنبابة، وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد سيدي محمد الطيبي بقم الخليج ، مولد السيدة نفيسة رضي الله عنها ببوابة الخلاء، وحضرته في يوم الأحد مع ليلة الاثنين ، مولد الشيخ المظفر بشارع الحلمية ، مولد السيدة زينب رضي الله عنها، ولها حضرتان الأولى في يوم الأحد والثانية ليلة الأربعاء ، مولد الأحمد بن بخت الشراوي من بولاق.

وعشرة موالد في رجب وهي : مولد الشيخ الدشطوطي بخط العدوي، وحضرته في كل ليلة جمعة، مولد سيدي عبد الوهاب الشعراوي بشارع الشعراوي، وحضرته في كل يوم سبت ، مولد سيدي عيسى العدوي بخط العدوي ، مولد الشيخ عبد الله بالإسماعيلية^(١) بشارع الشيخ ريحان ، مولد

(١) هو ميدان التحرير حالياً.

أولاد عنان بيوابة الحديد، وحضرته في كل يوم سبت ، مولد القللي بيوابة الحديد ، مولد الشيخ سعيد بن مالك بالسبتية من بولاق ، مولد سيدي محمد شمس الدين الواسطي بسوق العصر من بولاق ، مولد سيدي علي المحجوب بدرج محجوب بخط الجلادين ، مولد سيدي محمد العليمي ، والشيخ سالم ببولاق بقرب السلطان أبي العلاء .

وثمانية وعشرون مولدًا في شهر شعبان وهي : مولد الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة الصغرى ، وحضرته في كل يوم جمعة من ليلة السبت ، مولد الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه بالقرافة الصغرى ، وحضرته في كل يوم سبت ، مولد السيدة عائشة النبوية بيوابة حجاج ، وحضرتها في كل يوم أربعاء مع الشيخ محمد السمان بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ إسماعيل ضيف بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ علي القادري بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ أحمد الدنف بالقرافة الصغرى ، مولد السادات البكرية بالقرافة الصغرى ، مولد سيدي عقبة بالقرافة الصغرى ، مولد السادات الوفائية بزاوية الوفائية بسفح الجبل من القرافة الصغرى ، مولد سيدي عمر بن الفارض بسفح الجبل من القرافة الصغرى ، مولد سيدي محمد الجيوشي بالجبل ، مولد سيدي يحيى بن عقب بالكعكيين ، وحضرته في كل ليلة خميس ، مولد سيدي محمد البحر بباب البحر ، وحضرته في كل ليلة خميس ، مولد سيدي أبي عبد الرحيم الدمرداش بالعباسية ، وحضرته كل ليلة جمعة ، مولد سيدي محمد الصوابي ، وحضرته في كل يوم جمعة ويحضرها النساء المريضات^(١) !! مولد الشيخ علي النبهاوي

(١) في الأصل : المرضى .

بدرج عجبور من خط الحسينية ، مولد الشيخ معان بالدراسة بخط الأزهر ،
وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد الشيخ الخضري بمدرسة الحناء من شارع
الصليبية ، وحضرته في كل ليلة اثنين ، مولد الأستاذ العدوي بباب
الشعرية ، وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد الشيخ عبد الله الزهار بقنطرة
الليمون بالأزبكية ، مولد الشيخ خليل الكردي بخط الجلادين ، مولد
الشيخ علي الفصيح بالحطابة من بولاق ، مولد الشيخ الغمري بطولون ،
مولد الشيخ عبد الكريم بالجمالية ، مولد السلطان الحنفي والشيخ صالح أبي
حديد^(١) بخط الحنفي ، وحضرة السلطان الحنفي في كل يوم سبت وليلة
خميس ، مولد الشيخ محمد العتريس بجوار السيدة زينب^(٢) .

فبعض هذه الموالد يستغرق أسبوعاً ، وبعضها أكثر ، وبعضها يستمر
شهوراً ، وعلى هذا النحو فهي تغطي جميع شهور السنة تقريباً ، لا يمر يوم من
أيام السنة إلا كان مجدولاً عند أرباب البدع لمولد من هذه الموالد المحدث^(٣) .

يقول الشيخ رشيد رضا متحدثاً عن كثرة الموالد في مصر : « والموالم في
هذه الديار كثيرة جداً تكاد تستغرق أيام السنة ، ولذلك كان السيد عبد الله
نديم الكاتب المصري يقول : للإفرنج في كل عام كرنفال^(٤) ، ولنا في كل يوم
كرنفال^(٥) » .

(١) وقد مر معنا أنه كان قاطع طريق .

(٢) الخطط التوفيقية ٢٢٦/١ وما بعدها . وذكر صاحب الخطط أن بعض هذه الموالم ثابتة
أوقاتها ، والبعض الآخر يتحول من شهر إلى شهر تبعاً لتغير الأشهر القبطية .

(٣) وإذا كان صاحب الخطط لم يذكر لبعض شهور السنة موالم تقام فيها ، كشهر رمضان
وذي الحجة ، فقد شغلا ببدع أخرى يأتي الحديث عليها .

(٤) الكرنفال : هو عيد يتكرون فيه بملايس السخرية فيلعبون ويمجنون ولا يعرفون .

(٥) المنار ١/ ٨١٣ .

هذا غير الحضرات التي كانت تقام بصفة دورية كل أسبوع ، وهي عبارة عن جلسات للذكر على الطريقة الصوفية ، ولم يكن هذا هو حال القاهرة فقط التي كانت تغرقها احتفالات الموالد على طوال العام ، بل لقد كان هذا هو حال غالب المدن الكبرى في العالم الإسلامي ، ففي مدينة بغداد كانت لا تمر ليلة إلا ويحتفل فيها بمولد أو أكثر^(١) .

ويعتبر مولد البدوي أعظم مولد خارج مدينة القاهرة ، «وقد كان يحضره الجمل الغفير ويهرع إليه غالب أهل القاهرة ، ويكترون الجمال والحميز بأعلى الأجرة ، لأن ذلك صار عندهم موسماً وعيداً لا يتخلفون عنه ، إما للزيارة أو للتجارة أو للنزاهة أو للفسوق ، ويجتمع به جمهور عظيم»^(٢) .

وكان الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر يسافر كل سنة للاحتفال بمولد البدوي ، ويقتدي به الكثير من العوام والسفهاء ، كما ذكر الجبرتي^(٣) .

بل لقد وصل الأمر إلى تعطيل الدروس في الأزهر ليتمكن شيوخه وتلاميذه من السفر لحضور مولد البدوي . وقد ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار أنه زار مصر عام ١٢٨٨ هـ فوجد الأزهر «فارغاً من الناس ! لأن الطلبة وأكثر العلماء كانوا في مولد السيد البدوي ، والدروس في الأزهر مرفوعة ..»^(٤) . فيالضيعة العلم ، ويا لذهاب العلماء الربانيين !!

(١) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١/ ٧٧ .

(٢) عجائب الآثار ٣/ ١١٢ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٦٥١ .

(٤) حلية البشر ١/ ٣١ .

بل إن للمدعو بالسيد البدوي ثلاثة موالد في السنة لشدة تعلق الناس به كما يقول الشيخ رشيد رضا^(١)، ولكي ندرك شيئاً من عظم تعلق الناس بل العلماء بالبدوي ومولده نسوق هذه القصة المؤسفة التي يذكرها صاحب «المنار»، ومفادها أن أحد أكابر مشايخ الأزهر ذهب مرة إلى جامع السيد البدوي في أيام المولد، فأراد الوضوء ولكنه رأى أن ماء الميضة متغير من الأقدار والنجاسات تغيراً يحدث الخبث ولا يزيل الحدث. قال الراوي: «فطبقها على قواعد الشريعة فلم تنطبق» فرجع أدراجته، فما كان إلا أن جذب جذبة وأخذ عن نفسه أخذة فرأى أنه في أرض صحراء ملأى بالنجاسات والأقدار تنبعث عنها الروائح الكريهة، فعلم أن تلك كرامة السيد جعلها عقوبة له على اعتراضه في سره على ميضاته من الوضوء منها^(٢).

وحين اعترض بعض الطلاب على توضؤ شيخه من ميضة جامع البدوي المتغيرة لوناً وطعماً ورائحة وأبى أن يأتم به في الصلاة بادره الشيخ بالإنكار الشديد، وحذره أن يصاب بنكبة نتيجة اعتراضه، وقال الشيخ: لولا أن نفسي تعاف الشرب من ماء مجاري كنف جامع السيد لشربت منها^(٣)!!

أما مولد الإمام الشافعي فله احتفال يتقدمه ويمهد له، يحتفل به العلماء ويسمون «الكنسة» وهو اجتماع يكنسون فيه الضريح، ويقسمون الكناسة

(١) المنار ٢/ ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٦١٨.

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٦.

بينهم للتبرك بها^(١) . ويقيم أهل المدينة مولداً لحمزة رضي الله عنه في كل سنة من أول رجب إلى منتصفه «يحضره الرجال والنساء وأهل مكة والطائف وجدة ورايح وسكان البوادي الذين يزورون المدينة كل عام في رجب ، ويحضر أرباب الطرق ، وتذبح هناك الذبائح ، ويطعم الطعام . . . وكذلك يعملون مولداً لسيدنا علي العريض عند قبره ، والمولد في الأكثر يكون في صفر ، وهذا المولد يستمر أربعة أيام ، والعريض هذا شقيق ذي النفس الزكية ابن جعفر الصادق»^(٢) .

والسؤال بعد هذا كله - بعد أن عرفنا ما تستنفده هذه الموالد من الناس ، من أوقات وجهود ، وطاقات روحية وفكرية ومادية - هو هل يبقى بعد ذلك وقت و طاقة للجهد في سبيل الله ، أو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لعمارة الأرض على منهج الله ، أو تقوية المسلمين والعمل على مجارة العصر في التقدم العلمي والصناعي والاقتصادي؟!!

وهل بقي عند الناس مجال للتفكير في الواقع السيئ والانحطاط الذي يعيشونه ، وقد شغل تفكيرهم ، وملئ وقتهم بهذه السخافات والجهالات؟

وهل بقيت عندهم طاقات روحية تقوم بتغيير ذلك الواقع ، والنهوض بالأمة ، بعد أن نضبت تلك الطاقات في الموالد والحضرات؟
فمن هنا كانت هذه الموالد من أشد البدع ضرراً على الدين ، وأعظمها تأثيراً في حياة المسلمين .

(١) المصدر السابق ١/ ٨١٣ .

(٢) مرآة الحرمين ١/ ٤٤٣ . ولا زال كثير من الصحف المصرية إلى يومنا هذا تنشر إعلانات الموالد واحتفالاتها على نفس الصفحات التي تنشر الدعايات فيها لحفلات المراقص والمسارح ودور السينما .

وليت الحال وقف بالمسلمين عند الاحتفالات بهذه الموالد على ما بها من مساوىء عظيمة ، بل أصبحت البدع تسيطر على حياة الغالبية من المسلمين ، ولئن كان للموالد عندهم من الاهتمام والتقدير ما رأينا ، فلقد كان لبدعة المحمل مكانتها الكبيرة في نفوس الناس ، واهتمامها الخاص عند الحكام والأمراء ، ولئن امتدت الموالد فشملت غالب السنة تقريباً ، فلقد شغلت بدعة المحمل البقية الباقية منها . وهذه نبذة عن هذه البدعة لنرى كيف استأثرت باهتمامات الحكام والناس في تلك الفترة .

بدعة المحمل^(١) :

يذكر البتوني أن الاحتفال بالمحمل ويوم خروجه يرجع إلى أيام الدولة الأيوبية^(٢) ، ثم يصف المحمل في زمانه^(٣) حيث يقول : « وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشي فيه الجنود الراكبة^(٤) والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته . . . يتقدمهم أمير الحج الذي يعينه الجناح العالي الخديوي سنوياً ، وهو من الباشوات العسكريين في الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة في ميدان القلعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد لجلوس الجناح العالي الخديوي يوم هذا الاحتفال ، ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام ، والعلماء الأعلام ، وكبار ذوات العاصمة ، وهناك يأتي

(١) المحمل اسم لشبه هودج من خشب تحيط به ستائر محمول على جمل . الرحلة الحجازية ٢٢٤ / ٢ محمد السنوسي .

(٢) يقال إن أول من أحدثه هي شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب أحد ملوك الأيوبيين . انظر : الإبداع في مضار الابتداع ص ٣٣٢ . الشيخ علي محفوظ . الطبعة السابعة ١٣٧٥ هـ . ١٩٥٦ م . دار الاعتصام . القاهرة .

(٣) في أوائل القرن الرابع عشر الهجري .

(٤) هذه كانت أهم وظائف الجند ، الاحتفالات بشأن هذه البدع وحرصاتها .

حضرة مأمور الكسوة الشريفة ويده زمام جمل المحمل ، فيتسلمه الجنب العالي منه ، ويسلمه إلى أمير الحج ، وعندها تضرب المدافع ، ويسير الركب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ، ثم الجنود ، ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحج ، ويتلوه المحاملي والجمالة ، ثم الفراجية (الطبالون) على جمالهم ، ويستمر هذا الموكب سائراً إلى المحجر ، فالدرب الأحمر ، ويمر من بوابة المؤيد ، فالغورية ، فالنحاسين ، فباب النصر ، فالعباسية ، وهناك يتفرق الموكب ، وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية ، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به . . .» (١) .

ثم يقول : «وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن إسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في أحواض كبيرة ، يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام ، وهي عادة قديمة جداً ، وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف ، كثير من الخدم والحشم ، والعكامة ، والجمالة ، والفراجية ، والنجارين ، والفراشين ، والخيمية ، والسقائين . وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوي والحلويات . . .

. . . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل ، وآخر اسمه أبو الققط ! . . . وكانت وظيفة الأول أن يشتري الجمال اللازمة للعمل ، ويركب وراء جمل المحمل في موكبه لملاحظته في سيره من الخلف ، كما يلاحظه المحاملي في سيره من الإمام ، أما الثاني فيقولون إنه كان يقوم بغذاء

(١) الرحلة الحجازية ص ١٤١ .

القطط التي كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره في البر! . . . وجميع هؤلاء
كان تعيينهم بفرمانات خاصة بعضها من السلطنة ، وبعضها من ولاية مصر ،
ولهم مرتبات بالروزنامجة^(١) من عهد بعيد^(٢) .

وقد ذكر أن الحكومة كانت تشتري جملاً لتجعله فداء لجمال المحمل ،
ثم تقوم بذبحه ويتقاتل الناس عليه بمجرد وقوعه على الأرض ، ويقطعونه
إرباً إرباً بمداهم قبل ذبحه طلباً للبركة! وكان لحمه يباع بثمن باهظ ،
ويزعمون أن لحمه ينفع من الصداغ! وشحمه للبواسير^(٣) !

ثم ذكر بعد ذلك كشفاً ببيان المصروف السنوي في تسفير المحمل
والمرتبات الجاري صرفها في مكة والمدينة ، حسب الوارد في الميزانية
الآخيرة^(٤) . وجاء فيه :

١٢٨٢ جنيه . مرتبات وتعيينات لأمر الحج ومستخدمي المحمل .

٢٥١١ جنيه . مرتبات للعربان^(٥) .

١٤٩٣ جنيه . مرتبات الأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة^(٦) .

ومن قرأ كلام البتنوني يرى بكل وضوح كيف كانت تسخر كثير من

(١) وهي الخراج أو ضرائب الأتبان كما ذكرنا من قبل .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٤) وهي ميزانية ١٣٢٧هـ .

(٥) لضمان عدم اعتدائهم على المحمل ، وكان الأمن مفقوداً ، وللأعراب على المحمل كرات

مشهورة ، منها ما ذكره الجبرتي زمن هجومهم على ركه عام ١٢٠٨هـ حيث قاموا بكسر

المحمل وحرقه ، وقتل كثير من الحجاج ونهبهم . عجائب الآثار ١٥٩/٢ .

(٦) الرحلة الحجازية ص ١٤٣ .

الإمكانات لبدعة المحمل ، وإن المرء ليعجب من كثرة الوظائف التي كانت تقوم عليها هذه البدعة ، من أمير للمحمل إلى صاحب للقطط يقوم بإطعامها على طول الطريق .

وكانت بدعة المحمل راسخة في نفوس الناس هناك ، ومرتبطة أشد الارتباط بفريضة الحج ، ولم يكونوا ليفرطوا فيها حتى بعد مجيء الفرنسيين . ويصف الجبرتي الاحتفال بموكب المحمل قبل سفره عام ١٢١٣ هـ واشتراك كثير من النصارى المسلحين في ذلك الموكب^(١) ، بل لقد كانت هذه البدعة عند المسلمين تفوق مناسك الحج ومشاعره ، وليس أدل على ذلك من امتناع الركب الشامي والمصري عن الحج ، حين أمر أهل الدعوة بعد استيلائهم على مكة بإبطال كثير من البدع ، وعلى رأسها بدعة المحمل^(٢) .

وقد عم الاحتفال بالمحمل الأقطار الإسلامية شرقها وغربها ، فقد رأينا احتفال الناس به في المشرق وامتناعهم عن الحج لما منعهم أهل الدعوة من الإتيان به .

أما في بلاد المغرب فيذكر صاحب «الاستقصا» أن السلطان سليمان وجه ابنه المولى إبراهيم في سنة ١٢٢٦ هـ لأداء فريضة الحج «مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة ، وكانت الملوك تعتني بذلك ، وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار

(١) عجائب الآثار ٢/٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق ٣/٢٤٧ .

والقاضي وشيخ الركب ، وغير ذلك مما يضاهاى ركب مصر والشام وغيرها...»^(١) .

وقد كان سلاطين بني عثمان يحتفلون بخروج المحمل ، ويحضرون بأنفسهم ، وكان السلطان يأخذ قياد المحمل بيده فيسلمه ليد أمين الصرة ، حتى إذا حصل العود يسلم أمين الصرة ذلك القياد للسلطان . وفي كل مرحلة يتوقف ركب المحمل تعزف الموسيقى العسكرية «تعظيماً له لشرف الانتساب إلى الحج الأكبر ، فهو بمنزلة راية الدولة التي تعتبرها الجنود والأهالي ، ويعظمونها تعظيمهم للدولة نفسها ، ولذلك جميع المسلمين يقبلون على تعظيم هذا المحمل تعظيمهم للموسم الأكبر ، وعند وصوله للحرم الشريف يتولى قيادة زمام ناقته أكبر الباشوات والعلماء إلى أن يدخلوا به إلى مقره من الحرم النبوي»^(٢) .

وكان ركب المحمل الشامي يتكون من حراسة مؤلفة من ٥٥٠ عسكري ، معهم مدفعان ، وأكثر من ٢٠٠٠ جمل ، وعدد النفوس يناهز ٥٠٠٠ شخص^(٣) ، وعندما يصل إلى المدينة يقوم باستقباله شيخ الحرم^(٤) ، والقاضي ، والمفتي ، وكبار العلماء والموظفين والأعيان .

وقد ذكر الشيخ القاسمي أثناء رحلته إلى مصر عام ١٣٢١ هـ أنه رأى

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٤٥ / ٤ .

(٢) الرحلة الحجازية ٢ / ٢٢٤ محمد السنوسي .

(٣) المصدر السابق ٢ / ٢٢٤ .

(٤) هو الحاكم من قبل الدولة العثمانية ، وكان يسمى بذلك في مكة والمدينة ؛ لأن الحكام الفعلين هم أمراء الأشراف ، وكان الخلاف كثيراً ما ينشب بين أمير مكة الشريف ، وبين شيخ الحرم التركي ، ونظراً لنفوذ الأمراء في ذلك الوقت ، فإن الدولة غالباً ما تقوم بعزل شيخ الحرم ، وتعيين آخر مكانه .

الجماهير الكثيرة تحتفل بالمحمل وبالكسوة الشريفة^(١) ، يتقدمها الجنود والموسيقى العسكرية ومشايخ الطرق بطبولهم ومزاميرهم ، وذكر رحمه الله أن احتفال المصريين بالمحمل يفوق احتفال المسلمين به في دمشق^(٢) .

وكان تعلق المسلمين ببدعة المحمل تعلقاً عظيماً . يقول اللواء إبراهيم رفعت باشا أمير الحج المصري : «وما رأيناه من عادات الأهالي إحضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ، ويلمسوه فيبارك لهم في ذريتهم ، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه ، قذفوا بمناديلهم إلى خدم المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئاً من النقود أو يملئوها باللحوم البيضاء أو الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ، ويردونها إلى أربابها بعد إمرارها على المحمل»^(٣) .

وذكر الشيخ محمد المجذوب أن الناس يزدحمون على المحمل طلباً لقضاء الحاجات ، وخاصة طالبات الحبل ، ليظفروا بلمسة من الجمل ، وحين قامت الحرب الكبرى عام ١٩١٤ م لم يكن في المدينة شاب يقود الجمل في الشوارع الرئيسية ، وكان يوم المولد النبوي هو موعد خروجه السنوي ، فتعطل خروج المحمل ذلك اليوم ، فأقبل الشيوخ والعجائز على ساحة المسجد يحتجون على ذلك صائحين صاخبين : هذا تعطيل لشعائر الدين^(٤) .

(١) هي كسوة الكعبة شرفها الله .

(٢) جمال الدين القاسمي وعصره ص ١٥٠ .

(٣) مرآة الحرمين ١/ ١٣ .

(٤) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٦ . وحول ما كان يقع ازدحام الرجال والنساء والأطفال لمشاهدة المحمل وما ينتج عن ذلك من أضرار سيئة . انظر : إصلاح المساجد من البدع والعوائد ص ٢٤٢ .

لا ريب أن المحمل كان في حس الغالبية من المسلمين من أعظم شعائر الدين ، فإذا منع المحمل فقد منع الحج ، وكانوا ينفقون عليه أموالاً ضخمة ، ومصروفات عظيمة ، وشغل من الطاقات والجهود ما لو سخر في أمر يخدم الحجاج والمسلمين لكان ذا نفع كبير ، وتنافس المبتدعة على تلك البدعة وأغرقوا في الإسراف فيها ، ورأوا أنهم أسدوا إلى الدين خدمات جليلة .

احتفالات أخرى :

بالإضافة إلى احتفالات الموالد والمحامل كانت هناك احتفالات كثيرة ، استحوذت على اهتمامات الناس أيضاً . ومنها الاحتفال بالإسراء والمعراج ليلة السابع والعشرين من رجب^(١) ، وقد كان يحتفل به في الأزهر^(٢) .

وذكر الغزي أن الناس يجتمعون في يوم السابع والعشرين من رجب في الجامع الكبير في حلب ، ومعهم الوالي ، وتعطل الحكومة ، ويسمعون قصة الإسراء والمعراج ، ويستقون الشراب ، ويطعمون الحلوى^(٣) .

أما الجندي فيذكر أن الناس يتصدقون ويطعمون في اليوم السادس والعشرين من رجب ، ويقرؤون في الليل بعد صلاة العشاء المعراج ، ويصومون اليوم التالي^(٤) .

(١) وقد اختلف في وقوع الإسراء والمعراج هل كان في ذي القعدة أو في ربيع الأول كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ، وذكر أن الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي أورد في سيرته حديثاً لا يصح سنده ، أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب . البداية والنهاية ١١٧/٣ .

(٢) عجائب الآثار ٤٢٨/٣ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٦٩/١ .

(٤) تاريخ معرة النعمان ٢٠/٢ .

ولم يكن السفر للحروب يحول دون الاحتفال بالإسراء والمعراج ، كما احتفل به الشريف حسين بن علي أمير مكة (المتوفى سنة ١٣٥٠هـ)^(١) أثناء حملته العسكرية التي سار على رأسها لتأديب محمد بن علي الإدريسي عام ١٣٢٩هـ ؛ حيث نصب السراذقات العظيمة ، واحتشدت الجموع ، وأطلقت المدافع إجلالاً لذلك اليوم^(٢) .

ومن الاحتفالات أيضاً الاحتفال في المساجد بإحياء ليلة النصف من شعبان بالصلاة ، والدعاء عقب صلاة المغرب يقرؤونه بأصوات مرتفعة بتلقين الإمام^(٣) .

وفي بعض البلدان يجتمع الناس في المساجد ويقرؤون سورة يس ثلاث مرات ، عقب كل مرة يتلى دعاء ، يزعمون أنه دعاء مأثور لتلك الليلة^(٤) . «وأكثر الناس مواظبون على قراءة هذا الدعاء في تلك الليلة ، حتى كأنه من الفروض الدينية ، مع أنه لم يثبت به أثر نبوي»^(٥) ، وكثير من يحيي هذه الليلة بالذكر والعبادة في المسجد أو في بيته ، ويصوم يومه^(٦) .

ومنها الاحتفال بيوم عاشوراء ، حيث يوسع الناس على عيالهم في المآكل ، ويخرجون إلى المشهد ، وتصنع وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه ، ويتلى شيء من القرآن العظيم ، وصحيح البخاري ، وقصة

(١) الأعلام ٢/ ٢٤٩ .

(٢) الرحلة اليمانية ص ٧٦ .

(٣) الإبداع في مضار الابتداع ص ٢٨٦ .

(٤) تاريخ معرة النعمان ٢/ ٢٢ .

(٥) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٧٠ .

(٦) المصدر السابق ١/ ٢٧٠ .

المولد ، وتنشد مرثية ابن معتوق في الحسين رضي الله عنه ^(١) .

ومن ذلك آخر أربعاء من شهر صفر الخير ، حيث يشتغل الناس بالذكر والتسبيح وتعطل فيه الحكومة ^(٢) .

بدع أخرى :

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن حياة الناس أصبحت ممزوجة بالبدع ، وأنها قد سيطرت على شؤون الناس الدينية والدنيوية ، فقلما خلا شأن منها .

ومن ذلك العبادات ، فقد طغت عليها البدع حتى كادت أن تختفي معالمها الشرعية ، وألصق المبتدعون بها من البدع ما ظنه الناس مع مرور الزمن جزءاً لا يتجزأ منها ، حتى «غدت العبادة في أصلها المشروع وزياداتها المبتدعة الشغل الشاغل الذي لا يبقى مكاناً لجهاد أو لعمل اجتماعي نافع، أو للتفكير في قضايا عامة تهم المسلمين» ^(٣) . فالصلاة مثلاً ، دخلت عليها كثير من البدع بدءاً بالتلفظ بالنية إلى التسليمتين .

وأضحت المساجد أسيرة للمبتدعة الذين أغرقوها بالبدع والمحدثات ، ومن تلك البدع : بدعة الترقية ، وهي ما تقع عقب الأذان عند المنبر وهي تلاوة ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٦] ثم حديث : «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أنصت فقد لغوت» ^(٤) .

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٦٨ . وهذا ربما فعله بعض أهل السنة نكاية بالشيعة الذين يجعلون هذا اليوم مأتماً وعويلًا . وهو جهل ظاهر . وبما امتاز به هذا اليوم طبخ عدة أنواع من الحبوب بالسكر والحليب وتهادي الناس لها . تاريخ معرة النعمان ٢/ ٢٠ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٦٨ .

(٣) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٦٨ .

(٤) الإبداع في مضار الابتداع ص ١٦٨ . والحديث رواه البخاري .

وكذلك ما يقع من المنادة يوم الجمعة قبل الزوال إليها بالذكر والصلاة والسلام على رسول الله^(١). وهناك ما يسمى بالأذان السلطاني ، وهو قيام أربعة أو أكثر بالأذان جماعة^(٢) .

وهناك ما يسمى بتسبيحات الفجر وما تسببه من إزعاج للنائمين ، وكذلك الابتهالات والأغاني الدينية كما يسمونها^(٣) ، ولم تسلم أي عبادة من تلك البدع ، ومن أراد الاستزادة فعليه بقراءة كتاب «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» لعلامة الشام جمال الدين القاسمي .

أما بدع الجنائز^(٤) فقد امتازت عن غيرها بغزارتها ، واختلافها من بلد إلى آخر ، ويتبعها بدع العزاء والمآتم من اجتماع الناس للعزاء وجلوسهم له ، وإطعام الطعام لهم ، والإتيان بالمقرئين ، ولبس النساء السواد ، وتلطيح الأبواب بالوحد ، وما في ذلك من كلفة ومؤونة ، وتعنت الفقراء في عملها ، واستمرار ذلك أربعين يوماً^(٥) .

وقد ذكر الغزي جملة عظيمة منها ، كالاتماع وجلب المقرئين والإطعام عند إكمال أسبوع من وفاة الميت ، وعند إكمال أربعين يوماً على وفاته ، ويسمون بها بالأربعينية ، وعند إكمال سنة ، ويسمون بها بالسنية^(٦) . وهكذا

(١) المصدر السابق ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦ . وانظر بعض بدع الجمعة في : رحلات عبد الوهاب عزام ص ٢٧١ .

(٣) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٧ .

(٤) ومع اختفاء كثير من البدع من حياة الناس ، إلا أن كثيراً من بدع الجنائز ما زالت موجودة .

(٥) انظر : عجائب الآثار ٢/ ١٠٩ ، ٣/ ٥٠٠ - ٥٤١ . حلية البشر ٣/ ١٢٤٧ .

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٥٦ .

تتجدد الأحزان ، وتنبعث الأتراح بارتكاب البدع ، ومخالفة السنة .

ومن ذلك أيضاً قراءة الفواتح والقصائد على الميت ^(١) .

ومن ذلك زيارة المقابر يوم العيد ، حيث يخرج الرجال والنساء والأطفال في أبهى حللهم وزيتهم لزيارة الأموات ^(٢) .

وهناك بدع الختان وما كان يفعله السلاطين العثمانيون من دعوة للعلماء لحضور ختان أبنائهم ، وضرب للمدافع ، وغير ذلك ^(٣) .

أما سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن؛ لاشتمالها على أنواع التوحيد الثلاثة ، وذكر المعاد وطلب الهداية بسلوك صراط المنعم عليهم ، واجتناب صراط المغضوب عليهم والضالين وغير ذلك من المطالب العالية والمسائل النافعة ^(٤) . فقد أصبحت عند المسلمين تقليداً يقرأ في الموالد والمآتم ، وعند الوداع ، وفي الأفراح .

فعندما زار الصدر الأعظم القاهرة ، وأراد مغادرتها ، قام المشايخ بتوديعه ، وقرؤوا له الفاتحة ^(٥) ، وفي إحدى المرات حين كان نابليون بونابرت يشق بموكبه بعض شوارع القاهرة ، صاح أناس متجمعون بصوت عال : الفاتحة ، فغضب من ذلك ، وكادت تقع فتنة ، لولا أن تلطف بعضهم معه ، وأفهموه أنهم كانوا يدعون له ^(٦) . فهل كان يظن هؤلاء الجهال أنهم بقراءتهم

(١) أعلام العراق ص ١٠٩ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٢٥٧ . نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٧٢ .

(٣) عجائب الآثار ٣/ ٢٦٠ . حلية البشر ٢/ ٨٤١ .

(٤) انظر : مدارج السالكين ١/ ١٣ وما بعدها .

(٥) عجائب الآثار ٢/ ٥١٢ .

(٦) المصدر السابق ٢/ ٢٠٦ .

سورة الفاتحة يغيطون نابليون وجيشه ، أو يطردونهم بذلك؟! بل لقد كانت قراءة الفاتحة على سبيل البدعة تدخل في غالب شؤونهم واجتماعاتهم فعندما كان ينتخب شيخ الأزهر ، يقوم العلماء بمصافحته ، وقراءة الفاتحة لذلك^(١) .

وحتى المواكب كانت لا تحرم من قراءة الفاتحة ، فعندما كان الباي أحمد يستعرض الجيش ويوزع الصناجق للأمراء ، كان يختم ذلك الموكب والحفل بقراءة الفاتحة^(٢) .

وأما القرآن العظيم كتاب الهداية والنور ، فقد ضاعت قيمته الحقيقية في خضم البدع والأباطيل ، وأصبح إلى حد كبير معزولاً في زاوية المآتم والأحزان ، وحبساً في تكايا الصوفية وزواياهم ، ولم يعد ذا أثر بين في حياة ، الناس وواقعهم ، وأضحى شعاراً للأموات ، ونعياً غير مباشر عند الناس ، فلا يعرفون موت بعضهم في كثير من الأحيان إلا بقراءة القرآن^(٣) .

ومن البدع التي زاحمت كتاب الله عز وجل ، وكان لها دور كبير في صرف الناس عنه ، كتاب «دلائل الخيرات»^(٤) لمحمد بن سليمان الجزولي (المتوفى سنة ٨٧٠هـ) ، وهو عبارة عن صلوات مبتدعة على النبي ﷺ ،

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٨٣ .

(٢) إتحاف أهل الزمان ص ١٠٠ .

(٣) وفي بعض الدول الإسلامية لا يعرف موت الزعيم أو الرئيس إلا بقطع البرامج المعتادة من وسائل إعلامها وبث القرآن الكريم فترات طويلة . فإله المستعان .

(٤) وإن كان دلائل الخيرات ذكراً صوفياً إلا أنا ذكرناه هنا لانتشاره بين جميع الناس إلا من رحم الله .

فقد لقي ذلك المؤلف رواجاً عظيماً عند المسلمين في ذلك العصر ، حتى لقد فاق القرآن العظيم عند بعضهم^(١) ، فقد كان يوضع جنباً إلى جنب مع المصاحف الشريفة في المساجد والجوامع^(٢) .

وقد ادعى المتصوفة أن النبي ﷺ قد أقرأه للجزولي الذي نفت ذلك الادعاء الكاذب ، وتلقفه الأتباع كحقيقة لا جدال فيها^(٣) ، فمن أجل ذلك حرص الناس على أخذه بالإسناد واستجازته^(٤) ، والبحث على علو السند في أخذه .

وعندما أجاز أحد الشيوخ السنوسي بدلائل الخيرات قال : وهذا السند لا يوجد أعلى منه في الدنيا !!^(٥) وكان أبو القاسم السجلماسي أستاذاً لأهل دلائل الخيرات يجتمعون عليه ويقرؤونه بين يديه ، وكانوا يتنافسون في أخذه عنه^(٦) ، وانتشرت استجازته حتى وصلت إلى الهند^(٧) .

وقد كان بعض الناس يختم دلائل الخيرات بين العشاءين كل يوم ، ومن هؤلاء الشيخ العربي الشرقي (المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ)^(٨) .

(١) وذلك بسبب البيئة الصوفية الطاغية في ذلك الزمن .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٠٤ / ٤ .

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام ٣٩٢ / ١ . وذكر بعضهم أنه نام عند ضريح الجزولي فرأى الشيخ وأمره بقراءة الدلائل ، فأخطأ في ضبط بعض الكلمات ، فردّه الشيخ إلى الصواب ، وقال : هكذا قرأه علي حبيبي ﷺ !! فانظر إلى هذا الكذب المبين .

(٤) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام ٤١٤ / ٢ .

(٥) الرحلة الحجازية ١٥٥ / ٣ .

(٦) المصدر السابق ٣٩٢ / ١ .

(٧) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٤١ / ٧ .

(٨) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام ١٤٨ / ١ .

أما الوزير أحمد بن مبارك وزير المولى سليمان فقد كان من المحافظين على قراءته حضراً وسفراً ، ولا يفارقه أبداً في جيبه ، فكلما وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأ ما تيسر منه^(١) .

وقد كان الأثرياء والموسرون وذوو المناصب يبادرون إلى نشر دلائل الخيرات ، ويبدلون لأجله الأموال ، ويحبسون له الحبوس والأوقاف ، ويعطون الجوائز على من يحفظه ويقرؤه ، ويقومون على توزيعه في الأقاليم ، كما كان يصنع أحمد بن القائد عمر بن أبي سنة المراكشي (المتوفي سنة ١٢٩٢هـ)^(٢) .

يقول عنه صاحب «كشف الظنون»^(٣) : «وهذا الكتاب آية من آيات الله في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، يواظب بقراءته في المشارق والمغرب ، لا سيما في بلاد الروم»^(٤) .

وقال في الروضة المقصودة : «ومن ذلك كتاب (دلائل الخيرات للشيخ محمد الجزولي ، وهو كتاب كاسمه (دلائل الخيرات) عم الوجود بأنوار البركات ، واتصل عموم النفع به في أقاليم الإسلام ، وأكب الناس على قراءته من الخاص والعام ، ومن بركاته . . . مما جرب لقضاء الحوائج ، وتفريج الكرب قراءة (دلائل الخيرات) أربعين مرة ، ويعتمد القارئ أن يكمل هذا العدد قبل تمام أربعين يوماً ، فإن الحاجة تقضى كائنه ما

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٤١٩ .

(٣) هو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة ، توفي سنة ١٠٦٧هـ . الأعلام ٢٣٦/٧ .

(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/٧٥٩ . دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

كانت ، بركة الصلاة على النبي ﷺ » (١) .

يقول أحدهم :

بدلائل الخيرات كن متمسكاً والزم قراءتها تل ما تبتغي
فشوارق الأنوار لائحة به والترك منك لها أخي لا ينبغي (٢)
ويقول العياشي في الدلائل :

عليك بما يحويه هذا المؤلف ففيه غنى الدارين إن كنت تعرف
فلازمه واستمسك به إن تكن فتى لديك إلى حب الرسول تشوف
(دلائل خيرات) فوائد نعمة شوارق أنوار بها تتشوف
ينابيع رحمت موارد حكمة حقائق جنات من الله تزلف
فلا تعدون عينك عنه فإنه كتاب بأنوار الفضائل يعرف
لقارئه الحسنى غداً وزيادة وقرب مكين بالمواهب ينطف (٣)

وقد بلغ من اهتمامهم بهذا الكتاب المختلق أن غدوا يعدون صلواته
المبتدعة ، ويجعلونه أحزاباً وأرباعاً وأجزاء أسوة بكتاب الله عز وجل .
يقول السملالي : «وجملة ما فيه من الصلوات من قوله في كيفية
الصلاة على النبي إلخ ٥٤١ صلاة على عد نحو : اللهم الفضل والفضيلة ،
والشرف والوسيلة ، والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة صلاة أيضاً واحدة ،
وإن تكررت المعاطيف ، ففي الربع الأول ١٨٢ ، وفي الثاني ٦٩ ، وفي

(١) الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام ٩٨/٥ .

(٢) المصدر السابق ٨٨/٥ .

(٣) المصدر السابق ٩٨/٥ . ومعنى ينطف : يسيل . انظر : مختار الصحاح ص ٢٧٧ .

الثالث ١٠٩ ، وفي الرابع ٨١ » (١) .

ونظراً لأهميته عندهم ، فقد كان بعض الأميين يحفظونه عن ظهر قلب (٢) .

بل لقد بلغ عندهم هذا الكتاب مبلغاً عجبياً ، وملك شغاف قلوبهم ، ووصل الأمر أن بعض من حكم عليهم بالإعدام يكون آخر عهده من الدنيا قراءة دلائل الخيرات ، فلما قدم والي الشام المعزول أحمد باشا إلى الإعدام بسبب حادثة النصارى (٣) كان صائماً وفي يده دلائل الخيرات ، وصلى ركعتين ، ثم سلم نفسه للممات (٤) .

وكانوا يعتقدون فيه اعتقادات كثيرة ، ومنها ما ذكره كاتب الشونة من أن بعضهم كان يتلو دائماً دلائل الخيرات ، فلما قتل مكثت جثته في الشمس إلى نصف النهار ، لم يتغير ، ولم تشم له رائحة كريهة ، على أن الشمس تسرع في تغيير الميت ، وذلك كما يقولون ببركة تلاوة دلائل الخيرات (٥) . وقد اهتم العلماء بشرحه وتفسير كلماته ، وله شروح كثيرة (٦) .

وهكذا حظي هذا الكتاب المبتدع بفائض من التقدير والاحترام

(١) المصدر السابق ١٠١/٥ .

(٢) المصدر السابق ١٠٣/٥ . وزعم بعضهم أن النبي ﷺ يحفظهم في المنام ! وهو زعم واضح البطلان .

(٣) وتسمى بحادثة الستين لأنها وقعت سنة ١٨٦٠م ، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله في الباب الثالث عند كلامنا عن الامتيازات الأجنبية .

(٤) حلية البشر ١/٢٦٩ .

(٥) تاريخ السلطة السنارية ص ٨٢ .

(٦) انظر : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ٣/٤٧٦ إسماعيل بن محمد الباباني . دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

والإجلال، وهي منزلة لم يحظ بها القرآن عندهم في كثير من الأحيان .

لقد أضحت السنة في تلك الفترة غريبة جداً ، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، ويأبون التفريط فيها مطلقاً ، في الوقت الذي كانوا يفرطون فيه في كثير من أحكام الإسلام ، ويكافحون من أجلها ، ويتعاهدون الحفاظ عليها ، ويرون أنهم قد خدموا الدين ، ونفعوا المسلمين .

ومن ذلك كثرة الأوقاف على إقامة كثير من البدع ، فقد زاد الانحراف عمقاً بسبب الرافد المادي العظيم الذي كان يكفل للبدع أن تستمر ، وللضلال أن يستفحل وكان الناس يتسابقون إلى إيقاف بعض أملاكهم على تلك البدع ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وحرص الكثيرون على تغذية أكثر من بدعة بما وقفوه من أموالهم .

جاء ضمن شروط أوقاف (جامع البهرامية) في حلب ما يلي :
«٩قروش لسته قراء يقرؤون ستة أعشار من القرآن في السدة قبل صلاة الجمعة ، و٢ لحافظ يكون رئيساً عليهم ، وواحد ونصف لصيت^(١) يقرأ بعدهم نعتاً نبوية قبل الشروع في الخطبة ، وواحد ونصف لآخر مادحاً وواصفاً في المحفل نهار الجمعة على عادة أمثاله ، و ٣٠ لثلاثين حافظاً يختمون مجتمعين ختماً بجامعه بعد صلاة الصبح ، و ٢ لحافظ يقرأ سورة ياسين بعد صلاة الفجر ، وسورة الملك بعد الظهر ، وسورة عم بعد العصر . . . ويصرف في كل سنة ٢١٣٤ عثمانياً لقراءة المولد النبوي في

(١) صيت يعني شديد الصوت . انظر : مختار الصحاح ص ١٥٦ .

الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول بالجامع المذكور»^(١) .

وجاء في وقف آخر : «وأن يدفع كل يوم ٤ عثمانيات لرجل يتلو دلائل الخيرات يوم الجمعة . . . وأن يصرف كل سنة مائة قرش ليلة عاشوراء ، والمولد ، والمعراج ، والنصف من شعبان . . . »^(٢) .

فكيف كان يمكن لسيل البدع أن يتوقف ، وهذا الرافد المادي لا ينقطع عنه البتة ؟ ولم يكن يجرؤ في ذلك الزمن أحد ، فيعلن بالإنكار على هذه البدع ، لأنه سيتهم لا محالة بانتقاص الدين ومحاولة تعطيل شعائره^(٣) .

انتشار الخرافات :

فشّت الخرافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير ، وأضحت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً ، وليس ذلك فحسب ، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها ، فضلاً عن التشكيك في صحتها .

وكان من السهل أن ينتبذ دجال من الدجالين ، أو يقوم كذاب فيبتكر من عند نفسه خرافة ، أو ينسج أسطورة ، وما إن يعلنها بين الناس ، حتى يهرع إليه الكثيرون مصدقين ومتعجبين ، ولا يفكرون في التثبت أبداً ، ثم يكسب هو من وراء ذلك مكاسب مادية ومعنوية ، نتيجة لغفلة الناس ، وسذاجتهم وجهلهم .

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٥٠ / ٢ .

(٢) المصدر السابق ٦١ / ٢ .

(٣) ومن أراد معرفة حال البدع في تلك الفترة ، فليُنظر : الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ، وإصلاح المساجد للقاسمي ، وكتب التراجم والرحلات والتواريخ في تلك الحقبة ، وكثيراً ما يذكرها المؤرخون تحت باب العادات ، لأنها مع مضي الزمن صارت عادات ألفها الناس ولا يمكن أن يتخلوا عنها بسهولة .

فمن ذلك قيام أحد خدمة الأضرحة في مصر ، حيث ادعى تغريراً بالجهلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هي الحال في شهرة العين التي بمسجد الحنفي بالقاهرة) !! ويشبتون هذه الأكذوبة بفرية أشنع منها ؛ فيقولون : إن رجلاً من مصر كان حاجاً ، فسقطت طاسة من يده في بئر زمزم ، فلما حضر إلى القاهرة ، عثر عليها في تلك العين ، ولهذا ترى كثيراً من الناس يتبركون بها ، ويستشفون بمائها^(١) .

وفي المغرب كانت هناك خرافة أعظم من تلك . وذلك حين يعتمد بعض المغاربة في سحر عاشوراء إلى استقاء الماء من الآبار ، ظناً من الساقين أن الآبار تستمد من بئر زمزم في ذلك الوقت من ذلك اليوم ، فيرش بذلك الماء جميع زوايا الديار تبركاً ، خصوصاً الزروع وحظائر المواشي^(٢) .

وبلغت الخرافة حول بئر زمزم أن بعض الجهلاء كانوا يلقون بأنفسهم فيها وهم أحياء لاعتقادات فاسدة اعتقدوها ، وأن من فعل ذلك فلا حساب عليه ولا عذاب^(٣) .

وفي جامع عمرو بن العاص بالقاهرة جملة من الخرافات والأساطير : فمن هذه الخرافات أنه يوجد فيه عمود من الرخام يضربه الناس بالنعال

(١) الرحلة الحجازية ص ١٢٧ محمد لبيب البتنوني .

(٢) المعسول ٣٠ / ١ .

(٣) الرحلة الحجازية ص ١٢٧ . وذكر البتنوني أن بعض الهنود عام ١٣٢٦ هـ ألقى بنفسه حياً في بئر زمزم على غرة من خدمتها ، ولم يستطيعوا إخراج جثته إلا بعد أن استدعوا الغواصين من جدة ، ولم يعثروا عليها إلا بعد عناء شديد ، وبعد أن نزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها .

والعصي بعد فراغهم من الصلاة يزعمون أنه عصى ابن العاص عندما أراد الإتيان به لبناء المسجد ^(١) .

وقد ذكر الشيخ رشيد رضا أن الخديوي رأى العمود المضروب في نومه وقد هم أن يفتك به فسأله عن السبب فقال : لأنك لا تمنع هؤلاء الناس من ضربي وإيذائي ، فأمر سموه ببناء حظيرة من الحديد عليه تحجز الناس عن ضربه ، فتحول الناس من ضربه إلى التبرك به ^(٢) !!

ومن خرافة الأعمدة في الجامع المذكور أيضاً : أن به عمودين متجاورين يزعم أسرى الخرافة أنه لا يمكن المرور بينهما إلا لطاهر ، لذلك فإن من دنسوا بالذنوب والخطايا يقصدونهما بالمرور بينهما ليختبر الإنسان حاله ، ويزدحمون عليهما بعد صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان ازدحاماً شديداً ^(٣) .

ومن الخرافات أيضاً ما يتحدثون به ليلة العاشر من المحرم ، من أنه تهبط بغلة من السماء حاملة لكثيرة من الجننيات لصاحب النصيب !! فيأمر الأب ابنه والأم ابنتها بالدعاء إلى الله تعالى لتكون من نصيبهم ، فيحلم هؤلاء أحلاماً ، يقصها بعضهم على بعض في الصباح ، لاشتغال أرواحهم بهذا الهذيان ^(٤) .

ومنها ما يفعله كثير من النسوة في يوم عرفات إذ يجئن بصبيانهن إلى

(١) المنار ١/ ٩٠٦ ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١/ ٧٤ .

(٢) المنار ١/ ٩٠٦ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٩٤ ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١/ ٧٤ .

(٤) الإبداع في مضار الابتداع ص ٤٣٠ . ومعلوم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ولا بغلاً .

الجامع الكبير في حلب ويحنيهم ، زاعمات أن هذا طلسم به يجد الولد كثيراً من اللقطات^(١).

وفي محلة العقبة بحلب حجر منقوش بخط هروكليفي ، يزعم الناس أن النظر فيه يزيل اليرقان^(٢).

ومن الخرافات أن امرأة توجد في كوة في جامع الأطروش في حلب ، ينظر فيها من له غائب عن وطنه ، فيراه على الصورة التي هو عليها ، وفي يوم جاء أرنؤدي له غائب فنظر إلى المرأة ، فرآه ميتاً قد حمل على النعش ليقبر ، فثار غضبه ، وفي الحال أطلق عياره الناري على المرأة فحطمها ، وبطل هذا الطلسم^(٣).

ومن الخرافات في الأستانة أن جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طرفه بشجرة سرو قديمة ، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً ، وجلس تحت هذا الزنجير ، فهو يسقط على رأسه ، وإذا كان صادقاً في إنكاره ، فالزنجير لا يتحرك^(٤).

ومن الخرافات التي تدل على الإفلاس العلمي ما كان يفعله بعض الناس من إطلاق البنادق ، وضرب النحاس ، ودق الهاونات^(٥) ، جرياً على عاداتهم حين خسوف القمر من قديم الزمان ، زاعمين أن خسوف القمر سببه

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ٢٨٢. وليس ذلك بغريب على بيئات للكسل والخمول والخرافة.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٩١. واليرقان: داء يصيب الإنسان. انظر: مختار الصحاح ص ٣١٠.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٦٣.

(٤) دليل الأستانة ص ٥٥.

(٥) الهاونات جمع هاون وهو وعاء من نحاس يدق فيه. انظر: مختار الصحاح ص ٢٩٣.

حوت يتلعه ، وأنه إذا سمع أصوات البنادق ، وتلك الأصوات المزعجة يخاف فيمجد القمر^(١) .

ومن الخرافات التي لها تأثيرات سلبية عظيمة على الأطفال والناشئة ، ما يكون من تخويف الأمهات خصوصاً لأبنائهن بالسعال والاعوال وغيرها من المختلقات .

ومن ذلك «حديثهن عن المارد الذي يظهر ليلاً للإنسان ، ويسد عليه الطريق من الجهات الأربع بحائط ، وعن المذيرة التي هي جنية ، وكل جسمها إبر ومسامير تظهر بزي امرأة جميلة مزينة ، ومرتدية إزاراً أبيض كالثلج ، إذا قرب منها الإنسان تضمه إليها ، وتختفي به فلا يعود أبداً .

وبمثل هذه الخرافات التي يخوف بها الأطفال ، ينمو في أذهانهم الجبن والرعب ، فلا يمكنهم الانتقال ليلاً أو نهاراً خطوة واحدة ، إلا مع أحد خوفاً من حادث يفزعهم ، ولو كان شخصاً مقبلاً عليهم من بعيد»^(٢) .

ومن الخرافات أيضاً : «أنه إذا ماتت الزوجة ، ثم تزوج بعدها زوجها بامرأة أخرى أنهم يرشون الماء على قبرها ، زاعمين أن ذلك يطفئ حرارة الغيرة!!»^(٣) .

ومنها : «أن المرأة النفساء إذا لقيت مثلها قبل شهر الوضع ، وحملت إحداها قبل الأخرى ، تعتقد التي تأخر حملها أن التي سبقتها بالحبل هي

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٤٧/٣ . وأين هذا الحال الصاخب من حال رسول الله ﷺ وخوفه حال الكسوف والخسوف ، وخروجه مسرعاً للصلاة في المسجد؟! انظر: زاد المعاد ٤٥٠/١ .

(٢) الإبداع في مضار الابتداء ص ٤٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣٥ .

التي كبستها^(١) فتأخر حملها ، ولكي تحمل تطلب منها أن تجرح لها إصبعاً من أصابع يديها ، لتلحس دمها ، وبذلك تزول الكيسة وتحمل !!» .

ومنها : «أن الوالدة لا يصح أن تفارق موضع الولادة مدة أسبوع ، ولا أن تترك المولود وحده فيه ، يزعمن أنها إن تركته وحده (ينبدل) أي أن الجن تأخذه وتأتي بغيره ، وإذا أصيب المولود بنحول في السنة الأولى تقول النساء : إنه مبدول أو موحد ، أي أن ذلك النحول من أجل أن أمه كانت تركته وحده قبل السبوع»^(٢) .

ومن خرافاتهم أيضاً : «صعود المرأة العقيم أو التي تأخر حملها على المنارة ، زاعمين أن ذلك يورث الحمل»^(٣) .

ومن خرافاتهم : «أنهم يضعون شيئاً من الخبز والملح والماء مع الميت في القبر عند دفنه ، زاعمين أنه يتناول منه مع الملائكة ، فتكرمه عند السؤال»^(٤) .
نعوذ بالله من الخذلان .

ومنها ماكان يعتقدّه عامة المصريين من زمن بعيد أن بلاء كبيراً يحدث إذا صلى أمير مصر في مسجد أبي العلا^(٥) ، وقد صلى فيه مراراً فلم يحدث أي شيء .

وحتى الحيوانات لم تسلم من خرافاتهم ، ومن ذلك اعتقادهم أن

(١) المصدر السابق ص ٤٣٦ . والكيسة كما عرفها صاحب الإبداع هي : امتناع اللبن من النزول للرضيع .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٣٩ . حتى يصبح بينه وبين الملائكة كما تقول العامة : عيش وملح !!

(٥) المنار ١/ ٩٠٦ .

السلحفاة أصلها امرأة أنكرت الرحا من جارتها ، فمسخها الله إلى هذه الصورة^(١) .

لقد كانت حياة كثير من المسلمين أسيرة لهذه الخرافات والأساطير ، تسبح أرواحهم وعقولهم في نطاقها الواسع ، ويعيشون معها كما لو كانت حقائق قائمة .

وخلاصة القول في هذا الفصل : أن الأمة في تلك الفترة كانت غارقة في عبادة الأضرحة ، والتعلق بها من دون الله عز وجل ، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات ، التي ملأت عليها حياتها ، وشغلت أوقاتها ، وقتلت طاقاتها ، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح ، فكيف يمكن لأمة - حالها بعض ما ذكرنا - أن تحاول النهوض من كبوتها ، وتعالج أسباب انحطاطها ؟! وكيف يمكن لها أن تصمد أمام جيوش الأعداء ، أو أن تقف أمام مخططاتهم ومؤامراتهم ؟!



(١) المصدر السابق ص ٤٣٨ .

الفصل السابع

الصوفية في هذين القرنين

لعل أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية بلا مبالغة هو الصوفية، التي كان لها من الآثار الخطيرة المدمرة ما جعل الأمة تتردى في وهادات سحيقة، وكانت تلك الآثار وحدها كفيلة بالقضاء عليها، فكيف إذا اجتمع عليها ما ذكرناه وما سنذكره من انحرافات أخرى، ولكن الله عز وجل قد قضى بالبقاء لهذه الأمة، بحفظ دينها وكتابها، وهذا هو السرفي بقائها رغم الضربات العنيفة التي كانت تتلقاها، والاختلالات الحادة التي كانت تعاني منها. وسيكون حديثنا عن الصوفية من عدة أمور :

أولاً : نشأة الصوفية :

ليس من مجال بحثنا أن نتوسع في كيفية نشأة الصوفية والعوامل التي ساعدت في تلك النشأة، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقدم بين يدي حديثنا عن الصوفية بمقدمة سريعة، نلقي بها بعض الضوء على تلك القضية.

يذكر ابن خلدون أن نشأة التصوف كانت في القرن الثاني الهجري عندما أقبل الناس على الدنيا، وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية^(١). ويرى الشيخ محمد قطب أن الصوفية نشأت كرد فعل للترف الذي غشي المجتمع العباسي، وذلك أن بعض الصالحين قد هالهم الفساد الذي كان

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الرابعة.

يسري في المجتمع من الترف والمجون والانصراف عن ذكر الله وعن الآخرة ، فأرادوا أن ينجوا بأنفسهم ، فابتعدوا عن الناس وانعزلوا عن هذا المجتمع الفاسد ، ليعيشوا حياة نقية طاهرة مع الله ^(١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «إن الصوفية نسبة إلى لبس الصوف ، وإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة لصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي ، وعبادة بصرية» ^(٢) .

هؤلاء المنعزلون كانوا يسمون بالعباد والزهاد ، «ويبدو أن من أسباب ظهورهم هو إقبال الناس على الدنيا يجمعون منها ، ويتفاخرون ، فكانت ردة الفعل عند البعض هي الابتعاد الكلي عنها» ^(٣) .

«ثم حدثت مرحلة انتقالية بين هذا الزهد المشروع وبين التصوف حين أصبح له تأليف خاصة ، ويمثل هذه النقطة مالك بن دينار فنراه يدعو إلى أمور ليست عند الزهاد السابقين ، منها التجرد ، أي ترك الزواج ، وهو نفسه امتنع وكان يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي مزابل الكلاب» ^(٤) .

«وفي هذه المرحلة الانتقالية استحدثت كلمة العشق للتعبير عن المحبة بين

(١) واقعنا المعاصر ص ١٣٩ .

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٦ - ١٦ .

(٣) دراسات في الفرق : الصوفية ص ١٧ محمد العبدية وطارق عبد الحليم . مكتبة الكوثر .

الرياض . الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

(٣) المصدر السابق ص ١٧ .

العبد والرب ، وبدأ الكلام حول العبادة لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار ، وإنما قصد الحب الإلهي . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ملاحظاً هذا التطور : في أواخر عهد التابعين حدث ثلاثة أشياء : الرأي والكلام والتصوف . . . وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة . . . وظهر أحمد بن علي الهجيمي وبنى دويرة للصوفية وهي أول ما بني في الإسلام ، وصار لهم من التعبد المحدث طريق يتمسكون به ، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع ، وصار لهم حال من السماع والصوت .

كما لخص هذا التطور الإمام ابن الجوزي فقال : في عصر الرسول ﷺ كانت كلمة مؤمن ومسلم ، ثم نشأت كلمة زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، هكذا كان أوائل القوم ، ولبس عليهم إبليس أشياء ، ثم على من بعدهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن»^(١) .

ويتحدث الإمام الشوكاني عن لقب «المتصوفة» فيقول : «قد كان أول الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة ، وأعرض عن الدنيا ، وصد عن زينتها ، ولم يغتر بيهجتها ، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقاً إلى الدنيا ، ومدرجاً إلى التلاعب بأحكام الشرع ، ومسلكاً إلى أبواب اللهو والخلاعة ، ثم جعلوا لهم شيخاً يعلمهم كيفية السلوك»^(٢) ، وإن كان مذكراً الشوكاني يربط بين بداية التصوف وما آل إليه بعد ذلك .

(١) المصدر السابق ص ١٨ .

(٢) أدب الطلب ص ١٧٢ .

وهذه قاعدة تكاد تكون مطردة في غالب البدع ، إذ إنها تبدأ صغيرة ، وتبدو لأول وهلة أنها من صميم الدين ، وما تزال مع مرور الزمن تكبر شيئاً فشيئاً ، ويشتد انحرافها ، وتتسع دائرة الانحراف ، إلى أن يأذن الله في انحسارها وذهابها .

«ويمكن تقسيم هذا التطور إلى ثلاث مراحل : أوائل الصوفية ومن مشى على طريقتهم ، ثم تقيد الصوفية بمصطلحات خاصة ، ثم دخول الفلسفة الغنوصية وظهور نظريات الاتحاد ووحدة الوجود . هذه المراحل ليست منفصلة عن بعضها وغير محددة بزمن معين . . . فكان الغالب على بدايات التصوف الاعتدال وعدم الغلو ، ثم إن التصوف بلغ قمة الانحراف في القرن السابع على يد ابن عربي وابن الفارض وأمثالهما»^(١) .

على أن الذي يهمنا من ذلك كله أن الصوفية قد مرت بمراحل متداخلة ، ومع هذا الانتقال كانت انحرافاتهما تزداد شدة ، وبعداً عن الدين^(٢) .

(١) دراسات في الفرق : الصوفية ص ١٨ .

(٢) والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك : لماذا سميت الصوفية . وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عدة أقوال في ذلك ، ومال إلى أنها نسبة إلى لبس الصوف كما تقدم . وضعف الأقوال الأخرى كالقول بأنها نسبة إلى أهل الصفة ، أو الصف ، أو الصفوة من خلق الله ، أو نسبة إلى صوفة بن بشر بن أود بن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم . مجموع الفتاوى ٦/١١ .

وقد ذهب البيروني إلى أنها نسبة إلى السوفية وهم الحكماء القائلون بوحدة الوجود ، وأن الصوفية هم أول من أدخل ذلك في الإسلام فسموا باسمهم . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة ص ٢٤ .

وبناء على هذا القول تكون الصوفية قد نشأت منحرفة منذ بدايتها ، ومما يقوي هذا ظهور الانحراف العظيم فيها مبكراً . فالحلاج صاحب القول بالحلول كان ظهور دعوته في أواخر القرن الثالث الهجري ، فقد صلب على الزندقة عام ٣٠٩ هـ . وكان جده مجوسياً . انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٨/ ١١٢ ، وفي سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣ .

أما الصوفية التي سوف نتحدث عنها إن شاء الله تعالى في الفترة المدروسة ، فقد كانت خليطاً متبايناً من جميع تلك المراحل التي مرت بها ، وكانت الصوفية في تلك الفترة تمثل قمة الانحراف والضلال والفساد كما سنرى .

ثانياً : أسباب انتشار الصوفية :

هذه الأسباب ليست محصورة فقط في الفترة التي ندرسها ، ولكنها قد ازدادت قوتها وآتت ثمارها كاملة في تلك الفترة . ونحن نذكر بعض هذه الأسباب :

١ - الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية ، والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة ، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل ، كل ذلك جعل الناس يرمون في أحضان الصوفية ، التي لا تقوم بأكثر من التزيت عليهم ، والتخدير لهم ، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه .

«لقد ضاق العالم الإسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوي عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهله ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي تعيش في رحابها وتكرع من آثامها وشرورها .

وكان طبيعياً بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى

= ويقويه كذلك أن غالب عقائد الصوفية مستوحاة من النصرانية والمجوسية واليهودية والهندوكية . وهو قول له نصيب كبير من الوجاهة والقوة ، والقضية ما زالت بحاجة إلى بحث وتحقيق .

تصنيف هؤلاء الحكام، فصنفهم بطريقة تعسفية في طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ، ويسیرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيراً عما يلقونه من شر دنياهم . . . »^(١) .

فالأحوال السيئة التي عاشها المسلمون في الماضي ، جعلتهم يقبلون على التصوف ، ويلتفون حول رجاله، عليهم يجدون عندهم خلاصاً مما نزل بهم من ظلم فادح، أو يجدون عندهم حلاً لمشكلاتهم المستعصية من فقر مدقع، أو مرض مستفحل ، وعاهة مزمنة .

وهنا يبرز سؤال مهم وهو : لماذا كان الإقبال شديداً على المتصوفة دون غيرهم ؟ أو بعبارة أخرى : لماذا كان اللجوء إلى المتصوفة دون الفقهاء والمتكلمين؟ وليس من داع للإطالة في الجواب ، فإن الجفاف الذي أصاب مناهج الفقه والعقيدة ، وبالتالي انعكاس ذلك على علمائهما كان حائلاً بينهم وبين الجماهير المحرومة المضطهدة ، التي كانت تتطلع إلى من يقف

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٢٤ د . توفيق الطويل . مطبعة الاعتماد .

الناشر مكتبة الآداب بالجماهير . ط ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

وانظر حول ذلك : الحكومة الباطنية ص ٣٦-٤٩ موضوع (رئيس الحكومة الباطنية : القطب الغوث) ، وموضوع (أعضاء الحكومة الباطنية) ص ٥٠-٦٢ للصوفي الدكتور حسن محمد الشرقاوي .

وقد ذكر أن مؤلفه هذا حاز إعجاب شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود ، وليس ذلك بغريب على شيخ الأزهر الراحل الذي يعد من كبار زعماء الصوفية في العصر الحاضر . وفي الكتاب حشد من المغالطات والأباطيل - كما سبق أن ذكرنا - ، ويخرج القارئ له بأن الصوفية بخرافاتها وانحرافاتهما هي الإسلام ، وذلك بعد أن سلك صاحبه سبل التأويل ، وأغضى عن كل عيوب الصوفية التي نفاها في كثير من المواضع .

بجانبيها، ويساندها في المحن التي تعصف بها ، ولكن الفقهاء والمتكلمين كانوا منهمكين في مسائل جافة ، وأطروحات عقيمة ، على الأقل بالنسبة لهذه الجماهير المحرومة ولا يلتفت أحد منهم إليهم ، أو يحاول الوقوف معهم في ما يتعرضون له من أزمات ، بينما كان المتصوفة ينشرون عقائدهم ودعاياتهم التي لم يكن فيها من الجفاف ما كان عند الفقهاء والمتكلمين ، بل هي على العكس تماماً ، حيث تتوافق مع رغبات العامة وما يحلمون به من حياة هنيئة ، وعيش رغيد .

ومن ذلك ادعاء الصوفية : «بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد والعمل بما يرضي الله ، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأساً من غير واسطة ، واستمد منه - تعالى - القوة التي ترفعه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات»^(١) .

وتهافت الناس إلى زوايا الصوفية وشيوخها ، هاربين من الجحيم الذي يعيشون فيه ، ليجدوا عندهم خلاصاً وفكاً كما كان يقع عليهم كما يتوهمون . وكان كلما ازداد الواقع مرارة ، تسارع الناس إلى الصوفية ، وأمعنوا في تصديق تلفيقاتها وأكاذيبها .

هذا بالإضافة إلى تبني كثير من علماء الكلام والفقه للتصوف واقتداء العوام بهم ، واستخدام هؤلاء المتصوفة أساليب شيطانية تقوم على خداع الناس وإخضاعهم بالترغيب لمن ينساق خلفهم والترهيب من مخالفتهم .

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٥٥ .

وباختصار فإن غياب العلماء الربانيين عن الساحة الإسلامية ، جعل الجماهير المسلمة تتدفق إلى رحاب الصوفية ، وتنزل في دركاتها ، لأنه لم يكن في الساحة غيرها .

٢- أمن أهل الطريق وطمأنيتهم في أزمنة الشدة : في القرون المتأخرة وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، كانت حياة المسلمين مضطربة بالفتن والأزمات ، وعرضة لكثير من ضروب الطغيان وصور الظلم ، وكان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات تلك العصور ، حيث ترهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون أسباب في بعض الأحيان ، وفي هذه الأجواء الحالكة ، والظروف العصيبة ، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان ، بعيدة عن غوائل الفتن التي كانت تغتال الأفراد ، وتصيب المجتمعات .

فكثيراً ما كان يقوم الناس في الأزمات بارتداء ملابس المجاورين لينجوا بأنفسهم من الأخطار التي كانت ستناهم خلال تلك الأزمات لو كانوا من عامة الناس^(١) .

و «قد كان الفقراء أرواح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم ، فقد كانوا في أمان من تطبيق القوانين . . . وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود^(٢) كانوا يخافون بأسهم ، ويخشون سلطانهم الروحي ، يؤمنون باتصالهم بالله ؛ فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم ، فأقبل

(١) عجائب الآثار ١٢/٢ .

(٢) كان الجنود العسكريون هم مصدر أغلب الثورات والفتن والأزمات في تلك الفترة .

بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال»^(١) .

٣- الترف في معيشة أرباب الطريق : بالإضافة إلى الأمن والطمأنينة التي كان يتمتع بهما المتصوفة في رحاب زواياهم ، وفي الوقت الذي كان ينحسر الرخاء فيه عن البلاد وتحل الأزمات الاقتصادية ، والنكبات السياسية ، ويتتشر الجوع والفقر في أوساط الناس ، «كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا ، طاعمين كاسين ، على نفقة المحسنين والأثرياء، بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف . . .»^(٢) .

وبسبب المعيشة التي كان يتمتع بها أرباب الطرق في زمن الشدة والجوع اتكالا على الأوقاف والهبات التي كانت تنهال عليهم ، رغب الناس في طرقتهم ، والعيش في زواياهم ، ليظفروا بذلك المستوى من المعيشة الذي لم يكن متوفراً لغيرهم من قطاعات المجتمع الأخرى .

٤- حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف : «كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم»^(٣) .

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٥٢-١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٤ .

ويذكر الجبرتي أن الأتراك يميلون إلى الدراويش وذلك حين تحدث عن تجديد التكية البكتاشية التي قام بتجديدها رجل من الدراويش ، بعد أن طلب مساعدة الوالي التركي في مصر حسن باشا ، الذي لبي طلبه على الفور ، وسارع بتقديم الأموال اللازمة لذلك . وصار ذلك الدراويش كما يقول الجبرتي : «من أخصائه لكونه من أهل عقيدته»^(١) .

وفي حلب قام واليها التركي بإجراء قناة للماء إلى الزاوية الهلالية ، التي كان يقيم بها الصوفي محمد بن هلال ، لأنه كان عند الوالي المذكور محبوباً ومعتقداً^(٢) .

ومن ذلك إعفاء العثمانيين لأتباع بعض الطرق الصوفية من الخدمة العسكرية^(٣) ، وجعل الناس يبادرون بالانضواء إلى تلك الطرق ، فراراً من مشاق تلك الخدمة المضنية .

«لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي ، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع ، أما في ظل الدولة العثمانية ، وفي تركيا بالذات ، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين ، وانتشرت - في القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة : من لا شيخ له فشيخه الشيطان ! وأصبحت - بالنسبة للعامة بصورة خاصة - هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين !»^(٤) .

إن التصوف في العصر العثماني كان في اعتبار الناس زبدة الدين

(١) عجائب الآثار ٢/ ٢٨ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/ ٦٩ .

(٣) تاريخ معرة النعمان ١/ ٢٦٠ .

(٤) واقعنا المعاصر ص ١٥٥ .

وخلصته ، وقد شاع واستفحل أمره ، واستشرى دأؤه ، واستبد بعواطف الناس ، وكان أكبر العوامل في توجيه حياتهم في هذا العهد وما بعده^(١) .

وقد كان كثير من سلاطين بني عثمان يقومون برعاية الصوفية ، ويفيضون عليها من عطفهم وحدهم ، حتى جاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش السلطنة في ظروف عصيبة ، والمؤامرات تحاك للأمة ، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان ، ودعاة القومية والتفرقة يشنون دعواتهم في سائر البلاد، فدعا كما هو معروف إلى الجامعة الإسلامية ، والرابطة الدينية، وكانت الصوفية هي محور الجامعة التي نادى بها عبد الحميد الذي نشأ صوفياً.

«وقد أفاد عبد الحميد من نزعته الصوفية - بدون شك - فاستقطب الدراويش ، وتقرب إلى العامة والبسطاء ، كما أكرم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية ، وقرب النابغين من رجالات هذه الفرق»^(٢) .

ويمكن القول بأن السلطان عبد الحميد اعتمد على الصوفية في دعوته إلى الجامعة الإسلامية لما رآه من انتشارها ونفوذها بين الناس ، كما أن ذلك الاعتماد والتبني قد زاد من انتشار الصوفية وتغلغلها في أوساط المسلمين .

وعلى العموم يمكننا مطمئنين أن نطلق على ذلك العصر الذي نحن بصدد دراسته أنه عصر الصوفية ، فقد أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، ولم تبق مدينة ولا قرية إلا دخلتها^(٣) .

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١ .

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢١ موفق المرجة . الناشر مؤسسة صقر الخليج للطباعة . الكويت ١٩٨٤ م . مطابع دار الكويت للصحافة «الأنباء» .

(٣) إلا إذا استثنينا نجداً وملحقاتها .

يقول أحد مفكري الهند : «لم تكن في الهند إلا فكرة التصوف الباطل ، ولم تخل قرية أو مدينة من الزوايا» .

ويقول أيضاً : «ومن أكبر البليات في الهند أن العامة والخاصة كلهم كانوا مصطبغين بصبغة التصوف ، حتى بلغ بهم الأمر إلى أنهم ما كانوا يقبلون شيئاً إلا إذا كان مسكوباً في قلبه»^(١) .

ومثل هذا يقال في أغلب البلدان الإسلامية إلى حد كبير . وحسبنا أن نعلم ، أن عدد أتباع الطريقة الشاذلية وحدها قد بلغ عام ١٩٨٢م أكثر من أربعين مليوناً^(٢) ، وقد بلغ أتباع الطريقة التجانية في نيجيريا وحدها أكثر من عشرة ملايين شخص ، وذلك عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م^(٣) .

ثالثاً : نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي :

استطاعت الصوفية أن تسيطر على العالم الإسلامي في تلك الفترة ، ووقع جمهور المسلمين في أسرها ، وعظم سلطان المتصوفة في دينك القرنين ، وبلغ مبلغاً عظيماً ، ولو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى ، فكيف إذا تبنته الدول ، وناصره الحكام .

وهيئ لأرباب التصوف من النفوذ والسلطان ما جعل بعض الباحثين - وهو الدكتور توفيق الطويل - يقيم دراسته للتصوف في مصر إبان العصر

(١) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص ١١٤ .

(٢) ذكر هذه الإحصائية الدكتور زكي بدوي مستشار المركز الإسلامي بلندن والأمين العام للمجلس الأعلى للشاذلية . انظر : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية ص ١٢٢ .

(٣) التجانية ص ٤٥ علي بن محمد الدخيل الله . دار طيبة ، الرياض .

العثماني على أساس أنه دولة متكاملة بكل ما تتطلبه الدول من عناصر ومظاهر ، وما يصاحبها من أبهة ونفوذ^(١) .

وقد أطلق على هذه الدولة اسم : «دولة الفقراء» التي وصف نفوذها بقوله : «ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدماً وأعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان ، تلك الدولة التي كانت مطامع المماليك - ولا سيما في النصف الأخير من العصر العثماني - تثير فيها القلق والاضطراب ، بل لقد كانت فرق الجيش التي جاءت في ركابها لحمايتها من كل عدوان في نزاع يكاد يكون دائماً ، وحرب يوشك^(٢) أن يكون متصلاً ، وكان «الأعراب» في غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب في رأسها ، ويشيعون الفرع في نفسها .

وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقة الخاطر نائية المضجع تنفق وقتها في تدمير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد ، أما دولة الفقراء فقد عاشت في جو عامر بالاطمئنان ، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها ، لا تهتز لإنكار المنكرين - وما كان أضعف نفوذهم - فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها في كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن «روح العصر» بما كان يسود من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الأمن وظلم الحكام ، عاون على ثبات

(١) سبق أن ذكرنا كتاب «الحكومة الباطنية» للدكتور الشرقاوي ، وتسمية الكتاب جاءت تعبيراً صادقاً عما تتمتع به الصوفية من نفوذ . وقد سبقه الدكتور الطويل إلى تلك الفكرة التي لا أدري أكانت من ابتكاره ، أو أن يكون قد سبق إليها . مع الفارق بين كتابيهما ، إذ يمتاز كتاب الدكتور الطويل بالنقد المفيد الهادئ ، بينما كان الإطراء والمدح على النقيض عند الدكتور الشرقاوي .

(٢) جاء في مختار الصحاح : الحرب مؤنثة وقد تذكر . ص ٥٤ .

هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس»^(١) .

وليس فيما ذهب إليه الدكتور الطويل مبالغة ، خصوصاً إذا عرفنا أن هؤلاء المتصوفة قد سيطروا على الدولة العثمانية نفسها ، واتخذوها مطية لنشر مذهبهم .

ويذكر محمد بن علي السنوسي أن السلطان عبد الحميد كان قد قرب إليه ثلاثة من كبار المتصوفة في ذلك العصر وهم : الشيخ محمد ظافر المدني الشاذلي (المتوفى سنة ١٣٢١هـ)^(٢) ، والشيخ أحمد أسعد المدني (المتوفى سنة ١٣١٤هـ)^(٣) ، والشيخ أبو الهدى الصيادي (المتوفى سنة ١٣٢٨هـ)^(٤) ، ويقول : «ول هؤلاء الثلاثة مقام سام في السلطنة العثمانية يومئذ ، مع نفوذ في جميع الدوائر»^(٥) .

فأبو الهدى الصيادي كانت له عند السلطان الكلمة النافذة في نصب القضاة والمفتين^(٦) . واستطاع بما حازه من نفوذ أن ينشر الطريقة الرفاعية وأن يبنى من مال الدولة كثيراً من التكايا والزوايا والأضرحة في حماة والمعرة وغيرها^(٧) .

والشيخ محمد ظافر استطاع أن ينشر الطريقة الشاذلية في كثير من

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٠٩ .

(٢) شجرة النور الزكية ص ٤١١ . الأعلام ٧/ ٧٦ . وهو مغربي الأصل والنشأة ، ولكنه سكن المدينة فسمي بالمدني .

(٣) حلية البشر ١/ ٢١٢ .

(٤) الأعلام ٦/ ٩٤ .

(٥) الرحلة الحجازية ٢/ ١٠٣ .

(٦) الأعلام ٦/ ٩٤ .

(٧) تاريخ معرة النعمان ٢/ ٢٢٥ .

الأمصار ، وكان لنفوذه في الدولة ولا شك دور كبير في ذلك .

لقد أدرك المتصوفة من النفوذ والسلطان ما جعل التعدي عليهم سبباً في اندلاع الثورات وتنازع الدول ؛ فعندما قام باي وهران بقتل بعض الطائفة الدرقاوية والقبض على بعضهم ، قامت القبائل بثورة عارمة ضد الترك الحاكمين ، وقتل فيها الكثير ، وكادت أن تقع الحرب بين سلطان المغرب وصاحب الجزائر من أجل ذلك ^(١) .

وكان كثير من الثائرين السياسيين يتخذون من التصوف شعاراً لثوراتهم ، وهو شعار كان يستهوي الجماهير في تلك الفترة ، ويسرق ألبابهم ، فتساق وراء من يحمل ذلك الشعار ، فهذا علي بن غذاهم الذي ادعى أنه ولي صالح للطريقة التجانية ، وتبعته الجموع ، وقام بثورته عام ١٢٨٠هـ - ١٨٦٤م كاد أن يطيح بحكم الباي في تونس ، وينفرد بحكم البلاد وذلك بسبب نفوذه الروحي ^(٢) .

وهذا الثائر محمد بن علي الإدريسي الذي أقام دولة في المخلاف السليماني في جنوب الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، كان في بداية أمره متصوفاً . يقول عن نفسه : «والناس يسعون إلى بابي أفواجاً أفواجاً ، لتلقين الذكر والتزام الطاعة الواجبة ، والتوبة مما هم عليه والامثال لما يقربهم من الله» ^(٣) . وقد استغل مكانة جده الصوفي الشهير

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/ ١٤٠ .

(٢) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص ٢١ .

(٣) المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة ص ١٠١ رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم التاريخ الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى لعام ١٤٠٦هـ للدكتورة أميرة مداح .

أحمد بن إدريس الذي يأتي الحديث عليه ، المتوفى في صبيا ، واستغل أيضاً سذاجة القبائل هناك .

وقد أشرنا سابقاً إلى ما قام به المدعو أبو حمارة من ثورة عنيفة في المغرب ، وكان لتوجهه الصوفي أكبر الأثر في استفحال ثورته ، وانتصاره على الجيش المغربي في مواطن كثيرة^(١) .

ويعتبر الدكتور الطويل من مظاهر نفوذهم تحررهم من عرف البلاد ودينها ، حيث بلغ من سلطان المتصوفة في ذلك الزمن أنهم تمردوا على أوامر الدين ونواهيها ، وخالفوا العادات والتقاليد .

فقد كان الناس ينظرون إلى من يسمى من الصوفية بالأولياء نظرة إجلال وإكبار ، بل كانوا يرونهم فوق أحكام الدين ، وفوق مستوى البشر ، فلا غرابة بعد ذلك من سكوتهم على ما كان يرتكبه هؤلاء الأولياء من فظائع ومجون ، كارتكابهم الفواحش مع النساء على قارعة الطريق ، وتعريضهم في الشوارع والأماكن العامة ، في الوقت الذي كان الناس فيه محافظين على العرف والتقاليد بشكل يقوم على التعصب الشديد ، وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير .

« إذ بينما نرى هذا التهاون المفرع في حساب من يعتبرون أولياء ، نرى الطالب الذي لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي ممالك السلطان حتى يمضي إلى تحطيمها ، ويعرض نفسه للهلاك دفاعاً عن دينه .

ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات في

(١) وسوف يأتي الحديث عنه بشكل أوسع عند حديثنا عن الصوفية وموقفهم من الاستعمار والجهاد .

رمضان : من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح . . . ونرى كيف يرضون على قتل المرأة العاهر جزاءً وفاقاً . . . وأمثال هذه الحوادث»^(١) .

«أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف - وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف - ، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاعتباط ، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية فجاز لهم ما حرم على غيرهم ، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره ، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه ، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته . . . فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين»^(٢) قد أحلت لهم ، فاستباحوا المحرمات على مرأى من الناس ، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردهم عن غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل»^(٣) .

وفي الوقت الذي كان فيه ظلم الحكام يتفاقم ، بمضاعفة الضرائب والمغارم على المسلمين ، كان هؤلاء المتصوفة بمنأى عن كل هذا ، فلا ظلم الحكام يمكن أن يطولهم ، ولا الضرائب والمغارم يمكن أن تلحق بهم ، فقد كان الحكام يعفون الأولياء والمتصوفة من الضرائب في كثير من الأحيان ، ويرون أن أخذها منهم من الكبائر ، كما هو حالهم مع شيخ السادات أبي الأنوار»^(٤) .

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١٤ .

(٢) لعله يقصد الرذائل التي ينهى عنها الدين .

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ .

(٤) عجائب الآثار ٤١٩/٣ .

ولم تقف الدولة من الأولياء عند حد الإعفاء من الضرائب ، بل إنها كثيراً ما كانت تمد لهم يد العون والمساعدة ، وتغدق عليهم الأموال لأجل تعمير زواياهم ، كما حدث للشيخ السادات حين أراد تعمير زاوية أسلافه ، وكلم الوالي في ذلك ، فكتب إلى الدولة وسرعان ما جاء الرد بإعطائه خمسين كيساً من خزينة مصر ، ثم أعطي خمسين أخرى ، وليس ذلك فقط ، بل تم رفع ما على القرى التابعة للشيخ السادات من ضرائب^(١) .

«والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني - أي في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغي الجنود ، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة ، وكثرت الإتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس ، وبينما كان الضنك يتمشى في البلاد طولاً وعرضاً ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في حوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريتها»^(٢) .

وبلغ من نفوذ المتصوفة في مصر أن أحد مدعي الولاية يدعى الشيخ سليمان كان يرسل أوامره إلى أهالي القرى في أوراق كتب عليها : «الذي نعلم به أهل القرية الفلانية حال وصول الورقة إليكم تدفعون لحاملها خمسة أرادب قمح أو أقل أو أكثر برسم طعام الفقراء . . .» ؛ فلا يتأخرون عن إرسال المطلوب في الحال . واجتمع لديه من المردان حوالي المائة وستين أمرد ، وغالبهم أولاد مشايخ البلاد ، وكان إذا بلغه أن بالبلد الفلانية غلاماً

(١) المصدر السابق ٤١٩/٣ .

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١٨ .

وسيم الصورة أرسل بطلبه فيحضرونه إليه في الحال ، ولو كان ابن عظيم البلدة ، وعمل للمردان عقوداً من الخرز الملون في أعناقهم ، ولبعضهم أقرطاً في أذانهم^(١) .

«وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم ، وتخشى بأسهم ، وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانوناً بنفي كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبيون لشفاعتهم - بالغاً ما بلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة - ، وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعاة عند الحكام والأمراء...»^(٢) .

وكان الفقراء ومن يلوذ بهم في مأمن من سطوة الحكام وبأسهم مهما خالفوا أنظمة البلاد ، واستخفوا بدينها وأعرافها .

بل لقد كانت لهم قوانين خاصة يحتكمون إليها ، وتفصل المنازعات على ضوءها ، والمرجع الأعلى في ذلك هو شيخ مشايخ الطرق الصوفية .

وقد ذكر الجبرتي أن الشيخ محمد أبا السعود البكري (المتوفى سنة ١٢٢٧هـ) كان يتحاكم لديه خلفاء الطرق الصوفية على مقتضى قوانينهم المعتادة^(٣) .

وفي دفترخان السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجوري شيخاً

(١) عجائب الآثار ٣/ ٢١١ .

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٢١ .

(٣) عجائب الآثار ٣/ ٣٨٥ .

للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣هـ)، وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم، وقد جاء في هذا الصك ما نصه: «وإذا رفع إليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكري كالأشراف ومشايخ الطرق، فيرد إلى الحاكم المذكور حكم الأصول السالفة... لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعاً لعدم تعدي أحد على أحد»، وكأن البلد خلو من القوانين التي تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتذود عن الحرمات^(١).

وفي مصر انتشر الأولياء في أرضها وفشا أمرهم بين أهلها، واقتسموا مناطقها، وأصبح كل قسم منطقة نفوذ لولي منهم يتصرف في أهلها ويستغل غلاتها، ويقيم الولاة في بيوت ملاكها، ويطالبهم بالإتاوات وينظم منها موالد الأولياء، وكان الناس يخفون إليهم سراعاً، ويستجيون لمطالبهم راضين مغتبطين، يحملهم على ذلك الأمل في اكتساب البركة، والظفر بالزلفى إلى الله.

والمنطقة التي تخضع لنفوذ الولي تتناسب في سعة مساحتها طردياً مع قدرة هذا الولي على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه، وقد حرص كل ولي على إقرار نفوذه في منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً^(٢).

ويذكر الدكتور الطويل بعض آفاق نفوذ هؤلاء المتصوفة في مناطقهم فيقول: «كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥.

الناس وتكاثر حوله عددهم وسدوا طريقه، وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلاً
ولشماً . . . بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب
الناس إليه .

اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولدأ قد اشتد به الظمأ حتى قتله،
فهاهه ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه ، وحفر في الأرض بئراً ،
وأقام زاوية له ، فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمرؤا لهم بيوتاً على كئب
من زاويته ، فأضحى المكان القفر قرية عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن
يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يعودون إليها من هذه
البلاد^(١) .

وفي عام ١٩٣٦م كتب وزير الأوقاف المصري عبد العزيز باشا محمد
كتاباً إلى شيخ الأزهر الأستاذ المراغي في شأن البدع الشائعة ، واقترح تأليف
لجنة يشرف عليها الأزهر ، وتكون مهمتها تحييص هذه البدع الشائعة بين
الطبقات الدنيا في مصر ، ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة
كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين ، وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيحة
الأزهر ، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ
عبدالمجيد سليم ، وصدر قرار لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية
للإسلام ، وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت ثائرة الصوفية ،
وأرسلت مشيختهم بياناً إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه ؛
لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما
يتعلق بشؤون الصوفية دون غيرها من السلطات ، ثم ختمت بيانها بتوجيه

(١) المصدر السابق ص ١٣٠ .

كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر^(١) .

هذه بعض مظاهر من نفوذ المتصوفة في القرنين الماضيين ، أما نفوذهم عند أتباعهم وبين مريديهم ، فقد آثرنا أن يكون في موضع خاص بذلك الشأن .

رابعاً : نظرة المتصوفة إلى الحياة ومجالاتها :

سبق أن أشرنا إلى أن النظرة الإجمالية التي كان ينظرها المتصوفة إلى الحياة ، من أجل الوصول - كما يقولون - إلى الحضرة الإلهية ، وذلك أن الإنسان إذا زهد في الدنيا وأعرض عن ملذاتها ، وانقطع للعبادة والذكر على طريقتهم ، فإن الله عز وجل يوصله إلى حضرته وبالتالي فإنه يصبح في إمكانه خرق العادات ، وإظهار الكرامات ، فقد كان الهدف الأسمى ، والغاية القصوى التي يتسابق المتصوفة إلى تحقيقها هي الوصول إلى الحضرة الإلهية ، وكان الطريق إلى ذلك ، هو ما تمثل في نظرهم إلى الحياة من استهانة بها وإعراض عن ملذاتها ، واحتقار للسعي فيها .

ومن هنا حببوا الخلوة والانقطاع عن الناس والسياسة في البراري والقفار ، وتعذيب النفس بحرمانها مما أحل الله ، وليس ذلك فقط ، بل بالرياضات الشاقة ، والمجاهدات المؤلمة .

على أن هناك من الصوفية كما ذكرنا من قبل من استهان بالزهد في الدنيا وأقبل على ملذاتها وشهواتها ، وقد ارتدى كثير منهم جلباب التصوف حتى يجنوا من وراء لبسه مكاسب مادية .

ولكن كثيرين منهم كانوا ينظرون إلى الدنيا بمثل تلك النظرة المنحرفة ويزهدون في طلبها والسعي فيها ، لأنهم يصلون إلى كل ما يريدون عن

(١) المصدر السابق ص ١٨٥ .

طريق مجاهداتهم ورياضاتهم ، وليس عن طريق الكدح في الأرض وبذل الأسباب ، فلم يكن زهدهم كزهد الصوفية الأولين الذين أعرضوا عن الدنيا بالكلية وأقبلوا على الآخرة ، ولكنهم أعرضوا عن العمل الذي يستلزم طاقة وجهداً ، ولجؤوا إلى الزهد والذكر والخلوة ، ليصلوا إلى الحضرة الإلهية ، ثم ليتنعموا بعد ذلك كيف يشاؤون .

وكانت العزلة والخلوة والانقطاع هي الوسيلة المشتركة التي حفل بها غالب المتصوفة ، يذكر صاحب «حلية البشر» أن الشاه عبد اللطيف الدهلوي قد اشتغل بالرياضات الشاقة والمجاهدات التامة ! وأنه كان كثيراً ما يخرج إلى الصحراء ، فيذكر الله تعالى ويتغذى بالنبات ، وأنه قد بقي مرة أربعين يوماً لم يكتحل طرفه بنوم ، ولم يذق الطعام إلا قليلاً^(١) .

وهذا الشيخ عبد الله بن صبغة الله الحيدري مفتي الحنفية في بغداد يترك بلده العراق لأجل شيخه الذي «ترقى على يديه حتى ترك الأهل والوطن ، وذهب مع حضرة الشيخ الإمام إلى السليمانية وإلى دمشق الشام ، وسلك السلوك التام ، وهجر المآكل والملابس والراحة والمنام .»^(٢) .

وإذا كان الوصول إلى الحضرة هي الغاية السامية التي يطمح لها المتصوفة ، فإنما يتم ذلك غالباً بما يسمونه «الجدبة» وهي : أن يجذب الله الصوفي إلى حضرته ، ويكشف له الحجاب ، ولا تتم إلا بعد رياضات طويلة أو قصيرة^(٣) .

(١) حلية البشر ٢/٩٢٩ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٢٥ .

(٣) انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٦٦٥ محمود عبد الرؤوف القاسم . دار الصحابة . لبنان . ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م . وسيأتي الحديث إن شاء الله عن المجذوبين .

فالشيخ محمد بن عبد الله الخاني الشافعي النقشبندي دخل الرياضة في جامع العداس بدمشق على يدي شيخه ، «فأدرسته جذبة من جذبات الحق التي توازي عمل الثقلين!! فحصل له بعد ثلاثة أيام النسبة المعبر عنها بالوصول والفناء وهو دوام مقام الإحسان! ولم يزل في ذكر وفكر يترقى إلى أعلى المقامات حتى أتم الأربعينية^(١) ، فاستأذن بالذهاب إلى أهله في حماة فأذن له ، ثم لم يبرح أن عاد فأدخله الرياضة ثانياً ، فلما تمت عاد إلى أهله أيضاً ، ثم رجع فدخل الرياضة ثالثاً ونفسه متشوقة إلى ختم المقامات والترقي في مقام الأولياء . . .»^(٢) .

وما دام أن الجذبة الواحدة توازي عمل الثقلين عند هؤلاء المتصوفة ، فلم العمل النافع والجهد في سبيل الله؟! ولم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! وعلام البذل والبر والعطاء؟!

وتشير هذه النصوص إلى أن الرياضات الشاقة هي السبيل إلى الجذب والوصول ، ومن هنا نستطيع أن نفسر إلى حد كبير تلك النظرة المنحرفة التي كان ينظر بها المتصوفة إلى الحياة ؛ إذ الغاية عندهم هي الوصول والفناء اللذان لا يتمان غالباً إلا بالعزوف عن الحياة وملذاتها ، والإقبال على كل ما يؤذي النفوس ويؤلمها من رياضات شاقة وغيرها . وقد كان كثير من المتصوفة يقيم بمكان واحد ، لا يغادره إلا إلى المقبرة .

ومن هؤلاء الشيخ محمد المصري المجذوب الذي كان يقيم في حجرة من مدرسة قديمة في دمشق ، ولا يخرج منها في ليل ولا في نهار ، وكان لا

(١) وهي أربعون يوماً ينقطع الصوفي فيها للذكر .

(٢) حلية البشر ٣/ ١٢١٢ .

يقبل من أحد شيئاً سوى الطعام في بعض الأوقات ، مع أنه كان محبوباً عند الناس^(١) .

وكان بعضهم يخرج إلى الغابات كما كان يفعل الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري ؛ إذ «كان في بداية أمره يأوي إلى غابة كثيرة الوحوش والسباع ، يعبد الله فيها أياماً ، ثم يرجع إلى أهله يتزود لمثلها ويرجع مكانه ، حتى نادته هواتف العناية بلطائف الإشارات ، وطابت سريرته واستنارت بصيرته ، وتخلّى من أحواله ، وتخلّى بجميع أحواله وبعد رجوعه لداره اتخذ لنفسه خلوة في منزله لا يخرج منها إلا لقضاء أوطاره ، إلا يوم الخميس فإنه جعله لزيارة القاصدين ومذاكرة الواردين ثم يعود لخلوته ليلة السبت»^(٢) .

وكان بعضهم يختار المغارات ليختلي فيها بنفسه ، كما فعل الشيخ طه ابن جمعة الدسوقي^(٣) .

وكان بعضهم ينقطع في الأدوية والجبال ، كما فعل الشيخ وهبة المشهور بأبي العظام ، نقل أن السبب في تكتيته بأبي العظام ، أنه انقطع في الأدوية والجبال نحو سبعة أعوام ، وهو حامل العظام على الدوام^(٤) .

وهذا الأمير عبد القادر الجزائري (المتوفى سنة ١٣٠٠هـ)^(٥) ، اختلى في غار حراء عام ١٢٧٠هـ ، «فبلغ مطلوبه ونال مرغوبه ، وفتحت له كنوز

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٥١ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٣ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٥٣ .

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٥٨٠ .

(٥) الأعلام ٤/ ٤٥ .

الأسرار ، وكشف له عن رموز الأستار . . . ثم بعد مدة طلب من حضرة الهمام الشريف صاحب المقام المنيف أحمد أسعد أن يهيئ له محلاً يختلي فيه للعبادة مدة ، فهيأ له المحل الذي كان لسيدنا الصديق قدس الله سره وبابه من المسجد الشريف^(١) ، فاختلى فيه شهرين ، وحصل له ما حصل ووصل إلى ما إليه وصل^(٢) .

وقد كان لهذه الخلوات «التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المريد نفسه قبل دخولها نذرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته ومن الأدب تيقظ القلب في حضرة الله ، ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارض^(٣) :

إذا مابدت ليلى فكلي أعين وإن هي ناجتني فكلي مسامع

ومن آدابها صفاء النية والرغبة في الكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره ، وانقطاع المريد عن زوجه وولده وعشيرته وسائر الناس وإدامة تفكيره في شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين . . . هذا بالإضافة إلى آداب المريد نحو الصور والأشباح التي تتراءى له ، وعلى المريد ألا يكتم عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته مما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه . . . وإذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأتت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل ، منها أن يكشف المريد عالم الغيب

(١) وكان ذلك في المدينة المنورة . ولا يلتفت إلى كلامه عن الصديق ، فإنه من تلفيقات الصوفية .

(٢) حلية البشر ٢/ ٨٩٨ .

(٣) من كبار زنادقة المتصوفة القائلين بالاتحاد والحلول توفي سنة ٦٣٢ هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٨ ، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥٤ ، والأعلام ٥/ ٥٥ .

المحجب ، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ، ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة؛ فيمشي على الماء ويطير في الهواء ويقتحم النيران ويفعل كل ما لا يقوى عليه سائر البشر! أقام المنزل لاوي في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختماً وفي النهار ختماً، ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عدداً ، ويتعهد بالإنفاق وجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المدارس ومد الأسطة وغير ذلك .

وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب في زحمة الحياة والظفر من الدنيا بأوفى نصيب ، فالتمسوا في الخيال تحقيق ما يشتهون^(١) .

أما التواكل الذي كان يدين به الجمهور الأعظم من المتصوفة فلا نجد مثلاً يدل على مبلغ تأثيره عليهم أبلغ مما فعله أحدهم وهو الشيخ عبد الله الدهلوي حيث يتحدث عن نفسه قائلاً : «وكان لي جهة تعيش فتركته ، فاشتدت عرى الفاقة علي فاعتصمت بالتوكل ! واتخذته سجية ، ولم يكن يومئذ عندي غير خلق حصير أفترشها ، ولبنة أتوسدها ، فبلغ بي الضعف أقصاه ، فلفرط ما نالني أغلقت باب حجرتي ، وقلت : هذا قبوري حتى يأذن الله بالفتح أو بأمر من عنده ، فما لبثت أن فتح الله تعالى على يد من لا أعرفه ، فمكثت في زاوية القنعة خمسين سنة»^(٢) .

فقد ترك هذا الصوفي مصدر الرزق الوحيد الذي كان يتعيش منه ،

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٨ .

(٢) حلية البشر ٢ / ٩٣٠ .

واعتكف في حجرة ، فاشتدت فاقته وعظمت حاجته ، فاعتصم بالتواكل فلم يسعفه ، حتى أيقن بالهلكة من الجوع ومع ذلك لم يفكر في الخروج مما هو فيه من ضنك ومشقة وإشراف على الهلاك ، اعتقاداً أن ذلك منه طعن في التوكل على الله ، ومع ذلك فقد أصر على البقاء على حاله تلك حتى يفتح الله عليه أو يموت معتصماً بالتواكل ، وربما شهيداً لم يعترض على القدر المحتوم . وقد كاد يهلك لولا أن من الله عليه بالفتح ، وقد كان ذلك الفتح عبارة عن أحد المتصدقين ، وذلك أنه «لما أغلق باب الحجرة ، وقال ما قال أدركته العناية الإلهية ، فجاءه شخص وقال له : افتح الباب ، فقال : لا أفتح ، فقال له : إن لي معك شغلاً فافتح لي ، فلم يفعل ، فألقى له من خصاص الباب جملة من الدراهم الهندية المعروفة بالروبية ، وذهب ، فمن ذلك اليوم لم تنقطع الفتوحات عنه»^(١) .

فأكثر هذه الفتوحات ، بل كلها ، كانت عبارة عن صدقات الناس وأعطياتهم لمثل هؤلاء المتواكلين ، الذين كانوا يعتقدون أنهم ينفقون من الغيب ومما يفتح الله به عليهم في خلواتهم وعزلتهم من الرزق ، دوغما أي أخذ بالأسباب .

وكان المدعو أحمد دحلان هو الآخر ينفق من الغيب ، حدث ذلك له غير مرة ، حيث كان يخرج من كيس الأوراد الذي معه دراهم سكة جديدة على خلاف المعتاد ، كلما احتاج إلى المال^(٢) .

هذه صور مزرية من آلاف الصور التي كان يموج بها ذلك العصر ، وهي تعبر عن التواكل المريع الذي كان يتهالك عليه هؤلاء المتصوفة ، الذين كانوا

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٣٠ .

(٢) نفحة الرحمن في بعض مناقب دحلان ص ٤١ .

يعدون ترك الأخذ بالأسباب ، وعدم الضرب في الأرض ، قرية وتوكلاً
وديناً ، ومادام أن الإنسان بتلك الرياضات الروحية الشاقة يصل إلى
الحضرة ، وينفق من الغيب كيف يشاء فلم الضرب في الأرض ، والكدح
في الأعمال ، والسعي على العيال؟!!

لقد أدت تلك النظرة المنحرفة إلى الدنيا إلى «احترام البطالة وإباحة
التسول، وتحقير ما تنطوي عليه الحياة من لذات، وإغراء الناس بتكلف
الحزن واصطناع الضيق، والسعي إلى مواطن الذل، والاغتراب بالهوان،
والاطمئنان للمستقبل الغامض، والقناعة بالتافه من شؤون العيش ،
والاستهانة بالمادة، والاستهتار بالمال، والاكتفاء برحمة السماء .

ولقد هان في نظرهم السعي في الدنيا لاكتساب المال والكد في ميادين
العمل من أجل العيش ، وأباحوا التسول قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون
بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف
السائل على بابه»^(١) .

فهذا الشيخ عمر بن مصطفى الحلبي كان يدور في شوارع حلب ،
ويطلب من الناس الدراهم ويعطيها لأمهات الأولاد اللاتي مات عنهن
أزواجهن^(٢) .

وهذا الشيخ محمد بن محفوظ بن منفاخ الدمشقي الصالحي المعروف
بأبي تقالة، الذي يقول عنه صاحب «الحلية» إنه قطب الشام وبركة الأنام،
صاحب الكرامات الكثيرة والكشوفات الشهيرة ، والإخبارات العجيبة

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١ .

(٢) حلية البشر ١١٤١/٢ .

الواقعة المصيبة - كان عبارة عن رجل متسول ، «كان كثير القعود أمام المحل الذي دفن فيه ، ويطلب من المارين الدراهم فمن لم يعطه شتمه بملء فيه ، ولكن من الغريب وأعجب العجيب أن من مر عليه ولم يكن معه شيء من الدراهم لم يتعرض له بل يمر وهو باسم»^(١) .

وهذا هو حال كثير من شيوخهم ، أما المريدون والفقراء فقد كانوا عالة على المجتمع يحترفون مهنة التسول ، ويعيشون من ورائها .

لقد كانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً ، «فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال ، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير في القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذي يحتاجون ، والإخلاص بالعبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلاً فقيراً ضعيفاً ، ويخرج منها واسع العلم ، ثرياً طائل الثراء ، قوياً موفور القوة ! ! فحسب الإنسان من حياته العبادة»^(٢) .

وفي الحقيقة أن تلك النظرة المنحرفة جاءت من نظرة أخرى أشد انحرافاً وهي النظر إلى العبادة بمفهومها الضيق ، وهو ما أسهبنَا الحديث عنه في الفصل الأول .

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٢٤ أما ما ذكره من غريب وعجيب فلا يعدو عن كونه شيئاً من تلفيقاتهم .

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١ .

وهذا هو التواكل الذي تمارسه الصوفية وتقول عنه إنه توكل ، فهو ككل شيء في الصوفية صورة سلبية معطلة ، تتقاعس عن اتخاذ الأسباب متذرعة بالتوكل على الله .

لقد أفسد التواكل كثيراً من عقيدة القضاء والقدر ، وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة ، وإلى الرضا السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير^(١) .

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر ، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله ، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر^(٢) .

وفي ظل الصوفية ينشأ «الإسراف في التواضع حتى لتهون على الإنسان كرامته ، وتسقط في عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التمرغ تحت أقدام الناس ، والرضا بظلم الظالمين وبغي المعتدين ، والاغتياب بالذل والهوان فإن احتمال الظلم رضا بقضاء الله وعقابه للمظلوم على سوء ما قدمت يداه ، ولماذا يثور المظلوم في وجه الظالم؟ لماذا الخصومة والإنسان لا يملك في دنياه كثيراً ولا قليلاً»^(٣) .

وإذا كان الجهاد في سبيل الله ، وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا كان السعي في الأرض وتعميرها ، إنما يقوم ذلك كله على وجود الإنسان واستمراره في هذه الحياة ، ولا يتم هذا إلا بالزواج وتكثير

(١) واقعنا المعاصر ص ١٤٤ .

(٢) انظر: عجائب الآثار ٢/٢٣٩-٢٩٤ .

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١٢ .

النسل ، إلا أن المتصوفة أعرضوا عن ذلك تماماً ، ولم يلتفتوا إلى النصوص الشرعية المتوافرة التي تأمر بالزواج وتكثير الأمة^(١) .

فكان الإعراض عن الدنيا وعمارتها عامة ، وعن الزواج خاصة ، مقاماً عالياً يحوم عليه المتصوفة ، ويتسابقون إلى الظفر به . وما أكثر ما يرد في تراجم كثير منهم أنهم لم يتزوجوا أبداً ، ولم يعمروا منزلاً ، ولم يكونوا يملكون شيئاً .

فالشاه عبد الله الدهلوي والشيخ عبد الله الهراشي النقشبندي «لم يتزوجا وقد اختارا مقام التجريد ، لأنهما كان على قدم عيسى عليه الصلاة والسلام الذي لم يتزوج»^(٢) .

وهذا الشيخ عبد الحي بن حفيظ الله الدهلوي (المتوفى سنة ١٢٥١هـ) كان كما يقول بعض من ترجمه : «صاحب ترك وتجريد ، لم يتزوج ولم يبن داراً»^(٣) .

والشيخ محمد بن أكبر الشاهجهانبوري (المتوفى سنة ١٢٩٢هـ) لم يتزوج مطلقاً^(٤) .

وهذا أحمد بن العربي التنغراسي المغربي (المتوفى سنة ١٣١٩هـ) : «كان منقطعاً متجرداً عن الدنيا لا يملك منها شيئاً ولم يتزوج قط! عارفاً بطريقة التصوف»^(٥) .

(١) ومنها قوله ﷺ : «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم» وهو حديث صحيح . رواه النسائي وأبو داود وغيرهما . انظر صحيح النسائي للألباني برقم ٣٠٢٦ ، وصحيح سنن أبي داود للألباني برقم ١٧٨٩ .

(٢) حلية البشر ١٠١٧/٢ .

(٣) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٥٠/٧ .

(٤) المصدر السابق ٤١٤/٧ .

(٥) الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام ٤٥١/٢ .

وبعضهم كان يمتنع عن الزواج وتربية الأسرة والقيام عليها ، ليعيش وحده مع الحيوانات معتنياً بتربيتها .

فالشيخ محمد بن عبد الحفيظ الخلوتي المصري «لم يتزوج قط وانقطع في بيته إحدى وعشرين سنة بمفرده ، وليس عنده قريب ولا غريب ولا جارية ولا عبد ، ولا من يخدمه في شيء مطلقاً ، وبيته متسع من جهة التبانة ، وبابه مفتوح دائماً ، وعنده الأغنام والدجاج والأوز والبط ، والجميع مطلوقون في الحوش ، وهو يباشر علفهم وإطعامهم وسقيهم الماء بنفسه ، ويطبخ طعامه بنفسه وكذلك يغسل ثيابه ، واشتهر في الناس بأن الجن تخدمه ، وليس بعيد لأنه كان من أهل المعارف والأسرار! . . . وعنده عدة كثيرة من السناير ويعرفها بالواحدة ، بأسمائها وأنسابها وألوانها ويقول : هذه تحفة بنت بستانة ، وهذه كمونة بنت ياسمين ، وهذه فلانة أخت فلانة . إلى غير ذلك»^(١) .

إن تلك النظرة المنحرفة التي ينظر بها المتصوفة إلى الزواج كفيلة لو عممت بالقضاء على الجنس البشري ، وآيلة بالوجود الآدمي إلى الانقراض والتلاشي ، وذلك بعدم الزواج وقطع النسل .

أضف إلى ذلك خنوعهم ورضوخهم ورضاهم بوقوع الأمراض الخطيرة ، وانتشار الأوبئة الفتاكة ، وعدم التفكير في علاجها والتخلص منها ؛ بحجة الرضا بالقضاء والقدر .

(١) حلية البشر ٣/ ١٤١٢ . ولا غرابة في هذه الحكاية ، فالحاجة إلى الأسرة مطلب فطري في النفوس ، فحين تركت الأسرة الحقيقية لجأ هذا وأمثاله إلى اتخاذ أسر من الحيوانات والطيور .

بهذه العين الكليلة نظر المتصوفة إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم الملايين من المخلوقات ، ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطي الهمة .

وعلى أساس هذه التعاليم قامت الدنيا في الفترة التي ندرسها ، حيث خف ألوف من الدراويش إلى الزوايا طاعمين عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقتاتون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف من الدراويش الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرق ، ويفهمون الحياة هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصباً ، وألوف غيرهم يحترفون العمل ، ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في تفاهته والاحتقار لثمرته وإيمان بأن القناعة بالتافة من شؤون الحياة ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد أسهم بأوفر نصيب في ركود الحياة إبان العصر العثماني ، فقد كان من يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، وقد تغلغلت هذه النظرة في هذه البيئات ، وأثرت في الجاهل منها والمتعلم^(١) .

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١٣ . بقليل من التصرف .

ويذكر الدكتور توفيق الطويل أثراً من آثار هذه النظرة ما رآه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبة «الجغرافيا الاقتصادية» حيث يقول لهم في مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله !! . . . ثم يعلق الدكتور الطويل قائلاً : ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب إذا كانت سيطرة الأجنيبي على مرافق الحياة الاقتصادية في عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمد الإنسان ربه من أجلها ؟ إلا إذا كان المراد أن يحمد الله الذي لا يحمد على مكروهه .

«والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير في رد ظلم أو دفع بغي أو ثورة من أجل كرامة . .»^(١) .

وفي الوقت الذي كانت تلك النظرة المشوهة تكاد تسيطر على المسلمين ، كان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي ، ومدبراً للمؤامرات والدسائس للسيطرة على العالم الإسلامي الذي كان الجمهور فيه يحاربون الأخذ بالأسباب ، ويعولون على البطالة والخمول والاتكالية .

خامساً : نظرهم إلى العلم :

« تساوت في نظرهم شتى العلوم المعروفة في عهدهم - من دينية ولسانية وعقلية وغريبة - فاعتبروا الاشتغال بها انصرافاً عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة^(٢) والذكر والتهجد ، فهاجموها علماً علماً^(٣) .

وقد انقسم المتصوفة في العصر العثماني إزاء العلم بالدين إلى معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ، ويدعو ثانيهما إلى الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين من ظاهر الشرع عجز ونقص ! وأن المعين الذي ينبغي أن ينهل منه الإنسان معرفته بالدين وغير الدين هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في عبادة الله والتفاني في طاعته حتى يصل إلى حضرته ، ويأخذ عنه العلم رأساً من غير وساطة ، وشتان بين

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ .

(٢) وهذا الانحراف ناشيء كما قلنا عن جهلهم بمفهوم العبادة .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

من يستقي العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه عن الحي الذي لا يموت^(١) .

ومن هنا احتقر المتصوفة الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة^(٢) ، وكان الانصراف عن العلم والتعليم ، والعكوف على التصوف سمة من سمات تلك الفترة السوداء .

فهذا الشيخ محمد الإدديماوي الحلبي الشافعي الذي كان يتصدر للإقراء والتدريس ، «ثم ضرب عن ذلك صفحاً ورام ما هو أعظم ربحاً ، واعتزل الناس واشتغل بالعبادة والسكون ، وانزوى في داره مع الورع والزهد التام ، واعتقه الناس ، وأقبلوا عليه»^(٣) .

وهذا الشيخ عبد الحميد الألوسي (المتوفى سنة ١٣٢٤هـ) كان من الوعاظ الذين أقبل الناس على مجالس وعظهم ، ثم غلب عليه التصوف ، وصار له أتباع ومريدون ، وأقام على العزلة في داره أربعين سنة لا يخرج إلا لصلاة الجمعة والعيدين ، والناس يفدون إليه^(٤) .

وفي مكة المكرمة كان المدعو بالسيد عمر بن عبد الله السقاف (المتوفى سنة ١٣٠٥هـ) «قد تلقى العلوم عن عدة مشايخ . . . ثم إنه أخذ الطريقة النقشبندية على الشيخ محمد مطهر ، فعقب ذلك ترك الاشتغال بالتدريس بتاتاً ، وتوجه لها^(٥) واشتغل بها ، وتكشف وانفرد عن الناس بالكلية»^(٦) .

(١) المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٣) حلية البشر ٣/ ١٢٧٩ .

(٤) الأعلام ٣/ ٢٢٨ ، وأعلام العراق ص ١٥ .

(٥) يعني الطريقة .

(٦) مختصر نشر النور والزهر ٢/ ٣٢٨ .

وقد كان بعض المفتين يتركون الإفتاء لسلوك طريق الأولياء ، كما ذكر ذلك الألوسي^(١) .

وهذا الحاج علي الدرقاوي المغربي كان يدرس بإحدى المدارس في ألغ بجبال سوس جنوبي المغرب ، ثم ترك التدريس وانقطع إلى إحدى زوايا الصوفية ، «وأعطى للتصوف نفسه ، وسلبته الطريقة الدرقاوية جملة بعد أن كانت تسلبه شيئاً فشيئاً»^(٢) .

وهذا الشيخ خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي (المتوفى سنة ١٢٤٢هـ) ، ترك منصب التدريس والوظائف ورحل إلى الهند طلباً للفتوحات الصوفية^(٣) .

وبذلك كانت الصوفية معولاً هداماً لأهم مجالات الحياة ، وهو مجال العلم ، وذلك بانصراف العلماء عنه إلى العزلة والانزواء ، وإلى الطريق الرابع الذي يهدف إلى الوصول كما يظنون .

لقد قسم المتصوفة العلم إلى قسمين : علم الظاهر أو علم الشريعة . وعلم الباطن أو علم الحقيقة^(٤) ، فأهملوا علوم الشريعة ، ولم يهتموا بها ، لأنها عندهم من علوم الظاهر ، التي لا تؤدي بزعمهم إلى الوصول إلى الحضرة ، كما هو شأن علم الباطن . ويسمون العلماء بحملة الشريعة ، ويسمون أنفسهم بحملة الحقيقة .

(١) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ٢٥ .

(٢) المعسول ١/ ٢٠٠ .

(٣) حلية البشر ١/ ٥٧٥ .

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ١/ ٣١ . ويسمى أيضاً بعلم المكاشفة .

وكثيراً ما يرد في ترجمة الواحد منهم ، أنه أخذ علوم الظاهر عن عدة علماء ، وأخذ علوم الباطن عن طائفة من الأولياء .

وحتى نعرف مقدار استهانة هؤلاء المتصوفة بعلوم الشريعة ، وبالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، واستخفافهم بما سوى العلم الباطن الذي اختصوا به دون الأمة نسوق هذه الحكاية الغريبة ، التي أوردها صاحب «المعسول»^(١) : «دخل سيدي سعيد بن همو الشيخ المعدري إلى داره فقال لمريدته الفقيرة عائشة الهشتوكية : اخرجي واستديري الحائط فإنك ستجدين عالين دخلا في طريقنا حديثاً فذاكريهما ، فخرجت فوجدت صاحب الترجمة^(٢) والفقيه سيدي الحاج الحسن التاموديزتي ، فجلست إليهما بعد ما سلمت . . . ففاتحتهما الحديث فانجر بهما إلى أن وصل إلى معرفة الله تعالى ، فحلقت بهما الفقيرة الأمية إلى سماوات عجزا عن مطايرتها إليها ، فسكتا .

ثم قالت لهما : إنما أردت بهذا العلو في المذاكرة أن تعرفوا أنتم معاشر العلماء الجامدين ! الذي لا يحسبون أن الله علماً إلا في تلك النقطة الضئيلة ، التي تظنون أعماركم تجولون حولها في مدارسكم ، أن من الناس من تعجزون عن مجاراته مع أنه لم يلم بنقطة منكم هذه ، وأردت أيضاً أن تدركوا حق الإدراك أنكم معروفون عندنا لا تخفى عنا منكم خافية !! فالمنصفون منكم يدركون أنهم خالون من أنوار القلوب ، ومن ذوق حلاوة الإيمان ، وأن هذه العلوم التي يخوضونها ويقصرون عليها أعمارهم ويحسبوننها غاية ، على حين أنها وسيلة للمقصود من معرفة الله ما أبتهم بالمراد من أنوار

(١) هو محمد المختار السوسي ، توفي سنة ١٣٨٣ هـ . الأعلام ٩٢ / ٧ .

(٢) هو الحاج علي الدرقاوي الذي مر معنا آنفاً .

القلوب وحلاوة الإيمان ، ولكن مع إنصافهم هذا ، وادراكهم لكل ذلك حق الإدراك ، يحسبون أن غيرهم لا يدركون منهم ما أدركوه من أنفسهم من عدم معرفتهم بالله وعدم استنارة القلوب وانسراح الصدور .

فقال لها سيدي الحاج الحسن : وكيف معرفة الله أيتها الفقيرة ؟ فقالت : إنكم أنتم العلماء ، وإنكم أحق من يسأل عن مثل هذا ، لا أنا العامية الأمية التي قل حياؤها فثرت بهذيانها حتى جاوزت الحد ، فقال لها سيدي الحاج الحسن : لا بد أن تتكلمي ، فقالت : لا أدري ما أقول ؟ إلا أن ولدأ عندي يوماً أيقظته من نومه فقال لي يا أماء : إنك أيقظتني من نومة عذبة حلوة لذيدة جداً جداً ، فقالت له : كيف عذوبتها يابني ؟ فسكت ملياً ثم قال : نامي يا أمي هنا مثلي تذوقها ، فكَذلك أنا أقول لكم : من أراد أن يذوق معرفة الله فليرحل إلى الله بالكلية ، فإن العجب كل العجب فيمن ادعى أنه عالم مع أنه أجهل الناس بمعرفة نفسه وبمعرفة ربه ، وقدماً قيل : من عرف نفسه عرف ربه»^(١) .

هكذا كان يحتقر المتصوفة علوم الشريعة ، ويستهنون بها ، ويستخفون بالعلماء ، فكل علوم الإسلام التي يدرسها العلماء في المدارس والجوامع والمعاهد ليست إلا نقطة ضئيلة بجانب علوم المتصوفة .

وإذا كانت مثل هذه الفقيرة الجاهلة تناظر العلماء ، وتفحهمهم وتحداهم ، وتعجزهم وتبكتهم ، وتتهمهم بالجهل والقصور ، وهي الأمية العامية ، التي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تطلب العلم أبداً ؛ فلماذا التعب والنصب في تحصيل العلم؟! وعلام مزاحمة طلاب العلم بالركب في

(١) المسول ١/ ٢٠١ .

حلقات الدروس؟! ولماذا السهر في الليالي لاستذكار العلوم؟ وعلام ملازمة العلماء لأخذ العلم عنهم؟! مادام أن الإنسان قد يحصل على كل تلك العلوم التي تفنى الأعمار في تحصيلها بين عشية وضحاها ، بل ربما في طرفة عين .

ولماذا هذه العلوم أصلاً ، وما هي الغاية منها؟ إن كانت هي الوصول ، فإنه يحصل من أول الطريق الذي يسلكه المتصوفة ، وبدون عناء تعلم هذه العلوم ، التي ما هي إلا قطرة في بحر علمهم ، فلتندرس هذه العلوم ، ولتهجر هذه المدارس ، ولينضم الجميع علماء وعوام إلى طريق أهل العلم الباطن ، وليقطعوا صلتهم بالحياة حتى يصلوا إلى الحضرة الإلهية ، فتفيض عليهم العلوم بأنواعها ، وتنهمر عليهم الهبات بأشكالها!!

فإن الشخص الأمي من أهل الطريق ليرجع علمه وكشفه بعلوم الجم الغفير من علماء الشريعة ، لأنهم يأخذون علومهم عن الأموات والمؤلفات ، وهؤلاء يأخذون علمهم مباشرة من الله الحي الذي لا يموت ، وشتان بين الفريقين!!

وإذا كان هذا هو موقف المتصوفة من علوم الشريعة ، فمن باب أولى ألا يلتفتوا أبداً إلى ما سواها من العلوم . فحين أهملوا عمارة الأرض كلية ، أهملوا بالتالي كل العلوم المتعلقة بها ، فنظروا بعين الازدراء والتحقير إلى العلوم التجريبية من طب وهندسة وفلك وطبيعة وكيمياء وغيرها ، وكان لهم دور عظيم في إخراجها من صلب المناهج التعليمية ، كما سنرى ذلك في الباب القادم إن شاء الله تعالى .

لقد أسهمت الصوفية بموقفها المخزي من العلم ، بنصيب وافر في هوة التخلف العلمي الذي وقعت فيه الأمة ، وفي الركود الطويل الذي أصاب

كثيراً من مجالات الحياة المهمة ، في وقت كانت فيه هذه العلوم تحتضر وتقترب من نهايتها بما أصابها من جمود وضعف ، فجاءت الصوفية فأجهزت على البقية الباقية منها ، فانحدر العالم الإسلامي في دركات الجهل والظلام .

سادساً : الطرق والزوايا عند الصوفية :

انتشرت في هذين القرنين الطرق الصوفية^(١) ، وتعددت وكثرت الزوايا التي كان يقطنها الشيوخ والمريدون ، ويتردد إليها الكثير من الناس .

وإن من يطالع أحوال تلك الفترة التي نعنى بدراستها ليدرك من أول وهلة أن تلك الطرق المبتدعة قد طغت على حياة الناس ، وأن السواد الأعظم من المسلمين كانوا في قبضة تلك الطرق وتحت هيمنتها ، وقلما تجد في كتب التراجم والرجال ترجمة لرجل إلا وفيها ذكر الطريقة التي ينتمي إليها وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم هذه الطريقة ، وهذه ظاهرة مميزة في تلك الفترة ، وكأنما أضحت هذه الطرق الدرجة الرفيعة من الدين التي يتسابق إليها العلماء قبل غيرهم بل لقد كانت عندهم كذلك .

ونحن نذكر بعض الأمثلة على سبيل الإيجاز ، وإلا فكتب تلك الحقبة طافحة بمثل ذلك :

جاء في ترجمة الشيخ ظافر بن محمد المدني الشاذلي التي كتبها إلى صاحب «حلية البشر» حين طلب منه ترجمته ما يلي : « فعلمني^(٢) القرآن إلى

(١) الطرق جمع طريق ، «نريد بالطريق ما يضعه شيخ من مشايخ الصوفية لمجموعة من المريدين من أوضاع يلتزمون بها ويختصون بها دون غيرهم . . . » . التجانية ص ٢٨ .

(٢) الضمير يعود على والده .

أن أتقنته ، ثم علمني من أنواع العلوم إلى أن ظننت أن ما تعلمته أحسنه ، ثم أخذ يؤدبني بأداب السنة إلى أن وجد نفسه الشريفة لإعطائي الطريق مطمئنة! فاستخار الله واستهداه ، وعقب أن حصل له الإذن بما يهواه ، أخذ يدي بطريق المصافحة ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ ، إلى آخر الآية ، ثم تلا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْيَعُونَكَ إِنَّمَا يَأْيَعُونَ اللَّهَ ﴾ الآية ، ثم لقنني لا إله إلا الله ، وقال لي : اذكرها من غير قيد ولا عدة تتكاثر عليك الفيوضات ، ويتقوى لك بفضل الله المدد . . . ثم ألبسني الخرقة المباركة وهي جبة صوف من لباس المغرب ، وقد ثقل علي لبسها حتى صرت أختفي من الناس مدة ، إلى أن حصل لي بهمته تمام الأنس بها ، ولا زالت على ظهري ثلاث سنين ، ثم أمرني أن أتلون في اللباس ، ثم أتيته وطلبت منه أن يلقنني الاسم الخاص ! فأمهلني أياماً إلى أن تحقق مني صدق طلبي له ، فأخذ بيدي ولقنني إياه وقال لي : اذكره يفتح الله عليك عن قريب إن شاء الله ، وكنت أذكره دائماً مستغرق الوقت فيه . . . »^(١) .

ومما يجدر ذكره أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني قد أخذ الطريقة الشاذلية علي يدي الشيخ ظافر سنة ١٢٨٨ هـ ، وذلك قبل أن يتولى مقاليد السلطنة^(٢) .

والشيخ عبد الفتاح العقري النقشبندي الخالدي أخذ الطريقة النقشبندية الخالدية فأحسن بها الاشتغال ، وقام على ساق الخدمة بها في الأيام والليالي ، ثم لما رآه حضرة الأستاذ مولانا خالد^(٣) قد استعد للإرشاد ،

(١) حلية البشر ٢/ ٧٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٦٣ .

(٣) سيأتي الحديث عنه بعد قليل إن شاء الله .

وصار عنده أهلية الدعوة إلى المراد خلفه خلافة مطلقة يعطي الطريق لمن أراد»^(١) .

أما المدعو بالسيد جعفر بن محمد عثمان ميرغني (المتوفى سنة ١٢٧٧هـ) فقد أخذ الطريقة عن والده ، وت خلف بعد موت أبيه سنة ١٢٦٨هـ فتبعه المريدون من كل جانب ، وطريقتهم تسمى الطريقة الميرغنية^(٢) .

وكان الكثير من المتصوفة في ذلك العصر لا يكتفون بطريقة واحدة ، بل يسعون لأخذ أكثر من طريقة ، ويرون أن ذلك زيادة في الدين والخير .

فالشيخ عبد الغني الحلبي الحنفي الحسيني «أخذ الطريقة القادرية عن أبي عبد القادر محمد بن صالح بن رجب المواهي ، والطريقة الرفاعية عن أبي الحسن علي الصعيدي المصري ، والطريقة الشاذلية عن أبي محمد ابن عبد الوهاب بن أحمد الأزهري البشاري المصري ، والطريقة السعدية عن العماد إسماعيل السعدي ، وفي آخر أمره انقطع إلى الذكر والإرشاد ، وأقبل عليه المريدون من كثير من البلاد ، فانتفع به كثير من الناس»^(٣) .

وهذا الشيخ حسين بن سليم الدجاني «أخذ الطريقة الخلوتية البكرية من السيد مصطفى البكري ، وأخذ الطريقة الدسوقية الإبراهيمية عن السيد أحمد الصاوي أبي الإرشاد ، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ العمادي الفالوجي ، والأحمدية البدوية عن الشيخ صالح العلاري ، والرفاعية عن الشيخ حسن الغزالي الرفاعي القدسي ، والشاذلية عن والده سليم الدجاني»^(٤) .

(١) المصدر السابق ٢ / ٨٨٢ .

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١ / ١٢١ .

(٣) حلية البشر ٢ / ٨٧٣ .

(٤) المصدر السابق ١ / ٥٤٠ .

وهذه الصوفية فاطمة الزبيرية (المتوفاة سنة ١٢٤٧هـ) أخذت الطريقة النقشبندية والقادرية ، وكان لها أوراد وأحزاب ومشرب روي في التصوف ، وأرشدت خلقاً من الناس لا سيما النساء ، فقد لازمها ملازمة كلية وانتفعن بها انتفاعاً ظاهراً^(١) .

وربما احتاج بعضهم إلى تجديد الطريقة التي أخذها من قبل ، كما فعل الشيخ عبد القادر بن أحمد الحلبي الحنفي المقرئ ، فقد أخذ الطريقة القادرية عن أبي عبد الله محمد بن صالح بن رجب المواهبي القادري ولازمه مدة ، وبعد وفاته لازم ولده أبا المواهب إسماعيل المواهبي ، وجدد عليه الأخذ في الطريقة وغيرها ، وسمع عليه الكثير من الأحاديث الشريفة ، ولازمه السنين العديدة ، وانتفع بمجالسته^(٢) .

وقد كان بعض هؤلاء المتصوفة يخشى الانتقال من طريقة لأخرى دون موافقة الأولياء ، ويتردد كثيراً ، ولكن شيوخ الطرق أو الأولياء فيها ما كانوا يذرونه على ترده ذلك !! كما حدث للشيخ عبد الله الدهلوي حيث يقول عن نفسه : «فبايعني»^(٣) على الطريقة العلية القادرية بيده المباركة ، ولقنني الطريقة العلية النقشبندية فتشرفت بالحضور في حلق الذكر ، والمراقبة عنده خمس عشرة سنة !! حتى تفضل على هذا الحقير بالإجازة المطلقة في الإرشاد العام ، وقد ترددت أول الأمر في أنه هل يرضى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أن أشتغل في الطريقة النقشبندية أولاً ، فرأيت في واقعة جالساً في مكان ،

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ٣٣٨/٢ .

(٢) حلية البشر ٩١٦/٢ .

(٣) أحد شيوخه .

وحضرة شاه نقشبند ، فقال الغوث الجيلاني في الحال : المقصود هو الله تعالى ، فاذهب فلا مضايقة»^(١) .

وفي اعتقادي أن الذي رآه ليس الشيخ عبد القادر ، ولكنه شيطان تمثل له في صورة إنسان ، ليضله عن الصراط المستقيم ، فالمقصود عند إبليس لعنه الله هو غواية أولئك الضالين بأية طريقة من الطرق التي كانوا يسلكونها .

وقد كان لخشية الانتقال من طريقة لأخرى ما يبررها عند المتصوفة ، وذلك خوفاً من غضب الشيوخ ، كما وقع للشيخ محمد عبده (المتوفى ١٣٢٣هـ)^(٢) مفتي مصر ، حيث غضب عليه شيخه درويش خضر الذي أخذ على يديه الطريقة النقشبندية عام ١٢٨٢هـ لما أخذ الطريقة الخلوتية على يدي الشيخ حسن رضوان عام ١٢٨٧هـ ، فعنفه ولامه كثيراً ومنعه من الاجتماع بالناس^(٣) .

وكان بعضهم يشترط على مريده ألا يزور غيره من الشيوخ أو يحاول الالتقاء بأحد منهم ، كما اشترط الشيخ أحمد التجاني^(٤) على الشيخ حسن ابن حمزة بن ظافر المدني ، وحذره أن ذلك يقطع المدد والفتح الإلهي^(٥) . وربما زعم بعضهم أن انتقاله من طريقة لأخرى كان بإذن المصطفى ﷺ ،

(١) المصدر السابق ٢ / ٩٣٠ .

(٢) يأتي الحديث عنه إن شاء الله .

(٣) الرحلة الحجازية ٣ / ٢٦٦ محمد السنوسي .

(٤) هو مؤسس الطريقة التجانية التي حوت كثيراً من الكفر والأباطيل . ولمزيد من الاطلاع انظر : التجانية لعلي بن محمد الدخيل الله . وهو مرجع سبق ذكره .

(٥) الرحلة الحجازية ٣ / ٣٣ .

كما وقع للشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين الذي جاور في المدينة مدة ، وانتقل من الطريقة الختمية إلى الطريقة الشاذلية وهي طريقة أجداده . ويقول أحمد ابن الحاج أبو علي كاتب الشونة : «وأخبرني من سمع منه أن انتقاله بإذن من المصطفى عليه السلام»^(١) .

وهذا الشيخ علي الدرقاوي يقول عن نفسه : «وقد كنا قبل وصولنا نجهد ونظن أننا في غير الحضرة ، فلما فتح علينا وجدنا أنفسنا غرقى في الحضرة الربانية ، وإنما السحاب على بصائرنا ، فلما انجلى وجدناه كما قال جاء الحق وزهق الباطل ، فصرنا والحمد لله في الحضرة الربانية والنبوية جامعاً لهما في الهمة ، قوياً فيهما القوة الكبيرة ، إلى أن تجلى لنا رسول الله ﷺ يقظة ! قبل فجر اليوم الثاني لعيد الأضحى عام ١٣٠١ هـ وأنا على الضوء أنتظر طلوع الفجر مستغرقاً في ذكر الله ، فقال لي : أعطيناك الإذن العام والخاص ، فمن ذلك اليوم نهضت همتي لإصلاح العباد...»^(٢) .

أما الشيخ محمد عبده مفتي مصر حين أخذ الطريقة النقشبندية على يدي شيخه درويش خضر «فلقنه الذكر وارتاض بين يديه ، واختلى وتقلب في فنون من الرياضة الصوفية ، وتوالت عليه الأحوال ، ورأى منها آثاراً عجيبة ، ومن أهمها أنه كان في صلاة الوتر فرأى رسول الله ﷺ مقبلاً عليه جاعلاً اللثام على دون فمه الشريف وسمع قائلاً يقول : وأخذت الشريعة من بين حاجبيه ، إلى غير ذلك من المكاشفات التي تجلت عليه بمصر القاهرة

(١) تاريخ السلطنة السنارية ص ١١١ .

(٢) المعسول ١/ ٢٢٥ .

بعد تنقله إليها»^(١) . وكان جمهور المتصوفة يحرصون على أخذ الطرق بالإسناد المتصل إلى مؤسس الطريقة ومبتدعها .

فالشيخ محمد العربي بن أحمد الدرقاوي أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ أبي الحسن الجمل عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي عن أبيه أحمد عن الشيخ الخصاصي عن الشيخ علي الصنهاجي عن الشيخ إبراهيم أمجام عن الشيخ أحمد زروق بسنده للإمام الشاذلي^(٢) .

وأما الشيخ جان السليماني الحنفي النقشبندي (المتوفى سنة ١٢٦٧هـ) فقد «قدم مكة وتوطنها وكثر مريدوه ، وكان على قدم ثابت من الصلاح ، ملازماً على العبادة والطاعة ، وإرشاد المريدين ، وبيان إسناد سلسلته في الطريقة النقشبندية»^(٣) .

ولا يشترط في أخذ تلك الطرق بأسانيدھا عدالة أو ضبط ، فالمتصوفة كلهم عدول ، بل إنهم لا ينظرون إلى مثل تلك الشروط التي اعتنى بها المحدثون من علماء الظاهر ، أما علم الباطن فالكشف والتجلي والوصول تغني فيه عن أي تعديل ، وتستتر كل جرح ونقص !!

أما كيفية أخذ الطريقة ، فقد مر معنا ما ذكره الشيخ ظافر المدني من كيفية أخذ الطريق على يدي أبيه ومصافحته له ، وتلاوة بعض الآيات ، وتلقينه

(١) الرحلة الحجازية ٣/ ٢٦٥ محمد السنوسي .

والغريب حقاً أن ينقلب الشيخ بعد تلك المكاشفات والمخادعات والمجاهدات الصوفية إلى داعية للإصلاح ومناذب لتلك الطرق ، بل إلى عقلاني مفرط في العقلانية . ولم تكن إصلاحاته وعقلانيته إلا تعبيراً عما انطوت عليه نفسه من هزيمة عنيفة أمام الغرب الظافر المتغلب ، فتذبذب فكره ، وخلط بين الحق والباطل في كثير من توجيهاته وكتابات .

(٢) شجرة النور الزكية ص ٣٨١ .

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/ ١١٥ .

كلمة التوحيد . وإلباسه جبة صوف . وهناك أشكال أخرى لأخذ الطريقة :

فأتباع الطريقة الرفاعية ، يأتي طالب الطريقة عندهم بقدر ماء يقدمه للشيخ ، فيأخذه بيده ، ويقرأ على الماء وينفخ فيه ويعيدها إلى الطالب فيشرب الماء كله ، فيكون مريداً لذلك الشيخ في الطريقة المذكورة^(١) .

أما الظاهرة الخطيرة فيما يتعلق بتلك الطرق البدعية ، فقد تمثلت في المنافسات الشديدة بين شيوخ هذه الطرق ومريديها من أجل نشر كل فريق لطريقته بين الناس ، وكانت الوسيلة العظمى لحيازة قصب السبق والظفر في تلك المنافسات هو كثرة التنقلات والأسفار بين الأقطار الإسلامية لنشر هذه الطرق .

فقد كان كثير من هؤلاء المتصوفة لا سيما الشيوخ يتنقلون بين البلدان والأقاليم ، ويطوفون المدن والقرى ، ينشرون ضلالتهم وخرافاتهم ، ويتحملون ما يصيبهم من عنت ومشقة وعذاب في سبيل تبليغ طرقهم ونشرها بين الناس .

وإننا لا نكاد نعثر على متصوف بارز في التصوف في تلك الفترة ، إلا ونجده قد أفنى حياته وعمره في الأسفار والترحال ، ولم يلق بعصا التسيار إلا بعد أن طوف الأقطار ، وأثقلته السنون الطوال عن مواصلة الرحلة والسفر . وكان كثيراً ما يذكر مترجمو متصوفة ذلك العصر تلك العبارة : «وأكثر من السياحة في خدمة الطريق»^(٢) ، وذلك في ثانيا تراجمهم لهؤلاء المتصوفة .

(١) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١٩/١ .

(٢) حلية البشر ٧٥٧/٢ .

يقول كاتب الشونة : «وفي سنة ١٢٣٢ هـ دخل بجزيرة سنار العالم الرباني أعجوبة أهل الزمان ، وختم أهل العرفان ، السيد محمد عثمان تلميذ السيد أحمد أدريس^(١) . . فلما جاء رضي الله عنه من دنقلة نزل إلى كردفان وأقام بها ما شاء الله ، ودعا أهلها إلى طريقه [طريقته] فتبعه كثير من الناس لما رأوا من بركته وصلاح حاله ، فدخل حيثئذ بعض الناس الحسد ، ورموه عند مسلم الحاكم فقابلوه بكل قبيح ، وأذوه حق الإيذاء ، فصبر هو ومن تبعه . . . ثم إنه توجه إلى سنار ، فكان أول دخول الجزيرة نزل بحلة شاذلي ، ودعا الناس إلى طريقه [طريقته] ، وكانت سنة الله في الخلق ما بين المصدق والمكذب ولا سيما في أمر إصلاحهم إلى الله تعالى ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من توقف ، ثم ارتحل عنهم ودخل سنار ، وقابل حكامها ، ودعا أيضاً إلى الطرق ، فأهل التسليم أخذوا منه بلا تردد ، وكان عمره رضي الله عنه حين دخل سنار فيما حدثني به من سمع منه أنه ابن ست وعشرين سنة . . .»^(٢) .

وهذا الشيخ محمد ظافر المدني الذي ذكرنا نفوذه عند السلطان عبد الحميد ، لم يكن ليصل إلى ذلك النفوذ ، لولا رحلاته الكثيرة ، وأسفاره المتلاحقة بين البلدان لنشر طريقته الشاذلية .

يقول عنه صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»^(٣) : «من أكابر العلماء المحققين ! الذين أفرغوا جهدهم في النصح لكافة المسلمين . أخذ

(١) وكان قد أخذ الطريقة على شيخه المذكور في مكة المكرمة .

(٢) تاريخ السلطنة السنارية ص ٧٣ .

(٣) هو محمد محمد مخلوف ، من علماء المغرب ، تقلد القضاء والإفتاء في بعض مدنها . توفي سنة ١٣٦٠ هـ .

عن والده ، وورث سره ! وكان الخليفة بعده ، وفي أيامه ازدادت الطريقة في الانتشار في كثير من الأمصار ، وتجول في أفريقيا وغيرها ، ودخل صفاقس وسوسة والمنستير . . . واستوطن طرابلس ، وله هناك أتباع كثيرون . . . ثم سافر للأستانة ، وحصلت له هناك حظوة وبعد صيت ، مع إقبال خاص من سلطان آل عثمان عبد الحميد ، وعيّن له جراية ، وخص له تكية باسمه ، وجعل له جاه لم يشاركه فيه أحد إلى أن توفي وهو على تلك الحال»^(١) .

أما الشيخ بهاء الدين مهدي الرواس الصيادي الرفاعي (المتوفى سنة ١٢٨٧هـ) فقد كان من أكثر شيوخ المتصوفة سفراً ورحلة ، لا يكاد يقر له قرار .

يقول عنه صاحب الحلية : «ففي خمس وثلاثين ومائتين وألف جذبه القدر إلى السياحة ، فخرج طالباً بيت الله الحرام ، وجاور بمكة سنة ، ثم تشرف بزيارة جده عليه الصلاة والسلام ، وجاور بالمدينة المنورة سنتين . . . ثم ذهب إلى مصر ، ونزل في الجامع الأزهر ، وبقي ثلاث عشرة سنة ، يتلقى العلوم الشرعية من مشايخ الأزهر . . . ثم عاد سائحاً إلى العراق ، فاجتمع بالشيخ العارف بالله ولي الله السيد عبد الله الراوي الرفاعي ، فأخذ عنه الطريقة ، ولزم خدمته والسلوك بين يديه مدة ، وأجازه قدس الله سره ، ثم أقامه خليفة عنه ، ثم طاف البلاد وذهب إلى الهند وخرسان والعجم والتركستان ، وجاب العراق والشام والقسطنطينية والأناضول والروملي ، وعاد إلى الحجاز وذهب إلى اليمن ونجد والبحرين ، وطاف البادية

(١) شجرة النور الزكية ص ٤١١ .

والحاضرة وكان لا يكتف في بلدة سبعة أشهر قط ، وأكثر إقامته في البلاد تحت الثلاثة أشهر»^(١) .

وهذا الشيخ أحمد بن إدريس الإدريسي الحسني (المتوفى سنة ١٢٥٣هـ) أخذ الطريقة الشاذلية في المغرب ، «وارتحل من فاس سنة ١٢١٣هـ إلى الأقطار المصرية ، وأخذ بالصعيد عن الشيخ محمود الكردي وغيره ، ثم ارتحل للأقطار الحجازية ، ومكث بمكة أربع عشرة سنة ، ثم رجع للأقطار المصرية ، ومكث بالصعيد خمس سنين ، ثم رجع لمكة وأقام بها اثنتي عشرة سنة ، ثم انتقل للأقطار اليمنية»^(٢) ، وأقام بها تسع سنين إلى أن توفي هناك سنة ١٢٥٣هـ أذعن له علماء اليمن واعترفوا له بالولاية وأخذوا عنه جميعاً طريق القوم ، وأخذ عنه أيضاً أجلاء وقته من فضلاء العلماء والسادة في سائر الأقطار كالأستاذ الشهير العلامة الفاضل محمد بن علي السنوسي صاحب الجبل الأخضر ، والأستاذ القطب العارف الأكبر الشيخ محمد حسن ظافر المدني ، والشيخ عثمان المرغني ، والشيخ المجذوب السواكني ، والشيخ إبراهيم الرشيدي ، والشيخ عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيد ، والشيخ محمد عابد السندي صاحب الثبوت في الأسانيد ؛ كان جامعاً بين الشريعة والحقيقة!!»^(٣) .

ولقد كان لهؤلاء الذين أخذوا عن الإدريسي دور كبير في نشر الطرق

(١) حلية البشر ١/ ٣٧٥ .

(٢) انتقل إلى صيبا وبها توفي وهو مؤسس الطريقة الإدريسية الأحمدية ، وخفت أمر أتباعه في تلك الجهات ، حتى قام حفيده الثائر محمد بن علي الإدريسي بتأسيس إمارة للأدارة هناك ، واستغل مكانة جده الصوفية عند الناس كما سبق أن ذكرنا .

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٩٦ .

الصوفية، وكان بعضهم مؤسسين لطرق جديدة ، كالسنوسي صاحب الطريقة السنوسية ، والمرغني صاحب الطريقة المرغنية .

ويذكر الغزي أن الطرق الصوفية في حلب كثيرة جداً ، كالطريقة القادرية والرفاعية والدسوقية والنقشبندية والبدوية والأردبيلية وغير ذلك .

أما الطريقة الشاذلية فلم يكن لها في حلب ذكر ، حتى عام ١٢٨٥هـ حيث قدم إليها رجل يدعو إلى أتباع شيخ مشهور بالصلاح مقيم في ترشيحة مما يلي عكا ، ويرغب في طريقته الشاذلية ، فتبعه خلق كثير ، وصار لهم في حلب ظهور وشأن^(١) .

وكان كثير من المتصوفة يزعمون أن أسفارهم تلك كانت بأمر النبي ﷺ لهم إما يقظة وإما مناماً^(٢) .

لقد كان لتلك الأسفار والرحلات دور عظيم في انتشار تلك الطرق في مختلف الأقاليم والبلدان . ومن خلال ما سبق من نصوص من تلك الطرق نخرج بعدة ملاحظات ، تؤيد ما تميزت به تلك الفترة ، وهو أن التصوف كان يمثل عند الناس زبدة الدين وخلاصته ؛ فالدعوة إلى الله كانت عندهم هي الدعوة إلى الطرق الصوفية ، والنصح والإرشاد كان بتوجيه الناس إلى الصوفية ، والعلماء الربانيون هم المتصوفة الذين يثابرون في خدمة الصوفية ، ويعملون على نشرها ، والدين والصلاح هما الصوفية ، وبمقدار ما يتصوف المرء يكون دينه وصلاحه . ولهذا يحرص الآباء على تنشئة أبنائهم تنشئة صوفية ، وحتى يزداد الأمر وضوحاً في اعتبار الناس أن

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/ ١٩١ .

(٢) حلية البشر ٢/ ٩٣٠ .

الصوفية كانت هي الدين في تلك الفترة نضرب على ذلك مثالين :

الأول : ما ذكره بعض المؤرخين عن الشيخ خالد بن أحمد أبي البهاء ضياء الدين الشهرزوري العثماني نسباً^(١) أنه مجدد القرن الثالث عشر الهجري ، ونعت من أجل ذلك بالمجددي ، نظراً لما قام به من جهود عظيمة في إحياء الطرق الصوفية ونشرها بين المسلمين . يقول الحصني : « قد أحيأ كثيراً من مساجد دمشق في الأذكار وأخذ عنه أكثر علمائها الأخيار وفحول رجالها الأبرار ، لم يسع المقام ذكر أسمائهم ، وله في كل بلدة خلفاء ومريدون علماء ، خصوصاً في الأستانة له فيها تكايا وزوايا مشهورة »^(٢) .

وقد ذكر بعض الرحالة الأوروبيين حين زار العراق عام ١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م ، ورأى الشيخ خالد في السليمانية ، أن له من المريدين أكثر من اثني عشر ألف مريد في مختلف أنحاء تركيا والبلاد العربية^(٣) .

وحتى نتصور مكانة هذا الصوفي الكبير الذي اعتبر مجدداً للدين في القرن الثالث عشر الهجري ، نذكر بعض أبيات من مرثية لأحد الشعراء رثاه بها بعد موته ، تصور فجيعته ، وفجيرة الناس بكارثة موته ، وجاء فيها :

ما للجبال الراسيات تميل	ما للبذور يرى بهن أفول
ما للظلام . . يجر ذيل ردائه	فوق الضياء فلم يقله مقليل
والأرض ترجف والنوائب أدهمت	والبين يهجم والخطوب تجول
هذا مصاب ليس يحدث مثله	تالله كم دهشت لديه عقول

(١) قيل إنه ينتسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والله أعلم بحقيقة الحال . وقد توفي عام ١٢٤٢هـ .

(٢) منتخبات تواريخ دمشق ص ٦٥٣ .

(٣) من هامش ترجمته في الأعلام ٢/ ٢٩٤ .

هل كان يوم الصعقة الأولى وهل دهم الورى بالصور إسرائيل
أم زلزلت تلك القيامة وانطوت حجب الحياة وعاجل التهويل
قف وانتبه ما قد بدا فيما استوت فيه الخلائق عالم وجهول^(١)

الثاني : ما ذكره صاحب الحلية عن الشيخ عبد الله الدهلوي . وهو
قوله : «شيخ مشايخ السادة النقشبندية . . . قام بتأييد الشريعة المحمدية!
وتجديد معالم السنة السنية! وأداء حقوق الحقائق ، وإحياء جميع الطرائق ،
القادرية والسهروردية والكيرية والجشتية والنقشبندية ، رافعاً لواءها بين
الخلائق . . .»^(٢) .

وهل ضيعت الشريعة وكادت تنطمس معالم السنة الشريفة ، إلا حين
انشغل الناس بهذه الطرق ، ورأوا أنها من الدين بمنزلة الرأس من الجسد؟!
وقد كان لهذه الطرق اعتبارها ومكانتها عندهم ، فحين ثار محمد بن
علي الإدريسي في بلدة صبيا بتهامة على الدولة العثمانية ، أرادت الدولة
معرفة مقاصده ، ومن ثم عقد الصلح معه ، فأرسلت إليه وفداً برئاسة الشيخ
توفيق الأرئوودي أحد رجال الطريقة الإدريسية التي قام بتأسيسها جده أحمد
ابن إدريس ، والتي ينتمي إليها هو أيضاً^(٣) ، ولهذا الخبر دلالة المهمة ، في
أن تلك الطرق قد سيطرت على عقول الناس وأفهامهم ، وأنها كانت من
أكبر المؤثرات في شؤون حياتهم .

وقبل أن نختم حديثنا عن الطرق الصوفية ، نود أن نشير إلى بعض

(١) حلية البشر ١/٥٨٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/٩٢٨ .

(٣) الرحلة اليمانية ص ٦ . وما يجدر ذكره أن مهمة الوفد قد باءت بالفشل .

الإحصائيات التي ذكرت عددها ، وهي إحصائيات تقريبية ، والأمر الملفت للنظر هو كثرة عددها ، وانشقاق بعضها عن بعض ، فكثيراً ما يقوم أحد شيوخ إحدى الطرق بابتداع طريقة جديدة ، لا تلبث أن تشتهر ، ويكثر أتباعها .

وقد ذكر الدكتور توفيق الطويل أن الطرق الصوفية في العهد العثماني قد بلغت حوالي ثمانين طريقة ، أما في زمنه^(١) ، فقد بلغت خمساً وأربعين طريقة ، لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى ، لكل منهم مريدون يسلكون طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ، ويعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم . . . وقد وضع المدعو بالسيد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر^(٢) كتاباً يدعى «التعليم والإرشاد» ليستعين به مشايخ الطرق وخلفائهم على إرشاد المريدين^(٣) .

أما علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» فقد ذكر أكثر من أربعين طريقة كانت موجودة في زمنه^(٤) وقد عد بعض الباحثين الطرق الصوفية في عهد السلطان عبد الحميد فأوصلها إلى سبعين طريقة صوفية^(٥) .

ويرجع الاختلاف في إحصائية هذه الطرق إلى اختلاف الزمان والمكان ،

(١) قبل حوالي أكثر من نصف قرن من الآن .

(٢) وقد تولى هذه المشيخة عام ١٣٠٩ هـ وتوفي عام ١٣٥١ هـ . الأعلام ٦٦/٦ .

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٧٤ .

(٤) الخطط التوفيقية ٤٣٦/٣ . وقد توفي علي باشا مبارك سنة ١٣١١ هـ .

(٥) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢٢ .

وإلى ما ذكرناه سابقاً من استحداث طرق جديدة مع مرور الزمن

أما الزاوية التي كانت تعتبر أهم محاضن الصوفية ، ونقاط تجمعها ، فقد كان الأمراء والحكام والأثرياء يتسابقون في إنشائها وتعميرها ، ويستجيبون لمطالب شيوخ الطرق ، كما ذكرنا ما فعله الوالي التركي في مصر ، حين أرسل إلى السلطان العثماني في إطلاق الأموال لعمارة زاوية السادات الذي طلب منه ذلك^(١) .

ويذكر علي باشا مبارك أن عباس باشا أنشأ سنة ١٢٦٨ هـ زاوية تدعى تكية النقشبندية ، «وجعل بها مصلًى ومراحض للصوفية ، وبنى بها سبيلاً وبيتاً لسكن شيخها محمد عاشق أفندي ، وعمل بها حديقة لأجل أن تشرف عليها مساكن الصوفية وبقي بها محمد أفندي عاشق إلى أن مات في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٠ هـ» . وقد ذكر أن سبب بناء التكية أن عباس باشا كان يعتقد في الشيخ المذكور ، ويجله ويعظمه ، فطلب منه أن يبني له تكية ليسكن فيها مع دراويشه ، فاشترى عدة منازل كانت في محل هذه التكية ، وأنشأها في نفس المكان ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، ورتب لها مرتبات جلية^(٢) .

أما الشيخ محمد بن عبد السلام بن عبود المكناسي السلاوي (المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ) أحد شيوخ الطريقة الدرقاوية في المغرب ، فقد رحل إلى فاس وأخذ ينشر طريقته فيها ، فأنكر عليه بعضهم ، فقصد سلا ، فاعتنى بها عاملها الحاج الطيب الصبيحي مع بعض المحبين له ، واشتروا له داراً قرب

(١) عجائب الآثار ٤١٩/٣ .

(٢) الخطط التوفيقية ٨٩/٣ .

المسجد ، اتخذها زاوية له ، وقد كانت تلك الزاوية مزاراً للوافدين على سلا والمتسبين لطريق القوم^(١) .

ومع ما كان يلقاه المتصوفة من دعم سخي من أمراء الناس وأثريائهم خصوصاً فيما يتعلق ببناء الزوايا ، فإنهم في كثير من الأحيان هم الذين كانوا يبادرون إلى بناء زواياهم دون انتظار لمساعدة أحد من الناس ؛ فإن الزوايا بالنسبة لهم تمثل شرايين الحياة التي تجري فيها طرقهم وطقوسهم وبدعهم .

فهذا الشيخ أبو عبد الله بن عبد الرحمن الونيسي (المتوفى سنة ١٢٤٢هـ) ، قد أقام زوايا عديدة في تونس هي محط رحال كثير من القبائل هناك^(٢) .

والشيخ صديق السندي (المتوفى سنة ١٣٢٢هـ) قام ببناء زاوية في محلة المسفلة بمكة المكرمة ، وكان يأتيه فيها المريدون^(٣) ، ومثل ذلك يقال عن كثير من المتصوفة الذين يهبون لبناء زواياهم في أي بلد ينزلون فيه .

وفي تلك الفترة انتشرت الزوايا الصوفية ، وتضاعفت أعدادها .

ففي القاهرة وحدها كان يوجد بها مائتان وخمس وعشرون زاوية^(٤) .

وفي منطقة زواوة وبجاية في الجزائر كان يوجد أكثر من خمسين زاوية^(٥) ،

(١) من أعلام الفكر المعاصر ١٥٣/٢ .

(٢) شجرة النور الزكية ص ٣٦٩ .

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١٧٦/١ .

(٤) الخطط التوفيقية ٨٩/٣ . وقد انخفض هذا العدد والحمد لله ، حيث ذكر الدكتور الطويل أن

عدد الزوايا في زمنه كان حوالي سبعين زاوية .

(٥) تاريخ الجزائر الثقافي ٢٦٤/١ .

وبلغ عددها في الجزائر كلها ثلاثمائة وتسعة وأربعين زاوية^(١) .

ومما يؤسف له أن عدد الزوايا الصوفية كان يفوق بكثير عدد المساجد والمدارس^(٢) ، ويرجع ذلك بشكل رئيس إلى كثرة الأوقاف على الزوايا، فقد كان الناس يقفون على الزوايا أضعاف ما كانوا يقفونه على المساجد والمدارس، لأجل أن يرضى عنهم شيوخ الزوايا، ويمنحوهم من بركاتهم^(٣) .

وكما كانت الأضرحة ملجأً للفارين ، ومأمنًا للمجرمين ، فكذلك كانت كثير من الزوايا حمية للعائدين بها ، والهاربين إليها . فزاوية معمرة في إحدى نواحي قسنطينة كانت أماناً للخائفين ، لا يمس من لاذبها بسوء .

وكان محيي الدين مقدم الطريقة القادرية ، يصف زاويته (زاوية القيطنة) بأنها كمقام إبراهيم من دخلها كان آمناً^(٤) ، وهكذا انتشرت هذه الطرق المبتدعة بزواياها وتشعبت .

يقول الشيخ محمد الحجوي (المتوفى سنة ١٣٧٦هـ)^(٥) : «حتى أنك إذا بحثت في أي مدينة أو قرية في غالب الممالك الإسلامية تجد زواياها أكثر من مساجدها ومن المدارس ، ولا تكاد تجد عائلة إلا وهي آخذة طريقة من الطرق تتعصب لها برجالها ونسائها وصبيانها ، على أنه ربما تجد في العائلة طالباً واحداً للعلم ، ولا تجد فيها من يحسن الكتابة ، حتى التجأت الدول

(١) ابن باديس، حياته وآثاره ١٨/١ جمع ودراسة د. عمار الطالبي . دار الغرب الإسلامي .

بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٢) تاريخ الجزائر الثقافي ١/ ٢٦٩ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٦٩ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٢٧١ .

(٥) الأعلام ٦/ ٩٦ .

الإسلامية أن تعتبر رؤساء الطرق بمنزلة الموظفين وتسميهم كما تسمي موظفيها، لتختار من لا يكون ضدها، وفي بعض الأقاليم تجعل رئيساً عاماً على جميع المشايخ تسميه شيخ المشايخ . . .

والطامة الكبرى هي أن جل من ينتسب للعلم من أهل زماننا يتسابقون للأخذ عن تلك الطرق البدعية ، ويتحزبون لها ، ويعضدونها . . . ومن لم يأخذ عنهم نظروا له شزراً وعدوه بدعياً ظاهراً ، حتى فرقوا علماء الأمة إلى فرقتين : الفقهاء وهم أهل الظاهر وأهل الرسوم ، وهو أحق بذلك ؛ لم يبق إلا رسم الفقه ، ومتصوفة وهم أهل الباطن»^(١) .

وهكذا كانت تضييع الأوقات ، وتنفق الأعمار في أخذ طريقة ، وتجديد أخرى ، وتبدد الجهود والطاقات في كثرة الأسفار والرحلات لنشر هذه الطرق التي ما أنزل الله بها من سلطان ، واستحوذت على جل اهتماماتهم وتطلعاتهم ، وشغلتهم عن إدراك مؤامرات الأعداء المترقبين ، وعن إعداد القوة اللازمة لرد الكيد والاعتداء ، فضلاً عن تفكيرهم في معالجة الواقع الأليم وإصلاحه .

سابعاً : الذكر عند الصوفية (الإنشاد - الغناء - الرقص) :

«كان الذكر أثر العبادات عند أهل التصوف جميعاً إبان هذا العصر ، وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى ، فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله

(١) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٦١ / ٢ تحقيق الدكتور عبد العزيز القاري . المكتبة العلمية بالمدينة المنورة . الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ .

وتلاوة كتابه العزيز ، فقال قائلهم إن الذكر أثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه ، ولا عبرة عند البعض من إيثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعاً ، واتفقوا جميعاً على أن ذكر الله والاشتغال بريضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم «بالدين» .

على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون للمريد شغل إلا بربه ، وقالوا : إن الذكر منشور الولاية ، أي أنه مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا «مرسومات» بإلحاق كبار الموظفين في الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصوف في هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللحاجة في تقديره وتقديسه ، ولم تكن هذه اللحاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله ، وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وحدهم ، وإذا كانوا ملوك الدنيا لا يأذنون لكل إنسان بالمثل بين أيديهم ، وإن انتهى ذلك ، فأحرى بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله ، ومن هنا اشتدوا في حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين . . . »^(١) .

وقد اشتد المتصوفة في الغلو والاعتقاد في الذكر ، وقالوا إن الذكر «يسلم الذاكر إلى حضرة الله ، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه ، فينبثق العلم في نفسه ، ويزايله الشك في أمره ، ويصبح باتصاله بالله قوياً بعد ضعف ، آمناً بعد خوف ، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ! هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة الذي أعوزهم العيش على ما يحبون ، وجعلوا «الاتصال العلمي» الذي

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٢ .

يربط بين المعلولات وعللها ، فتصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون»^(١) .

وقد كانت تعقد مجالس الذكر في الخلوات والزوايا في أغلب الأحيان ، وربما عقدت في المساجد . وترك الحديث لشيخ المتصوفة في عصره ، ولمن كانت له الكلمة النافذة عند السلطان عبد الحميد ، ذلك هو الشيخ محمد أبو الهدى أفندي الصيادي الرفاعي في كتابه «رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع» حيث يقول : «قد علم المسلمون في المشارق والمغرب أن القوم أهل الطريقة الذين أتخفهم الله بلباب الحقيقة»^(٢) ، هم قوم اشتغلوا بتصفية البواطن ، وبنوا أعمالهم على النيات ، وعاملوا بها خالق البريات . . . ولما كان مبنى طريق السادة الصوفية هو النية ، وقد ظهرت عليهم آثارها ، ولملت فيهم أنوارها ، واحكموا طريقهم بها ، ودخلوا على الله من بابها ، فالسيء بهم الظن ممكور ، والمنتقد عليهم محقور»^(٣) .

ثم يقول : «تنبيه» «إن القوم ما هم عليه من طهارة الطوية ونزاهة النية فمجالسهم المباركة مؤيدة بالنصوص والأخبار ، مسددة بالنقول والآثار ، وحفل أذكارهم وسماعاتهم مأخذها الشرعية عالية ، وغاياتها الروحانية سامية ، وستأتيك شرائف أخبارهم ، فكن أيها المحب من

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) أي حقيقة يعني . . ؟ في الغالب لا تكون إلا عقيدة وحدة الوجود الكفرية ، تلك العقيدة التي يدور حولها كلام المتصوفة قديماً وحديثاً . انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ، وهو مرجع سبق ذكره .

(٣) رياضة الأسماع ص ٦ . مطبعة التمدن بمصر سنة ١٩٠٣ م . وهكذا يعتمد هؤلاء المتصوفة أنهم الواصلون إلى أصل الحقيقة ، فمن أساء الظن بهم أو انتقدهم فهو ممكور أو محقور .

حزبهم وأنصارهم، وتمسك بآثارهم، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١) .

ثم يصف مجلس الذكر وكيف أنه يكون بعد أداء الصلاة المفروضة واجتماع الإخوان ، ويفتح بتلاوة فاتحة الكتاب وكثير من الآيات والسور القرآنية والصلوات النبوية ، ثم الجهر بقول لا إله إلا الله وهم قعود ، « ثم تنقل طبقة الذكر إلى قول الله بلفظ صريح ونطق صحيح ، ثم يخفون اللفظ فيضربون به بلهجة قلبية ، وهوية باطنية ، ثم تنقل الطبقة إلى قول يا الله لفظاً ، ثم يرجعون إلى اللهجة الباطنية ، ويكثرون من تكرار اسم الذات ويأخذون بالهوية ، ويختمون الذكر بالصلاة والسلام على سيد الأنام ﷺ ، وبقراءة شيء من القرآن العظيم ، ويكثرون من الفواتح لأرواح حضرات الأنبياء العظام ، والآل الكرام ، والصحابة الأعلام ، وشيوخهم الغوث الرفاعي الهمام ، وجميع الأولياء والعلماء الصالحين أولي الاحترام ، ثم يدعون لإمام المسلمين خليفة العصر أمير المؤمنين ، أيده الله ونصره الله بالتوفيق والتمسك بحبل الشرع الوثيق ، ونصرة الدين ، وتأييد عساكر المسلمين ، وحفظ ثغور بلاد المؤمنين واعزاز كلمة الله في العالمين ، ويدعون بالخير لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .

وفي أثناء ذكرهم يهتزون يميناً وشمالاً يميلون ، ويبكون ويتواجدون ، ويئنون ويتأوهون ، وتخشع منهم الجلود ، وتذرف العيون ، وينشد لهم الحادي من كلمات الصالحين ، ومنظومات العارفين ،

(١) المصدر السابق ص ١٣ .

وأقوال العاشقين الصادقين شيئاً كثيراً من المدائح للنبي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإمام طريقتهم وأخلافه والصالحين المتقدمين»^(١) .

ويذكر محمد رؤوف الشبخلي وصفاً لمجلس من مجالس الذكر عند أتباع الطريقة الرفاعية في بغداد، وأن الذاكرين في المجلس يصاب بعضهم بغيبوبة، فيتكلمون بكلام غير مفهوم يقول عنه البعض إنه كلام بالسريانية أو الهندية، ويخرج من أفواههم زبد أبيض كالحليب، وهم قاعدون أو قائمون، وفي كلتا الحالتين يأتون بحركات غير اختيارية، كأن يترنحوا واقفين، أو يتمرغوا على الأرض، فيقول بعض الحاضرين: شهدوهم، يعني قولوا كلمة الشهادة في أذانهم مراراً إلى أن يقولوها، وعند أدائها تذهب عنهم الغيبوبة رويداً رويداً، ويجلسون كأن لم يحدث بهم شيء، والبعض منهم لا يكون أحداً من تلقينهم الشهادة، بل ييقن إلى أن يتوجهوا إلى أحد الجدران، كأنهم يبارزون، ثم يأتونه راكضين، فيضرب الواحد منهم رأسه بالجدار، فالضربة الأولى تكون خفيفة، ثم تشتد بدرجة أن يكون لها صوت مسموع، فيبادر إليه أكثر من شخص، ولا يتمكنون من تلقينه الشهادة إلا بشق الأنفس!!!^(٢) وقد ذكر الغزي وصفاً لمجلس ذكر قريباً من ذلك^(٣) .

أما محمد بن سليم الجندي فيصف الذكر عند الرفاعية في بلاد الشام بوصف مغاير لما سبق، وتعتمد طريقة الذكر هذه على شيخ الحلقة في إدارتها وتنظيمها، فالشيخ هو الذي ينتقل بهم من رفع الأصوات إلى

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١٩/١ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٨١/١ .

خفضها أو العكس ، وهو الذي ينقلهم من فصل إلى فصل ومن نعمة إلى نعمة ، «فيبدأ ذلك ، ثم يتابعونه ، ويشير إليهم بيده أو يديه ، أو يضرب بإحدهما على الأخرى ليتنبهوا عند الانتقال من فصل إلى آخر ، أو من حالة إلى ما هو أسرع منها أو أخف ، أو للمحافظة على النعم والوحدة»^(١) .

وهناك محترفون للذكر يتبارون في إظهار المقدرة على الإتقان والإبداع في طريقته .

يقول الجندي : «وقد ينبغ بعض الذاكرين ، فيتقن الألفاظ والأفعال ، والحركات و السكنات ، ويحسن التحول والانتقال ، على وفق النظم والآداب المتبعة عندهم ، و من كان كذلك يسمى ذكيراً ، وهذا الذكير يظهر مهارته وبراعته في أثناء الذكر ، فيخالف القوم في تحركهم من اليمين إلى الشمال ، أو من الامام إلى الورا ، ثم يعود بسرعة ، وإذا كانوا يميلون من الامام إلى الورا ، مال من اليمين إلى الشمال ، وأظهر كأنه يخالفهم ، ثم عاد بسرعة إلى موافقتهم ، وقد يبطئ إذا أسرعوا ، ويسرع إذا أبطؤوا ، ويأتي بمثل هذه الأعمال للدلالة على قدرته ، ويدقق أحوال الذاكرين والمنشدين ، فيحسبون له حساباً . وإذا أخذ الشيخ مالا على الذكر ، أعطى منه جماعته ، وأجزل حصة الذكيرين ، وشيخ الطريق يقرب الذكيرين ويباهي بهم و يكرمهم ويخاف سخطهم ، فهم عنده بمثابة الأبطال عند قائد الجيش»^(٢) .

وقد كانت بعض طوائف الصوفية يرفعون الصوت بالهيللة في الطريق مع وضع السبح المتنوعة في العنق ، كما هو الشأن عند طائفة الدرقاوية^(٣) .

(١) تاريخ معرة النعمان ١/ ٢٦١ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٦٣ .

(٣) من أعلام الفكر المعاصر ٢/ ١٥٣ .

لقد كان المتصوفة يعكفون على هذه المجالس المبتدعة ، ويضيعون أوقاتهم ، ويصرفون جهودهم فيها ، مع اعتقادهم أن هذه المجالس وأمثالها تجلب النصر للدين ، والظفر لجيوش المسلمين ، والحفظ لثغور البلاد^(١) .

وكان طبيعياً بعد أن تحول الذكر إلى مهنة وحرفة وإلى حلبات أشبه بحلبات المصارعة ، وميدان للاستعراض والمنافسة ، أن يستأثر بأوقات هؤلاء ويمتص طاقاتهم ويشغل تفكيرهم ، ويحوي اهتماماتهم ، هذا غير الناس الذين يقيمون هذه الحفلات الصاخبة على حسابهم ، ويغدقون الأموال عليها ، ويواظبون على حضورها والاحتفاء بها .

ويدعو أبو الهدي الصيادي إلى رفع الصوت بالذكر والحركة الشديدة أثناء الذكر ، ويدافع عما يقع من المتصوفة من حركات هوجاء أثناء ذكرهم ، وينتصر لهم مفتاتاً على الصحابة - رضي الله عنهم - بأنهم كانوا يفعلون شيئاً من ذلك ، وأخذ يعدد فوائد الحركات الشديدة التي يقوم بها البدن ، وأنها تميز الصفات النفسية الذميمة ، من الصفات القلبية الحميدة ، كالزبد لا يتميز عن اللبن إلا بالتحريك الشديد في جرة أو قربة في زمن طويل^(٢) .

وقد كان من أهم وظائف شيوخ المتصوفة تلقين الذكر لمريديهم ، وكان

(١) وقد ذكرنا أنه عندما بدأت جيوش نابليون ترحف إلى القاهرة مدمرة لكل ما يقف في طريقها خرج المتصوفة صارخين بأذكارهم ، ومولولين بمبتدعاتهم في الطرقات ، ظناً منهم أنها قد تصد عنهم هجمات المعتدين ، أو تنصرهم على هؤلاء الزاحفين . وفي ليلة معركة «التل الكبير» التي هزم فيها الإنجليز الجيش العربي هزيمة ساحقة ، كان كثير من أفراد هذا الجيش يحيون ليلة ذكر على طريقة المتصوفة إلى وقت متأخر من الليل ، فما أن لاح الصباح حتى باغت الإنجليز مواقع الجيش الذي كان كثير من أفرادهم يغطون في سبات عميق نتيجة للسهر المتواصل ، ومن كان منهم مستيقظاً فقد كبله الإعياء وأضناه السهر عن أن يقاوم كما هو المنتظر منه .

(٢) رياضة الأسماع ص ٣١ .

غالب الذكر عندهم في صورة منحرفة ، بل قد يصل إلى حد الكفر في بعض الأحيان ، كالأذكار التي تبنى على عقيدة وحدة الوجود .

يقول أحدهم عن شيخه : «ولما كان ليلة الثلاثاء لست وعشرين خلت من شعبان سنة ١٢٥٧ هـ لقنني الذكر بهذه الصيغة : لا إله إلا الله ، لا معبود إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا مقصود إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا موجود إلا الله !! لا إله إلا الله ، لا مشهود إلا الله !...»^(١) . فإن تلك العبارات هي عين ما يقرره أهل وحدة الوجود ، من أن كل الموجودات والمشهودات والمعبودات في العالم ما هي إلا الله عز وجل ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً والمعبودات^(٢) .

«ولا بد للمريد السالك من الاشتغال بالذكر دائماً ، بأي نوع كان من الأذكار : وأعلاها الاسم الأعظم وهو قولك : الله الله ، لا يزيد عليه شيئاً... لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا ، وكل دار يكونون فيها ، فإذا لم يبق في الدنيا منهم أحد ، لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتزول وتخرب...»^(٣) .

وقد غرق المتصوفة في لجة ما اخترعوه من أذكار ، وأخذوا يتمحلون فيما يوردونه من مسائل حول الذكر الذي أصبح كل شيء في حياتهم .

يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار أن شقيقه الشيخ عبد الغني البيطار سأله عن قول الصوفي أحمد بن إدريس : لو أطال الله عمر رجل من زمن أبينا آدم إلى قيام الساعة وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ورجل قال :

(١) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر ١/ ٣٢٩ .

(٢) انظر : دراسات في الفرق : الصوفية ص ٤٢ .

(٣) حلية البشر ٢/ ٨٧٩ .

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، في كل لحظة ونفس ، عدد ما وسعه علم الله مرة واحدة ، في القيمة يسبق ذلك - ما المقصود من هذه العبارة ، وهل هي على ظاهرها ، أم سلك فيها مسلك الحقيقة والإشارة ؟ ويذكر أن الكلام قد طال بينهما في هذا المقام^(١) .

وكان من علماء الصوفية من يسافر بين الأقطار ليحيي مجالس الذكر ، كما كان يفعل الشيخ علي بن محمد القناوي المصري الشافعي الخلوتي ، فقد كان «يكرر التردد إلى زبيد وصنعاء اليمن . . . ويجتمع عليه في كل ليلة من الخاص والعام ، جمعية كبرى مع معاملتهم بالأدب التام ، ويدخلون معه في حلقة الذكر . . . وكان عنده من يقف في الحلقة وينشد من كلام القوم بالنعمة الرائعة ، والحركات في الصوت الفائقة»^(٢) .

وقد كان بعضهم يستجيز الأذكار الصوفية ، كما فعل محمد السنوسي حين استجاز الشيخ محمد ظافر المدني في عموم الأحزاب الشاذلية بسنده فيها ، فأجازه بذلك^(٣) .

وهناك بعض الخرافات التي كان يتناقلها المتصوفة حول الذكر :
كقول أحدهم أن من أصابه صداع ، فقال ويده على رأسه : لا إله إلا الله مائة وخمسة وستين مرة زال عنه الصداع^(٤) .

وكالذي ذكره الشيخ محمد رشيد رضا عن والدته التي كانت تسمع من

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٧٥ .

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٦٨ .

(٣) الرحلة الحجازية ٣/ ٤٣ .

(٤) حلية البشر ١/ ٣٣ . وكما تكون للعقيدة من تأثير على نفس المعتقد كما يقول محقق الكتاب محمد بهجت البيطار .

صدر عمها عندما تضع أذنهما عليه تردد اسم الجلالة ، الله ، الله ، الله (١) .

«وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون ينشدون الأشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين ، وكان يملأ الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات» (٢) .

وقد أباح المتصوفة الغناء والسماع والرقص ، وكان كثير منهم يقبلون على استماع الملاهي والمعازف ، ويتعلمون الموسيقى .

ويقول أبو الهدى الصيادي من قصيدة له في الدف الذي كانت لا تخلو منه حلقة ذكر إلا قليلاً :

اضرب الدف وجانب جاهلاً حكمة الشرع لمعنى ما درى
كل ما حرك قلباً ساكناً ودعا العقل به معتبرا
وأجال الروح في برزخها تذكر الله وتبغى مظهرًا
فهو بر والذي يفعله فعل البر والله يرى
إن في الدف وفي رنته نغمة يعرفها من ذكرا
صوته ، ذكر وفي بحته أنة تذكر أوقات السرى
نضرب الدف ومنه عندنا ذاكرًا نسمعه لن يفتر (٣)

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة . يقول أبو الهدى الصيادي : «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال ! بعيد عن نور الروحانية ! زائد في غلظة الطبع وكشافته ! بل هو أبلد من الجمال

(١) السيد رشيد رضا أو إخوان أربعين سنة ص ٥٢ الأمير شكيب أرسلان . مطبعة ابن زيدون . دمشق . الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٦ .

(٣) رياضة الأسماع ص ٤٥ .

والطيور وسائر البهائم!! فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة . . . وبالجملية فالسمع يثمر حالة في القلب وتسمى وجداً ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص»^(١) .

فلا عجب بعد هذا أن تزدحم تراجم المتصوفة في تلك الفترة بذكر الغناء والرقص واستماع الملاهي والمعازف . وربما زعم بعضهم أن استماعهم للغناء يكون لغلبة الحالة كما يقولون ، ومن هؤلاء المتصوف (وحيد الحق البهلواروي)^(٢) . وهذا أبو البركات المجذوب ابن عبد الحفيظ (المتوفى سنة ١٢٦٠هـ) كان يحب السماع ويميل إلى إباحته وجوازه^(٣) .

وبعضهم كان يقوم بتعلم الموسيقى ، كما فعل الحاج عثمان بن الحاج عبدالله الطحان^(٤) ، وياليت أن هؤلاء المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسمع والغناء ، ولكنهم جعلوه إلى الله قرابة ، وعدوه طاعة تلين بها القلوب ، وتشف بها الأرواح .

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول : «فلو رأيتهم عند ذياك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهذأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر المخانيث والنشوان؟

(١) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٤٥٤/٧ .

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٩٨ .

(٤) حلية البشر ١٠٥٥/٢ .

ويحق لهم ذلك ، وقد خالط خمره النفوس ، ففعل فيها أعظم ما تفعله
 حميا الكؤوس ، فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوب هناك تمزق ، وأثواب
 تشقق ، وأموال في غير طاعة تنفق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ
 الشيطان منهم أمنيته وأمله ، واستفزههم بصوته وحيله ، وأجلب عليهم
 برجله وخيله ، وخزفي صدورهم وخزاً ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام
 أزاً فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالديباب ترقص وسيط
 الديار ، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، ويا سوأنا من
 أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام ، بالذين يزعمون أنهم
 خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطرباً ، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً ،
 مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن
 من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطناً ، ولا أثار فيه وجداً
 ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً ، حتى إذا تلي عليه قرآن
 الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينباع الوجد من قلبه على عينيه
 فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه
 فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى
 نيران أشواقه فاشتعلت . . . ولقد أحسن القائل :

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة	لكنه إطراق ساه لا هي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا	والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن	فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا	تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى	زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن	شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها	فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

إلى قال رحمه الله ، وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد
أفعالهم :

ألا قل لهم قول عبد نصوح وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس في ديننا بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل الحما ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الإله وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أشبعت يرقصها ربه والشبع
ويسكره الناي ثم الغنا ويس لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهي ألا منكر منكم للبدع
تهان مساجدنا بالسما ع وتكرم عن مثل ذاك البيع^(١)
وهكذا استحوالت حياة هؤلاء المتصوفة إلى حياة اللهو والسخافة ، بما
أضاعوه من أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الأذكار والسماع والملاهي ،
وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المحرفة ،
والمسلم الكامل في اعتقادهم هو الذي وقف حياته على الذكر فقط ، أما
السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق ، والجهاد ، وطلب العلم ونشره ،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد
عنه ، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر
وحده ، وبالصورة التي رأيناها .

ثامناً : الكرامات والخوارق عند الصوفية في هذه الفترة :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « فأولياء الله المتقون هم

(١) إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ١/ ٢٢٤ - ٢٣١ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي . دار
المعرفة . بيروت .

المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به ويتتهون عما عنه زجر ، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه ، فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين ، وخيار أوليائه كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين ، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك . وكرامات أوليائه الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ» (١) .

ويقول في موضع آخر : «ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج ، أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك ، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها ، لا لنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة» (٢) . ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء (٣) .

وإذا كانت هذه نظرة السلف إلى الكرامات ، فإن المتصوفة قد غلوا في ذلك غلواً عظيماً .

يقول الشيخ «محمد المبارك» رحمه الله عند حديثه عن بعض انحرافات الصوفية : «ومنها المغالاة في ذكر الخوارق والكرامات ،

(١) مجموع الفتاوى ٢٧٤/١١ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٣/١١ .

(٣) جاء في العقيدة الطحاوية للإمام «الطحاوي» : ونؤمن بما جاء من كراماتهم ، وصح عن الثقات من رواياتهم . انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٧٤٦/٢ لابن أبي العز الدمشقي الحنفي . تحقيق الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م «بيروت» .

وجعلها مقياساً للتقوى والصلاح»^(١) .

لقد غلا المتصوفة في ذكر الخوارق والكرامات وفي تضخيمها والاعتماد عليها ، وجعلها المقياس للولاية والصلاح والتقوى ، فإنه بمقدار ما يظهر على يدي الشخص من خوارق تكون ولايته وصلاحه وتقواه ، لا بالتزامه بأوامر الشرع وأحكامه .

هذه الفكرة الخطيرة لاقت رواجاً عظيماً في الفترة التي ندرسها ، حيث استطاع كثير من الدجالين والمشعوذين والممخرقين أن يظهروا للناس في أثواب الولاية والصلاح ، مع أن بينهم وبين ما ادعوه بعد المشرقين ، ولكن لظهور بعض الخوارق الشيطانية على أيديهم ، استطاعوا التغرير بالعامّة ، بل وبكثير من المتسبين إلى العلم ، فأضحوا في نظر كثير من الناس من أئمة الدين وأولياء الله الصالحين .

«وصار التدين هو الإيمان بالشيخ وكراماته ، وبأحواله وقدرته على استشفاف الغيب ، وقدرته على شفاء المرضى بغير دواء . . . »^(٢) .

وسنرى من خلال هذه الصفحات كيف غلا المتصوفة في هذه الخوارق ، وجعلوها مقياساً للولاية والصلاح ، وأخطر من ذلك ، كيف عطّلوا الأخذ بالأسباب اعتماداً عليها ، حيث أصبحت حياتهم في كل شؤونها تدور حول هذه الخوارق والكرامات التي داخلها من الخرافات والأساطير والكذب شيء عظيم .

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٨٢ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٥ . وفي تلك الفترة لم يعد يفرق بين كرامات الصالحين وبين استدراج الزائغين ، وأحوال الدجالين وأولياء الشياطين ، فمن ظهر له خرق للعادة ، فهو من كبار الأولياء والصالحين ، ولو كان من أعتى الفاجرين .

لقد ذكرنا من قبل كيف أن هؤلاء المتصوفة كانوا يرون أن الإعراض عن الدنيا والاستهانة بمتعتها وملاذها والبعد عن الناس ؛ يوصل الإنسان إلى حضرته تعالى ، ومتى وصل الإنسان إلى هذه المنزلة ، فإنه يكون بإمكانه حينئذ خرق العادة ، والإتيان بأمر فوق قدرة البشر وطاقاتهم .

وما من شك أن عجز هؤلاء المتصوفة عن تغيير الواقع السيئ ، جعلهم يعيشون في دنيا الخوارق والكرامات ، وينسجون من ذلك حكايات وقصصاً لا أثر لها في الواقع ، وكان الواقع القائم بالفعل ، الذي غدا مسرحاً لضروب الظلم والطغيان وميداناً رحباً لأشكال الضعف والفقر والمرض ، تربة خصبة لانتشار مثل هذه الحكايات والقصص .

فإن الناس حين عجزوا عن القيام باتخاذ الأسباب التي تؤدي إلى تغيير واقعهم وفشلوا في إحداث التغيير - كان من السهل عليهم أن يجنحوا إلى عالم الخوارق والكرامات ويسرحوا بعقولهم وقلوبهم في رحابه الفسيحة ، منتظرين في كل نازلة تنزل بهم أو كارثة تقع عليهم ، أو عدو يدهمهم ، أو مرض يضعفهم ، أن تظهر لهم خارقة ، أو تلوح لهم كرامة ، تكشف عنهم ما وقع عليهم ونزل بهم .

وبدلاً من أن يهب الناس جميعاً ، كل بحسبه ، إلى محاولة تغيير الواقع السيئ ، وذلك بالأخذ بالأسباب ، والعمل الجاد المتواصل دون يأس أو ملل ، بدلاً من كل هذا ، أصيب الناس بالإحباط والعجز ، وتملكهم اليأس والقنوط ، وهربوا إلى دنيا الأساطير والخرافات وانتظار الخوارق والكرامات .

وإننا لا نكاد نمر بترجمة من التراجم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر

في غالب كتب التواريخ والتراجم لتلك الفترة ، دون أن نجد الإشارة إلى هذه الخوارق والكرامات ، وكأن الترجمة لا تكمل إلا بها ، وكأن صلاح المترجم وولايته وتقواه لا تكتمل إلا بذكر هذه الأمور .

على أن هناك ملاحظة يخرج بها الباحث في تلك الفترة ، وهي ما درج عليه مؤرخو تلك الفترة ، ومترجمو علمائها ، من ذكر الخوارق والكرامات في غالب مؤلفاتهم ، بصورة مجملة ، دون الخوض في تفصيلاتها ، وأعتقد أنه لا تفاصيل فيما ذكر البتة في كثير من الأحيان ، وإنما جاء ذلك من الغلو الزائد في الخوارق والكرامات ، واعتقاد هؤلاء المترجمين أن ذلك من أهم الجوانب التي تقوم عليه التراجم ، وليس أدل على ذلك من كثرة إطلاق مثل هذه العبارات المجملة ، ثم إذا مرت واقعة واحدة مما عدوه كرامة ، أطالوا في إيرادها ، وأطنبوا في شرحها ، وحاولوا تضخيمها ، وكأنهم قد ظفروا بصيد ثمين ، بل وحتى تفسير أقل الحوادث العادية على أنها من الخوارق العظيمة والكرامات الجسيمة ، فلا غرو بعد هذا أن تزدهم كتب التواريخ والتراجم والرحلات بأخبار هذه الوقائع التي كانت حديث الناس ومنتهى اهتماماتهم .

ومن الأمثلة على ذكر هذه الخوارق والكرامات مجملة ما ذكره الشيخ «البيطار» في تاريخه «حلية البشر» عن جل من ترجم لهم من أعلام ، فيقول مثلاً عن الشيخ «علي الخضري الدمشقي» : «كان من الأولياء الصالحين وأهل الكرامات الناجحين»^(١) .

ويقول عن الشيخ «محمد المجذوب العمادي» : «وله كرامات جليلة!

(١) حلية البشر ٢/ ١٠٩٢ .

وخوارق كثيرة سنية!«^(١) . ويقول عن الشيخ «محمد المصري المجذوب» :
«وكان له إخبارات غيبية ، وكشوفات عليّة ، وظهرت له كرامات تثبت أنه
عند الله من ذوي الرتب والعنايات»^(٢) .

ويقول عن المدعو بالسيد «رجب بن محمد آل خزام الرفاعي
الصيادي» : «ورؤي له من الكرامات ما يحير العقول . . . كإبراء المقعد
والمجنون والملوق ، والإخبار ببعض الغيبات ، والإنفاق مما لا يعلم له
أصل ولا سبب ، بل من كنز الغيب! . . . ولو أردنا تعداد كراماته الثابتة
المتواترة ، لاحتجنا إلى مجلد كبير»^(٣) . فكيف بغير المتواترة!!

ويقول عن الشيخ «عبد الجواد القاياتي» : «وكراماته أشهر من أن تذكر ،
ومناقبه لا تعد ولا تحصر»^(٤) .

ويقول عن الشيخ «وهبة أبي العظام» : «وله كرامات شهيرة تدل على أنه
من أكمل الرجال ، وهو مقصود للزيارة من كل مكان ، ومعدود من أهل
الكرامة والولاية والشأن . . . ولو أردنا أن نحصي ما له من الكرامات
الكبار ، لخرجنا من منهج المقصود من الإيجاز والاختصار . . .»^(٥) ، فكيف
بالكرامات الصغار!!

لقد كانت هذه الخوارق والكرامات حديث الناس عامة وشيوخ
المتصوفة خاصة ، كما كان يفعل الفقيه الصوفي «ابن مسعود المغربي» (المتوفى
سنة ١٣٣٥هـ) حيث جاء في ترجمته : «له عناية بمطالعة كتب

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٠٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٥١ .

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٦٢٧ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٧٨٨ .

(٥) المصدر السابق ٣/ ١٥٨٠ .

التصوف مع العناية بزيارة الأولياء والصالحين سواء الأحياء والأموات ، لا يفتر عن التحديث بحكاياتهم ، وإيراد مناقبهم وكراماتهم»^(١) .

وقد كان والد الشيخ «محمد بن أحمد الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهري» «يأمر كل من يحضر عنده بزيارة ابنه المذكور ، والتلقي عنه ، وطلب الدعاء منه ، ويحكي لهم عنه مزايا وكرامات ومكاشفات ومجاهدات وزهديات ، فازداد اعتقاد الناس فيه»^(٢) .

ونأتي الآن إلى تفصيل بعض ما أسموه بالكرامات وخوارق العادات ، التي أغلبها من الأحوال الشيطانية ، والكذب المفترى ، والخرافة المتوهمة ؛ لنرى تعلق الناس بها واعتمادهم عليها .

ففي «السودان» كان «الحاج محمود» ذا كرامات ظاهرة جليلة ، ومقامات غير خفية ، ومن ذلك أن امرأة تسمى «زهرا» طلبت منه أن يريها الشيخ «حسن ولد حسونة» ، فقال لها : الشيخ ميت ، أيقوم الميت ! فقالت له : الشيخ قالوا يحيي الميت !! أرنا أنت شيئاً ، فعمد إلى حوتة ميتة منذ يومين ، وقال لهم : إيتوني بماء ، فأتوه به في قدح ، فوضع فيه تلك الحوتة ، فصارت تتحرك فيه ، فقال لها : هكذا^(٣) .

ولا نريد أن نقف عند هذه الواقعة ، لنفند ما جاء فيها من كفر صريح ، وكذب واضح ، ولكن كم يمكن أن تكون الآثار وخيمة على أناس تنتشر

(١) من أعلام الفكر المعاصر ٢/ ٢٧٧ .

(٢) عجائب الآثار ٢/ ٤٤١ .

(٣) تاريخ السلطنة السنارية ص ٣٣ .

فيهم مثل هذه المعتقدات الفاسدة، فما دام أن هؤلاء الأولياء من المتصوفة موجودون بين ظهرائهم ، يحيون الموتى ، ويأتون بالخوانق ، فلا عليهم بعد هذا أن يركنوا إليهم ، ويعتمدوا عليهم في كل صغيرة وكبيرة من أمورهم .

ومن كرامات الولي «محمود» أيضاً أنه حين عزم على الحج نزل عند أحد الفقهاء فقال لهم : «من يأتيني بقرعة مريسة^(١) ، أدعو له عند الرسول عليه السلام ، فقام رجل من المجلس فجاءه بقرعة فشربها ، ووعد بالداء ، ثم قال للفقهاء : عشوني بحجارة ، فأرسل الفقهاء الفقرا فأتوه بحجارة ، وفيهم منقار متفاحش المقدار ، فأخذ الكل ، وصار يتلع فيهم فمسك الفقهاء منهم الحجر الكبير ، وقال له : اترك هذا ، فقال : هذا تمام عشاى فألح عليه في تركه ، فأبى ، فأخذه وابتلعه فخنقه في زوره قليلاً ، ثم نزل . فقال : سمعنا وقعته بأذننا ، أي الحاضرون حين وقع على قبله ، فقال : كع ثم أخرجه بعد ذلك»^(٢) .

هكذا أصبح جلب الخمر لهذا الولي الفاجر ليشربها قربة يتسابق إليها ، ولماذا... ؟ لأجل أن يدعو ذلك الولي لهم عند قبر الرسول ﷺ !! ثم يأتي بعد ذلك هذا الولي ليستعرض بإظهار كراماته عن طريق التهام الحجارة حجراً بعد حجر ، ثم التجشؤ والقائها إلى الخارج .

وليس من تعليق عندي أكثر من أن تلك الواقعة كانت صورة مزرية من

(١) خمر شديد الإسكار .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤ . ويقول عنه كاتب الشونة : إنه من طائفة الملامية ، وهم نوع من الصوفية يفعلون القبيح لأجل ما يلامون به ، ويوهمون على الناس . وآثرنا أن ننقل الحكاية كما هي على ركافة عباراتها .

مئات الألوف من الصور التي كان يعجب بها العالم الإسلامي .

أما الولي «عبد الرحمن ولد أبو زيد» ، فقد ظهرت كراماته عند وفاته ، ومن ذلك أنه بعد ما غسل بعد موته ، لم تشرب الأرض من ماء الغسيل ولا قطرة واحدة ، ولم يترك الناس منه شيئاً ، بل أخذوه تبركاً به ^(١) .

فانظر إلى هذا السخف ، وكيف يمكن أن يقع منه شيء على الأرض ، أو على فرض أنه قد وقع شيء عليها ، وقد تسارع الناس إلى أخذه كله للتبرك به فلم يبق منه شيء؟! .

أما الشيخ «محمد المجذوب بن قمر الدين» فقد كان يقف على القبر ، ويطعم الناس منه السكر ^(٢) ، ومن كراماته العظيمة وخوارقه الجسيمة «أنه ذات يوم في حالة المديح ، وحصلت له حالة ، وفي يده فنجان قهوة ، فرمى به في الهواء ، وهو ملآن ، فوقع على حاله لم تقطر منه قطرة على الأرض حتى أفاق وشربه» ^(٣) .

«وله حكاية مشهورة في يوم صيف شديد الحر ، واجتمعت عليه الناس لصلاة الظهر ، ولم يطيقوا الوقوف فما خرج إلا وغيم النهار ، حتى صار عليهم برداً وصلوا وراءه» ^(٤) . ولا داعي لأن نقف مع هذا الهراء ، الذي عدوه من أعظم الكرامات وأجل الأحوال .

وفي «الهند» كان الشيخ «عبد الله الدهلوي» يقول : «إني أحب الشهادة في سبيل الله تعالى ، ولكن أذكر ما حصل للناس في شهادة شيخنا «مرزا

(١) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١١١ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٢ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٢ .

جانان» رضي الله عنه من البلاء ، إذ قحطوا ثلاث سنين ، ومات بذلك خلق كثير ، ووقع قتل وحروب لا تعد ، فأترك سؤالها!«^(١) .

إلى هذا الحد كان المتصوفة ينظرون إلى مشايخهم وأنفسهم ، وقد كانت هذه النظرة مهيمنة على أوساط الأمة الإسلامية ، حين كان ينظر الناس إلى هؤلاء المتصوفة نظرة غالية ، معتقدين أنهم سبب لحفظ العالم ، واستقرار الأوضاع ، وعموم الرخاء ، فإذا هلكوا ، حل بالعالم الخراب ، وانعدم الأمن ، وقحط الناس ، فما يصيب الناس من قتل وتشريد ، ومن تسلط للعدو عليهم ، ليس لبعد الناس عن دينهم ، وتهاونهم في الأخذ بالأسباب ، بل كل ذلك يقع لموت الأولياء الذين يحفظ العالم بهم . هذه النظرة المنحرفة التي كان ينظرها الشيخ «عبد الله الدهلوي» وغيره كثير ، كانت في وقت التغلغل الإنجليزي في شبه القارة الهندية ، حين كانت مدن المسلمين تسقط مدينة تلو أخرى تحت أيدي الإنجليز ، والمسلمون حالهم كما ذكرنا من قبل .

وفي «الشام» كان المدعو بالسيد «علي خزام الصيادي الرفاعي» يظهر من كراماته ، ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : «وقد اشتهر في قبيلتنا ، وثبت عند فصيلتنا ، أن من ضاع له شيء ، وأكل من زاد المترجم بالنية ، يرد الله عليه ضائعه ، والسارق إذا أكل طعامه ، وذهب لشغله ، لا يتيسر له سرقة شيء بإذن الله»^(٢) .

فأما الشق الأول من هذه الكرامة المزعومة ، فنكاد نجزم بكذبه ، إلا إذا

(١) حلية البشر ٢/٩٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٩٦ .

كان ذلك الولي يستعين ببعض أوليائه من الشياطين ، وأما الشق الثاني ، فقد كان كثير من المجرمين واللصوص يهرعون إلى شيوخ الطريق خوفاً من سطوتهم ونفوذهم ، فيقيدونهم وهم في غاية الغبطة والسرور^(١) ، فلا غربة بعد هذا أن يرتدع سارق عن السرقة ، بعد أن أكل من زاد هذا الولي وآمن بهذه الخرافة .

وفي بلاد «المغرب» كان الشيخ «محمد المبارك المغربي الجزائري» يستنطق الأشجار ، ويعلم ما في القبور! يخبر أحدهم : «أنه توجه يوماً مع المترجم وشيخه الشيخ «محمد المهدي» في بلاد «المغرب» من قرية إلى أخرى ، وهو ساع في خدمتهما لينال ثواباً وأجرًا ، فوقفت بغلة الشيخ قرب قبر في الطريق ، فقال الشيخ : ما أصابها من البلاء؟ فقال المترجم : إن الله كشف لي عن صاحب هذا الضريح ، وهو الذي استوقف الدابة يلتمس منه الدعاء ، فدعاه ، فانطلقت ، وإلى نحو المطلوب توجهت ، ثم مرا في طريقهما على شجرة عظيمة ، فقال الشيخ للمترجم : ليت شعري في أي زمان غرست هذه الشجرة الجسيمة ، ومن غرسها في هذا المكان ، فهل من يعرف ذلك الآن؟ فأطرق المترجم غير طويل ، ثم قال : أيها الأستاذ الجليل : إن الله أنطقها لي فأخبرتني أنها غرست في التاريخ الفلاني ، وإن غارسها فلان بن فلان الفلاني»^(٢) .

فأي فائدة يا ترى تجنى من معرفة غارس الشجرة ، ومن زمن غرسها . ثم ألا يمكن أن يكون ذلك الولي الذي نطقت له الشجرة كما زعم كاذبًا ، وما البرهان على صحة كلامه؟!

(١) عجائب الآثار ١/ ٣٤٠ .

(٢) حلية البشر ٣/ ١٣٧٤ .

ومن كراماته أيضاً أنه جاء مرة إلى شيخه يخبره بوفاة أخ له في الله في مكة من رجال الغيب الكرام، ويستأذنه في التوجه إلى بيت الله الحرام للصلاة عليه وتشيع جنازته وحضور دفنه في تربته، فأذن فغاب، وبعد برهة رجع وآب^(١). وهذه من صلاة الخطوة عند المتصوفة.

ولشدة تعلق الناس بالكرامات والخوارق، وتشبثهم بها، صاروا يعدون كثيراً من الأمور المألوفة والشؤون العادية كرامات عظيمة، كما ذكرنا من قبل.

فمن ذلك حين عزم المدعو بالسيد «أحمد دحلان» على السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، يقول مترجمه عنه: «وشوهد له في هذا السفر عجائب وغرائب تدل على انتقاله وحسن الحال، وحصل له ومن معه فيه من الألفاظ ما لا يخطر بالبال»^(٢). . . «وألّف رضي الله عنه قبل ذلك أيضاً بيومين (أي قبل وفاته) رسالة صغيرة في معرفة الأوقات لأداء العبادات، وفي ذلك إشارة منه رضي الله عنه، إلى أن الوقت قد دنا، وقرب الانتقال إلى نعيم الجنات، فيا لها من إشارة ما أوضحها وكرامة ما أعظمها»^(٣) «ورؤي له في هذا المرض غرائب وعجائب أيضاً تبهر العقول، وتضيق عن حصرها النقول. . .»^(٤).

وقد استغل بعض المحسوبيين على الإسلام ما هيمن على عقول الناس وقلوبهم، من تعلق بالكرامات والخوارق، كما فعل والي مصر «محمد

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٥.

(٢) نفحة الرحمن ص ٦٩.

(٣) المصدر السابق ص ٧٢.

(٤) المصدر السابق ص ٧٥.

علي باشا» ، حين قام باختلاق رواية هو وأتباعه ، وذلك حين ادعوا أنه سمع في عرض نهر النيل في وقت السحر من يتوعد أعداء «محمد علي» من المماليك ، ويخبر أن الباشا منصور عليهم ، فأظهروا أن ذلك وقع من بعض أولياء الله الصالحين ، وما دام أن الأولياء كذلك ، فالناس تبع لهم ولا بد ، وسرعان ما شاع ذلك الاختلاق بين الناس ^(١) . واعتبرت كرامة «لمحمد علي باشا» ! .

ومن أغرب الأمور التي اعتبرت كرامة ، ما قاله الشيخ «البيطار» من أن بقاء الدولة العثمانية كل هذه المدة الطويلة كرامة ، وأن ذلك من بركة النبي ﷺ .

وكذلك ما اعتبره «القياياتي» من أن عيش المسلمين في «بيروت» بين عدد كثير من النصارى من الكرامات العظيمة . «فإن البلد تشتمل على نحو ثمانين ألفاً من النصارى ، ونحو عشرين ألفاً من المسلمين . وفضلاً عن ذلك فإن نصارى لبنان محيطون بهم من كل جانب ، بل ولغيرهم من البلاد ، من حدود «طرابلس» إلى حدود «صيدا» . وهم يبلغون في العدد نحو مائتي ألف ، فمعيشة هذه الشريحة القليلة مع هذا العدد الكثير . . . وتأيد إخوانهم وأهل أديانهم الأوروبيين لهم ، من تأييد الله لهذا الدين المحمدي ، والشعب الإسلامي ، كرامة لحضرة هذا النبي ﷺ » ^(٢) .

وليت القياياتي عاش في زمننا هذا حتى يرى ما فعله هؤلاء النصارى بالمسلمين في لبنان وفي غير لبنان .

(١) عجائب الآثار ٣/ ٣٠١ .

(٢) نفحة البهائم ص ٣١ .

ومن أخطر الآثار التي نتجت عن الإغراق في التعلق بالخوارق والكرامات ما تمثل في اعتماد الناس عليها في جهاد الكافرين ، ومقاومة المعتدين .

فعندما احتل الإنجليز ميناء «عدن» عام ١٢٥٣ هـ بعد هزيمة المتولي عليها ، وإبرامه معاهدة مخزية معهم ، قام أحد الأشراف بمكة عام ١٢٦٢ هـ ويدعى الشريف «إسماعيل بن حسن» بجمع الناس لجهاد الإنجليز وطردهم من «عدن» ، ولكن كانت عدته الأولى في جهاد المعتدين هو الاعتماد على الكرامات وخوارق العادات !!

يقول المؤرخ الأمير «أحمد فضل بن علي محسن العبدلي» (المتوفى سنة ١٣٦٢ هـ) ^(١) في تاريخه : «وكان الشريف يغري المسلمين بجهاد النصارى في «عدن» ، ويعدهم بالفتح المبين ، والنصر المكين ، ويمنيهم بأن الله قد أخجل النصارى ، وعزز الموحدين ، وأن مدافع الإنكليز قد أطفأ الله شرارها !! ودفعت عن المجاهدين أشرارها ، فقصد في جمع من أصحابه «عدن» ، فردهم عنها الإنكليز بالمدافع ! وقتل منهم جملة قتلى ، فعادوا بقلب مكسور . . . وهذه عاقبة الأوهام ، لمن يقصرون جهدهم على التنجيم والأحلام» ^(٢) .

(١) الأعلام ١/ ١٩٥ .

(٢) هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ١٤٩ . المطبعة السلفية . القاهرة . ١٣٥١ هـ .
وجاء أيضاً أن الشريف كان يخط الحرف ، ويعتمد على التنجيم في وعده أتباعه بالنصر .
وصدق «أبو تمام» في بائيته المشهورة حيث يقول :
السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
وكذب المنجمون ولو صدقوا .

ومن اليمن إلى المغرب الأقصى ؛ فحين احتل الفرنسيون مدينة «فاس» عام ١٣٣٠ هـ عمد «أحمد الهبة بن الشيخ مصطفى ماء العينين» (المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ)^(١) إلى دعوة أهل «سوس» لبيعته باسم الإمام المجاهد . . . وصار يعدهم بانكسار العدو أمامهم في أول وهلة ! دون احتياج إلى كبير تعب ومشقة ، وأن مدافع العدو لا تخرج إلا ماء !! ولا يصلهم منها شيء ، وأن العفاريت تخدمه وتنصره ! وترد عنه كيد الخائنين ، وأن الناس يتبعون جنابه دون حرب ولا ممانعة ، وأن من خالفه يقع له ما يحمله على متابعته ، واختلق له أصحابه كثيراً من الكرامات ، وصار يشيع ذلك في القبائل ، وتتوارد عليه الوفود^(٢) ، ثم دخل «مراكش» ، وبايعه الناس ، ثم أحاط به الفرنسيون ، وفر هارباً بعد أن تكبدت جموعه خسائر فادحة في العتاد والأرواح^(٣) .

وإننا لنذكر بعد هاتين الواقعتين المؤسفتين سرّاً من أسرار تقهقر المسلمين السريع وانهزاماتهم المتلاحقة أمام الاستعمار الغربي ، وسقوط بلادهم في قبضته .

فحين لم يستطع المسلمون الصمود أمام الغرب القوي المتقدم ، للفارق الهائل بينهما في المجالات المادية ، حيث كان المسلمون عكس الغرب تماماً ، متخلفين ضعفاء يعيشون على ما عاش عليه أسلافهم من عدة قرون ، بينما

(١) الأعلام ١/ ٢٦٥ . وقد بايعه أهل «سوس» ثم بقية بلاد المغرب ، بعد أن خلعوا طاعة السلطان «عبد الحفيظ» بعد أن رضخ لإعلان الحماية الفرنسية على البلاد .

(٢) الإيعام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٢/ ٤٤٧ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٨٢ . وما زال يفر من مكان إلى آخر حتى توفي طريداً شريداً وتفرق أتباعه بعد أن قتل الكثير من زعمائهم .

كان الغرب ينطلق في ميادين الابتكارات والعلوم والتسلح؛ صدم المسلمون صدمة شديدة في أول لقاء بينهم ، فرأوا الفارق العظيم والتقدم الكبير الذي يتصف به خصمهم ، ولم يمكنهم أن يغطوا ذلك الفارق المادي الذي كان ثمرة لجهود استمرت قرونًا .

فلما كان الأمر كذلك ، لم يكن لهم بد - أمام تلك الجيوش القوية المسلحة تسليحًا فتاكًا ، وهم الضعاف الذين لا يكادون يملكون شيئًا يقفون به في وجه تلك الجيوش المتدفقة عليهم من كل مكان - من أن يلجؤوا إلى عقائدهم الفاسدة ، ويلجؤوا في عالم الخوارق والكرامات المنسوج في خيالهم ، فكأن لسان حالهم ومقالهم يقول : إنه وإن كان الغرب يملك أسلحة فتاكة ، وجيوشًا مدربة جرارة ، فإن خارقة واحدة تكفي لقصمهم ، وكرامة أخرى تخرس مدافعهم ، وتكبت أسلحتهم ، فلا تطلق شيئًا ، وإن أطلقت ، لم تطلق إلا ماءً !!

وإننا لنلاحظ في هاتين الواقعتين مدى الرعب الشديد الذي أصيب به المسلمون ، خصوصًا من المدافع التي كانت تحرق بحممها المقذوفة الأخضر واليابس ؛ مما جعل القائدين يطمئنان أتباعهما ، بأن تلك المدافع الفتاكة التي كانوا يفرقون منها فرقًا شديدًا ، لا تصيبهم بأذى وأن الله عز وجل أوقفها عن العمل ، كرامة لهما . فكانت النتيجةتان قاسيتين للغاية .

ومن هذا النمط الذي تولد في عصر الهزيمة والاستعمار والاستضعاف والخنوع انتظار كثير من المسلمين لخروج المهدي المنتظر الذي يملأ الله الأرض به عدلاً كما ملئت جوراً^(١) ، وتقاعسهم عن العمل والإصلاح ، وعن الأخذ

(١) لمعرفة صفة المهدي ، والأحاديث الواردة حوله ، والفتن المتعلقة به . انظر : عقد الدرر في =

بالأسباب ، وإصابتهم باليأس والقنوط ، وقطع الرجاء في التغيير ، وأنه لا أمل أبداً في تدارك الأحوال ، إلا بخروج المهدي ، الذي علقت عليه الآمال ، وفترت لأجله همم الكثيرين .

يقول الشيخ رشيد رضا متحدثاً عن تلك القضية : « ولذلك يعتقد جماهير المسلمين أن الإسلام لا يعود إليه مجده إلا بالمهدي المنتظر أو السيد المسيح عليه السلام . وقد أضر بهم هذا الاعتقاد ضرراً عظيماً ، وكان من

= أخبار المنتظر لـ «يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي السلمي» من علماء القرن السابع . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . ومن أعجب الأمور أنني وجدت أن المؤلف رحمه الله في مقدمة كتابه ، ذكر فساد الزمان ، وتقلب الأحوال . فقال من كلام طويل : «فقد جرت مذاكرة بحضرة بعض الإخوان في أنه قد قل الموالي من الناس وكثر الخوان ، وارتفعت الأسعار ، وقلت البركات ، وتوالت الأكدار ، وكثرت الآفات ... وتظاهر بالمنكرات الفاجر والبر ، وظهر الفساد في البر والبحر . . . وعم عدوان المارقين وانتشر شرهم ، وعيل صبر المتقين وعال ضرهم ، وتقطعت السبل ، وانسدت المسالك ، وترادفت الفتن وكثرت المهالك ، فجمحت النفوس إلى كشف هذه الغمة عن الأمة ، وجنحت القلوب إلى شعب صدع هذه الصدمة ، وقلنا : كيف السبيل إلى الخلاص ، ولات حين مناص ؟ فزعم بعضهم أن نار الحرب لا تزداد إلا تضرباً واستعاراً ، ولا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدياراً ، وأصر على مفارقة هذا المعنى ، وتشبث بأذيال الأحاديث الواردة في هذا المعنى ، فقلت له : نحن نسلم صحة هذه الأحاديث ، وتلقاها بالسمع والطاعة ، ولكن ليس فيها ما يدل على استمرار هذا الأمر إلى أن تقوم الساعة ، ولعل زواله يكون عند خروج الإمام المهدي ، واضمحلاله منوط بظهور سره المخفي ، فقد بشرت بظهوره أحاديث جملة ولعل ظهوره في هذه السنين قد يقع ، فكل أمر إذا ضاق اتسع» عقد الدرر ص ٤ وما بعدها . فإذا كان هذا في القرن السابع ، فكيف الحال بعد ذلك في القرون المتأخرة المظلمة ، وهذا من عالم كبير ، فكيف بغيره ! . ومن المعلوم أن الأحاديث الواردة في المهدي كما ذكر شيخ الإسلام فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع ، وقد حوى الكتاب الأنواع الأربعة . وانظر كذلك في : «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» ، و«عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» ، وكلاهما للشيخ د . عبد المحسن العباد .

أسباب ضعف همهم وزلزال عزتهم وظهور الفتن والبدع فيهم .
ومن رأي هؤلاء أن العمل لإحياء مجد الإسلام عبث لا يفيد ، وأنه
لامندوحة عن الرضا بالضميم والخنوع للذل ، حتى يخرج المهدي من الخباء ،
أو ينزل المسيح من السماء»^(١) .

وأدهى من ذلك ما قاله أحد شيوخ الأزهر وهو قول كان يعتقدده الكثير
من المسلمين^(٢) إن الذي حل بالمسلمين هو مصداق الأخبار الصحيحة ،
ولا يمكن زواله فهو دليل قرب الساعة وانقضاء عمر الدنيا^(٣) .

ويعلق الشيخ رشيد رضا على ذلك بقوله : « لولا أن اليأس من روح الله
مقصود في كتاب الله على القوم الكافرين لقلنا كيف يرجى إصلاح حال أمة
يعتقد علمائها أن الإصلاح محال وأن العمل على إرجاع مجد الدين عبث
وضلال ؛ لأن الزمان فسد والساعة قربت !؟ »^(٤) .

وفي هذا المعترك الفكري كانت قضية المهدي في التاريخ الإسلامي
صدى مباشراً لذلك المعترك الضيق الذي ينقسم الخائضون فيه إلى فريقين :
فريق يرى استحالة الإصلاح والتغيير نهائياً لانقضاء الزمان وقرب الساعة ،
وأخر يرى أن الإصلاح والتغيير منوط بخروج المهدي المنتظر ، وأي
محاولات قبل ذلك فمصيورها الإخفاق والفشل .

(١) المنار ٨٠٠/١ . وليس هذا الاعتقاد الخاطئ في القعود عن العمل للإصلاح مبرراً لمن أنكر
خروج المهدي أو نزول عيسى عليه السلام ؛ فإن ذلك حق لا ريب فيه واستفاضت به
الأخبار الصحيحة .

(٢) وما زال هذا الاعتقاد الفاسد موجوداً إلى يومنا هذا عند كثير من المسلمين .

(٣) المنار ٨٢٥/١ .

(٤) المصدر السابق ٨٢٢/١ .

وما أكثر من ادعى المهديّة في التاريخ الإسلامي وما أكثر الثورات والحركات التي اتخذت من المهديّة ستاراً لها ، وفي القرون المتأخّرة بصفة خاصّة وهي ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقصية ، تبحث في الظروف المحيطة بهذه الحركات ، وفي الدوافع التي دفعتها إلى ذلك ، وفي الضعف العقدي والعلمي الذي أصاب الأمة .

وفي تلك الفترة التي ندرسها ، وحين جثم الاستعمار الصليبي على كثير من بلدان المسلمين ، وانبعث كثير من الثورات ، تقاومه وتؤرق مضجعه ، كان كثير منها كما رأينا منحرفاً عن الطريق الصحيح للجهاد ، بالركون إلى الأولياء والأضرحة وارتقاب الخوارق والكرامات ؛ ومن ذلك ادعاء عدد لا بأس به من زعماء هذه الحركات الجهادية للمهديّة ، وفي اعتقادي أن ذلك منسجم مع الحالة السيئة التي كان يعيشها المسلمون ، وتعبير صادق عن انبهارهم وخوفهم من تفوق الأعداء وقوتهم .

فادعاء المهديّة في عصر ساد فيه الجهل والفقر ، وطغت فيه البدعة والخرافة ، وخبث فيه أنوار السنة والعلم ، كان جديراً بالتفاف الأتباع ، وازدحام الرعاع حول من ادعاها ، ولولا ادعاء المهديّة ما تبعه أحد ، ولانفض عنه الجميع ، إذ المهدي عندهم منصور قاهر ، لا يغلب من أحد ، مؤيد من عند الله بالخوارق والكرامات ، فلا يستطيع أحد أن يقف أمام جيوش الاستعمار وجحافلهم إلا إذا كان المهدي المنتظر ، أما غيره فكم من مهزوم مدحور ، دكته جيوش الأعداء .

ومن هؤلاء «محمد بن الأمجد بن عبد الملك المكنى بأبي بغلة» ، فحين استسلم للفرنسيين الحاج «عبد القادر بن محيي الدين الجزائري» ، قام

«أبوبغلة» بدعوة الناس إلى الجهاد ضد النصارى ، وخاض عدداً من المعارك ، انتصر في بعضها ، وانكسر في بعضها الآخر ، وبعد انتصاره في إحدى معاركه على الفرنسيين ، يوم السبت ٢٧ ربيع الثاني من عام ١٢٦٧هـ ، ادعى أنه المهدي المنتظر ، بعثه الله ليظهر أرض المغرب الأوسط^(١) من رجس النصارى ، فصدقته قبائل كثيرة ، وقبلوا الولاية الذين عينهم لحكمهم ، وزاد نفوذه ، ولكن أمره ما لبث أن صار إلى ضعف ، بعدما ضيق الفرنسيون الخناق عليه وعلى أتباعه ، وما زال كذلك حتى تمكن قائد أهلي متعاون مع السلطة الفرنسية ، من قتله يوم الثلاثاء ١ ربيع الثاني عام ١٢٧١هـ^(٢) .

وكذلك ما ذكره الجبرتي من ظهور رجل مغربي ادعى المهديّة ، بعد دخول الفرنسيين إلى مصر ، وتبعه جماعة من الناس ، وقاتل الفرنسيين ، لكن دون طائل^(٣) .

وأما أمر المهدي السوداني الذي حارب الإنجليز ، فأشهر من أن نقف معه .

وهكذا تقاعس الناس عن الأخذ بالأسباب ، اعتماداً على الكرامات ، وخوارق العادات ، وعاشوا في أفلاكها الموهومة ، وعوالمها المنسوجة في الخيال ، وفروا إليها حين ألهم الواقع ، وعضهم الفقر ، وعدا عليهم الدهر ، وأعياهم الدواء ، وصعب عليهم الإصلاح ، فخانتهم أحوج ما يكونون

(١) المغرب الأوسط هو الجزائر .

(٢) أعلام المغرب العربي ٢٩٢/١ .

(٣) عجائب الآثار ٢٧٤/٢ .

إليها ، وزادتهم عجزاً إلى عجزهم ، ووهناً إلى وهنهم ، فزادت دركات الانحطاط ، واتسعت هوة التخلف والسقوط ، وكان هذا الحال بقدر من الله ، في وقت كانت تواصل فيه أوربا الصليبية صعودها في سلم الرقي والتقدم والقوة ، لتزحف بعد ذلك على العالم الإسلامي ، الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام ، والاتكال على الخوارق والكرامات .

تاسعاً : الشيخ والمريد عند الصوفية :

«الشيخ عند المتصوفة هو إله ، يعطونه كل صفات الألوهية ، وهو الأساس في كل طريقة ، وما تفرقت الطرق إلا اتباعاً لشيخ ، وتسمى كلها باسم مشايخها ومؤسسيها ، ومع الزمن تتفرع الطريقة الواحدة إلى طرق كثيرة تحمل أسماء مشايخها الجدد»^(١) .

ويقول الغزالي : «فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ، ليهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الدين غامض !! وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه ، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة فمعتصم المريد ، بعد تقديم الشروط المذكورة ، شيخه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ، ولا يبقي في متابعته شيئاً ولا يذر ، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه - لو أخطأ - أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب !! فإذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه (أي شيخه) أن يحميه ويعصمه بحصن حصين»^(٢) .

(١) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٧ .

ويقول الشعراني : « فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه ، فليتحيله عنده في أي مسجد صلى فيه »^(١) .

ويقول « علي وفا » : « فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها »^(٢) .

ويقول « أبو يزيد البسطامي » : « إذا أمر الأستاذ التلميذ أمراً من أمور الدنيا ، وبعثه في إصلاحه ، فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد ، فيقول : أدخل أولاً المسجد وأصلي ، ثم أكون وراء ما بعثني إليه ، فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها . ويعني ليس لها مقر »^(٣) .

ويقول الرفاعي : « من لم يكن له شيخ ، فشيخه الشيطان »^(٤) .

وباختصار ، فقد جعل المتصوفة مرتبة الشيخ عندهم بمرتبة الإله كما سبق ، فمن ثم لا نعجب بعد هذا مما سنذكره من أمثلة يندى لها الجبين .

وقد مر معنا ما للخلوات عند الصوفية من آداب ، ومن أهم هذه الآداب ، إدامة التفكير في الشيخ^(٥) .

وقد اعتبر المتصوفة أن أعظم الناس جرماً من تردد في أوامر شيخه ، أو أساء الظن فيه ، ولو كان يقضي بطلاق زوجته ، وفراق أولاده ، أو يمنعه من أداء ما أمر به الدين من فروض وواجبات^(٦) .

(١) المصدر السابق ص ٣١٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٢١ .

(٥) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١٠٨ .

«وقد أوجب شيوخ الطريق على المريد آداباً شلت إرادته ، وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل جاوزت به هذه المرتبة .

فمن ذلك ما يراه السيد «محمد البكري الكبير» (المتوفى سنة ٩٩٤هـ) في رسالة يصرح فيها بأن من واجب العبد - أي المريد - أن يذكر أنه بين يدي أستاذه في كل نفس من أنفاسه . بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ، ولو قضت بعصيانته لله ، وتمرده على قواعد دينه ، بإفطار رمضان ، أو الإهمال في إقامة الصلاة!!

ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ ، وإذا أشرك المريد بشيخه شيخاً آخر ، كان كمن يشرك بالهة أخرى ، إلى آخر هذا الهذر الذي فشا في آثار هؤلاء الشيوخ»^(١) .

وقد كان المريدون يعبدون الله على طريقة شيوخهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، وإن تردد المريد في أمر شيخه أو عصاه ، وجب على شيخه أن يخرجهم من زاويته ويطرده من رحمته ورضوانه .

«وما كان سلطان الشيوخ على المجاور ، ليقف عند الدين ، أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى ، فقد تجاوز ذلك - باسم الدين - إلى الدنيا وشؤونها ، فحرموا عليه الإقدام على عمل أو الشروع في أمر مهم دون استشارة الشيخ والانقياد لمشورته ، وإن وضح له فسادها ، فإن اقترف في دنياه إثماً ، وجب عليه أن يبادر إلى شيخه ليعترف على يديه ، ويلتمس منه العمل على تطهيره

(١) المصدر السابق ص ١٣٤ .

من ذنوبه . وبذلك أضحى لشيخ الطريق سلطان على مريديهم ، لا يقره الإسلام ، وإن أباحت المسيحية أو أحله القسس لأنفسهم»^(١) .

وهكذا «تضخم الشيخ في حس المريد إلى حد أن يصبح في حقيقة الأمر واسطة بينه وبين الله ، في الوقت الذي جاء فيه الإسلام ليلغي كل واسطة بين العبد والرب ويحرر القلب البشري من كل قيد يعوقه عن الاتصال المباشر بالله ، وعبادة الله وحده لا شريك ، ويكون من تعليمه للناس : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]»^(٢) .

«وقد وضع الصوفية قواعد عامة لتربية مريديهم ، وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء تردد ما يقال لها ، بلا تفكير ، ولا شخصية مستقلة ، بل انقياد أعمى ، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين ، ومشية معينة ، وشيخ معين ، وطريقة معينة ، ومن هذه القواعد المتعارفة بينهم :

كن بين يدي الشيخ كالملت بين يدي المغسل .

لا تعترض فتتطرد .

من قال : لشيخه لم ، لا يفلح»^(٣) .

وإن من يقرأ في تراجم القرنين الماضيين ، ليرى صوراً عجيبة ، وأمثلة غريبة لما وصل إليه تقديس الشيوخ عند مريديهم وتلاميذهم ، ويقول على

(١) المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٠ .

(٣) دراسات في الفرق : الصوفية ص ٧٨ .

المسلمين السلام؛ حيث كان شيوخ الصوفية هم الرواد للأمة ، يفعلون بها الأفاعيل ، وينتقلون بها من هاوية إلى أخرى .

فهذا مفتي الحنفية في «بغداد» الشيخ «عبد الله بن صبغة الله بن إبراهيم الحيدري النقشبندي الخالدي» ، يأمره شيخه الصوفي الشهير «خالد الشهرزوري» «بحمل الماء على ظهره ، وتسبيله في أسواق «بغداد» وأزقتها ، وسقي العطاش من حاضر وباد ، فامتثل الأمر العالي ، وفعل ذلك مدة عشرين يوماً على التوالي ، ثم أمره ببيع الماء من دون تسبيل ، ففعل ذلك عشرة أيام من البكرة إلى الأصيل ، مع كونه من أجل العلماء ، وأفضل الفضلاء»^(١) .

ويقول محقق الكتاب الشيخ «محمد بهجت البيطار» معلقاً على ذلك : «أليس هذا من العجيب الغريب؟ أديب كبير ، وشاعر في اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ثم هو من أجل العلماء ، وأفضل الفضلاء ، يكلف بحمل الماء على ظهره ، وسقي المارة في مدينة «بغداد» عشرين يوماً ، ويبيعه لمدة عشرة أيام ، ولمن يترك نشر الدين والعلم . . . ؟ للسقائين والحمالين!! اللهم أرنا الحق حقاً»^(٢) .

أما الشيخ «علي الدرقاوي» الذي كان مدرساً يعلم التلاميذ وتسبب شيخه في إحداث مأساة اجتماعية لأسرته ولأمه خاصة ، فقد أمره شيخه «سعيد المعدري» أن يترك التدريس في المدرسة ، وأن يدور في الأسواق ، وأن يتكفف الناس فيها ، فيمد يديه ، وهو يقول : أطعموني فأني أموت

(١) حلية البشر ٢/ ١٠٢٥ .

(٢) حلية البشر ٢/ ١٠٢٥ .

جوعاً ، وهو في أسمال رقاع متلونة كأنها قوس قزح ، وقد تدلى وراء كتفه جراب مثقوب من أصله ، يلقي فيه كل ما امتدت به إليه الأيدي ، ولكنه سرعان ما يسقط وراءه ، فيتبعه الصبيان زرافات ، والهمج والرعا^(١) ، وقد غضب أهله من ذلك أشد الغضب ، وهم من أبعد الناس عن التكفف والسؤال ، ولم يصدقوا الخبر في بادئ الأمر ، ثم لما تحققوا الأمر ، اعتقدوا أنه أصيب بالعين ، أو أنه مسحور ، أو مسته الجن ، فلما نفذ صبرهم ذهب أخوه «محمد» مع رجل آخر ، فأسراه وحمله على البغلة ، وعادا به مكبولا إلى الدار ، وهو على حالته ، لا يحير الجواب لأبيه ولا لأمه ، ولا يتكلم بسوى عبارات التكفف والاستغاثة ، والصراخ بأن الجوع كاد يأتي عليه .

ويقول ولده المؤلف^(٢) : حكّت لي والدته «تاكدا»^(٣) رحمها الله ، أنها إذ ذاك كادت تتمزق كبدها ، وينفطر قلبها ، إذ سمعت به ينادي أن السغب يقطع أحشاءه ، قالت : فلا أدع كل ما تصله يدي ، وأمكن لي من الطيبات إلا قدمته له ، فأملأ جانبيه باللحم الحنيذ ، والبيض المسلوق ، والسمن الممزوج بالعسل ، واللوز المطحون ، والتمر الجيد ، والزبيب ، والجوز ، وكل ما عندنا ، ثم لا يعير ذلك كله التفاتاً ، ومتى غفلنا عنه ، وقد أودعناه في بيت ، ينفثل إلى سطح الدار ، فيصرخ : ألا من يشبع جوعتي الملتهبة الهائجة ، ولو بقطعة من الخبز المكرج^(٤) ، فإنني ياعباد الله أكاد أهلك جوعاً ، قالت : فنبادر إلى إيوائه إلى البيت أيضاً ، ونحن نتقطع على ولدنا

(١) المعسول ٢٠٥/١ .

(٢) هو «المختار السوسي» صاحب «المعسول» .

(٣) من الأسماء عند قبائل البربر .

(٤) كرج الخبز : إذا ييس وفسد .

العالم الذي صار مجنوناً يتخبط .

وفي يوم من الأيام نادى أمه لأول مرة ، وسأل : لماذا وضعوا القيد في رجليه ، فأخبرها أنه استرد شعوره ، وعاد إليه عقله ، ففرحت أمه فرحاً شديداً ، ودعت بمن كسر القيد ، فألبسته كسوة بيضاء ، وأولموا وليمة كبيرة . تقول أمه : وأقبل المهنئون يهتئوننا بشفاء ولدنا ، ولكن والده سيدي «أحمد» لم يزل ملازماً للفراش من مرض كان ألم به ، ثم ازداد بما وقع لولدنا ، ففي صباح يوم لعله اليوم الثاني ، ذهب ليزور الأستاذ سيدي «محمد بن عبد الله» ، فلم أشعر حتى هرولت إلي امرأة من القرية ، فصارت تناديني وصوتها متهدج إنني الآن رأيت ولدك قد استدار بشية (تالات نيت عيس)^(١) ، ويذكر الهيللة جهراً ، وقد ذهب عنك أيضاً ، قالت : فقامت قيامتي ، ولم أتحمل الصبر ، فأهويت ببغلتنا ، أجوب بها الطريق إلى المعدر ، لأسترد فلذة كبدي من ذلك الرجل المعدري الذي أفسده « تعني شيخه سعيد المعدري » .

قالت : فراح علي الليل في «تيغمي»^(٢) فبت هناك عند أسرة من معارفنا ، ثم تعقبني من أخبرني بأن زوجي والد أولادي قد خرجت روحه ، إثر خروجي من الدار ، فكنت إذ ذاك أشقى نساء العالم ، وأنكأهن مصيبة ، فهذا ولدي العالم الذي هو كل منيتي وآمالي في حياتي ، قد عانه العائنون ، وتم فيه مرام الحاسدين الشامتين ، حتى اختل عقله ، فتنكب أهله ، وصار يجول في البلدان والهأ حيران أبله ، وهذا زوجي وقطب أسرتي ، ولب مهجتي ، قد مات عني ، فوقفت في حيرتي ، لا أدري أأتقدم إلى الإمام

(١ ، ٢) اسمان لموضعين في «سوس» في المغرب .

لأفتش عن ولدي ، أم أنكص على عقبي ، لأشهد مأتم زوجي» (١) .

وقد أثرنا أن ننقل هذه الواقعة المأساوية بطولها ، لنرى مدى الآثار الاجتماعية الخطيرة التي كان يتسبب بها شيوخ المتصوفة ، من تقطيع للأوصار ، وتمزيق للوشائج ، وزعزعة الروابط التي يقوم عليها المجتمع ، ونشر العقوق والتمرد على الوالدين ، وقطع الرحم ، بما كان يصدره شيوخهم لأتباعهم من أوامر قاسية ، وتعليمات منحرفة (٢) .

ويذكر الشيخ «محمد المجذوب» أنه حضر مجلساً ، وفيه حشد بأصناف الناس ، بينهم بعض خريجي المعاهد الشرعية العليا ، وتبرك الحاضرين بسور الشيخ من الماء ، وإقبالهم على تقبيل يدي الشيخ ورأسه ، وهو يد

(١) المعسول ٢٠٦/١-٢٠٧.

(٢) يقول صاحب «المعسول» ٢٠٨/١ : وهذا الذي فعله الحاج «علي» يسمى بالتجريد وخرق العادة ، وهو ترك الهيئات الحسنة ، والوقوف في مواقف الذل ، وإنكار الذات والتسول ، وقد أشار الحاج علي إلى كارثة أمة بشعره الصوفي :

تركت ما سوى الإله هجرا	فلهجت نفسي بربي ذكرا
وقبحت عندي ملاح الدنيا	مما يرى برؤية والرؤيا
وليس لي في غير ذات الله	مأوى ولا عن حسنه الملاهي
فصلت عني سائر العلائق	لكونها عن مقصدي عوائقي
بدلت أحوالي بخرق العادة	لطلب الإخلاص في العبادة
وكان في تخريقي العوائد	أفضل ما يجنى من الفوائد
تصير رافضاً ومرفوضاً إذا	ما أقرب الإخلاص ممن نبذا
فاختلف الناس فذا يقول	جن فأين القيد والحبول
والبعض قال إنه مسحور	أين رقى المسحور والبخور
وعند جل الناس كنت أحمقا	فلم يكن فعلي لديهم منتقى
فكل من جهل شيئاً عاداه	وكل من عرف شيئاً ناداه

وكل ذلك بسبب شيخه نعوذ بالله من العمى والضلال . انظر المعسول ٢٠٨/١ .

يده ، لا للمصافحة ، ولكن للقبل . . . ثم يقول : وما ذلك إلا خطب يسير ، إذا قوبل بما هو أشد وأدهى ، مما أصبح مألوفاً في كثير من المساجد . . . حيث يصل الشيخ متأخراً لخطبة الجمعة ، فلا يبقى واحد من مريديه هناك إلا نهض على قدميه إجلالاً للشيخ . . وهو عن ذلك راض وبه جد مسرور ^(١) .

وقد كان شيوخ المتصوفة يتصرفون في أتباعهم تصرفات شاذة ، ويصدرون على المخالفين منهم أحكاماً طاغوتية ، ما أنزل الله بها من سلطان ، بل وتشاركهم في تلك الأحكام الجائرة سلسلة أرواح مشايخهم في الطريقة ، من الذين هلكوا من قبلهم كما يزعمون .

يقول صاحب «الحلية» عند ترجمة الشيخ «يحيى بن العمادي الشافعي» : «ومما وقع له أيضاً مما يدل على رفعة مقامه ، ووصوله في الطريق إلى مرامه ، أن عبد الوهاب السوسي الذي خلفه حضرة مولانا «خالد» ^(٢) في الأستاذة العلية ، ثم طرده عن الطريقة ، لعجبه بنفسه بمخالطة أكابر الرجال ! وجمع الحطام والأموال ! دخل يوماً على الشيخ «يحيى» وقبل يديه ، والتمس منه أن يطلب العفو عنه من حضرة مولانا «خالد» قدس الله سره ، فقام الشيخ «يحيى» ودخل على حضرة مولانا «خالد» ، والتمس منه العفو عن «عبد الوهاب» ، فقال حضرة الشيخ إن الأمر لو كان بيدي لعفوت عنه ! ولكن جميع روحانيات السلسلة العلية النقشبندية قد طردوه عن باب طريقتهم ، اللهم إلا أن يحلق «عبد الوهاب» لحيته ويسود وجهه ، ويركب الحمار منكوساً ويشهر نفسه في الأزقة والأسواق كسراً لنفسه !!!

(١) مشكلات الجليل في ضوء الإسلام ص ١٣٥ .

(٢) هو «خالد الشهرزوري» الذي ورد ذكره مراراً .

فإنهم قدس الله أسرارهم يعفون عنه حينئذ .

فقال الشيخ «يحيى» قدس الله سره : يا شيخني إن «عبد الوهاب» لا تطاوعه نفسه على مثل هذا الفعل ، ولكن رخصني ، فإني أعمل هذا الفعل عوضاً عنه لعله يعفى عنه ، وأنا أفدي نفسي في حاجة المسلم ، فبكى حضرة مولانا «خالد» قدس الله سره ، وتعانق مع الشيخ «يحيى» ، وبقياً يبكيان ، ثم قام حضرة الشيخ قدس الله سره لصلاة النافلة ، وذهب الشيخ «يحيى» قدس سره إلى محله ، وقال لـ «عبد الوهاب» : فلا تلومن إلا نفسك ، وقام «عبد الوهاب» خائباً ، والعياذ بالله تعالى من سوء المنقلب^(١) .

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط ، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس ، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة ، يقومون بأعمال الحرفيين ومهن السقائين والحمالين طاعة لشيوخهم ، ويقومون بحالات أشبه بحالات الجنون . وكان شيوخهم الضالون المضلون لا يرضون عمن خالف بعض مسلكهم المنحرف ، بأقل من الطرد والغضب وحلق اللحية ، وتسويد الوجه ، والركوب منكوساً على الحمار ، والتشهير في الشوارع والأسواق حتى ولو كان المخالف لهم من خاصة مريديهم ، لم يكسب إثماً سوى أنه جمع مالاً ، أو لقي بعض الأكابر .

(١) حلية البشر ٣/ ١٥٩٠ . وعلى هامش الصفحة للشيخ «محمد البيطار» ما نصه : من المعلوم أن ما تحقق به التوبة النصوح : الإقلاع عن الذنب في الحال ، والندم على مافات ، والاستعداد لما هو آت ، قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ، وهذا الإذلال الوارد في السؤال ليس شرطاً شرعياً ، ولم يذكر له مستنداً . انتهى . ونقول : وهل فعل الرجل شيئاً حتى يتوب منه ، بل هذا الإذلال من الأحكام الطاغوتية التي كان يحكم بها المتصوفة على أتباعهم .

وبهذه الأفاعيل والأباطيل التي تولى كبرها شيوخ المتصوفة ، أشاعوا روح الذل والخنوع بين الناس ، وقتلوا الإباء والأنفة والعزة في نفوسهم ، فخرجت في الأمة جموع ذليلة ، قد استناخت للضيم واستمرأت الهوان ، وهذا مع غيره من الأمراض والانحرافات الأخرى ، يفسر لنا سهولة سيطرة الاستعمار الصليبي على بلدان المسلمين في زمن قصير .

عاشراً : الصوفية والجهاد ومقاومة الاستعمار :

يذكر كثير من الكتاب الصوفية بشيء من الثناء والإطراء ، حين يتحدثون عن دورها في نشر الإسلام ، ومقاومة الاستعمار خصوصاً في القارة الأفريقية ، ولكنهم لا يذكرون أبداً أن هؤلاء المتصوفة لم يبلغوا الإسلام الصحيح ، وإغما بلغوه في قالب صوفي ، بعيد كل البعد عن حقيقته التي أنزله الله عز وجل عليها .

ولكن ما من شك في تفاوت انحرافات الصوفية ، ومدى قربها أو بعدها من الإسلام ، والمرجو أن يجيء يوم يتهياً فيه الإصلاح الديني ، فيدرك الناس أن الإسلام شيء ، والصوفية شيء آخر . ولا شك أن انتقال الناس إلى الإسلام في قلبه الصوفي ، كان خيراً من بقائهم على وثنيته أو نصرانيتهم أو يهوديتهم في كثير من الأحيان^(١) .

أما بالنسبة لموقف الصوفية من الجهاد ومقاومة الاستعمار ، فإنه موقف متباين ، يسوده التذبذب والاضطراب . فبينما نرى طائفة منهم ، أعلنت الجهاد وقاومت الاستعمار ، وأقضت مضاجع المستعمرين ، نرى على النقيض الآخر طائفة أخرى ، نكصت عن الجهاد ، ونكلت عن

(١) وذلك بحسب انحراف الطريقة الصوفية ، وشدة ذلك الانحراف .

الحرب ، وانزوت على نفسها فرقا وهربا .

وبين هاتين الطائفتين ، طائفتان أخريان . الأولى منهما حاربت المستعمر وقاومته ردحا من الزمن ، فلما طال أمد القتال ، ولم تفلح في طرد المستعمر ، بل كان هو الظاهر عليها في كثير من الوقائع ، استسلمت له في نهاية المطاف ، ولم تكتف بالاستسلام للمستعمر ، وإبرام المعاهدات المخزية معه ، بل صارت تشنع على من يحاول رفع راية الجهاد ضده من جديد ، وينقض ما أبرمته من معاهدات . والطائفة الثانية ، وهي شر طوائف الصوفية جميعا ، وهي الطائفة التي وقفت معه منذ البداية جنبا إلى جنب ، تؤازره ، وتناصره ، وتقاتل في صفوفه ، وتحت رايته ، وتدعو الناس إلى الرضوخ له ، وتحذر من مغبة مقاومته .

ومن الطائفة الأولى يعتبر أتباع الطريقة السنوسية الذين جاهدوا الاستعمار الإيطالي في ليبيا من أوضح الأمثلة على ذلك . ويقابلهم في الناحية الأخرى كثير من المتصوفة الذين كان يعيشون في غير واقعهم ، ولا يرون الانشغال بغير الذكر والزهد .

أما الطائفة التي قاتلت ثم نكلت ، وجاهدت ثم نكصت ، فأوضح من يمثلها هو الأمير «عبد القادر الجزائري»^(١) ، وسيأتي الحديث عنه قريبا إن شاء الله . أما الطائفة التي والت المستعمر ، وقاتلت المسلمين في سبيله ، فكثير من زعماء الطريقة التجانية يعتبرون من أبرز الأمثلة عليها .

ولكن لا بد لنا من أن نوضح حقيقة هامة ، وهي أن الصوفية لم تكن في يوم من الأيام مؤهلة لقيادة الأمة ، ومجاهدة المستعمرين ، ولا ينبغي

(١) انظر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر . وهو مرجع سبق ذكره .

هذا وجود جماعات وقيادات صوفية أبلت في جهاد الأعداء بلاءً حسناً .
فقد سبق فيما كتبناه من مباحث أن أوردنا نظرة الصوفية المنحرفة إلى الحياة ، وبعض عقائدهم وطقوسهم التي تتعارض في حقيقتها مع الجهاد .
وإذا كان «الغزالي» (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) الذي عاش في القرن الخامس وهو العصر الذي غزا فيه الصليبيون والتتار بلاد المسلمين ، واحتلوا كثيراً منها ، وذبخوا الألوف الكثيرة من أهلها ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، لم يذكر الجهاد في سبيل الله في كتابه «إحياء علوم الدين» ولم يتطرق إليه أبداً^(١) ، بل كان مجاوراً في بيت المقدس تارة ، ومعتكفاً بزوايته في الجامع الأموي تارة أخرى^(٢) ، وكأنه في كوكب آخر ، لا يعيش بين المسلمين .

إذا كان هو هذا حال كبير المتصوفة في عصره ، بل كبيرهم في كثير من القرون الذي يحومون حول مؤلفاته ، ويتقمصون منهجه ومسلكه ، فلا غرابة بعد ذلك أن يكون موقف الصوفية من الجهاد في جملته موقفاً سلبياً ، بل موقفاً معادياً في بعض الأحيان .

فأما الأمير «عبد القادر الجزائري» فقد بايعه الجزائريون بعد دخول الفرنسيين الجزائر ، فقادهم إلى جهاد الفرنسيين طيلة سبعة عشر عاماً ، ولكنه استسلم في آخر الأمر ، وسلم نفسه إلى الفرنسيين فنفوه إلى خارج البلاد ، ثم أطلقوا سراحه ، بعد أن اشترطوا عليه أن لا يعود إلى الجزائر ، ورتبوا له مبلغاً من المال يأخذه كل عام ، وزار «باريس» ، ثم استقر في «دمشق» حتى توفي بها^(٣) .

(١) انظر : كتاب «إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين» ص ٣٧ علي حسن علي عبد الحميد . مكتبة ابن الجوزي . الأحساء . الهفوف . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٢) إحياء علوم الدين ص ٥ .

(٣) الأعلام ٤/ ٤٦ .

وحين انهزمت فرنسا سنة ١٨٧٠ م «أظهر كمال الأسف ، وتزين بنيشانها الأكبر^(١) إظهاراً لاعتراف مصادقتها ، وتخلي عن ملاقاته الناس مدة...»^(٢). واعتبر «السنوسي» ذلك ، من أخبار وفائه ، وكان الأولى به أن يعتبرها من أخبار ضعف ولائه وبرائه .

وحين قام ابنه « محيي الدين » بإعلان الجهاد ضد الفرنسيين مرة أخرى ، واتفق مع بعض زعماء القبائل في الجزائر ، تبرأ «عبد القادر» منه ، وكان ذلك سبباً في انفضاض القبائل عنه ، وفشل حركته^(٣) .

ونأتي الآن إلى طوائف الصوفية التي والت المستعمر ، واتخذته بطانة من دون المؤمنين ، وقاومت الجهاد ضد المعتدين ، وكانت خنجراً مسموماً يطعن ظهور المجاهدين من الخلف .

وقد كانت تلك الطوائف من أكبر الأسباب التي مكنت المستعمر من السيطرة على البلاد . ففي رسالة من المارشال (بوجو) أول حاكم فرنسي للجزائر إلى شيخ التجانية ذات النفوذ الواسع ، جاء فيها : أنه لولا موقف الطريقة التجانية المتعاطف !! لكان استقرار الفرنسيين في البلاد المفتوحة حديثاً أصعب بكثير مما كان^(٤) .

وحين كان الأمير «عبد القادر» يقود المجاهدين لحرب المستعمر ، قاومه كثير من الطريقين ، وانبث كثير من شيوخ الطرق في البلاد لتثبيط الهمم بالنسبة للمقاومة ، ومطالبة الناس بالانتظار والهدوء ، حتى تصل السفن

(١) وكان قد أهدي له لدى زيارته «باريس» عام ١٨٦٧ م .

(٢) الرحلة الحجازية ٢٠٠ / ٣ .

(٣) أعلام المغرب العربي ٢١٦ / ١ .

(٤) التجانية ص ٦١ .

الفرنسية. وقد قامت حكومة الجزائر الفرنسية بتقريبهم ، ومكافأتهم ، ومنحهم النياشين والأوسمة ، تقديرًا لجهودهم في خدمتها ، والوقوف إلى جانبها .

وكان شيوخ الطرق الخائنون يقومون بكتابة عرائض بتوقيعاتهم ، وتوقيعات أتباعهم ، يملؤونها بالثناء والشكر لفرنسا ، التي كانت تعتبرهم ممثلين للشعب . ولا غرابة بعد ذلك كله ، أن يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر : إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق ، أكثر من تعظيمها لشكنة جنودها وقوادها ، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا!!^(١)

وقد سجلت مجلة «الفتح» (م ٦) قصة صاحب السجادة الكبرى الذي ألقى خطبة الإخلاص (١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م) وهو «محمد الكبير» رئيس الطريقة التجانية ، بين يدي الكولونيل «سيكوني» الفرنسي ، وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى ، وقال : إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ماديًا وأدبيًا وسياسيًا ، وقال : إن أجدادي قد أحسنوا صنعًا في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، ففي عام ١٨٣٨ م كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائري)^(٢) .

وفي عام ١٨٧٠ م حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين ، وبرهن على ارتباطه بفرنسا ، فتزوج (أوريلي بيكار) وبفضلها تحولت منطقة

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ص ٥١-٥٢ أنور الجندي . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

(٢) كان عدوًا ، ثم انقلب إلى صديق وديع .

(كوردان) من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع ، وهو أول مسلم تزوج بأجنبية^(١).

ومما يذكر أن مدام (أوريلي بيكار) قد أصدرت كتاباً أسمته (أميرة الرمال) تعني نفسها، ملأته بالمشالب والمطاعن على الزاوية التجانية ، ومسلمي الجزائر . وذكرت أن «أحمد التجاني» قد تزوجها على يد الكردينال «لا فيجري» على حسب الطقوس المسيحية وبقيت (أوريلي) على كاثوليكيته. ولما توفي عنها زوجها ، خلفه عليها وعلى السجادة التجانية أخوه «علي» ، فأطلق عليها لقب «زوجة السيدين»^(٢).

وقد كافأته السلطات الفرنسية لقاء ما قدمته من خدمات بوسام جوقة الشرف، وقالت عنها في براءة التوجيه : إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التجانية إدارة حسنة كما تحب فرنسا وترضى ، وسأقت إلينا جنوداً مجندة من «أحاب» هذه الطريقة ومريديها ، يجاهدون في سبيل فرنسا كأنهم بنيان مرصوص^(٣).

وجاء في خطاب «محمد الكبير» الذي أشرنا إلى بعضه آنفاً الآتي :

«في سنة ١٨٦٤م كان عمي سيدي أحمد مهد السبيل لجنود الدوك دومال ، وسهل عليهم السير إلى مدينة بسكرة ، وعاونهم على احتلالها» .
«وفي سنة ١٨٨١م كان المقدم^(٤) سي «عبد القادر بن حميدة» مات

(١) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢ . التجانية ص ٦١ .

(٣) التجانية ص ٦٢ .

(٤) المقدم كما ذكر «ابن الدخيل الله» رتبة في الطريقة التجانية ، والمقدم من أجازته الشيخ في تلقين الورد للناس .

شهيداً!!! مع الكولونيل «فلاتين» حيث كان يعاونه على احتلال بعض النواحي الصحراوية».

«وفي سنة ١٨٩٤م طلب منا مسيو (جول كوميون) والي «الجزائر» العام يومئذ أن نكتب رسائل توصية ، فكتبنا عدة رسائل وأصدرنا عدة أوامر إلى أحباب طريقتنا في بلاد «الهكاد» (التوارق)^(١) و«السودان» (أي السودان الفرنسي)، نخبرهم بأن حملة فود ولامي الفرنسية هاجمة على بلادهم، ونأمرهم بالألا يقابلوها إلا بالسمع والطاعة ، وأن يعاونوها على تلك البلاد ، وعلى نشر العافية فيها».

«وبالجملة فإن فرنسا ماطلبت من الطائفة التجانية نفوذها الديني إلا وأسرعنا بكل فرح ونشاط بتلبية طلبها وتحقيق رغائبها ، وذلك لأجل عظمة ورفاهية وفخر حبيبتنا فرنسا النبيلة»^(٢) .

على أن الغريب في الأمر أن زعيم الطريقة التجانية في السودان الغربي «السنغال» وهو الحاج «عمر بن سعيد الفتوي السنغالي الأزهري» (المتوفى سنة ١٢٨٣هـ) ، قد قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة شديدة ، وجاهد الوثنيين هناك ، ونشر الإسلام بينهم .

وقد أدرك هذا التناقض المسيو «أندري راسين» فقال مستغرباً عند حديثه عن التجانية : «وأشهر من شهرها في السودان الحاج «عمر» ، ومن الغريب أنها في الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيين ، وفي السودان^(٣) ترفع راية الجهاد»^(٤) .

(١) الطوارق بالطاء كما هو معروف .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) أي السودان الغربي (السنغال وما حولها) .

(٤) التجانية ص ٦٥ . وأرجع «ابن الدخيل الله» ذلك التناقض إلى دراسة «الفتوي» في الجامع الأزهر الذي كان له دور في توجيه حياته .

وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً حول تباين موقف الصوفية واضطرابه من الجهاد .

وحين قام المجاهد المغربي «محمد بن عبد الكريم الخطابي» (المتوفى سنة ١٣٨٢هـ)^(١) بالجهاد ضد الإسبانين في الريف المغربي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، تألب عليه بعض مشايخ الطرق ، وقاموا بخيائنه في كثير من المواقع ^(٢) .

أما «محمد بن عبد الحي الكتاني» (المتوفى سنة ١٣٨٢هـ) من شيوخ الطريقة الأحمدية الكتانية ، فقد كان موالياً للاستعمار الفرنسي في المغرب منافحاً عنه ، وحين استقل المغرب كان في «باريس» فاستمر إلى أن مات بها ^(٣) .

وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين في الجزائر سنة ١٩٣١ م ، وانطلقت تؤدي دورها التربوي ، وتنشئ المدارس ، وتنشر اللغة العربية ، أقلقت السلطات الفرنسية ، وكان سلاحها الماضي في القضاء على تلك الجمعية رجال الطرق الصوفية .

فقد تألب كل من أتباع الطريقة العليوية والطريقة الشاذلية والطريقة القادرية وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى - ضد الجمعية ، محاولين القضاء عليها وتنفيذ الناس منها، ووصل الأمر ببعضهم إلى القيام بمحاولة

(١) الأعلام ٦/ ٢١٦ .

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ص ٥٢ .

(٣) الأعلام ٦/ ١٨٨ . وهو صاحب «فهرس الفهارس» ومن كبار العاكفين على علم الحديث .
نسأل الله السلامة . وللشيخ «محمد بشير الإبراهيمي» «نشر الطي من أعمال عبد الحي» في
نقد سيرته . الأعلام ٦/ ٥٤ .

اغتيال مؤسسها المجاهد الشيخ «عبد الحميد بن باديس» رحمه الله تعالى^(١) .

وقد كانت كثير من الزوايا الصوفية تقوم مقام المراكز الاستخبارية للدول المستعمرة ؛ فقد كانت زاوية «مستغانم» أعظم مراكز الاستخبارات الفرنسية بالنسبة للمغرب . وكان فقراؤها (أي مريدوها) العليونون من أمهر الجواسيس العاملين لحساب السياسة الفرنسية^(٢) .

وحسبنا أن نعرف أن «أبا حمارة»^(٣) صاحب الثورة في تاريخ المغرب الحديث في العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري - والذي سبق ذكره ، والذي دوخ حكام المغرب ، وانتصر على الجيش السلطاني في كثير من المواقع ، وعجز قواده عن إلحاق الهزيمة به ، ودامت ثورته المحمومة سبعة أعوام كان واحداً من هؤلاء المتصوفة الذين عملوا لحساب الاستخبارات الفرنسية^(٤) .

(١) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ص ٥٢ . وقد توفي الشيخ «بن باديس» عام ١٣٥٩ هـ عن نحو خمسة وخمسين عاماً ، أُوذي من القريب والبعيد ، وجفاه أبوه ، وقاطعه إخوته ، واضطهدته السلطة المحتلة ، وظل صابراً محتسباً ينشر دعوته ، ويجهاد بقلمه حتى لبى نداء ربه ، بعد حياة حافلة بالجهاد والتربية والعمل المثمر .

(٢) أعلام المغرب العربي ١/٣٠٦ .

(٣) اسمه «الجيلاني بن عبد السلام اليوسفي الزرهوني» ، أعدم بـ «فاس» يوم الخميس ٢٣ شعبان ١٣٢٧ هـ .

(٤) اقرأ ترجمته ونبأ ثورته في : أعلام المغرب العربي ١/٣٠٣-٣٩٧ . وأطلق عليه المغاربة لقب «الدعي الفتان» ؛ لأنه ادعى أنه الأمير «محمد بن الحسن» أخو السلطان «عبد العزيز» الذي كان مرشحاً في حياة أبيه السلطان «الحسن» للملك ، ولكن الحاجب «أحمد بن موسى النجاري» اعتقله لما مات والده في ذي الحجة من عام ١٣١١ هـ وأخذ البيعة لأخيه الصغير «عبد العزيز» ، وكان بين الدعي وبين الأمير «محمد» بعض الشبه ، وأتاحت له خدمته في القصر السلطاني أن يعرف كثيراً من الأمور التي تقوي ادعاءه فادعى أنه الأمير «محمد» ، وصدقه الكثير من السذج والقبائل .

وقد أقام «أبو حمارة» دولة في المناطق التي استولى عليها ، وعين وزيراً لخارجيته أحد الجواسيس العاملين لحساب فرنسا ، وهو «عبد القادر التلمساني» . وعين ضابطاً فرنسياً من أصل جزائري وزيراً للحرب ، أما «كابرييل ديلبريل»^(١) الجاسوس الفرنسي ، فقد عينه رئيساً لأركان الحرب ، ومديراً للعلاقات العمومية .

وهكذا كانت كثير من الطرق الصوفية طابوراً خامساً ، تعمل مع أعداء الإسلام جنباً إلى جنب ، للقضاء على حركات الجهاد والمقاومة التي اندلعت ضدهم ، ورضي زعماءها أن يكونوا عملاء للمستعمرين ، خائنين لأمتهم ولأوطانهم .

وعلى العموم ، فكل الصوفية بكل طوائفها وطرقها ، لم تكن هي القادرة على الدفاع عن الأمة ، أو الذود عن حياضها ، وكانت بحق كالسرطان المستشري في جسم الأمة ، الذي أصيب بالضعف والهزال بسببها ، فكان الوقوف للاستعمار ودحره في تلك الحالة ، أمراً يعد من المستحيل .

الحادي عشر : الصوفية والمجاذيب الأولياء :

(١) أخطر جاسوس فرنسي عاش في بلاط السلطان «الحسن الأول» وبلاط السلطان «عبد العزيز» . انظر : المصدر السابق ٣٣٧/١ . ومن المحتمل - وهو احتمال قوي - أن فرنسا عبر جاسوسها هذا قد زينت «لأبي حمارة» أن يدعي أنه الأمير المذكور ، ويقوم بثورته تلك ، خصوصاً أنهما كانا يعملان معاً في البلاط السلطاني . وقد جنت فرنسا من تلك الثورة المشؤومة فوائد عظيمة ، وكان إعلان الحماية على المغرب في أعقابها ، وخسر المغرب من الأموال والعتاد والرجال ما لا يخطر على البال . وبعد أن قام أبو حمارة بالدور المطلوب تخلت عنه فرنسا ، ليقع أسيراً في قبضة السلطان «عبد الحفيظ» الذي حكم بإعدامه .

ذكرنا فيما سبق الجذبة عند المتصوفة ، والتي توازي عمل الثقلين عندهم ، والجذبة هي أن يجذب الله الصوفي إلى حضرته ، ويكشف له الحجاب ؛ فيكون المجذوب بجسده على الأرض ، وعقله سابح في ملكوت السماء ، يطلع الغيب ، ويخبر المتجمهرين حوله من الناس بالمغيبات ، بعد أن كشف له الحجاب .

والمجذوب لا يعدو في أغلب الأحيان أن يكون مجنوناً أو دجالاً متظاهراً بالجنون ، ولكن الجماهير تعتقد أنه جن حين كشف له الحجاب ، وجذبه الخالق ، فلم يعد يحتمل عالم الغيب الرهيب . ولا أدري أي ضلال أودى بالمتصوفة إلى اعتبار المعتوهين والمجانين والمجاذيب من كبار الأولياء!!

يقول الرحالة الأوربي «إدوارد لين» الذي زار مصر عام ١٢٥٠هـ- ١٨٣٥م : «إن المعتوه أو المجنون في عرف الجمهور ، كائن عقله في السماء ، وجُزؤه الكثيف على الأرض ، إنه حبيب الله ، ومهما ارتكب من الفظائع ، فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس ، وكثيرون هم الذي يتخطون على الدوام قواعد الدين ، ويتمردون على مبادئه ، ولكن العلة في ذلك عند الناس ، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله!! مما أدى إلى العجز عن التحكم في العواطف ، والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر يحفظون في الحبس ، أما الذين لا يخشى منهم ينظر الناس على أنهم أولياء الله .

ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخاييل أو دجالون ، يسير بعضهم في الشوارع عارياً كامل العري ، فيلقى من الناس كل الاحترام

والتوقير ؛ حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم ، بل يأذن لهؤلاء الخبثاء أحياناً ، بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية »^(١) .

وذكر الجبرتي أن «عبد الله جاك مينو» قائد الحملة الفرنسية في مصر بعد رحيل نابليون ومقتل كليبر - أرسل إلى المشايخ يسألهم عن «الذين يدورون في الأسواق ، ويكشفون عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ، ويدعون الولاية ، وتعتقدهم العامة ، ولا يصلون صلاة المسلمين ، ولا يصومون ، هل هذا جائز عندكم في دينكم ، أو هو محرم ؟! فأجابوه بأن ذلك حرام ، ومخالف لديننا وشرعنا وستتنا ، فشكرهم على ذلك ، وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك ، فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان ، أو غير مجنون فإما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد»^(٢) .

ولكن ما لبث أن عادت الأمور كما كانت عليه بعد رحيل الفرنسيين ، وكأن شيئاً لم يكن وقد كانت الجذبة غاية الكبار من المتصوفة التي يطمحون إليها ، ويجاهدون من أجلها .

فهذا الصوفي الشهير «أحمد أسعد المدني»

«لم يزل يسمو مقامه فوق الواجب ، وقدره يتعالى ، ونعيمه يتجدد ويتوالى ، إلى أن حصل له في آخر أمره جذبة إلهية!! أذهلته عن إدراك أموره العادية»^(٣) .

وهذا الصوفي «إسماعيل بن عبد الجواد الكيالي» (المتوفى سنة ١٢٣٢هـ)

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١٤ .

(٢) عجائب الآثار ٤٠٣/٢ .

(٣) حلية البشر ٢١٥/١ .

حصل له جذبة عام ١٢٠٠ هـ فخلع ثيابه ، وصار يدور في الأسواق على هذه الحالة ويتكلم بما لا يعني من الكلام ، ومال إلى الخمول والذهول وتغيرت أحواله ، ومع هذه الحالة شوهدت له كرامات كلية! وخوارق وأحوال ، وإخبارات غيبية ، وكانت الناس تحترمه ، وتهابه وتخشى من بطشه ، ويرجون دعواته ، وينظرون إليه بعين المهابة والتعظيم!!^(١) .

أما المجذوب «حسن الدنا» (المتوفى سنة ١٢٨٦ هـ) فيقول عنه صاحب «الحلية» : «التائه الكبير ، والمعتقد الشهير ، المجذوب الغائب بمولاه عما سواه ، كان في أغلب أمره مكشوف العورة ، مأخوذاً عن نفسه ، يتقدم تارة في مسيره ، ويرجع أخرى ، وهو يفرك يديه ، ويعض على أصابعه ، ولا يتكلم أبداً»^(٢) .

وأما المجذوب «أبو بكر المراكشي» (المتوفى سنة ١٢٧١ هـ) فهو : «الولي المجذوب الهائم المتيم المحبوب . . . وكان الخليفة «محمد بن عبد الرحمن العلوي» يعتقه ، ويعظمه ويخلع عليه الملابس وقتاً بعد وقت ، وشوهدت له كرامات عديدة ، وأخبار بمغيبات ، منها إخباره بموته ، وكان من عاداته رحمه الله خلق رأسه في كل وقت ولو بدون شعر فيه»^(٣) .

وهذا الشيخ «حسن الهابط الدمشقي» (المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ) : «المجذوب لمولاه والمنقطع عما سوى الله ، صاحب الكرامات الظاهرة والخوارق العجيبة الباهرة . . . كان ملازماً للوقوف في ساحة الحمام ، ولا يخرج منها ، حتى في فصل الشتاء ونزول الثلج الذي ربما غطاه أحياناً . . .

(١) المصدر السابق ١/ ٣٢٥ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٨٨ .

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمت من الأعلام ١/ ٢٢١ .

وكان إذا أظهر المحبة إلى إنسان شمه بأنفه ! وكان دائماً نظره إلى الأرض ،
مطرقاً برأسه يدور في محله ويتردد . . . » .

ولما تأخر الشيخ «حسن» والد الشيخ «عبد الرزاق البيطار» عام ١٢٦٣هـ
بسبب حضوره حفل ختان ابني السلطان «عبد المجيد» وهما «مراد وعبد
الحميد» ، قلق أهله ، فخرج الشيخ «عبد الرزاق» وكان صغيراً لا يتجاوز
العاشرة ، فوجد المجذوب أمام حجرة والده يتردد ، ولم يكن له عادة في
الانتقال من الساحة المتقدمة ، فاستغرب ذلك وسأله فقال له بلسان فصيح :
يأتي الشيخ يوم الأحد ، فقلت له : وأي أحد ، فقال : يوم الأحد ،
فكررت ، وهو لا يزيد عن ذلك ، ففي ثاني يوم صباحاً ورد علينا مكتوب
من «بيروت» بحضوره إليها ، وكان وصوله إلينا يوم الأحد كما قال
المترجم .

وكان كثيراً ما تأتي إليه جملة من أكابر المجاذيب ليلاً ، فيجلسون عنده ،
ويتذكرون معه ، وإذا مر عليهم أحد سكتوا عن الكلام إلى أن يتعد عنهم ،
ورؤوسهم متدانية بعضها من بعض ، خوفاً من أن يسمعهم أحد ، وأما
صغار المجاذيب ، فإنهم لا قدرة لهم على المرور من محلته ، حتى لو جرهم
أحد يمتنعون من مطاوعته ، ويظهرون الخوف والتباعد^(١) .

أما المجذوب «أحمد بن عبد الرحمن العلوي البلغيثي المراكشي» (المتوفى
سنة ١٣١٨هـ) : فقد كان في أول أمره «يقراً على الفقيه البركة السيد» عبد
القادر الدكالي ، ثم أخذه جذب ، فصار ينطق بالكلام الذي تشمئز منه
النفس ، ويفعل الأمور التي ينكرها الشرع . . . ورأى الناس له كرامات ،

(١) حلية البشر ١/ ٥٢٠ .

منها إخباره بالمغيبات على وجه الإشارة الذي يظهر صدقها كفلق الصبح ، والدخول على المواضع وأبوابها مغلقة ، على ما أخبرني به غير واحد .

وكان يدخل على دار الوزير السيد «أحمد» من غير إذن ، ويعطيه الكساوى الفاخرة ، ويركبه بهائم ، ويساعده على كل ما أراد ، ولا ينكر عليه شيئاً من أفعاله!!... وكان دائماً يلهج بلفظة الفرنسييس^(١) .

إن هذا الموقف الغريب من المجاذيب ، لهو مؤشر خطير على مدى الانحدار والسقوط الذي وقعت فيه الأمة ، حين ركن الجمهور فيها إلى المجاذيب والمجانين ، يحبونهم ، ويهابونهم ، ويخافون منهم ، ويجلونهم ، ويكرمونهم ، ويغضون الطرف عن فضائحهم وقبائحهم ويستشفون الغيب منهم^(٢) .

وصار الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين ، ولا شك أن هناك بينهم نسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين ، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس ، فاندسوا بين صفوفهم ،

(١) الإعلام بمن حل مراکش وأغمات من الأعلام ٤٤٨/٢ . وكان لهجه المستمر بكلمة الفرنسييس يريد أن ينبه بها قومه في المغرب ليحذروهم ، لعل المؤلف يريد أن يصل إلى هذا . ولماذا ينتظر تنبيهات المجانين أو الأولياء منهم؟! والفرنسيون محتلون للجزائر وتونس ، ويوشكون أن يحتلوا المغرب . فهذا المجذوب يكرر دائماً : الفرنسييس ، الفرنسييس . يريد تحذير قومه!! وهو إعلام لهم بالغيب القادم ولكن عن طريق الإشارة . فأى ضياع أعظم من هذا! أن تركز الأمة إلى الغفلة والنوم ، ألا تنتبه لمخططات الأعداء ولا تسمع إلا للمجاذيب .

(٢) قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، فمن ادعى شيئاً من علم الغيب فهو كافر مرتد ، يستتاب وإلا قتل . ولا خلاف بين المسلمين في ذلك .

ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء ، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب ، مهما ارتكبوا من الموبقات ، وجاهروا بالفواحش والآثام .

ولا شك أن بعض هؤلاء المجاذيب ، بل كثير منهم ، كان بهم مس من الجن وللشياطين بهم تخطيط ، وبعضهم ممن كان يتعامل مع الجن ، كالذين يدخلون البيوت ، والأبواب مغلقة ، لكنهم كانوا جميعاً من طبقة الأولياء التي تحظى بالاحترام والتبجيل .

قال السملالي تحت عنوان (فائدة وتنبيه) : «قال بلدنا الأفراني الحافظ في الفصل السادس من درر الحجال ، ومن خطه نقلت ما نصه : قلت : وقد كثر قوم يمشون في الطرقات ، منكشفي العورات ، ومرتكبي لمباحات ومحرمات ، ويسميهم الناس بالمجاذيب ، وعادتي أنا فيهم أن أعرض عنهم ، فلا أعرض لهم بإنكار ولا بتسليم»^(١) .

والمتوقفون في أمر هؤلاء المجاذيب ، لا ينكرون عليهم ، ولا يسلمون لهم ، كما صنع الأفراني كانوا قلة ، مع أن موقفهم هذا باطل شرعاً ، لأنه يتعارض مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما المعارضون لهم ، والمنكرون عليهم ، فكانوا قلة قليلة ، لا يأبه بهم أحد .

وإن أمة كان المجانين والمعتوهون يتصدرون الناس فيها ، ويكرمون فيها ، ويعدون الأولياء فيها ، وتحتشد جماهيرها وراءهم في وقت كانت هدفاً للأعداء ، وغرضاً لسهامهم وحملاتهم ومخططاتهم ، لمستحقة أن تغزى في عقر دارها ، وأن تستباح بيضتها . وأن تجتاح بلادها ، وأن يغرب أهلها وتمسخ هويتها ، وهو ما وقع بالفعل .

(١) المصدر السابق ٤٤٩/٢ .

الثاني عشر : الصوفية والعقائد المنحرفة :

ونعني بالعقائد المنحرفة ، تلك العقائد الكفرية ، التي تخرج معتقدها من الملة فقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة . ولعل أخطر العقائد التي آمن بها كثير من المتصوفة عقيدتا وحدة الوجود والحلول^(١) .

وعلى الرغم من خطورة هاتين العقيدتين ، والهجوم العنيف الذي واجهته من قبل علماء الأمة على اختلاف مذاهبهم ، إلا أن المتصوفة قد احتضنوهما ، وعملوا على نشرهما ، وألفوا المؤلفات من أجلهما ، واعتبروهما الحقيقة التي كشف لهم سرها وستر عن الآخرين .

-
- (١) قسم شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله تعالى أهل الحلول والاتحاد إلى أربعة أقسام هي :
- ١- الحلول الخاص ، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقولون إن اللاهوت حل في الناسوت ، وتدرج به كحلول الماء في الإناء وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالبية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بـ «علي بن أبي طالب» وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذي يقولون بالحلول في الأولياء ، ومن يعتقدون فيه الولاية ، أو في بعضهم : كـ «الحلاج» و«يونس» و«الحاكم» ونحو هؤلاء .
 - ٢- الاتحاد الخاص ، وهو قول يعقوبية النصارى وهم أخبت قولاً ، وهم السودان والقبط ، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا ، كاختلاط اللبن بالماء ، وهو قول من وافق هؤلاء من غالبية المنتسبين إلى الإسلام .
 - ٣- الحلول العام ، وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة الجهمية المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته في كل مكان .
 - ٤- الاتحاد العام وهو قول هؤلاء الملاحدة (ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني) الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين : فمن جهة أن أولئك قالوا إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه ، بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره . والثاني : من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظمه كالمسيح ، وهؤلاء جعلوا ذلك سارياً في الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ . مجموع الفتاوى ١٧١ / ٢ .

ولا غرابة بعد هذا أن نجد في تلك الفترة الحالكة الني نقوم بدراستها ، كثيراً من المتصوفة الذين يؤمنون بهذه العقائد الباطلة التي تخرج أصحابها من دائرة الإسلام ، كما نجد التبجيل العظيم والتقديس المفرط ، من جماهير المتصوفة ودهمائهم لرموز هاتين العقيدتين الباطلتين ، من أمثال «الحلاج وابن عربي» وغيرهما .

ف «ابن عربي» له ضريح كبير ومقام شهير في صالحة «دمشق» ، وليس ذلك بغريب في عصر عبادة الأضرحة والقبور ، ولكن الذي يهمننا نظرة الناس إليه .

يقول «القاياتي» لدى زيارته لضريحه : «فابتدأنا بزيارة الشيخ الأكبر «محيي الدين بن عربي الطائي» صاحب المقامات والكرامات والمكاشفات الظاهرة والخوارق الباهرة ، سلطان أهل الحقيقة^(١) ، وشيخ مشايخ الطريقة ، له في التوحيد القدم الراسخة!! وفي المعارف الإلهية الذروة الشامخة . . . وقبره داخل قبة عظيمة ، لها أطواق وشبابيك مطلة على البساتين والجنانين . . . وعلى قبره الشريف مقصورة من نحاس أصفر وكواكب الفضة المطلية بالذهب الأحمر . ولم نر في بلاد الشام ضريحاً يشبه أضرحة آل البيت بمصر إلا هذا الضريح الأنور والمزار الأزهر»^(٢) .

وقد كان كثير من متصوفة العصر يعكفون على دراسة كتب «ابن عربي» وغيره من كتب غلاة المتصوفة . يقول الشيخ «عبد الرزاق البيطار» عند

(١) يعنون بالحقيقة وحدة الوجود .

(٢) نفحة البشام ص ١٣٣ ، وللاعتناء بضريحه سبب لا يخفى له علاقة بغلوه الصوفي .

ترجمة الشيخ «الطيب بن محمد المبارك الجزائري المالكي» : «فكنا نحضر وإياه مع من حضر كتاب «الفتوحات المكية» ، وغيرها من كتب السادة الصوفية . . . وفي سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين ، أرسله حضرة الأمير «عبد القادر الجزائري» مع حضرة شيخنا «الطنطاوي» إلى مدينة «قونية» لمقابلة الفتوحات المكية على خط مؤلفها العارف بالله الشيخ «محيي الدين العربي» ، وقرأها مع الشيخ المذكور هناك مرتين مقابلة ، وبعد مجيئهما قرأناها جميعاً على الأمير المرقوم ، مع التزامنا لإصلاح نسختنا على النسخة المقابلة على خط المؤلف»^(١) .

وإذا كان هذا هو حال العلماء ، حيث يعكفون على مثل تلك الكتب المنحرفة ، يسافرون بأمر أكابرهم من أجل مقابلة نسخها ، ويجتمعون على دراستها ، فليت شعري كيف كان حال العامة الذين رزئوا بأمثال هؤلاء العلماء؟!

فالأمير «عبد القادر» الذي استسلم للفرنسيين ، وتعاهد معهم على ألا يقاتلهم ، وأقام في دمشق ، حيث «لازم بيته معتكفاً على مطالعة الفتوحات للشيخ الأكبر والمحاورة في مسائلها مع جلة علماء الشام»^(٢) . وقد رأينا كيف كان يرسل العلماء على حسابه ، ليقابلوا كتاب الفتوحات على خط مؤلفه الهالك .

وكان المشير «أمين باشا التركي» والي «دمشق» «مولعاً بكتب الشيخ «محيي الدين بن عربي» . . . ولما توفي سنة ١٢٦٧ هـ دفن في مقام

(١) حلية البشر ٧٥٧/٢ .

(٢) الرحلة الحجازية ٢٠٠/٣ .

الشيخ «محيي الدين بن عربي»^(١) .

وهذا «أحمد السهسواني الهندي» (المتوفى سنة ١٢٥٩هـ) : «كان من القائلين بوحدة الوجود له مصنفات منها : «البيان المرصوص في شرح الفصوص لابن عربي»^(٢) .

وكان تدرّس كتابي «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» لـ«ابن عربي» وغيرهما من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم ، وهو المنزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم ، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء . كما رأينا ذلك بوضوح عند الأمير «عبد القادر الجزائري» ، وجمهور علماء «الشام» ، ولم يكن الأمر مقتصرًا على «الشام» ، بل كان ذلك الانحراف واقعًا في غالب الأقطار .

فهذا الشيخ «حسن بن إبراهيم اللكهنوي» (المتوفى سنة ١٢٤١هـ) : «كان شيخًا جليلاً وقوراً عظيم المنزلة عند الأمراء يدرس «الفصوص» و«الفتوحات»^(٣) .

وهذا الشيخ «علي أكبر الفيض آبادي» (المتوفى سنة ١٢١٠هـ) كان يعكف على مطالعة كتب الشيخ «محيي الدين بن عربي» . كما يقول من ترجمه^(٤) .

(١) تاريخ معرة النعمان ٢/ ٢٣٠ .

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٣/ ٧ .

(٣) المصدر السابق ٧/ ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق ٧/ ٣٢٨ .

وهذا «ابن عجيبة الحسني المغربي» (المتوفى سنة ١٢٢٤هـ)^(١) ينقل قول
«الحلاج» الذي يصرح فيه بالحلول :

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الأكل الشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

ثم يعلق على ذلك الكفر بكفر آخر : «ويأظهار هذا وأمثاله قتل
رضي الله عنه ، فمن لطف الله تعالى ورحمته ، أن ستر ذلك السر بظهور
نقائضه ، صوناً لذلك السر أن يظهر لغير أهله ، ومن أفشاه لغير أهله قتل
كما فعل بـ«الحلاج»»^(٢) .

ويقول في موضع آخر : «... وإلا فقد علمت ما وقع «للحلاج» وهو
ولي الله حقاً...»^(٣) .

وقد كان ابن عجيبة ممن يقول بوحدة الوجود كما ذكر ذلك في كتابه
«إيقاظ الهمم في شرح الحكم»^(٤) .

وكثيراً ما يرد في ثنايا التراجم بعض العبارات الدالة على إيمان المتصوفة
في ذلك العهد بتلك العقائد المنحرفة ، كما يذكر «ابن أبي الضياف» عن
المجذوب «عبد الواحد» أنه كان على درجة من الزهد واحتقار الدنيا ، لا يرى
في الوجود غير الواحد الموجود^(٥) .

(١) الأعلام ١/ ٢٤٥ .

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ٦٩-٧١ ، ص ١٦١-١٦٤ ، ص ١٩٦-٢٠٠ .

(٥) إتخاف أهل الزمان ٦/ ١٥٩ .

وهذا الشيخ « الدردير » (المتوفى سنة ١٢٠١هـ)^(١) من أشهر علماء المالكية في مصر ، ومن كبار شيوخ الأزهر ، يقول في صلواته المبتدعة :
«... وزج بي في بحار الأحذية! وانشلني من أوحال التوحيد! وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها...»^(٢).

وإن يكن كثير من المتصوفة في ذلك العهد لم يستطيعوا أن يصرحوا بهذه العقائد الكفرية ، واكتفوا بدسها والإشارة إليها في خضم الأذكار والأوراد والشروح والحواشي ، إلا إن بعضاً منهم كانوا يجاهرون بها دون مواراة ، كما صنع الشيخ «سعيد الخالدي الدمشقي» حيث «استخف بالعلماء وجحد فضيلة الفضلاء ، وأنكر العلم والعمل وعن كثير من التكاليف اعتزل ، وقال : هذه واجبة على المحجوبين لا على المحبوبين... ومن دخل في الطريق ، وترقى في المقامات ، صارت ذاته عين الذات وصفاته عين الصفات...»^(٣) . وقد تبعه على مقالته جماعة من المتصوفة .

ويذكر الشيخ «عبد الرزاق البيطار» أنه خرج معه إلى الصحراء ، فرأى امرأة قروية قد لبست لباساً أحمر فقال لها : يا حبيبي عملت نفسك امرأة ،
ولبست اللباس الأحمر!!

ومرة رأى هراً فصرخ وقال له : عملت نفسك هراً ، وتظن أنني ما عرفتك!
وكان يقول عن إبليس إنسان كامل^(٤) .

(١) الأعلام ١٩١/٢ .

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ١٩٣ .

(٣) حلية البشر ٦٧٢/٢ .

(٤) المصدر السابق ٦٧٢/٢ .

ويقول الشيخ «حسن رضوان» الذي تفقه بالأزهر (المتوفى سنة ١٣١٠هـ)^(١) ، من منظومته الصوفية «روض القلوب المستطاب» :

وحسبك من ذلك المقصود إشراق نور وحدة الوجود
وكل ما سنواه نجم آفل بل في شهود العارفين باطل
فليس إلا الله والمظاهر لجملة الأسماء وهو الظاهر^(٢)

ويقول الشيخ «علي بن أحمد الشرطي الشاذلي» (المتوفى سنة ١٣١٦هـ)^(٣) : «ما زال العبد يذكر الله حتى يستولي عليه الاسم ، ومتى استولى عليه الاسم ، انطوت العبدية بالريية وظهرت عليه صفات الرب ، ولذة الرب تغيب العبد عن وجوده حساً ومعنى . . . ومن يرحم الفقير ربي يحسن إليه ، وهذه وحدة الوجود لا يحصل عليها أي انسان ، فهي للأصفياء والأنبياء . . .»^(٤) .

أما إيمان أئمة التجانية وشيوخها بهذه العقيدة فهو من أهم سمات هذه الطريقة^(٥) . تعالى الله عما يقول الزنادقة والملحدون علواً كبيراً .

ومن العقائد التي آمن بها بعض متصوفة ذلك العصر عقيدة تناسخ الأرواح^(٦) .

(١) الأعلام ٢/ ١٩١ .

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢١١ .

(٣) الأعلام ٤/ ٢٦٠ .

(٤) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢١٩ .

(٥) انظر : التجانية ص ٨٣ - ٩٤ .

(٦) والمراد بتناسخ الأرواح أنه إذا مات الإنسان يفنى منه الجسد ، وتنطلق منه الروح لتتقمص وتحل في جسد آخر بحسب ما قدم من عمل في حياته الأولى ، وتبدأ الروح في ذلك دورة =

ومن ذلك ما يذكره «أحمد بن الحاج» كاتب الشونة ضمن كرامات الحاج «محمود الولي الصالح» : «أنه سمع ممن سمع من الشيخ «خوجلي» أن الحاج «محمود» روح الشيخ «حسن ولد حسونة» رضي الله عنه ، وهذا مما ينكره أهل الظاهر ، ويسمونه بتناسخ الأرواح»^(١) .

ومن العقائد الخطيرة التي آمن بها كثير من المتصوفة في تلك الفترة المظلمة ما يسمى بسقوط التكاليف الدينية عن مدعي الولاية .

فالشيخ «سعيد الخالدي الدمشقي» الذي ذكرناه قبل قليل ، وتبعه جماعة ، ادعى سقوط التكاليف عنه «وأنكر العلم والعمل ، وعن كثير من التكاليف اعتزل ، وقال هذه واجبة على المحجوبين لا على المحبوبين . . . وصار لا يقول بواجب ولا مسنون ، ويقول إن التمسك بذلك محض جنون ، ومن دخل في الطريق ، وترقى في المقامات ، صارت ذاته عين الذات ، وصفاته عين الصفات ، وهل يجب على الله صلاة أو صيام بحال؟! وهل يقال في حقه عن شيء حرام أو حلال؟!

وقد وافقه على ذلك عدة أشخاص قد خرجوا من الدين ولات حين مناص ، فتجاهروا بالآثام ، ولم يتقيدوا بحلال أو حرام . . . وتبعهم على ذلك جملة قوية ، حتى صاروا فرقة ذات متانة وحمية»^(٢) .

والارتباط بين عقيدة وحدة الوجود وبين عقيدة رفع التكاليف وسقوطها ، واضح للعيان ، كما استدل به ذلك الزنديق المارق ؛ إذ إن

= جديدة . انظر : الملل والنحل ص ٢٥٤ للشهرستاني . دار الفكر ، بيروت . والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص ١٨٣ د . علي عبد الواحد وافي . دار نهضة مصر . القاهرة .

(١) تاريخ السلطنة السنارية ص ٣٢ .

(٢) حلية البشر ٢/ ٦٧٢ .

العقيدة الثانية لازمة للعقيدة الأولى وفرع عنها .

ولعل أتباع الطريقة الملامتية^(١) من أولئك الذين استخفوا بالتكاليف واستباحوا المحرمات ، كما ذكرنا ذلك عن الحاج «محمود» في السودان .

ومن هؤلاء الذين رفعت عنهم التكاليف على حد زعمهم الشيخ «محيي الدين بن محمد الشافعي العاني» : «فعلا قدره ، وانتشر بين الناس ذكره إلى أن صار إذا عمل أكبر الكبائر ، يقول الناس هذه لا تعد من الصغائر ؛ لأن الشيخ له أحوال لا نعرف ما يقصد عند بعض الأفعال ، فهو من أهل الكشف والشهود ، ونحن من أهل الحجاب المسدول والممدود!! فحينئذ أطلق أقواله وأظهر أفعاله ، وأتى بما لا يصدر مثله عن أهل الشقا ، فضلاً عن ذوي الطاعة والتقى»^(٢) .

ومع أن الطريقة الملامتية لم تكن واسعة الانتشار «لكنها استمرت تظهر في سلوك كثير من الأولياء في كل الطرق ، يتظاهرون بالتهتك وإتيان البهائم وشرب الخمر وتناول الحشيش والسرقة وغير ذلك ، ليستروا على الناس ولايتهم وصدقيتهم»^(٣) .

ومما يدل على ذلك ، أن صاحب «حلية البشر» حين ذكر ترجمة الشيخ «يوسف أبو خرج الدمشقي المجذوب» قال عنه : «ومع جذبه كانت أحواله لا تنكر عليه ، بل تجد أموره مائلة إلى ظاهر الشرع مستندة إليه»^(٤) ؛ حيث إن

(١) وهم كما ذكرنا من قبل قوم يفعلون القبيح لأجل أن يلومهم الناس ، وكل ذلك سترًا لولايتهم!!

(٢) حلية البشر ١٤٨٦/٣ .

(٣) الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٣٥٥ .

(٤) حلية البشر ١٥٩٤/٣ .

أغلب الأولياء من المجاذيب وغيرهم كانت أحوالهم في كثير من الأحيان مخالفة للشرع ، لأنهم رفعت عنهم التكاليف كما يدعون ، وما دام الولي في حال الجذب ، فالتكاليف ساقطة عنه .

فهذا الشيخ «عبد الله بن محمد بن عيسى الدمشقي الصالحي الشهير بالكناني» شيخ الطريقة الخلوتية ، «كان يغلب عليه في بعض الأيام ، غيبة وجذبة واصطلام^(١) ، فكان في تلك الحالة يتكلم بما هب ودرج ، وليس عليه في كلامه حينئذ ملام ولا حرج!!»^(٢) .

وقد كان للشيخ «علي بن أحمد المغربي الشرطي الشاذلي» جماعة «قد خرجوا في الظاهر عن دائرة الأدب ، وتكلموا بما هو لكل ملام سبب ، وتركوا في الظاهر كل مأمور ، وارتكبوا أقبح الأمور ، وقد نفت الدولة العثمانية بعضهم ، ثم أطلقتهم فرجعوا إلى الشام ، ولم يزل بعض أهل هذه الطريقة (يعني طريقة الشيخ المذكور) يفتخرون بمخالفة الشريعة الغراء ، وبترك كل مأمور به ، فلاطوا بالأبناء ، وزنوا بالأمهات ، وأكلوا الحرام ، وانهمكوا في المنكرات ، واعتقدوا بأنهم صوفية الزمان ، وأن من سواهم قد ألبس نفسه ثياب الحرمان ، ويفسرون كلام الله ورسوله بكل تفسير فاسد ، فيقولون بأن هذا التفسير قد ألقاه إليه بالوارد .

فما أعظمها مفسدة في الدين ، وما أجسمها فتنة على المسلمين ، فيا عباد الله من يقول بأن المنهي عنه طريق الوصول؟! وأما المأمور به فهو

(١) الاصطلام كما في «مختار الصحاح» : الاستئصال . ص ١٥٤ .

(٢) حلية البشر ١٠٠٧/٢ .

حجاب ، ولا يتمسك به إلا المحجوبون عن طريق الصواب . . . »^(١) .

وهذا الشيخ «أحمد زيني دحلان» «كان يكره التنبك ، ويزجر من يشربه بانهماك ، وكسر مرة جميع الشيش التي في بيته ، وأمر بذلك خواص تلامذته وطلبته ، إلا أنه لما كثر عليه توارد الواردات ، وحصول الأنوار والمكاشفات ، صار يستعملها تستراً وحفظاً للبشرية !! كما كان شيخه الشيخ «عثمان» ذو المقامات العلية»^(٢) .

هذه العقائد المنحرفة لقيت لها رواجاً واسعاً بين المتصوفة في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية (وما زالت) ، ففي حين كان الكيد الاستعماري على أشده ، وأعداء الإسلام يحشدون كل إمكاناتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين - كان الكثير من المتصوفة يؤمنون بهذه العقائد المنحرفة ، كعقيدة وحدة الوجود ، التي يمكن للحياة في ظلها أن تفسد ، ويحقيق الدمار بالعالم ، وتبطل الأديان بالكلية ، فلا يبقى معها دين ولا جهاد ، ولا عداً بين مسلم وكافر ، فالكل واحد ، والوجود واحد ، وإن تعددت المظاهر . نسأل الله عز وجل السلامة في الدين .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، استخفاف كثير منهم بالشرائع ، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها ، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه ، تحت مسمى الولاية والجذب والشهود .

كل ذلك مع ما أفضناه من حديث حول الصوفية بتواكلها وسلبيتها ورضوخها للواقع ، وغلوها ، وخرافات وطقوسها ، كان مجالاً مفتوحاً

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٥٧ ، الأعلام ٤/ ٢٦١ .

(٢) نفحة الرحمن ص ٤٢ . والشيخ «عثمان» المذكور هو الدمياطي المصري نزيل مكة المتوفى بعد سنة ١٣٠٢ هـ . الأعلام ٤/ ٢١٤ .

لدخول الحركات التغريبية ، وانتشار العلمانية التي اتخذت واقع الصوفية حجة لإقصاء الدين عن مجالات الدولة والحياة، وكان لها بالفعل ما أرادت في كثير من البلاد الإسلامية .



الفصل الثامن

ازدياد نشاط الفرق المنحرفة

ونقصد بهذه الفرق المقابلة لأهل السنة بالمصطلح العام^(١) كالشيعة الاثنى عشرية والدروز والنصيرية والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق المنتسبة للإسلام .

والفرق الأربع الأولى : كانت موجودة من قديم ، أما القاديانية والبهائية فلم تظهر إلا في الفترة التي نعى بدراستها .

وقد سبق أن أوردنا الحديث عن خطورة تلك الفرق القديمة ، وأنها كانت وما زالت شوكة مسمومة تخز ظهر الأمة الإسلامية ، وتتمالاً مع أعدائها عليها .

وفي تلك الفترة ازداد خطر تلك الفرق الخارجة عن الإسلام واستفحل أمرها ، خصوصاً مع مجئ الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية ، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين تحت قيادتهم .

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين ، وهام أولاء يسيرون على نفس الطريقة الملوثة بالخيانة والتآمر لحساب المستعمرين .

(١) أما بالمصطلح الخاص فالمقصود هم أهل السنة والجماعة فتخرج بذلك جميع الفرق الكلامية كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية وغيرها .

يقول القاضي «حسين بن أحمد العرشي»^(١) متحدثاً عن الباطنية الذين تسببوا في إثارة القلاقل واندلاع الثورات في بلاد اليمن على طول التاريخ وتفاقم شرهم في القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر: «اعلم أن الباطنية - أخزاهم الله تعالى - أضرت على الإسلام من عبدة الأوثان وسموا بها لأنهم يبطنون الكفر ، ويتظاهرون بالإسلام ، ويختفون حتى تمكنهم الوثبة ، وإظهار الكفر وهم ملاحدة بالإجماع ، ويسمون (بالإسماعيلية) لأنهم ينسبون أئمتهم المستورين فيما يزعمون إلى «إسماعيل بن جعفر الصادق» ، و(بالعبودية) لدعائهم إلى «عبيد الله بن ميمون القداح» الذي نسبته الباطنية إلى ما يزعمون من الأئمة المستورين ، والعبديون من أولاد «عبيد الله» ولاة مصر ذلك الزمن .

والآن يسمون (شيعة) لكونهم مظهرين أن أئمتهم من أولاد الرسول ، حين عرفوا أنه لا يستقيم لهم إمالة الحق ، والدخول إلى دهليز الكفر إلا بإظهار المحبة والتشيع .

ولهم قضايا شنيعة ، وأعمال فظيعة ، كإلباحية وغيرها . وقد تابعهم على ذلك من ذهب عنه النور الإيماني ، واستولى على قلبه الهوى الشيطاني ، وهم مع ذلك ينكرون القرآن ، والنبوة والجنة والنار . ولولا أن حياتهم معلومة عندهم ، مرتبة بينهم لأنكروها .

وعلى الجملة فدينهم النجوم ، وظواهرهم التخوم ، ولا يكاد يظهر مذهبهم لأتباعهم إلا لمن رسخ دينهم في قلبه ، وتراهم إذا وجدوا لأنفسهم قوة أظهروا أمرهم وأعلنوا كفرهم ، فإن غلبوا ولم تساعدهم الأيام ، كمنوا

(١) الأعلام ٢/ ٢٣٣ .

كما تكمن الحية في جحرها، وهم مع ذلك يؤملون الهجوم والوثبة، وأن ينهشوا عباد الله . . . ولا ينبغي لذي معرفة وقوة، أن يعرف منهم أحداً يقتدر عليه فيتركه وشأنه، فإنهم أهلكهم الله تعالى شياطين الأرض»^(١).

وقد حاول هؤلاء الباطنية أن يسيطروا سيطرتهم على بلاد اليمن وأن يعيدوا ملك أجدادهم الصليحيين^(٢)، واستطاعوا أن يسيطروا على بعض الجهات وأن يحكموها، وكم قامت بينهم وبين أئمة اليمن الزيدية من معارك طاحنة تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة في المال والأرواح، وكم نكب المسلمون من اعتداءاتهم هناك.

ويذكر «العرشي» حادثة كبيرة أسماها حادثة المكرمي «وهو داعي الباطنية من بني مكرم وأتباعه من بعض همدان الذين بقرب «صنعاء» ورجال (يام) وأنه ملك (حراز) أيام «المنصور الحسين ابن القاسم بن الحسين»، وما قدر أحد على نزع ما زالوا يتوارثونها حتى استفحل أمرهم ولمعت الدعوة إلى «الحسين بن إسماعيل شيام المكرمي»، فاستولى على الحيمة وعمر الحصون فيها، وجهز الإمام المتوكل على الله لقتاله الجيوش من أرحب، ومقدمهم الإمام المنصور بالله «محمد بن يحيى» أيام سيادته، فكانت بينهم هناك ملحمة بقرية تسمى (الزيلة) قتل فيها من الباطنية، ثم من رجال يام نيف ومائة، وانخدعت رجال أرحب بعد ذلك، فما زال الداعي مالكا لها،

(١) بلوغ المرام شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ص ٢١ القاضي «حسين ابن أحمد العرشي» مطبعة البرتيري. القاهرة ١٩٣٩ م.

(٢) انظر : دراسات عن الفرق ص ٢٩٤ للدكتور أحمد محمد جلي حول حكم الصليحيين في اليمن.

ولحراز وجبل عانز ، ويتناول إلى غيرهن حتى قتله وقتل «أحمد بن الحسن» وأخرب حصونه واستولى على مملكته «أحمد مختار»^(١) .

وقد استمرت إمارة هذا الباطني نحو ثلاثين عاماً إلى أن هزم^(٢) .

وحين كانت اليمن إحدى الولايات التابعة للدولة العثمانية كان هؤلاء الباطنية من المقاومين لسلطانها ومن المتأمرين ضدها، ولكن الدولة تمكنت من إخضاد شوكتهم والقضاء على دولتهم بفضل الله تعالى أولاً ثم بفضل القائد التركي «أحمد مختار» الذي توجه عام ١٢٨٩ هـ إلى ديارهم وتمكن من فتح حصونهم المنيعه وإنزال الهزيمة الشديدة بهم .

ويسجل «العرشي» هذا الانتصار فيقول «وقتل المكرمي وابنه . . . وأخذت مملكته ، وكانت لا تحد ولا تعد . . . وانجلت دولة الباطنيين منها إلى هذا اليوم . فكنت أسمع من بعض العقلاء أن هذه الكائنة من مناقب السلطان وولاته . وقد أعيا الباطنية ملوك اليمن وأئمتهم ، مع الإجماع على كفرهم وإلحادهم»^(٣) .

وفي سنة ١٢٦٩ هـ هاجم الباطنية مدينة «زبيد» وقتلوا خلقاً من العلماء منهم العلامة «محمد بن علي العمراني الصنعاني» أحد تلامذة الإمام «الشوكاني» المشهورين ، حيث هاجموا داره وقتلوه وكان رحمه الله كثير

(١) بلوغ المرام شرح مسك الختام ص ٧٦ . أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة ص ٦ محمد ابن محمد بن زبارة . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٧٦ هـ . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ١٠٠ ، ولزبد من أخبارهم انظر : ص ٢٥١ ، ص ٢٥٣ في تاريخ اليمن .

(٢) الأعلام ١٨٥ / ٢ .

(٣) بلوغ المرام شرح مسك الختام ص ٧٧ .

الاشتغال بعلم الحديث ورجاله إلى أن صار من أعظم أهل هذا الشأن وهذا مما يبغض الباطنية لعنهم الله فيه^(١) .

وحين احتل الفرنسيون سوريا . وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الإسماعيلية في سلمية وغيرها يقاتلون جنباً إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد «إبراهيم هنانو» ومن معه من المجاهدين^(٢) .

وفي إيران قام رجل من الإسماعيلية يدعى «حسن علي شاه» (١٢١٩ - ١٢٩٨هـ) وجمع حوله عدداً من بني طائفته وغيرهم وقام بأعمال هدد بها الأمن وأقلق بها السلطات في إيران حتى ذاع صيته وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وانضمت إليه جماعات كثيرة إعجاباً به أو طمعاً في مكاسب مالية تأتيهم عن طريقه .

وقد قام الإنجليز بالاتصال به وعضدوه ومنوه حكم فارس . وفعلاً قام «حسن علي شاه» بثورة عام ١٨٤٠م كانت نهايتها الفشل والقبض على قائدها ، ولكن الإنجليز تدخلوا وحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن يجلو عن إيران كلها وزين له الإنجليز الذهاب إلى أفغانستان ليكون صنيعة لهم هناك ، ولكن الأفغانيين كشفوا عن هويته واضطروه إلى الرحيل إلى الهند ، واتخذ من مدينة بومباي مقراً له ، و أراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، ومن ثم اعترفوا به إماماً للطائفة الإسماعيلية النزارية^(٣) وخلعوا عليه لقب أغاخان ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية ، فالتف حوله الإسماعيلية في الهند^(٤) .

(١) حلية البشر ٣/١٣١٧ من الهامش .

(٢) الأعلام ٤٢/١ .

(٣) نسبة إلى نزار بن المستنصر أحد حكام العبيديين . انظر الأعلام ١٦/٨ .

(٤) دراسة عن الفرق ص ٢٣٩ نزهة الخواطر ٧/١٣٩ .

وقد بدأ الإسماعيليون وخاصة إمامهم التعاون الفعلي مع الاستعمار الإنجليزي في الهند فقد كان إمام الإسماعيلية (آغا خان الأول) رجل السلام والمحبة بين الإنجليز وأتباعه ، لذلك فقد منحته بريطانيا لقب (صاحب السمو) ، وفتحت أبواب المستعمرات الإنجليزية التي يدين أهلها بالإسلام له ولأتباعه ، فأرسل الإسماعيليون دعائهم إلى أقطار أفريقيا وآسيا مثل : بورما وسيلان وكينيا وزنجبار وأوغندا ليشاركوا الناس بدينهم وعقيدتهم .

وقد توطدت العلاقة أكثر بين الإسماعيليين والإنجليز في عهد آغاخان الثالث ، حين صار هذا وسيطاً بين الحلفاء وألمانيا ، مما جعل بريطانيا تأمر بإطلاق أحد عشر مدفعاً تحية لآغاخان عند مقدمه للحفلات الرسمية ، وكان آغاخان معروفاً بالترف الزائد فقد تزوج أربع مرات باحتفالات أسطورية ، منها زواجه من الأميرة الإيطالية (ثريا ماجليانو) سنة ١٩٠٨م التي أنجبت له ولي عهده علي خان وعندما احتفل بيوبيله الذهبي عام ١٩٣٦م ، قدم له أتباعه هدية وذلك بأن وزنوه ذهباً؟! وكان هذا الإمام الأمير يعد من أغنى أغنياء العالم ، إذ قدر إيراده بعشرة ملايين دولار ، وقدرت مجموعة الجواهر التي يملكها بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار^(١) .

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٧٩ د. محمد أحمد الخطيب . الطبعة الثانية . ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م . دار عالم الكتب للنشر والتوزيع . الرياض . وقد نشرت مجلة «اللطائف المصورة» المصرية في عددها ١٠٩٨ بتاريخ الاثنين ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦م ص ٢٥ صورة للزعيم المذكور وكتبت تحتها ما يلي : صورة عجيبة التقطت للزعيم الهندي الطائل الثراء المعروف آغا خان في أثناء احتفاله بيوبيله الذهبي في مدينة بمباي ببلاد الهند يوم ١٩ يناير الماضي وتراه جالساً على كفة ميزان كبير وقد وضعوا على الكفة الأخرى ما يعادل ثقله سبائك من الذهب بلغت قيمتها ١٢٥ ، ٢٥ جنيهاً وهبها لأعمال البر والخير بمناسبة بوبيله المذكور !!!

وأما المدعو «حسن علي بن خليل الله الإسماعيلي القرمطي»، فقد قام بثورة عارمة عام ١٢٥٧هـ ونصر الإنجليز في قتالهم مع الأفغان وأهل السند غير مرة ، وادعى الإمامة فتبعه خلق كثير من الملاحدة ، وكان من الحشاشين^(١) ، ولقبه الإنكليز بسمو الأمير^(٢) .

وقد استطاع رؤساء الإسماعيلية أن يقدموا لأبناء طائفتهم خدمات عظيمة كفتح المدارس وإدخالهم في سلك الوظائف الهامة ، حيث كان ثروتهم الخيالية أكبر دور في ذلك . وقد بلغ دخل أحدهم في السنة الواحدة ثمانية ملايين من الجنيهات الاسترلينية^(٣) .

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن وللثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامي ، وعونا للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم .

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ «يوسف باشا» والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاثلهم حيث «انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم ، وكان قد خيرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية ، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد . . .»^(٤) .

(١) من أسماء الإسماعيلية وعلى الأخص أتباع الحسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨هـ .

انظر : الأعلام ١٩٣/٢ ودراسة عن الفرق ص ٣٠٠ .

(٢) نزهة الخواطر وبهجة السامع والنواظر ١٣٩/٧ .

(٣) دراسة عن الفرق ص ٢٣٥ .

(٤) حلية البشر ١٦٠٠/٣ .

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها .

وقد حاول السلطان «عبد الحميد» أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام وأرسل رجلاً من خاصته اسمه «ضيا باشا» جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس ، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون ، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً ، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنت^(١) .

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم . وكم قد خدعت تلك العقيدة الخطيرة «التقية» المسلمين حكاماً ومحكومين علماء ومتعلمين ، فأين علماء السنة الذين لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين !!

«وتاريخ النصيرين ، منذ أن وجدوا في هذه المنطقة (سوريا) تاريخ أسود مشبوه إذ إنهم لم يخرجوا على العقائد الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب ، بل إنهم كانوا دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية ، يتآمرون ضدها في الخفاء ، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً . والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام .

وفي التاريخ القريب حينما احتل الفرنسيون سوريا عام ١٩٢٠م تقرب إليهم النصيريون وتعاونوا معهم وكوفئوا على ذلك بأن جعل الفرنسيون لهم دولة سموها «دولة العلويين»^(٢) .

(١) خطط الشام ١/ ٢٦٠ ، ٣/ ١٠٥ . محمد كرد علي ، دار العلم للملايين - بيروت . ط ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

(٢) دراسات عن الفرق ص ٢٥٨ .

وقد اجتمع الكابتن الفرنسي (بلونديل) رئيس مصلحة الاستخبارات في «اللاذقية» بزعماء العلويين ، فأوضح لهم الفوائد التي يجنونها من انفصال المنطقة عن سوريا وإعلان استقلالها ، وبالفعل فقد أعلنت هذه الدولة برئاسة «سلمان مرشد» الذي ادعى الألوهية بايعاز من الفرنسيين ، فكان يلبس ثياباً فيها أزرار كهربائية ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار ، فإذا وصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين ، ومعهم المستشار الفرنسي الذي كان يسجد مع الساجدين ويخاطب «سلمان» بقوله يا إلهي ، وقد غذى الفرنسيون هذه الحركة وراحوا يستغلونها على أوسع مدى لإثارة القلاقل والفتن^(١) . ونود أن نورد نبذة موجزة عن ذلك الزنديق .

ففي العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجري ادعى «سلمان المرشد» أحد النصيرية الألوهية «وقد بدأت سيرته (أي سلمان المرشد) سنة ١٩٢٠م ، وسجن سنة ١٩٢٣م ، ونفي إلى «الرقعة» ، حتى سنة ١٩٢٥م وعاد من منفاه ، فترغم أبناء نحلته «النصيرية» . . . وكانت الثورة في سورية ، أيام عودته ، قائمة على الفرنسيين وانتهت بتأليف حكومة وطنية لها شيء من الاستقلال الداخلي ، فاستماله الفرنسيون واستخدموه وجعلوا لبلاد «العلويين» نظاماً خاصاً فقيوت شوكته وتلقب برئيس «الشعب العلوي الحيدري الغساني» وعين (سنة ١٩٣٨) قضاة وفدائيين ، وفرض الضرائب على القرى التابعة له ، وأصدر قراراً جاء فيه «نظراً للتعديات من الحكومة الوطنية والشعب السني على أفراد شعبي فقد شكلت لدفع هذا الاعتداء جيشاً يقوم به الفدائيون والقواد . . . إلخ»

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٣٣٤ .

وجعل لمن سماهم الفدائيين ألبسة عسكرية خاصة . وكان في خلال ذلك يزور دمشق ، نائباً عن «العلويين» في المجلس النيابي السوري . فلما تحررت سورية وجلا الفرنسيون عنها ، ترك له هؤلاء من سلاحهم ما أغراه بالعصيان ، فجردت حكومة سورية قوة فتكت ببعض أتباعه ، واعتقلته مع آخرين ثم قتلته في دمشق»^(١) .

ويورد الدكتور الخطيب وثيقة هامة كشفت حديثاً وهي من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وتحمل رقم ٣٥٤٧ وتاريخها ١٥/٦/١٩٣٦ / نقلاً عن الدكتور «مجاهد الأسد» في كتابه «العلويون أو النصيرية» ، وتتضمن هذه الوثيقة عريضة رفعها زعماء الطائفة النصيرية في سوريا إلى رئيس وزراء فرنسا ، يلتمسون فيها عدم جلاء فرنسا عن سورية ، ويشيدون باليهود الذين جاءوا إلى فلسطين ، ويؤلبون فرنسا ضد المسلمين ، ووقع الوثيقة : سليمان الأسد ، ومحمد سليمان الأحمد ، ومحمود أغا حديد ، وعزيز أغا هواش ، وسليمان مرشد ، ومحمد بك جنيد . وفيما يلي نص هذه الوثيقة نوره لأهميته :

« دولة ليون بلوم ، رئيس الحكومة الفرنسية :

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة في النفوس ، هو شعب يختلف في معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم (السنّي) ، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل (وهذا من تفریط المسلمين وتهاونهم) .

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين

(١) الأعلام ١١٢/٣ .

ظهر انهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين ، وإن هؤلاء اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام ، ونثروا على أرض فلسطين الذهب والرخاء ، ولم يوقعوا الأذى بأحد ، ولم يأخذوا شيئاً بالقوة ، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة بالرغم من وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله ، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن الهدف الشريف ، خاضعة لروح الإقطاعية الدينية للمسلمين . وكسر الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه «المذكرة» نستصرخ حكومة فرنسا ضماناً لحرية واستقلاله ، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله ، وهو واثق أنه لا بد واجد لديهم سنداً قوياً لشعب علوي صديق ، قدم لفرنسا خدمات عظيمة»^(١) .

وقد ساهم الزعيم النصيري الشيخ «صالح العلي» في إسقاط الدولة العثمانية ، عندما قام بقطع الطريق التي تصل طرطوس بحماة ، فكانت خسائر الأتراك كبيرة ، نتيجة قطع الطريق عليهم ، وقام بعقد اتفاقية مع كمال أتاتورك عام ١٩٢٠م وبعد ثورة مشبوهة ضد الفرنسيين استسلم صالح العلي ، فعفا عنه الفرنسيون ، على عكس ما كانوا يفعلونه مع المجاهدين المسلمين^(٢) . هذه بعض الصحائف السوداء للطائفة النصيرية .

ولا تقل عنهم خبثاً طائفة الدروز ، تلك الطائفة الخطيرة التي تسببت بثوراتها المتلاحقة في زعزعة الأمن ، وإرباك الدولة العثمانية

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٣٣٥ .

(٢) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي . الجزء الأول مؤامرات الدويلات الطائفية ص ٢٦٣ محمد عبد الغني النواوي ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

واستنفاد كثير من الطاقات البشرية والمادية في سبيل القضاء عليها .

ولما سير «محمد على باشا» جيشاً لاحتلال بلاد الشام بقيادة ابنه «إبراهيم باشا» بعد أن شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية عام ١٢٤٧هـ كان الدروز من الموالين له والمناوئين للدولة .

وكان الأمير «بشير الشهابي» (المتوفى سنة ١٢٦٦هـ) أمير الدروز ، وجنوده يقاتلون جنباً إلى جنب مع جيش محمد علي وقد « غدت مهمة إبراهيم باشا ابن محمد علي ، قائد الحملة المصرية ، بفضل تعاون الأمير بشير معه ، مهمة سهلة نسبياً ، فتمكن إبراهيم باشا من الاستيلاء على دمشق ، وهزم الجيش التركي (العثماني) في حمص ، وعبر جبال طورس ، وأوغل في قلب بلاد الترك ، وكاد ينزل الضربة القاضية برجل أوروبا المريض ^(١) لكن بريطانيا والنمسا وروسيا اضطرتة إلى الانسحاب ^(٢) .

وحين عادت الشام إلى سيادة الدولة العثمانية أراد العثمانيون محاسبة الأمير بشير ، ولكن الإنجليز أرسلوا له سفينة نقلته إلى مالطة ^(٣) .

وقد حرص الدروز على استغلال كل فرصة مناسبة من أجل إقامة دولة درزية ، ولأجل ذلك هاجروا إلى جبل حوران الذي سمي بعد ذلك بجبل الدروز بعد أن تمكنوا من طرد أهله المسلمين واستقبلوا به استقلالاً تاماً .

ولم يكف الدروز في هذه المرحلة عن مناوشة المسلمين والنصارى من أهل القرى والبادية وقتالهم ، وقد قاموا في غضون ذلك بمذابح مروعة ،

(١) لقب أطلقه قيصر روسيا نقولا الأول على الدولة العثمانية سنة ١٨٥٣م . سيأتي بإذن الله مزيد من التوضيح له عند حديثنا عن الآثار الخارجية .

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٣٤١/٢ د . فيليب حتي . ترجمة د . كمال اليازجي . دار الثقافة . بيروت ١٩٥٩م ، وانظر ترجمة الأمير بشير في الأعلام ٥٧/٢ .

(٣) المصدر السابق ٣٤٢/٢ .

كالتى وقعت عام ١٢٩٨هـ حين هجموا على قرى الكرك وأم ولد وذبحوا سكانهما عن بكرة أبيهم ولم يبقوا حتى على الأطفال الرضع وقد حاولت الدولة العثمانية تأديبهم أكثر من مرة لكنها فشلت وتراجعت أمام ضغوط الإنكليز^(١).

وحين احتل الفرنسيون مصر عام ١٢١٣هـ بقيادة نابليون الذى توجه بعد إخضاعها إلى بلاد الشام وبينما كان محاصراً «لعكا» بعث الرسالة الآتية :
«مخيم عكا ٢٠ آذار ١٧٩٨م إلى الأمير «بشير» :

بعد السيطرة على مصر دخلت صحراء «سيناء» في سوريا ، فاتيت إلى قلعة العريش ثم إلى غزة ، ثم إلى يافا بعد أن التقيت جيوش الجزائر وسحقته ومنذ يومين وصلت إلى عكا ، وأنا أحاصره هناك .
وأسرع إلى إعلامك بكل ذلك ، لأنني لا أشك أنك تفرح لهزائم هذا الطاغية (يعني الجزائر) الذي سبب الكثير من الذعر إلى الإنسانية عامة والدروز الأباة بشكل خاص .

ورغبتى المخلصة هي أن أقيم للدروز استقلالهم ، وأعطيتهم مدينة «بيروت» ذات المرفأ كمركز تجاري لهم ؛ لذلك فإنني أرغب في أن تأتي شخصياً ، أو ترسل حالاً من يمثلك ، لرسم خطة للتغلب على عدونا المشترك ، ويمكنك أن تذيب في جميع القرى الدرزية ، أن كل من يأتي لنا بالمؤن ، وخاصة الخمر ، سيكافأ بسخاء» .

(الإمضاء) نابليون

(١) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي ص ٣١ .

ويقول الكاتب (بورون) : إن الأمير «بشير» لم يجب على رسالة «نابليون» ولكن قوة من الدروز والموارنة انضمتا إلى جيش «نابليون» الذي كان يحاصر «عكا» .

وفي آذار ١٧٩٩م أتت قوة من الخيالة الدروز لنجدة «نابليون» الذي كان يحاول إخضاع عكا . ثم يقول : إن الدروز والموارنة آزرُوا «نابليون» ، وإن الأمير بشير أمده بالقادة والمستشارين ، وإن فارس بك الأطرش قال له : إن جده إسماعيل كان يملك عدة رسائل بإمضاء نابليون وموجهة إلى والد إسماعيل ولكن هذه الأوراق أتت عليها حريق شب في المنزل ^(١) .

ومنذ تاريخ ٢٥/٧/١٩٢٠م وحتى ١٧/٤/١٩٤٦ والمسلمون يقاومون الاستعمار الفرنسي بكل ما يملكون من قوة مادية كانت أو معنوية . . . غير أن الدروز كان لهم موقف آخر في جبلهم ؛ لقد رحبوا بالغزاة المحتلين ، وقدموا لهم كل ما يقدرُون عليه من دعم أو مساعدة ، واطمأن الفرنسيون إليهم ، وأمنوا مكرهم ، ومن ذلك أنه حينما دخل الفرنسيون دمشق بعد معركة ميسلون سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م اتخذ القائد الفرنسي «غورو» حرسه الخاص من الدروز بمعرفة متعب الأطرش ، مما يدل على الثقة الكاملة التي أولّاها الفرنسيون هؤلاء الدروز ^(٢) .

وكما فعل زعماء النصيريين حين رفعوا عريضة إلى رؤساء فرنسا لمنحهم الاستقلال على حساب المسلمين ، وإقامة دولتهم ، فكذلك فعل زعماء الدروز ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ حين قويت علاقتهم مع الفرنسيين المحتلين ،

(١) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

وأجروا اتصالات مع القيادة الفرنسية لأجل استقلال الجبل ، وهذا مقدمة كتابهم :

« لحضرة رئيس البعثة الإفرنسي في دمشق الأفخم :

بناء على بلاغاتكم المتكررة للرؤساء الروحيين ، لنا الشرف أن نقدم لسيادتكم بالنيابة عن الشعب الدرزي في جبل حوران برنامج الاستقلال المدرج أعلاه الذي يطلبه الشعب لكي تتكرموا بتقديمه لحضرة صاحب الفخامة المندوب السامي راجين أن يتوسل بالتصديق عليه من قبل حكومة الجمهورية الإفرنسية المعظمة . واقبلوا فائق احترامنا .

الإمضاءات :

الرؤساء الروحيون ومشايخ الجبل»^(١)

وفي ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٢٢م أصدر الجنرال «غورو» قراره رقم ١٦٤١ بإعطاء جبل حوران استقلاله باسم «دولة جبل الدروز المستقلة»^(٢) .

أما الرفضة أو الشيعة الاثنا عشرية فإن الحروب بين الدولة الصفوية في إيران - والتي تتخذ من عقائد الرفضة عقيدة رسمية لها - وبين الدولة العثمانية السنية لم تكد تنقطع .

وقد كان هؤلاء الشيعة الروافض يطمحون إلى التوسع على حساب ممتلكات الدولة العثمانية ، كلما أمكنهم ، وإذا عجزوا أو كانت الدائرة عليهم والجولة لخصومهم ، لجأوا إلى إبرام المعاهدات ، وعقد الصلح ريثما يستعدون من جديد .

(١) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩ .

فمن ذلك الحرب الشرسة التي شنتها الدولة الفارسية الشيعية على الدولة العثمانية سنة ١٢٣٥هـ ١٨٢٠ م .

فقد استطاع الشيعة أن يهزموا والي العراق ويحاصروا بغداد سنة ١٨٢٠ و سنة ١٨٢١ م ، ولولا الله ثم تفشى وباء الكوليرا في الجيش الفارسي لسقطت بغداد ، ولكنه اضطر إلى التقهقر إلى الورا بعد عقد معاهدة أرض روم سنة ١٨٢٣ م^(١) .

ويؤخذ على الدولة العثمانية بعض مواقفها التي تتسم بطابع التسامح والاسترخاء في مقابل هؤلاء الروافض العتاة ؛ وإن كانت تلك المواقف تنسجم مع السياسة التي كانت تسير عليها الدولة العثمانية من تشجيع للأضرحة وبناء للقباب وتقديس للمشاهد .

فقد كانت دائرة الأوقاف العثمانية كما سبق أن ذكرنا تقوم بإدارة شئون الأضرحة المقدسة عند الشيعة ، وتعين الحراس والخدم وتدفع مرتباتهم ، وكانت دائرة الأوقاف مسئولة عن الإيرادات المالية للأضرحة .

وكان الشيعة الفرس يتدفقون على تلك العتبات المقدسة عندهم ، وكان يصل عدد الزوار أحياناً في السنة الواحدة إلى حوالي ستين ألف زائر^(٢) .

وقد كانت الدولة العثمانية ممثلة في ولايتها يقومون بالحفاظ على أمن تلك العتبات الشيعية وراحة الزوار فيها ، ظناً منها أن في ذلك درءاً للخطر الشيعي الفارسي ، وفي إحدى المرات هاجم بعض الأعراب كربلاء ، وكان بها من الزوار أكثر من أربعين ألف زائر ، ومعهم حرم شاه العجم ، فخاف

(١) تاريخ العرب الحديث . العراق ١/ ١٠٢-١٠٤ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/ ٨٠٥ .

والي بغداد إفساد العربان وإصابتهم الزوار بضرر ، فيرجع عليهم شاه العجم بالويل والثبور وعظيم الأمور^(١) .

وعندما قدم على حلب سيف الدولة ابن شاه إيران سنة ١٣١٧ هـ قاصداً زيارة مقامات أهل البيت النبوي في حلب وغيرها من البلاد الشامية استقبلته الحكومة استقبالاً باهراً ونزل ضيفاً عند شهبندر دولة إيران فبقي بضعة أيام ثم سافر إلى جهة مقصده^(٢) .

ولا ريب أن تلك السياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية لم يحالفها النجاح في تهدئة التوتر الذي كان يتتاب العلاقة بينها وبين الدولة الشيعية الفارسية .

وهي سياسة تنم عن قصور في الوعي والنظر والإدراك وجهل بين بعقائد الشيعة ، ومنهجهم وتاريخهم ؛ إذ أن الشيعة في كل العصور والأمكنة لا يؤمنون إلا بمنطق القوة والنفوذ ، فإذا افتقد خصومهم إلى ذلك المنطق ، لم يعد ينفع معهم لين وتسامح وتغاض ومداينة .

وفي بلاد الهند كان هؤلاء الشيعة ظهيراً لأعداء الإسلام والمسلمين من الوثنيين الهندوس والسيخ والمستعمرين الانجليز نكاية بأهل السنة واستمراراً على نفس الطريق الآثمة في مناصرة الكافرين .

فمن ذلك أنه كان يوجد في بلدة أجودهايا مسجد كبير من أبنية السلطان «بابر» ، وكان الهنادك يعتقدونها أرضاً مقدسة ، فلما انقرضت الدولة التيمورية غضبوا المسجد وجعلوه جزءاً لمعبدهم وكان ذلك عام ١٢٧٣ هـ ،

(١) حلية البشر ٥٩٠/١ .

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٥٠/٣ .

فقدم الشيخ «غلام حسين الأودي» ومن معه من المسلمين لاستخلاص المسجد من أيديهم ، فقتلوه وحرقوا المصاحف .

فلما سمع ذلك الشيخ «أمير علي الأميتهوي» دخل لكهنؤ وحرص الولاية- وكانوا من الشيعة- لاستعادة المسجد، ولكن الوزير الشيعي «تقي علي» كان مرتشياً والديوان وثنيا ، فطفقا يدافعان عن الكفار ، ولكن «أمير علي» خرج إلى أجودها لياخذ بثأر المسلمين ، ويتنزع المسجد من أيديهم فمنعه الوزير المذكور واستفتى العلماء في ذلك وخلع عليهم ثياباً فأفتوه بأن الخروج لا يجوز .

وكان واجد علي شاه أمير تلك الناحية مغبون العقل والدين مشغولاً بالملاهي والمنكرات ، فحشد الوزير الجند وأمر بالإغارة على «أمير علي» ومن كان معه من المسلمين، فلما كاد يصل إلى أجودها أغارت عليه العساكر الشاهانية فاستشهد الشيخ ومن معه من المسلمين^(١) .

وهكذا تواطأ الشيعة مع الهندوس في هدم مساجد المسلمين وتحويلها إلى معابد للكفار . ولقد همّ الأمير «نواب سعادة علي خان اللكهنوي الشيعي» المتوفى ١٢٩٠هـ أن يأخذ الهند على طريق الاستيجار من ملك الإنكليز كما استأجرت عنه الشركة الشرقية . . . ولكنه مات قبل أن يتم مراده^(٢) .

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٨٢/٧ .

ملاحظة : وما يؤخذ على كتاب «نزهة الخواطر» احتواؤه على عشرات التراجم لهؤلاء الروافض ولغيرهم من الإسماعيلية جنباً الى جنب مع علماء السنة دون التعرض إلى بيان خطرهم وكشف أحوالهم وتنبيه القارئ إلى ذلك ؛ بل إن مؤلفه ليصف بعضهم بالفضل والتقوى ثم يورد لهم كتباً في مثالب الصحابة رضوان الله عليهم وفي محاولة إطفاء نور السنة والاسلام وإذكاء شعلة التشيع والرفض ، فالى الله المشتكى من غفلة أهل السنة وغربة العقيدة الصحيحة التي لا يعرف خطر هؤلاء ودفعه إلا بوعيتها وعياً حقيقياً .

(٢) المصدر السابق ١٩٨/٧ .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري شهدت الهند نشاطاً شيعياً ملحوظاً تمثل فيما قام به أحد علمائهم ويدعى «دلدار علي النصير آبادي» المتوفى سنة ١٢٣٥ هـ وذلك أنه ادعى الاجتهاد وأقام الجماعة في الجمع والأعياد . . . وكانت الشعية الإمامية في عصره متفرقين في بلاد الهند ليست لهم دعوة إلى مذهبهم وما كانت لهم جامعة تجمعهم .

وقد بذل جهده في إحقاق مذهبه وإبطال غيره من المذاهب ، لا سيما الأحناف والصوفية والأخبارية (أهل الحديث) حتى كاد يعم مذهبهم في بلاد «أوده» . . ويتشيع كل الفرق^(١) .

«وقريب من ذلك ما قام به الرافضي «محسن بن عبد الكريم الأمين» (المتوفى سنة ١٣٧١ هـ) الذي كان يكافح عن الرافضة ويهاجم أهل السنة هجوماً شديداً، كتهجمه على الشيخ «محمد رشيد رضا» صاحب المنار ، وتهجمه على أهل الدعوة في نجد وغير ذلك مما سخر له قلمه وفكره^(٢) .

وهكذا كانت الرافضة وما زالت منافساً قوياً لأهل السنة ، وعدواً حانقاً عليهم تبرم المؤامرات وتعمل على تقويض الإسلام ، ونشر مذهبها الباطل بين المسلمين .

وقد ذاق أهل السنة في إيران في عهد الصفويين ومن جاء بعدهم كثيراً من الويلات وتعرضوا لكثير من النكبات . «ومما يجدر ذكره أن نسبة المسلمين السنة في إيران كانت تزيد على ٦٥٪ في عهد الصفويين أي قبل حوالي ثلاثة قرون، وما زالت تنخفض نسبتهم حتى وصلت ٣٦٪ وستستمر

(١) المصدر السابق ١٦٧/٧ .

(٢) الأعلام ٢٨٧/٥ .

نسبتهم في الانخفاض لأنهم هدف من أهداف الغزو الرافضي»^(١).

«ودعمًا لحكمهم الباغي قام الصفويون بحركة جادة عامة لنقل أهل السنة - وكانوا يشكلون أغلبية المسلمين في إيران في ذلك الحين - إلى التشيع بأي وسيلة حتى ولو احتاج الأمر إلى شتى صور التعذيب وسفك دماء الآلاف . . . وبعد استيلاء الصفويين وخلال القرون الأخيرة ذاق أهل السنة على أيدي الحكام الطاغين الذين كانوا ينتسبون - كذبًا وزورًا - إلى أهل البيت ما لا يعلمه إلا الله . . . وهكذا انفصل هذا البلد عن العالم الإسلامي - وصار قاعدة محكمة لأعداء الإسلام من أهل الغرب الذين طالما بحثوا عن قاعدة يرمون منها العالم الإسلامي . وليست الحروب الصفوية وما بعدها مع العثمانيين ببعيدة عن أذهاننا»^(٢).

وفي بلاد اليمن كان أهل السنة يواجهون اضطهادًا ومضايقات من الزيدية الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الحكم هناك . ولما أراد الترك الجلاء عن بلاد اليمن عام ١٣٣٧ هـ خشي الشوافع^(٣) (أهل السنة) . من سيطرة الزيدية على بلادهم .

(١) وجاء دور المجوس ص ٤٨١ . عبد الله محمد الغريب . الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨ م . وهو كتاب فريد في بابه كشف مؤلفه كثيرًا من مخططات الرافضة وتواطؤهم مع القوى النصرانية واليهودية ، وينصح بقراءته وكذلك ما صدر بعد ذلك من أجزاء وهي : أمل والمخيمات الفلسطينية ، وأحوال أهل السنة في إيران للمؤلف نفسه ، وكذلك بكتاب : رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي ، بجزئيه الأول والثاني لمحمد بن عبد الغني النواوي ؛ فإن هذه المؤلفات قد كشفت الخطر الباطني المتمثل في فرق الشيعة على اختلافها وتعاونها مع قوى الاستعمار الحديث في حرب المسلمين .

(٢) أحوال أهل السنة في إيران ص ٢٦ عبد الله محمد الغريب . الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ . ١٩٩٠ م .

(٣) يرد كثيرًا هذا المصطلح عند ذكر أحداث اليمن والخلافات القائمة بين السنة والزيدية ، وفي رأيي أن إطلاق هذا المصطلح يعمي على الحقيقة ، فيجعل من الزيدية مذهبًا خامسًا كما يريد أهلها فعلاً وليس فرقة كما هو المعروف .

يقول «العبدلي» مؤرخ «حضر موت» : ولما تحقق اليمانيون الشافعية جلاء الأتراك عن البلاد اليمانية ذعروا ، وجاء كثير من أعيان اليمن الأسفل من مشايخهم وساداتهم وزعمائهم إلى «عدن» يستفهمون عن مصيرهم فلم يوافق طلبهم هوى الباعة ، وأعرض عنهم الوكيل السياسي في «عدن» وعادوا خائبين ، ولم يجدهم إخلاصهم للأتراك وجهادهم بالنفس والنفيس مع «علي سعيد باشا» نفعاً ، فلم يعنهم الأتراك على نيل أمانيتهم بل أعانوا الإمام عليهم .

وحاول بعض الشافعية المقاومة فلم تتحد كلمتهم وساق الإمام جيشاً من قبائل الزيدية وضباط الأتراك على حبش ؛ فنشبت معارك دموية استدامت ستة أشهر ثم هزمت جموع الشافعية وأذعن جميعهم لحكم الإمام والسيطرة الزيدية على كره منهم^(١) .

وفي بلاد الضالع استمرت المعارك بين الزيدية والشوافع عامين كاملين كانت الحرب فيها سجلاً^(٢) .

وعندما قام الصلح بين الشيخ «محمد صالح الأخرم» من مشايخ الشافعية ومندوب الإمام «يحيى»^(٣) «لم يعد الشيخ «محمد صالح» إلى بلاده حتى وضع أعز أقاربه رهينة ، ولم تمض أشهر حتى ملأ السيد «يحيى» أمير جيش قعطبة السجون ، من أبناء الأشراف الردفانيين وغيرهم ، يسوقهم العريفة بالحبل والسوط مكبلين بالحديد كالمجرمين وأذاقوهم من سوء المعاملة

(١) هدية الزمن في أخبار ملوك الحج وعدن ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٦ .

(٣) انظر ترجمته في الأعلام ٨ / ١٧٠ .

والغطرسه ما لا يتحملة الأحرار ، بل ما دونه حريق النار ، ولم ينج من سوء المعاملة حتى الشيخ «محمد صالح الاخرم» نفسه ؛ اعتقلوه في قعطة سبعة أشهر ولم يرحموا ضعفه ولا شيخوخته ولم يتخلص إلا بعد أن افتدى نفسه وأتباعه بوافر المال ورهن خيرة الرجال^(١) .

وفي شهر ربيع الثاني من تلك السنة ١٣٤٦ هـ ألقت الطيارات البريطانية على مدن اليمن منشوراً أُنذرت فيه الزيود بأنه عند حدوث أي تعد جديد من العساكر الزيدية سيقابل بإلقاء القنابل .

وفي شهر شعبان دخل جماعة من الزيدية إلى بلاد آل قطيب واختطفوا الشيخ «مقبل عبد الله» عم شيخ آل قطيب والشيخ «عبد النبي العلوي»^(٢) شيخ آل علي فأُنذرت الطيارات أمير جيش قعطة أن يرفع النساء والأطفال في ظرف (٢٤) ساعة ، وابتدأ إلقاء القنابل بعد انتهاء تلك المدة فعلاً واستمرت ثلاثة أيام .

وفي (٢٥) رمضان أذاعت الطيارات المنشور الآتي ونصه :

إلى أهل المذهب الشافعي في اليمن وفي المحمية البريطانية ، بعد السلام ، لقد علمتم أنه بناء على انتهاك حرمة المحمية البريطانية من الإمام والزيود وتعتديهم عليها ، أجبرنا على إلقاء القنابل على حامية الزيود ، وبما أن هذه الحاميات أقامت نفسها بينكم فلعلكم قاسيتم من تأثير هذه القذائف ما قاسيتم فذلكم ذنب الزيود لا ذنبنا^(٣) .

(١) هدية الزمن ص ٢٧٧ .

(٢) لا يجوز إطلاق هذا الاسم لأنه من باب التعييد لغير الله عز وجل .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٣ .

ولم يتمكن أمراء الشوافع من طرد الزيود من بعض المدن إلا بمساعدة الطائرات الإنجليزية^(١) وهكذا وقع الشوافع (السنة) بين فكي كماشة حيث كان الزيود واضطهاداتهم من جانب والنيران الحامية التي كانت تمطر بها قراهم من قبل الطائرات الإنجليزية بسبب ملاحقة الزيود من جانب آخر .

وما من شك في أن الإنجليز قد أفلحوا إلى حد كبير في استغلال العداء بين الشوافع (السنة) والزيود في إضعاف الطائفتين ، لمزيد من تثبيت أقدامهم في المنطقة ، على أن ذلك لا يعفي الزيود الحانقين من تبعة قتالهم ومحاولتهم إخضاع الشوافع (السنة) واضطهادهم .

ولا غرابة من وقوف الشوافع (السنة) مع الدولة العثمانية السنية في وجه القوات الزيدية وعلى كل حال فمهما بلغت مظالم الأتراك فلا تعد شيئاً في مقابل مظالم الزيدية الشيعية .

وما وقع من الزيود من ظلم وقتال وإخضاع للشوافع السنة منسجم تماماً مع ما آل اليه المذهب الزيدي عند المتأخرين من رفض وسب للصحابة رضوان الله عليهم .

وقد عانى علماء اليمن المتحررون من أغلال المذهب الزيدي كـ«الصنعاني والشوكاني» وغيرهما من غلو هؤلاء الزيدية في الرفض وحنقهم على الصحابة وكتب السنة .

يقول الشيخ «محمد أبو زهرة» : «ومن بعد ذلك ضعف «المذهب الزيدي» ؛ و«المذاهب الشيعية» الأخرى قد غالبته ، أو طوته ، أو لقيحته ببعض مبادئها ، ولذلك كان الذين حملوا اسم هذا المذهب من بعده لا

(١) المصدر السابق ص ٢٨٦

يجوزون إمامة المفضول ، فأصبحوا يعدون من الرافضة ، وهم الذين يرفضون إمامة الشيخين «أبي بكر وعمر» رضي الله عنهما وبذلك ذهب من الزيدية الأولى أبرز خصائصها»^(١) .

وما ذكرناه في هذه العجالة فيه بعض الرد على من زعم أن «الزيدية أقرب فرق الشيعة من أهل السنة والجماعة حيث تتصف بالاعتدال والقصد والابتعاد عن التطرف والغلو»^(٢) والمسألة ما زالت تحتاج لمزيد من الإيضاح . وفي العراق كان اليزيديون^(٣) في تلك الفترة يقومون بثورات متلاحقة ، وفتن متلاطمة ، وقد كانوا يقومون بغارات على «الموصل» ونواحيها ، ويروعون الأمنين .

وقد قامت بينهم وبين والي الموصل الحاج «عبد الباقي» عدة معارك ، وهزم غير مرة ، وقتل المئات من المسلمين ، وكانوا كثيراً ما يقومون بقطع الطرقات ، ونهب القوافل ، وسفك دماء المسافرين .

وكانوا يتخذون من جبل سنجار قاعدة لانطلاق حملاتهم الإرهابية^(٤) ، وكل الفرق التي سبق الحديث عنها هي فرق نشأت قديماً ، وازدادت مع الأيام رسوخاً وشروراً وأتباعاً .

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ٥١/١ .

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٢٥٧ ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٣) أتباع فرقة اليزيدية المعروفين بعبدة الشياطين ، سموا باليزيدية لأنهم كانوا يقدسون يزيد ابن معاوية ولمزيد من الاطلاع انظر : اليزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي .

(٤) زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية ص ١٥٦ ، ألفه في الأصل ياسين بن خير الله العمري وانتخب زبدته : داود الحلبي . تحقيق وتعليق عماد عبد السلام رؤوف . مطبعة الآداب - النجف وانظر بعض أخبارهم في المصدر نفسه : ص ٧٠ ، ص ٨١ ، ص ١٥٥ ، ص ١٦٠ ، ص ١٧٢ .

وأما الفرق التي نشأت في الفترة المدروسة فهما البهائية والقاديانية .

فالبهائية تنسب إلى مؤسسها «البهاء حسين علي نوري الميرزا» (المتوفى سنة ١٣٠٩ هـ)^(١) وتعد امتداداً للدعوة البابية التي دعا بها «ميرزا محمد» الملقب بالباب الذي قتل عام ١٢٦٦ هـ^(٢) .

وذلك أن البهاء كان أحد تلامذة الباب ، ولما قتل تنازع مع أخيه «الميرزا يحيى» الذي كان الباب قد لقبه صبح أزل ، وأوصى بخلافته من بعده ، ونشأ من هذا النزاع فرقتان هما البهائية والأزلية^(٣) .

وقد حظيت البهائية في أوائل ظهورها برعاية الحكومة الروسية التي عملت على تقويتهم ونشر نحلتهم في إيران والبلاد العثمانية^(٤) .

وقد ادعى البهاء المهدي ، ثم ادعى النبوة ، ثم ادعى الربوبية والألوهية . وما من شك أن البهائية ذات صلة وثيقة بأعداء الإسلام «ونشأت سنة ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية ، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية»^(٥) .

على أن المؤلم حقاً هو تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة .

(١) الأعلام ٢/ ٢٤٨ .

(٢) المصدر السابق ١٧/ ٥ .

(٣) الحراب في صدور البهاء والباب ص ١١ محمد فاضل . دار المدني . جدة . الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

(٤) عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . الدكتور عثمان عبد المنعم عيش . مكتبة الأزهر ١٩٧٨ م .

(٥) الموسوعة الميسرة ص ٦٣ .

يقول «محمد فاضل» صاحب كتاب «الحراب في صدور البهاء والباب»: «كان الواجب على دولة الخلافة وهي الحامية للدين ، الذائدة عن حوضه ، وقد علمت حقيقة البهاء وصبح الأزل ، ووقفت على ما يدعوان إليه من الإفك والبهتان ، أن تخدم أنفاس حركتهما وهي في مهدها ، قبل أن تشب ويستفحل خطبها ، فتنكل بهما وأتباعهما نكالا شديداً ، وتميتهم شر الميتات ، بأن تطعمهم من لحومهم وهم أحياء ، أو تضعهم تحت سفار السيوف ، فلا يجتمع من أبدانهم ما يزن البندق الفارغة ، أو تحرقهم بالنار أحياءً وتذر رمادهم في مهاب الرياح ، إلى غير ذلك من ضروب الوبال ، وصنوف العذاب والنكال ، كيما تطهر الأرض من الأرجاس ، ويذهب الضلال من الناس .

أجل كان الواجب عليها أن تفعل شيئاً من ذلك حفظاً لسياج الدين وحرصاً على عقائد المؤمنين ، وقربة وزلفى لله رب العالمين - لا أن تفتح لهم أبواب عكاء وقبرص ، وتجعل هاتين الجهتين الإسلاميتين محوراً تدور عليه رعى الضلال والكفر في العالم أجمع .

ولكن عسى أن تتدارك حكومة اليوم ما فات حكومة الأمس ، فتتفي «الميرزا عباس»^(١) من ممالكها المحمية ، وتنكل بمن يثبت لديها أنه داعية له ، أو تابع إليه ، وتذيقه وبال أمره ، ولا تبقى عليه في بلادها .

كذلك يجب على حكومة الحضرة الفخيمة الخديوية ، وهي حكومة إسلامية ، أن تخرج الرجل من ديارها ، وتنفي من يثبت لديها أنه من

(١) هو ابن البهاء الذي خلفه بعد موته ، كان له نشاط كبير في نشر نحلتهم ، توفي بحيفا عام ١٣٤٠هـ . انظر : الأعلام ٢٦١ / ٣ .

شيئته ، أو يدعو إليه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣] ، ولعلهما فاعلتان^(١) .

ولكن للأسف الشديد فإن الحكومتين المذكورتين لم تقوما بأي إجراء تجاه البهائيين ، بل إنهم وزعيمهم عباس كانوا يسرحون ويمرحون في البلاد الإسلامية الخاضعة لهاتين الحكومتين اللتين تركتا لهم الحبل على الغارب ، وكانت بعض الصحف في مصر تتابع تنقلات الميرزا عباس ، وتشيد به ، وتصفه بأنه من علماء الإسلام العظام ، ومن الذين يسعون إلى خير الإنسانية ورفاهيتها^(٢) .

ومما يزيد في الحسرة والألم أن حكومة الشيعة في إيران كانت أغير على عقائدها الرافضية من هذه الدول المسلمة ، فهي التي قامت بقتل الباب مع بعض أتباعه ، وسجنت بعضهم ، وطردت الباقيين ، وهو ما لم تفعله دولة مسلمة على الإطلاق^(٣) .

وقد انتشرت هذه النحلة في إيران وفلسطين وبعض الأقطار العربية

(١) الحراب في صدور البهاء والباب ص ١٨ .

(٢) انظر ما نشرته جريدة المؤيد في عدد يوم الأحد ١٣ شوال سنة ١٣٢٨ هـ في كتاب «الحراب في صدور البهاء والباب» ص ٣٠ ، وما نشرته البلاغ المصري في عددها الصادر في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٨ هـ في المرجع السابق ص ٧٢ ، وما نشرته الأهرام في عدد يوم الخميس ١٨ محرم سنة ١٣٢٩ هـ في المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣) ولا يعارض ذلك بعض الإجراءات الأمنية التي قامت بها السلطات العثمانية ، والتي لم يكن لها أي تأثير على الحد من نشاط البهائيين في نشر نحلتهم ، أو تحجيم دورهم .

الأخرى ، ووصلت إلى أمريكا واتسعت فيها ، واتخذت من «شيكاغو» مركزاً لها .

«والحق أن البهائية يشتد نشاطها في الديار الإسلامية في عهود الدعوات الانحلالية التي يغذيها أعداء هذا الدين ، فقويت عقب الحرب العالمية الأولى ، وقويت عقب الحرب العالمية الثانية ، وهي الآن ترفع رأسها ، ولا بد من قطعه أو عودته إلى «شيكاغو» موطن دعايته»^(١) .

وأما القاديانية فهي نحلة تنسب إلى «غلام أحمد القادياني» ، نسبة إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ)^(٢) ، وهي «حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص ، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام»^(٣) .

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية ، وقد كان من أبرز ملامح دعوة «غلام أحمد القادياني» «ميله الشديد للإنجليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند ، وإبطال عقيدة الجهاد لهم ، وثناؤه عليهم ، وحث أتباعه على نصرتهم في كل مكان . . .»^(٤) .

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ٢٤٨/١ .

(٢) الأعلام ٢٥٦/١ .

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٨٩ . وقد ذكرت أن حركته قد نشأت عام ١٩٠٠م ولا أدري ما وجه هذا التاريخ ، مع أن بداية ظهور دعوته تسبق هذا التاريخ بنحو ربع قرن ، وذلك حين مرض أبوه سنة ١٨٧٦م فزعم أنه أوحى إليه أن أباه سيموت بعد الغروب ثم تتابع كفره وضلاله بعد ذلك ، انظر : عقيدة ختم النبوة ص ١٥٨ . للدكتور عثمان عبد المنعم عlish .

(٤) عقيدة ختم النبوة ٢٠٩ . للدكتور عثمان عبد المنعم عlish .

ويقول القادياني : «ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين مسلك البغاة!! وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ويُعان على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة ؛ بل هذه الأمور حرام قطعي ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبيناً»^(١) .

وكان فرحاً فخوراً بما قدمه للإنجليز من خدمات ، مختالاً بخيائته للمسلمين وغدره بهم .

وهكذا رأينا أن هذه الفرق كانت مصدراً لإثارة الفتن والقتل ، وإحداث الفوضى والتنازع بين المسلمين . إضافة إلى تأمرها المستمر مع أعداء الإسلام ، وخيانة المسلمين في أخرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، ونستطيع أن نقول إن تفاقم شرور هذه الفرق ، وانخداع كثير من الناس بها ، جاء تعبيراً صادقاً لغيبة عقيدة أهل السنة والجماعة عن واقع الأمة ، إذ لا يمكن في الحقيقة التنبيه لخطر هذه الفرق والحذر منها بغير هذه العقيدة ، ولولا أن الأمة قد ابتعدت عنها لما اكتوت بشرور هذه الفرق ، ووقعت فريسة لأحاييلها ومؤامراتها .



(١) عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٢٥٥ د . أحمد سعد حمدان . دار طيبة . الرياض .
الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

الفصل التاسع

موقف العلماء

للعلماء مكانة بارزة في الإسلام لا تعدلها مكانة أخرى ؛ إذ هم حملة الشريعة ، وورثة الأنبياء ، والمؤمنون على الرسالة ، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقدوة الحسنة للناس في تطبيق تعاليم الإسلام في الواقع .

وتختلف مهمة العلماء في الإسلام عن مهمة رجال الدين في النصرانية مثلاً ، ويأتي ذلك الاختلاف من طبيعة الديانتين وتباين تعاليمهما تبايناً عظيماً ؛ إذ تنحصر مهمة العلماء في الديانة النصرانية فيما له علاقة بالتعاليم والطقوس المنسوبة إلى المسيح عليه السلام وحوارييه ، تلك التعاليم التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فصلاً يكاد يكون كاملاً ؛ حيث تدعو إلى إهمال الحياة الدنيا ، والاستهانة بجميع أنشطة الحياة ، والإقبال الكلي على الآخرة ، وينسبون إلى المسيح عليه السلام أقوالاً مشكوكاً في صحتها مثل : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وغير ذلك من الوصايا والتعاليم التي تدعو إلى ترك الحياة الدنيا وحرمان النفس وتعذيبها بتحريم ما أحل الله لها .

لذا أطلق على هؤلاء العلماء اسم رجال الدين وهو اسم صحيح ومطابق لحال أولئك العلماء الذين حصروا نشاطهم وحياتهم في خدمة الدين النصراني وطقوسه ، تاركين مسرح الحياة وما يدور بداخله لغيرهم من

الناس ؛ لأن ذلك على مقتضى تعاليمهم ليس من شأنهم أن يعملوا فيه^(١) .

ولكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للدين الإسلامي فليس هناك رجال دين بالمعنى النصراني ؛ بل يوجد العلماء الذين يتمثلون الإسلام في واقعهم ، علماً وعملاً ، عبادة وجهاداً ، ديناً ودولة ، عقيدة وشرعية ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر .

وكم تكون العواقب وخيمة حين ينسى العلماء مهمتهم الكبرى ، وينصرفون إلى حلقات العلم والدرس ظانين أنهم بذلك العمل قد أدوا كل ما عليهم من مهمة ، وأخلوا أنفسهم من المسؤولية .

وكم يكون التقصير عظيماً حين ينزوي العلماء بعيداً عن الأحداث ، بل حين يرى بعضهم أو كثير منهم أن النزول في الساحة والمشاركة في الأحداث ليس من شأن العلماء ولا من مهماتهم .

ولأنود أن نستطرد في الحديث قبل أن نطالع أحوال العلماء في الفترة التي ندرسها لنرى أن الضعف قد تطرق إليهم ولم يسلم الكثيرون منهم من وطأة الانحرافات التي طرأت على الأمة الإسلامية .

وقد رأينا فيما سبق^(٢) كيف كان كثير من العلماء يضربون صفحاً عن العلم وحلقاته ، ويقبلون على التصوف وحلقات الذكر وإقامة الموالد ، ويقتدي بهم أئوف من العامة ، وقد سبق أن أوردنا ما ذكره «الجبرتي» من أن الشيخ «الشرقاوي» وهو شيخ الأزهر سافر إلى مولد المدعو بالسيد البدوي واقتدى به كثير من العامة وسخاف العقول^(٣) .

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة . تحريف الدين ص ٩ . الرهبانية ص ٥٨ . الشيخ محمد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ط ١ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) في فصل الصوفية .

(٣) عجائب الآثار ٢ / ٦٥١ وغير مستغرب في بحثنا هذا أن نركز الحديث عن العلماء في مصر =

وفي تلك الفترة الحالكة كثر الانزواء من جانب العلماء والابتعاد عن المشاركة الفعالة في الأحداث والوقائع المتتابعة التي لم ينج منها قطر ، وما من شك أنه كان للصوفية دور كبير في ازدياد حجم ذلك الانزواء ، الذي يتفق تماماً مع ما تدعو إليه من تجرد وزهد منحرف ، فكيف إذا كان كثير من العلماء في ذلك الزمن قد غرقوا في متاهات التصوف وعقائده الفارغة ؟ .

ومع أن بعض العلماء من المتصوفة وغيرهم كان لهم مشاركة أو دور في بعض الأحداث إلا إن ذلك لا يكاد يغير الحالة العامة التي كان عليها العلماء من إحجام وتباعد عن الخوض في الأحداث والوقائع ، وإن كانت هناك مشاركة فلم تكن على مستوى الأحداث .

ولعل أصدق مثال على تجافي العلماء عن الأحداث السياسية ، ما يعبر عنه الشيخ «محمد السنوسي» (المتوفى سنة ١٣١٨هـ) ، في رسالة منه إلى وزير الدولة التونسية لما منع من الهجرة إلى خارج تونس حيث كتب في رسالته : «ليعلم سيدي أنني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي .

أما بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أنني من خدمة العلم الشريف ، وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعاً لله ، وقد قال «ابن خلدون» «إن أهل العلم أبعد الناس عن السياسة...»^(١) .

= باعتبارها بلد الأزهر والبلد الإسلامي الأول في كثرة العلماء ، وبإمكاننا أن نعتبر مستوى العلماء في مصر إلى حد كبير مقياساً لمستويات العلماء في الأقطار الإسلامية الأخرى للاعتبار الذي ذكرناه .

(١) الرحلة الحجازية ١٢/٢ محمد السنوسي ، من رسالة له بتاريخ ٢٦ محرم في سنة ١٢٩٩هـ .

فهذا مثال واضح لعالم من علماء ذلك الزمان ، يقر على نفسه بأنه بعيد عن السياسة وأنها ليست تعنيه لأنه مشغول بالعلم .

وأما بالنسبة لما نقله عن «ابن خلدون» فأعتقد أن «ابن خلدون» يصف حال الكثير من العلماء الذين يتعدون عن السياسة ويشغلون بالعلم ، حتى عمم ذلك الحكم وحكم به على أهل العلم واعتبره من صفاتهم ، أما أنه يجب على أهل العلم أن يتعدوا عن السياسة وأنها من الأمور التي يجب أن يتجنبوها ، فهذا لا يفهم من كلام ابن خلدون ^(١) .

وجاء في مذكرة الاحتجاج التي بعث بها «حمدان خوجة» إلى وزير الحربية الفرنسي (في ١٥ محرم ١٢٤٩هـ) وقد مرت معنا من قبل قوله : «وأيضاً علماؤنا يفنون شبابهم في تعلم العلم في الجوامع ، لا اختلاط لهم مع الناس ، ولا علم لهم بالقوانين السياسية وتدير الملك ومعاملة السلاطين...» ^(٢) .

وقد قال ذلك حينما أؤدي بعض العلماء من قبل الفرنسيين ، فهو ينقم عليهم إيذاء هؤلاء العلماء الذين لا دخل لهم بأمور السياسة ، ولا علم لهم بقوانينها ، لانشغالهم بالعلم .

(١) يقول ابن خلدون بعد أن عنون بقوله : فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات . . . ، فهم متعودون في سائر أنظارتهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية ، لا يعرفون سواها ، والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة مافي الخارج ، وما يلحقها من الأحوال . . . فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارتهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم . مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٦ وهذا المعنى متفق مع ما ذكرناه أعلاه .

(٢) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص ١٦٤ .

وأما الشيخ «عبد الرحمن الشربيني» شيخ الجامع الأزهر (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ)^(١) ، فيقول في لقاء مع جريدة (الجوائب المصرية) أجرته معه في ٧ محرم عام ١٣٢٣هـ ، حين احتدم النقاش والنزاع حول ما سمي بإصلاح الأزهر : «وأما الخدمة التي قام بها الأزهر ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لا غير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ، ولا ينبغي له!!» .

ثم يقول : «وقد رأيت الكثيرين من إخواني - خدمة العلم - في منصب المشيخة ، فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة!! ، أشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة ، كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر» .

ويقول أيضاً : «حتى إن من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرءوها أو مجلة فلان ليتصفحوها ، ومثل هذا في تاريخ الأزهر من قبل ما سمعت ولا رأيت . . .»^(٢) .

ومع افتخار علماء الأزهر بأنهم بعيدون عن الاشتغال بالسياسة لأنها ليست ميداناً لهم ، فإنهم كانوا في كثير من الأحيان مطية للخديوي وحكوماته المتلاحقة لتنفيذ أغراضهم السياسية ، وقد كان ذلك من المطاعن التي وجهت لهم من قبل خصومهم^(٣) .

(١) الأعلام ٣/ ٣٣٤ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١/ ٥٠٣ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٥١١ .

أما قراءة الجرائد والمجلات التي استنكرها الأزهر ، وأنحى باللائمة على من يطالعونها ، فهو متفق مع النظرة التي ذكرها عن مهمة العلماء وهي الاشتغال بالعلم فقط .

وقد انتقد شيخ للأزهر عزوف العلماء في الأزهر عن مطالعة الجرائد والمجلات ، وهو الشيخ «محمد الأحمد الطواهري» (المتوفى سنة ١٣٦٣هـ)^(١) ، وكان ذلك قبل أن يلي مشيخة الأزهر ، وسيأتي مزيد من التوضيح والبيان لهذه القضية الخطيرة في ثنايا الفصل .

ويقول الشيخ «مصطفى صبري» : «والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين ، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم ، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم ، ومخادعة العلماء بتزليلهم منزلة العجزة ، فيقبلون أيديهم ، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم ، ثم يفعلون ما يشاءون بدين الناس وديناهم ، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، إلا ما يعد من فضول اللسان ، أو ما يكمن في القلب ، وذلك أضعف الإيمان .

فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة ، صالحهم وظالمهم ، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي...»^(٢) .

لقد أمر الإسلام بالزهد في الحياة الدنيا وبالتجافي عن دار الغرور ، كما أمر بتعمير الأرض والمشى في مناكبها والتمتع بالطيبات من الرزق ، وعاب

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٢٠ . وانظر ترجمته في الأعلام ٢٣/٦ .

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٨٤/٢ .

على من أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فكيف إذا كان العلماء هم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ، وضعفوا عن القيام بواجباتهم ، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقبهم عن كثب .

فهذا عالم كبير^(١) « إلا إنه كان قليل الورع عن بعض سفاسف الأمور ؛ اتفق أنه تنازع مع عجوز في فدان ونصف طين مدة سنين ، وأهين بسببها مراراً . . . ولم يزل ينازعها وتنازعه إلى أن مات ، وغير ذلك أمور يستحى من ذكرها في حق مثله ، وبذلك قلت وجاهته بين نظرائه »^(٢) .

وآخر^(٣) « اشترى خرابة بسوق القشاشين بالقرب من الأزهر ، وعمرها داراً لسكنه ، وتعدى حدوده ، وحاف على أماكن جيرانه ، وهدم مكتب المدرسة السنانية ، وكان مكتباً عظيماً ، فهدمه وأدخله في بنائه من غير تحاش أو خشية لوم مخلوق أو خوف من خالق .

وأوقف أعوانه من الصعايدة المنتسبين للمجاورة وطلب العلم ؛ يسخرون من يمر بهم من حمير الترايين وجمال الأعيان المارين عليهم ، فيستعملونها في نقل تراب الشيخ لأجل التبرك ؛ إما قهراً أو محابة .

ويأخذ من مياسير الناس والسوقة دراهم على سبيل القرض الذي لا يرد ، وكذلك المؤن حتى تتمها على هذه الصورة ، وسكن فيها وأحرق به الجلاوزة من الطلبة يغدون ويروحون في الخصومات والدعاوى ويأخذون الجعالات والرشوات من المحق والمبطل ، ومن خالف عليهم ضربوه وأهانوه ولو عظيماً من غير مبالاة ولا حياء ، ومن اشتد عليهم اجتمعوا عليه

(١) هو الشيخ عبد الباسط السنديوني .

(٢) عجائب الآثار ٣٦/٢ .

(٣) هو شيخ السادات أبو الأنوار .

من كل فج ، حتى بوايين الوكائل وسكان الطباق وباعة النشوق وينسب الكل إلى الأزهر ، ومن عدلهم أو لامهم كفروه ونسبوه إلى الظلم والتعدي والاستهزاء بأهل العلم والشريعة ، وزاد الحال وصار كل من رؤساء الجماعة شيخاً على انفراده ، يجلس في ناحية ببعض الحوانيت يقضى ويأمر وينهى . . . »^(١) .

هذه بعض الصور لوقوع بعض العلماء في أخطاء قد يترفع عنها الرجل من العامة فضلاً عن العلماء .

وفي تلك الفترة الحالكة ترى كثيراً من العلماء يتهافتون على متاع الدنيا ، ويركضون خلف مغرياتها ، ويعيشون في رفاهية وثراء فاحش حتى إن «الجبرتي» لما ترجم للشيخ «أحمد بن سلامة الشافعي» (المتوفى سنة ١٢١٥ هـ) قال عنه : «إلا أن الدهر لم يصفاه على عادته وعاش في خمول وضيق عيش وخشونة ملابس وفقد رفاهية بحيث إن من يراه لا يعرفه لثلاثة ثيابه»^(٢) ، فقله : «إلا أن الدهر لم يصفاه على عادته» دليل على ما كان يعيشه العلماء وينعمون به من رغد ورفاهية ، ويدل على ذلك ما أورده «الجبرتي» من تراجم لعشرات العلماء ممن عاشوا في ترف وثراء .

وهذا الشيخ «محمد سعد بن جلال الدين» ، توقفوا في توليته على سجادة السادة البكرية ؛ لأجل أنه فقير^(٣) ؛ دليل آخر على الرفاهية التي كان يعيشها العلماء والمتصوفة .

(١) المصدر السابق ١٧٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٤٤/٢ .

(٣) المصدر السابق ٥١٦/٢ . والسجادة البكرية : منصب صوفي كبير في ذلك الزمن ، وكان المتولي عليها من السلالة البكرية ، وفي الغالب يكون شيخ مشايخ الصوفية ، وقد تضم له نقابة الأشراف ، هذا عدا إدارة بعض الأضرحة الكبيرة التي تدر أموالاً طائلة .

ويحسن بنا أن نورد نصاً مهماً «للجبرتي»، يصف فيه انكباب العلماء على الدنيا ومتاعها، وأثر ذلك في العلم حيث يذكر : إنه فرضت الضرائب على جميع الأراضي، «ما عدا البلاد والحصص التي للمشايخ خارجة عن ذلك ولا يؤخذ منها نصف الفائض ولا ثلثه ولا رבעه، وكذلك من يتسب لهم أو يحتمي فيهم، ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحهم تحت حمايتها ونظير صيانتها، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة، واقتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية.

وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألو^(١)ف، والأقدمين، واتخذوا الخدم والمقدمين وأعوان^(٢)، وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج، واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم في الإرساليات للبلاد، وقدروا حق طرق لاتباعهم .

وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب، مع عدم سماع شكوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم، بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة .

وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكي والتجني مع الأقباط ، واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عليهم ، والمهاداة فيما بينهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه .

(١) الألو^(١)ف جمع الألفي من أشهر زعماء المماليك في مصر .

(٢) هكذا في الأصل ولعله «الأعوان» .

وأوقع مع ذلك زيادة مما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على
الرياسة ، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على
الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ
الأعين والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والقراء ، والمعاتبة عليها إن لم يدعوا
إليها ، والتعريض بالطلب ، وإظهار الاحتياج ؛ لكثرة العيال والأتباع ،
واتساع الدائرة ، وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة كالاتجار
في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة . . . والتفاخر والكذب
والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم في فعل
المحرمات . . . »^(١) .

فإذا كان هذا هو حال الكثير من العلماء فهل ينتظر منهم أن يقوموا
بدورهم كما ينبغي؟ وهل سيقفون أمام الجماهير في الأحداث والأزمات
يقودونها ويمسكون بقيادها إلى بر الأمان؟ وهل سيكون يسيراً عليهم أن
يبدلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله وهم الغارقون في متاع الحياة الدنيا
والمترفون فيها .

وفي تلك الفترة ترى كثيراً من العلماء يتسارعون إلى أبواب السلاطين
والحكام الجائرين ، وبدلاً من أن يقوموا بواجبهم في النصح لهم والإنكار
عليهم فيما خالفوا فيه الدين ، نراهم يترددون على قصورهم ويخالطونهم
ويسعون إليهم ، ومتى أحس الحكام الجائرون بأن العلماء يسعون إليهم
ويرجون نوالهم سقطوا من أعينهم ، وهانوا في نفوسهم ، ولم يبالوا
لوجودهم ، بل إنهم يستغلونهم في تنفيذ مآربهم وفي خداع الجماهير
المضللة .

(١) المصدر السابق ٢١٩/٣ .

وهنا قد يسعى هؤلاء الطغاة في تكبيل هؤلاء العلماء وتكميم أفواههم بغير سيف ولا سوط ، ولكن بإغداق العطايا عليهم ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة ^(١) التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم .

وقد مر معنا كلام «الجبرتي» في إعفاء بلاد المشايخ وأطيانهم من الضرائب والمغارم التي أثقلت كواهل الناس وأضررت بهم إضراراً عظيماً ، وهذه إحدى المزايا التي كان يتمتع بها العلماء دون غيرهم ، زيادة في تكبيلهم وإسكات ضمائرهم وأصواتهم .

ومتى تداخل العلماء مع الحكام الجائرين وقبلوا أعطياتهم وتولوا أعمالهم فإنهم بذلك يقومون بتضليل قطاع عريض من الجماهير ، ويضفون صبغة شرعية على حكوماتهم الجائرة .

وهنا يقف العلماء حائرين بين القيام بأمانتهم والصدع بكلمة الحق ، وبين الرضوخ لهؤلاء الحكام الجائرين الذين أغرقوهم بالشراء والجاه ، والخوف من زوالهما ، والوجل مما قد ينالهم من أذى على أيدي هؤلاء الحكام فيما لو خالفوهم .

إن العلماء الذين استحفظوا على دين الله عز وجل ، وحملوا على عواتقهم أمانته العظيمة ، ليتعرضون أثناء مسيرتهم في قيادة الأمة إلى معوقات قوية من الرغبة والرغبة ، وتتنازعهم المغريات والملهيات جنباً إلى جنب مع التهديد بالإيذاء والطغيان .

(١) يقول سفيان الثوري رحمه الله : ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له . ويقول أيضاً : المال داء هذه الأمة ، والعالم طيب هذه الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس . سير أعلام النبلاء ٢٤٣/٧ . فكيف بمن يضعون أنفسهم برمتها في عطايا الظالمين وينغمسون في مناصبهم وإنعاماتهم ؟ .

إنه الابتلاء الصعب ، والطريق العسر بين رغبة ومال وجاه ومنصب ، وبين خوف ورهبة وظلم واضطهاد . قال سبحانه : ﴿ وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وقد أبان الله سبحانه وتعالى عن ذلك الطريق في كتابه الكريم بأوضح بيان ، فقال جل وعلا : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

يقول الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله تعالى عند هذه الآية : «ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من بعض الناس ، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام ؛ ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجهات ، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ، وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال . . فهو يناديهم : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنَ اللَّهَ ﴾ فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله ، سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار - من ثم - بتفرد الله سبحانه بالألوهية ، أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه . أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل شريعة الله وتشغب عليها . . لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من الناس دون

المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة ؛ فالله وحده هو الذي يستحق أن يخشوه ، والخشية لا تكون إلا لله . . . » .

« كذلك علم الله سبحانه أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهادين ، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا ، وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ، لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً ، طمعاً في عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل ، وكما كان ذلك واقعاً في علماء بني إسرائيل ، فناداهم الله : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً ﴾ . . . وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة ! وكل ثمن هو في حقيقته قليل ، ولو كان ملك الحياة الدنيا . . فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقاباً ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين ، وتشتري بها جهنم عن يقين»^(١) .

ولما كانت نوازع الرهبة والخوف أشد على النفس من نوازع الرغبة والطمع ، فيصبر العالم عن أكل الحرام ، وعن زخرف الدنيا وزينتها فلا يقول إلا الحق ، ولكنه في زمن الشدة وتحت سيف الرهبة والبطش ووصولان الإرهاب والطغيان يقول الباطل ، ويداهن بالآفك خوفاً من طاغوت أو جبار - لما كان ذلك امتدح الله عز وجل العلماء الربانيين والدعاة الصادقين ، الذين يبلغون دين الله لا يخشون أحداً من الناس فقال جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

ومتى حاول العلماء الذين استدرجوا بالأموال والمناصب أن يصدعوا

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٨٩٧ .

بالحق ويقفوا في وجه الحاكم الجائر فإنهم لا يستطيعون ذلك غالباً؛ لأنه سيتهمهم بأنهم مشاركون له في الظلم، وهو ما وقع للعلماء مع «محمد علي باشا» والي مصر؛ حيث يذكر «الجبرتي» ضمن أحداث جمادى الثانية سنة ١٢٢٣ هـ حين نقص النيل وشحت الغلال « واجتمع في ذلك اليوم المشايخ عند الباشا فقال لهم : اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال أن يخرجوا إلى الصحراء وادعوا الله .

فقال له الشيخ «الشرقاوي» : ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم ، فقال : أنا لست بظالم وحدي وأنتم أظلم مني ، فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغرم إكراماً لكم ، وأنتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندي دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفي كيس ولا بد أني أفحص عن ذلك ، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيته أرفع الحصّة عنه . . . »^(١) .

وحين أشار بعض كبار الفلاحين على «محمد علي» بأن يساوي بين الناس في أخذ الضرائب بما في ذلك المشايخ ، غضب المشايخ وثاروا عليه وتشاجروا معه^(٢) ، فكيف يمكن للعلماء بعد ذلك أن يأمرؤا بمعروف أو ينهوا عن منكر ما داموا قد خالطوا هؤلاء الحكام الجائرين وتلبسوا ببعض مظالمهم .

وكل هذا الكلام مع العلماء الطيبين الذين يظنون أنهم بمداخلتهم للحكام سوف يصلحون ، أما العلماء الذين تحولوا إلى أبواق للسلطة تنفخ فيهم كيف شاءت ، فهؤلاء من حاشية السلطان الجائر وخاصته ، فلا داعي للخوض في شأنهم .

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٣٩ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣١٤ .

ويتحدث الإمام «الشوكاني» عن حال هؤلاء العلماء اللاهثين وراء المناصب والمداخلين للحكام والسلاطين ، وعن أثر ذلك في العلم والناس فيقول :

«فهذه الوسيلة دخل على أهل العلم بما صنعه هؤلاء ، من هذه الهنات الوضيعة ، والفعلات الشنيعة ، ما تبكي عيون العلم وأهله ، وتقوم عليه النواعي .

ومن هذه الحيثية تنازل منصب العلم وتهاون الناس به ؛ لأنهم يرون رجلاً قد لبس لباس أهل العلم وتزيا بزيتهم وحضر مجالسهم ، ثم ذهب إلى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليها من وزير أو أمير فتصاغر لهم وتذلل وتهاون وتحقر ، حتى يصير في عداد خدامهم ومن هو في أبوابهم .

ثم أعطوه منصباً من المناصب فعمل على ما يريدونه منه وإن خالف الشرع واعتمد ما يرسمونه له ، وإن كان طاغوتاً بحثاً ، فيظن من لا علم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكذا ، وأنهم ينسلخون من العلم إذا ظفروا بمنصب من المناصب هذا الانسلاخ ويمسخون هذا المسخ ، ويعود أمرهم إلى هذا المعاد ، فيزهد في العلم وأهله ، وتنفر عنه نفسه ، وتقل فيه رغبته ، ويؤثر الحرف الدنيوية عليه ليربح السلامة من المهانة التي رآها نازلة بهذا المشئوم الجالب على نفسه وعلى أهل العلم ما جلب من الذل والصغار .

وإذا كان ما جناه هؤلاء النوكاء على العلم وأهله بالغاً إلى هذا الحد عند سائر الناس ، فما ظنك بما يعتقده فيهم من يطلبون من المناصب بعد أن شاهد منهم ما يشاهده من الخضوع والذلة والانسلاخ عن الشرع إلى ما يريدونه منه

وبذل الأموال لهم على ذلك ، ومهاداتهم بأفخر الهدايا ، والوقوف على ما يطلبونه منه على أي صفة تراد منهم ، وينضم إلى هذا خلوهم عن العلم وجهلهم لأهله الذين هم أهله ، لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر الذي لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم .

فهل تراهم بعد هذا يميلون إلى ما يقوله أهل العلم وينتجرون بما يوردونه عليهم من الزواجر الشرعية المتضمنة لإنكار ما هو منكر والأمر بما هو معروف ، والتخويف لهم عن مجاوزة حدود الله ، هيهات أن يصغوا لهذا سمعاً أو يفتحوا له طرقاتاً ، فإلى الله المشتكى^(١) .

ولقد كان الناس وما زالوا يعرفون للعلماء مكانتهم ؛ لذا تراهم يلتفون حولهم ، ويقصدونهم في الأزمات ، ويعلقون عليهم آمالهم بعد الله - عز وجل - في الدفاع عنهم أمام الظالمين ، وفي قيادتهم إلى الطريق الصحيح ، والنزول عند آرائهم ومشورتهم فيما يلم بالأمة من فتن وخطوب .

ولقد سبق أن ذكرنا أن العلماء في تلك الفترة قد تجاوزوا عن المشاركة في الأحداث السياسية ، ومع أن بعضهم كان لهم مشاركة ، إلا إنها لم تكن بالمستوى المطلوب .

وإن المرء ليعجب مثلاً من اختيار العلماء لرجل مثل «محمد علي باشا» ليتولى أمورهم ، وإصرارهم عليه في وقت خلت البلاد من حاكم ، لتتابع الثورات^(٢) . ويثور في نفسه هذا التساؤل :

أما كان أحدهم جديراً بالقيام بهذا المنصب الخطير ، وأولى به من

(١) أدب الطلب ص ١٣٤ .

(٢) عجائب الآثار ٦٢/٣ .

عسكري جاهل مغرور من جملة العساكر الذين غالباً ما يتصفون برقة الديانة والانتهازية والبطش، أم إن العلماء قد فقدوا الثقة بأنفسهم فصاروا يتهيون النزول إلى الميدان، وتحمل المسؤوليات العظام؛ لأنهم قد ألقوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات؟

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم واستعانة بعضهم بالحكام واستعداد السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض لصف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ «عبد الله الشرقاوي» شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من «محمد علي باشا» إلى الشيخ «الشرقاوي» بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول «الجبرتي»: «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه... فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره»^(١).

وقد تبوأ «محمد علي» عرش مصر وتمكن من حكمها بمساعدة العلماء الذين أوصلوه إلى سدة الحكم بشرط إقامة الشريعة والعدل، ولكن ما إن ثبت أقدامه في السلطة حتى غدر بهم وقلب لهم ظهر المجن، فكان أول عمل قام به أن نفى نقيب الأشراف الشريف «عمر مكرم» الرجل الأول في إيصاله إلى الحكم وأول من بايعه من الناس.

وسبب ذلك كثرة المظالم والمغارم التي أحدثها «محمد علي باشا» ،

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٤ .

حيث اجتمع الناس في الأزهر وأبطلت الدروس ، واجتمع المشايخ والسيد عمر وكتبوا عرضحال إلى الباشا يذكرون فيه المحدثات من المظالم ، وحبس شخص من أهل العلم بلا ذنب ، وقد تعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة .

فأرسل إليهم الباشا رسولا يسألهم عن طلبهم فعرفوه بما سطره إجمالاً وبينوه له تفصيلاً ، فقال : ينبغي ذهابكم إليه وتخاطبونه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم . فقالوا بلسان واحد : لا نذهب إليه أبداً ما دام يفعل هذه الفعال ، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه ، كما كنا في السابق فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور .

فحاول الرسول إقناعهم بالمجيء فأبوا أشد الإباء ، وقالوا : لا نجتمع عليه أبداً ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا ، فأخذ منهم العرضحال ووعدهم برد الجواب ، وبعد عودته أطلق ذلك الشخص الذي كان محبوساً ، وتأخر الجواب .

ولكن العلماء لم يكونوا على قلب رجل واحد فإن فيهم الانتهازيين وطلاب المناصب ، وهل أتى الناس قديماً وحديثاً إلا من قبل هؤلاء الذين أضاعوا علمهم ورغبوا في الفاني عن الباقي؟! وهل تمكن الطغاة والمتجبرون إلا على أكتاف هؤلاء الطغمة المنسوبة إلى العلم ممن جعلوه وسيلة إلى قضاء مآربهم ، وحظوظ نفوسهم!؟ .

ثم اجتمع شيخان من مشايخ الأزهر هما : الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي ، مع محمد أفندي طبل ناظر المهمات في حكومة محمد علي ،

وقد كان الثلاثة على غير وفاق مع السيد عمر ، وتناجوا مع بعضهم .

ثم ذهب الشيخان المذكوران إلى السيد عمر وأخبراه عن أن محمد أفندي ذكر لهم أن الباشا لم يحدث شيئاً من تلك المظالم ، وقد كذب من نقل ذلك ، وقال : إنه يقول : إني لا أخالف أوامر المشايخ ، وعند اجتماعهم معه يحصل كل المراد .

ولكن السيد عمر قد سئم من ألاعيب محمد علي وخبرها جيداً ، فبين لهذين الشيخين أن ما قاله محمد أفندي كذب لا أصل له ، وأراهم بعض الأوراق التي تشتمل على المطالبة بهذه المظالم الجديدة ، وقال لهم : أما الذهاب إليه فلا أذهب إليه أبداً وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأي لكم ، ثم انفض المجلس .

«وأخذ الباشا يدبر في تفريق جمعهم وخذلان السيد عمر ، لما في نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ومعارضته له في غالب الأمور ، ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم ، وهو الذي قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الأقليم» .

ثم ذهب الشيخان المذكوران وديوان أفندي وعبد الله بكتاش الترجمان ، وحضر الجميع عند السيد عمر ، وطال بينهما الكلام ، والسيد عمر مصمم على الامتناع .

«ثم قام المهدي والدواخلي وخرجا صحبة ديوان أفندي والترجمان وطلعوا إلى القلعة وتقابلوا مع الباشا ، ودار بينهما الكلام ، وقال في كلامه : أنا لا أرد شفاعتكم ، ولا أقطع رجاءكم ، والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافاً أن تنصحوني وترشدوني .

ثم أخذ يلوم على السيد عمر في تخلفه وتعنته ، ويشني على البواقي ، ويقول عنه : وفي كل وقت يعاندني ويبطل أحكامي ويخوفني بقيام الجمهور . فقال الشيخ المهدي : هو ليس إلا بنا وإذا خلا عنا فلا يسوى بشيء ، إن هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف ؛ يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين^(١) ، فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم ووافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد عمر .

ثم عادوا إلى السيد عمر وأخبروه بأن الباشا يقبل الشفاعة^(٢) ، ولم يقع منه خلاف ، وأخبروه بقول الباشا : «وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر^(٣) ، فهذا لا يناسب منكم وكأنكم تخوفوني بهذا الاجتماع وتهيج الشرور وقيام الرعية ، كما كنتم تفعلون في زمان الممالك فأنا لا أفزع من ذلك وإن حصل من الرعية أمر فليس لهم إلا السيف والانتقام»^(٤) .

(١) مما يؤسف له أن السيد «عمر مكرم» لم يكن من جملة العلماء المتصدرين في الأزهر ، كما يفهم ذلك من كلام الشيخ المهدي ، ولكنه كان مخلصاً في خدمة الناس ، وجاداً في رفع المظالم عنهم ؛ لذا لا نعجب من التفافهم حوله ، وخوف محمد علي باشا من تلك المكانة ، ومسارعته إلى إسقاطها .

(٢) أي شفاعة هذه ، أيعد الإنكار على الظالم والدعوة إلى رفع الظلم شفاعة يتفضل الظالمون بقبولها ، ويتطوعون بإنفاذها أم إنها الأساليب الملتوية والعبث بالكلمات ، وتقليب الحقائق والضحك على عقول العلماء .

(٣) وهذا أيضاً من تغيير الحقائق واتهام المصلحين الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر بالتشنيع والتشهير وإحداث الفتن ، إنه شأن كل فرعون متكبر جبار في كل زمان ومكان ، كما قال فرعون الأول مستخفاً بعقول عبيده من الناس ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ [٢٦ غافر] ، وكما قال الملأ الفرعوني لآلههم المزعوم فرعون : ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذِرْكُمُ الْهَيْكَلُ﴾ [١٢٧ سورة الأعراف] .

(٤) هنا يزيح محمد علي القناع عن وجهه الحقيقي ، ويكشف زيف ما قاله ، من احترام العلماء ورد المظالم ، حين يلوح بسيف التهديد والبطش ، ليخرس الألسنة ويقضي على النفوس الحرة الأبية .

ثم إن المشايخ وديوان أفندي وعبد الله بكتاش اجتمعوا في بيت السيد عمر مكرم وتكلموا في شأن الطلوع إلى الباشا ومقابلته ، فحلف السيد عمر إنه لا يطلع إليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجهاً إلا إذا أبطل المظالم التي أحدثها ، وبين موقفه قائلاً :

إن جميع الناس يتهمونني معه ، ويزعمون أنه لا يتجارأ على شيء يفعله إلا باتفاقي معه^(١) ، وامتنع عن الطلوع ، فاتفقوا على طلوع الشيخ عبد الله الشرقاوي والمهدي والدواخلي والفيومي وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، فلما طلّعوا إلى الباشا وتكلموا معه وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية .

وحاول الباشا أن يراوغهم ويظهر أنه أبطل المظالم ، ثم عادوا إلى السيد عمر وأخبروه بما وقع ، فأخبرهم بكذب ذلك للمرة الثانية ، وعاتب المشايخ لمسايرتهم له وعدم إنكارهم عليه ، « ووجه عليهم اللوم في نقضهم العهد والأيمان ، وانفض المجلس وتفرقت الآراء ، وراج سوق النفاق وتحركت حفاظ الحقد والحسد وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار ، والباشا يرسل السيد عمر ويطلبه للحضور إليه والاجتماع به ويعده بإنجاز ما يشير عليه به .

وأرسل إليه كتحدا (النائب) ليتفق به ، وذكر له أن الباشا يرتب له كيساً في كل يوم ، ويعطيه في هذا الحين ثلثمائة كيس خلال ذلك فلم يقبل ، ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه ، ويتجسس ويتفحص عن أحواله وعلى من يتردد عليه من كبار العسكر ، وربما أغرى به بعض الكبار فراسلوه سرّاً

(١) لأن العلماء بداخلتهم للسلطين والحكام الجائرين يشاركونهم في مظالمهم ويعززون من سلطانهم الجائر ويغرون بالناس .

وأظهروا له كراحتهم للباشا وأنه إن انتبذ لمفاقمته ساعدوه وقاموا بنصرته عليه ، فلم يخف على السيد عمر مكرم^(١) ولم يزل مصمماً وممتنعاً عن الاجتماع به والامثال إليه ويسخط عليه .

وفي ذلك الوقت أمر الباشا بكتابة عرضحال بسبب المطلوب لوزير الدولة وهي أربعة آلاف كيس ، ويذكر أنها صرفت في مشاريع وأعمال ؛ كسد ترعة الفرعونية ومحاربة الأمراء المصرية (المماليك) حتى دخلوا في طاعة الدولة ، وعمارة القلعة والقناة التي تنقل المياه إليها وحفر الخلجان والترع .

ثم أرسله إلى السيد عمر ليضع خطه وختمه عليه فامتنع وقال : «أما صرفه على سد الترعة فان الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافاً كثيرة ، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له ، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذ من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعه الدفاتر» .

فلما أخبر الباشا بذلك حنق واغتاز في نفسه وطلبه للاجتماع به فامتنع ، فلما أكثر عليه قال : إن كان ولا بد فأجتمع معه في بيت السادات ، وأما طلوعي إليه فلا يكون ، فلما أخبر بذلك ازداد حنقه وقال : «إنه بلغ به أن يزدريني ويرذلني ويأمرني بالنزول من محل حكمي إلى بيوت الناس» .

ثم اجتمع الباشا مع المشايخ في اليوم الثاني في بيت ولده إبراهيم ، وأرسل رسولاً من طرفه ورسولاً من طرف القاضي يطلبه للحضور ليتحقق ويتشاور معه ، فرجعا وأخبرا بأنه شرب دواء ولا يمكنه الحضور في هذا اليوم ، فعند ذلك أحضر الباشا خلعة ، وألبسها لشيخ السادات على نقابة

(١) ألا يتعظ المصلحون وقيادات الحركة الإسلامية ولا يستخفهم الذين لا يوقنون ولا استدرج الماكزين بذلك ورحم الله السيد عمر ، فقد كان بصيراً بكل ذلك ، لم تؤثر فيه نوازع الرغبة والرغبة ، ولم يستدرجه الذين لا يوقنون .

الأشراف وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر يوم تاريخه ،
فتشفع المشايخ في إمهاله ثلاثة أيام حتى يقضي أشغاله ، فأجاب إلى ذلك ؛
فتقبل السيد عمر أمر النفي بصدر رحب .

وفي يوم الأحد أول رجب عام ١٢٢٤ هـ اجتمع المودعون للسيد عمر ،
ثم حضر محمد كتخدا ، فعند وصوله قام السيد عمر وركب في الحال ،
وخرج صحبته وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزناً
على فراقه ، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر لأنه كان ركنًا
وملجأ ومقصداً للناس ولتعصبه لنصرة الحق^(١) .

وفي صبح ذلك اليوم ، حضر الشيخ المهدي عند الباشا وطلب وظائف
السيد عمر فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعي ، ونظر وقف سنان
باشا ببولاق ، وحاسب على المنكسر له من الغلال مدة أربع سنوات فأمر
بدفعها له من خزينته نقدًا ، وقدرها خمسة وعشرون كيسًا ، وذلك في نظير
اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر^(٢) .

وفي مستهل شعبان ثمق مشايخ الوقت عرضحال في حق السيد عمر ،
بأمر الباشا ، ليرسله إلى الدولة وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر ،
وعدوا له مثالب ومعائب وجنحًا وذنوبًا :

منها أنه أدخل في دفتر الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلم من القبط
واليهود .

ومنها أنه أخذ من الألفي (أحد زعماء المماليك الكبار) مبلغًا من المال
ليملكه مصر في فتنة أحمد باشا خورشيد ، وأنه كاتب الأمراء المصريين أيضًا

(١) انظر تفاصيل هذه الواقعة الأليمة في عجائب الآثار ٣/ ٢٦٥-٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٧٢ .

في وقت الفتنة ليأخذوا مصر على حين غفلة من أهلها في يوم قطع الخليج (الاحتفال بوفاء النيل) .

وأنه أراد إيقاع الفتن في العساكر لينقض دولة الباشا ويولى خلافه ويجمع عليه طوائف المغاربة والصعائدة وأخلاط العوام وغير ذلك ، وذلك على حد من أعان ظالماً سلط عليه .

وكتبوا عليه أسماء المشايخ وذهبوا به إليهم ليضعوا ختمهم عليه ، فامتنع البعض من ذلك وقال : هذا كلام لا أصل له ، ووقع بينهم محاججات ولام الأعاضم الممتنعين على الامتناع ، وكان من الممتنعين الشيخ أحمد الطحطاوي مفتي الحنفية ، وكان ذلك سبباً في عزله عن ذلك المنصب بعد أن اتفق الأشياخ والمتصدرون على عزله ، فاعتكف في داره لا يخرج منها إلا قليلاً واعتزلهم ولم يخالطهم وهم يبالغون في ذمه والخط عليه لكونه لم يوافقهم في شهادة الزور ، «والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع أن السيد عمر كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض»^(١) .

هذه الحادثة المؤلة أثرتنا الإسهاب في تفصيلها ؛ لأنها صورة صادقة عن أحوال فريق عظيم من العلماء في تلك الفترة الحالكة ، من البارزين والمتصدرين في الجامع الأزهر الذين لم تكن مكانتهم تقتصر على مصر فحسب ، بل إنها لتصل إلى تركيا والمغرب والحجاز والشام واليمن وغيرها من أقطار العالم الإسلامي ، تلك المكانة التي كانت تستمد من الجامع

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٧٤ .

الأزهر، وهي كما رأينا صورة قائمة ظهر فيها تلاعب الطغاة والحكام الجائرين بالعلماء، واستغلالهم كوسيلة شرعية أمام الناس لكل ما يرتكبونه من ظلم وإرهاب.

وكذلك خيانة بعضهم لما تحملوه من أمانة العلم الشرعي ومشاركتهم عن عمد لهؤلاء الطغاة ورضوخهم لهم، ومعاونتهم في مظالمهم واستبدادهم، حسداً من عند أنفسهم لبعض المخلصين، كل ذلك مما أبرزته لنا هذه الصورة الحية العجيبة. وهكذا كان يستغل علماء الدين أبشع استغلال، في القضاء على الحق وإقرار الباطل، ويؤذى المصلحون، ويضطهد الأخياري، وتحقق رغبة الطغاة والظالمين عبر هؤلاء العلماء المداهنيين، الذين رضوا بأن يكونوا عوناً للظلم ورداءاً للطغيان.

وبعد أن رضي هؤلاء العلماء بالدون والهوان والاستغلال، فإن الطغاة لم يكن ليوقف استغلالهم للعلماء عند حد من الحدود، شأن كل طاغية مع من باع آخرته بدينه من المتسبين إلى العلم، فقد كان محمد علي يمارس ضغطه المستمر مع العلماء في مصر من أجل بقاءه في السلطة، وإضفاء الشرعية على حكومته الظالمة.

فحين ورد مرسوم سلطاني من الدولة العثمانية بنقل ولاية «محمد علي» من مصر إلى سالونيك، وتعيين وال جديد على مصر، سارع «محمد علي باشا» فأمر ترجمانه بكتابة عرض حال على لسان العلماء والمشايخ إلى الدولة، وأنهم لا يرضون بسواه، وأرسله إلى المشايخ «لوضع أسمائهم وختومهم عليه، ليرسله الباشا إلى الدولة، فلم تسعهم المخالفة، ونظموا صورته ثم بيضوه في كاغد كبير»^(١).

(١) المصدر السابق ١٢٧/٣.

وبعد قرابة شهرين ورد مرسوم من الدولة بإبقاء «محمد علي باشا» ، واستمراره على ولاية مصر ، بشهادة العلماء ورجائهم من أجله^(١) ، بل إن «محمد علي» كان يستغل العلماء في غمرة صراعه السياسي مع المماليك الحكام القدامى لمصر ، ويأمر المشايخ أن يضعوا ختومهم على رسائله التي يبعث بها إلى خصومه المماليك ، ويستغل سلطتهم الدينية كيف شاء^(٢) .

وحين كان بعض العلماء المخلصين يناصحون الحكام والأمراء ، وينكرون عليهم ما يقومون به من مخالفات شرعية ، كان السواد الأعظم من المنتسبين إلى العلماء والمحسوبين عليهم يناصبونهم العدا ، ويوغرون صدور الحكام عليهم ، ويقومون بتبرير مظالمهم ومخالفاتهم .

يذكر الإمام «الشوكاني» حادثة وصفها بالشناعة حدثت له مع إمام اليمن المنصور ، وملخصها : أن الإمام «الشوكاني» منذ اتصاله بهذا الإمام كان يرغب دائماً في العدل والإنصاف ويتصحح في رفع المظالم وعلى رأسها المكس ، وأن يقتصر على ما ورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء ، فألهمه الله سبحانه إلى الإجابة بعد طول مداراة وترغيب فأصدر أمره بخط «الشوكاني» إلى جميع العمال بالالتزام بالعدل ورفع المظالم ، وفي هذا المكتوب : التشديد في الربا والسياسة الشيطانية ، والأخذ على قضاة الأقطار أن يبعثوا من يعلم الناس أمر دينهم ، من الصلاة والصيام والحج والزكاة والتوحيد على الوجه المطابق لمراد الله عز وجل .

وقرر الإمام ذلك وأنفذه وأظهره في الناس ، فقامت شياطين المقلدة

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٨٨ .

وفراعين البدوان وخونة الوزراء في وجه هذا الأمر، قياماً يبكى له الإسلام ويموت كمدّاً عنده الأعلام ، ثم يذكر أن هذا من مثل هؤلاء ليس بغريب .

ولكن العجب من جماعة من أهل العلم والورع متكئين على أرائكهم عاكفين على دفاترهم، صاروا ينكرون من هذا الأمر ما يعلمون أنه مخالفة لقطعيات الشريعة ، مع علمهم بحكم من خالفها ، واعترافهم بأن هذا هو الحق الذي اتفقت عليه الكتب المنزلة والرسل المرسلّة ، لكنهم يتركون تدبير الشرع ، ويعودون لتدبير الدولة وما يصلحهم ويصلح لهم ، حتى كأنهم من أهل الولايات ومن القابضين للجبايات ، وظهر ما عندهم وتكلموا به للناس ، حتى اعتقد من لا حقيقة لديه من العامة ، ومن يلتحق بهم ومن أصحاب الدولة ومن شابههم، أنني أرشدت إلى خطأ وأمرت بمنكر ، فاجتمع من جميع ما قدمت ذكره تشوش خاطر الإمام ، ومن له رغبة في شرائع الإسلام ، فتوقف الأمر^(١) .

ولقد كان السلف الصالح ومن تبعهم من العلماء الصالحين يحجمون عن تولي المناصب ، ويخشون من عدم قدرتهم على القيام بالمسؤوليات والمهمات المناطة بها ، ويتهيّبونها ؛ فتراهم يتورعون عن الإفتاء وعن القضاء وغير ذلك ، لمعرفةهم بالأمانة التي يتحملونها ، فيما لو تولوا شيئاً منها ، وإن قدر ، وتولى أحدهم بعضها ، فإنه - بعون الله وتوفيقه - يقوم بها أحسن قيام مع خوفه أن يكون قد قصر فيها .

أما كثير من علماء تلك الفترة فعلى العكس من ذلك تماماً ، فتراهم يتسابقون إلى الظفر بها ، ويتنافسون لأجلها ، ويستميّتون في الحصول

(١) أدب الطلب ص ١٦٢ .

عليها . ثم إذا نالوا مطلوبهم ، وظفروا بما سعوا إليه من مناصب فإن القليل هو الذي يقوم بحققها ويؤدي أمانته فيها على الوجه الأكمل .

ورحم الله السلف حين كان يسجن الرجل منهم ليلي القضاء ، فلا يقبل . أين ذلك مما كان عليه السواد الأعظم من العلماء في تلك الفترة ؛ من التسارع إلى تولي المناصب والفرح بها ، وحين كان يظفر أحدهم بمنصب ثقل . كالقضاء ، يسارع أصدقاؤه ومحبه من العلماء الآخرين وغيرهم بتقديم التهئة له .

يقول الشيخ «عبد السلام الشطي» أحد علماء «دمشق» مهنتاً الشيخ «محمد بن عثمان الجابي» على توليه قضاء «استنبول» في قصيدة مطلعها :

محمد جابي أفندي زادة أعطاه رب العالمين مراده
لا زال مرفوع المقام معظمًا عند الأنام وفوقهم وزيادة
ورث المفاخر كابراً عن كابر وله الأماجد دائماً منقادة
سلطاننا عبد العزيز أعزه رب العباد وعز فيه عباده
لما رأى هذا الهمام بأنه أهل لكل فضيلة وسيادة
أولاه إحساناً وخص جنابه بقضاء إسلامبول دار سعادة
فلذا أتى عبد السلام مهنتاً مولاه فيما صار فيه إرادة^(١)

وقال الشيخ «محمد شهاب الدين» مهنتاً الشيخ «إبراهيم بن محمد الباجوري» المتوفى سنة ١٢٦٣هـ

(١) منتخبات تواريخ دمشق ص ٦٩٣ .

يادهر أعط القوس باريها فقد أفرطت في التقديم والتأخير
هذا مجلي حلبة السبق الذي حاز الفخار بسعيه المشكور^(١)
ولما أعيد منصب إفتاء الحنفية إلى الشيخ «علي أفندي المرادي» بعد أن
عزل عنه زمنًا جاء الشيخ «مصطفى بن عبد الرحيم الدمشقي الشافعي»
وأنشده مهنتًا بقصيدة طويلة أولها :

الحمد لله عاد الماء موضعه هنت يا كوكبًا فالهم قد ذهب^(٢)
وكذلك قام الشاعر «اللوحي الدمشقي» بتقديم التهاني إلى الشيخ «كمال
الدين الغزي» حين تولى منصب فتوى الشافعية عام ١٢٠٣ هـ بقصيدة طويلة
جاء منها :

أفديه من ماجد طابت أرومته فطاب منشأ شهم قد ملي أدبا
كنز الهداية مصباح الأنام فتى جليل قدر غدا بالله محتسبا
لا زال يرقى معالي العز سؤدده ماصاح طيروما قطر السما سكب^(٣)
ولما ولى السلطان الحسن بن محمد الشيخ أبا محمد بن خضر القضاة
بـ«مراكش» سنة ١٢٩٧ هـ امتدحه بقصيدة جاء منها :

لبيك دمت مؤيداً و مظفراً ولك الكمال كما تشاء موفراً
وافي خديك أمرك العالي الذي في ضمنه إسعاده بين الورى

(١) حلية البشر ١٠/١ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧٦ . أذهب الهم بتولي الإفتاء!! إلى هذا الحد وصل الأمر في التعلق
بالمناصب الثقيلة الأمانة .

(٣) المصدر السابق ص ٦٧٦ . وقد كانت المناصب مراقي للعز والسؤدد والشهرة عند هؤلاء
الناس .

إذ خص دونهم بأشرف دعوة يا سعد من أضحى بها مستبشرا
فأجاب مبتدراً إجابة صادق لم يلهه أهل ولا حب الذرى
ويجيب شكر مواهب أوليتها كرماً وحق لمثلها أن يشكرا
مولاي يا أزكي الأئمة شيمة وافيت بابك أبتغى منك القرى^(١)
وهكذا كان كثير من العلماء يجرون خلف المناصب ويجتهدون في
تحصيلها ويتبادلون التهاني بحصولها شأنهم في ذلك كبقية الناس .

وكيف يكون حال الأمة إذا كان العلماء فيها على هذا المنوال ؟ ، وكيف
يمكن للعالم أن يقول كلمة الحق ، لا يخاف فيها لومة لائم وهو أسير لمنصب
من المناصب يخاف من زواله ، ويجتهد في بقاءه واستمراره ؟

ولما اندلعت الثورة العراقية شارك الكثير من العلماء فيها وانضموا تحت
لواء قائد الثورة «أحمد عرابي» ، وقد كان جديراً بهؤلاء العلماء أن يتولوا
قيادة الثورة ويصلوا بها إلى نتائجها المطلوبة ولكن ذلك لم يحدث ، مما
أسفر عن احتلال الإنجليز لمصر وخيانة الخديوي «توفيق» ، الذي نكل
بالعلماء بمعونة أوليائه من المحتلين ؛ فقتل فريقاً منهم وحبس فريقاً ونفى
الباقي .

ولما عاد جملة من العلماء المنفيين إلى البلاد بعد أن أنهوا مدة النفي أخذوا
في استعطاف الخديوي الخائن واسترحامه وغير ذلك من الأفعال التي لا تليق
بالعلماء المخلصين .

يقول أحدهم : «ولقد أشار علينا كثير من الإخوان والأمراء بالترجي

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٦٠ / ٤ .

والاستسماح من حضرة الخديوي الأعظم؛ فقدمنا له جملة عروض، تتضمن طلب العفو والصفح والتعطف بغاية الانكسار والاسترحام والتلطف، فلم تجد نفعا ولم توجب دفعا، بل كلما زاد الطلب بعد الأرب، وانعكس الأمر وانقلب، والأمور مرهونة لأوقاتها ومربوطة بميقاتها.

ولعل السبب في توقف جناب الخديوي عن الصفح هو تمكن الوشاية التي ألقيت إليه من قلبه لعدم وقوفه قبل هذه الحادثة على حقيقة حالنا، وأنا من أولاد الفقراء المشتغلين بقراءة العلم مدة من الزمن في الجامع الأزهر وغيره^(١).

«لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهام أمر، وملاذها عند الفزع... تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر... وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحياناً، ويلقون

(١) نفحة البشام ص ١٦٩ للقياتي. وكلما ازداد العالم خضوعاً للظلمة والخائنين من الحكام، ازدادوا إمعاناً في إذلاله وإهانتة والاستخفاف به. ورحم الله الأستاذ سيد قطب حين ألح عليه في كتابة كلمات يسترحم بها فرعون مصر، فرفض قائلاً: إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً يقر به حكم طاغية.

قال أيضاً: لم أسترحم؟ إن سجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل.

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٤٧٤. د/ صلاح الخالدي، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

في السجون أحياناً ، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحياناً ولكنهم يصمدون لهذا كله ، تقديرًا لمسئوليتهم أمام الله . . .

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، وكانوا كذلك دعائها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان . . يذكرونها بالله واليوم الآخر ، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين ، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم ، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان .

تلك كانت مهمة علماء الدين ، والدين حي في النفوس . . وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده ، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله فما ضعفوا واستكانوا . . فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصدها من التاريخ؟ هل كانوا في مكان القيادة الذي عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد . . . ؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه وينهونه ، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان ، ومشوا في ركابه ، يتملقونه ويباركون مظلمه فيمدونه في الغي ، بينما البقية الصالحة منهم قد

قبعـت في بيوتها ، أو انزوت في الـدرس والكتاب ، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس العلم . . . وما نريد أن نـظلمهم ، فقد كان منهم - ولا شك - من صدع بكلمة الحق ، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولي السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق . . . ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالبة التي راحت تلهث وراء المتاع الأرضي ، أو تقبع داخل الـدرس والكتاب ، على ما فيهما من جوانب القصور . . .»^(١) .



(١) واقعنا المعاصر ص ٣٢٧ .

فهرس الموضوعات

أ	مقدمة الشيخ محمد قطب
ج	أصل هذا الكتاب
٧	مقدمة الكتاب
	تمهيد (نبذة عن أحوال الأمة الإسلامية قبل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين)
٢٥	عشر الهجريين)
٢٦	نظرة إلى حال الجاهلية
٣٤	أثر العقيدة في حياة السابقين الأولين من هذه الأمة
٤٢	بداية ظهور الانحرافات في حياة الأمة
٤٨	نشأة الفرق
٤٩	ظهور الخوارج وفتنتهم في المجتمع الإسلامي
٥١	ظهور الشيعة وشق عصا المسلمين
٦٦	ظهور المعتزلة والأشاعرة والماتريدية وانتشار علم الكلام
٧٠	ظهور الصوفية
٧١	ظهور التعصب المذهبي وإعلان سد باب الاجتهاد
٧٣	تفرق المسلمين وقيام الدويلات الإسلامية
٧٤	انحرافات أخرى

الباب الأول

الانحرافات العقدية في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

٨١	تمهيد :
٨٥	الفصل الأول : انحصار مفهوم العبادة
١٠١	أثر هذا الانحصار في حياة المسلمين
١١٥	الفصل الثاني : الفكر الإرجائي
١١٦	ذم السلف للإرجاء
١١٧	إرجاء الفقهاء وإرجاء الجهمية
١١٩	من نصوص علماء الإرجاء
١٢٣	خطورة الفكر الإرجائي وآثاره
	الفصل الثالث : ضعف عقيدة الولاء والبراء والأدوار التي ساهمت في
١٤١	إضعافها
١٤٩	دور السلطان العثماني « محمود الثاني »
١٥١	دور الباي أحمد في تونس
١٥٩	دور زعماء المماليك في مصر
١٦٢	دور محمد علي باشا في مصر والشام
١٨٩	دور سعيد باشا
١٩٠	دور الخديوي إسماعيل
٢٠١	أدوار أخرى
٢٠٥	الفصل الرابع : غربة العقيدة الصحيحة ومقاومتها

٢٠٧	التصدي لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحاربتها
٢١٥	تكفير أهل الدعوة وتسميتهم بالخوارج
٢١٩	نشر الدعايات الكاذبة والتهم الباطلة ضد أهل الدعوة
٢٢٢	افتراءات مفتي مكة زيني دحلان على أهل الدعوة
٢٢٩	إيذاء أتباع العقيدة الصحيحة ومهاجمتهم في تلك الفترة
	الفصل الخامس : هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على علماء العقيدة
٢٤٣	ومؤلفاتها
٢٤٣	ترجمة الفلسفة في العصر العباسي ، وأثر ذلك
٢٤٦	دور شيخ الإسلام في مقاومة الفلسفة والمنطق وعلم الكلام
٢٤٨	احتفاء العلماء بهذه العلوم
	محاولة سلطان المغرب المولى محمد القضاء على المذهب
٢٦٠	الكلامي
	هيمنة الفلسفة والمنطق وعلم الكلام على معاهد المسلمين شرقاً
٢٦٢	وغرباً
٢٦٣	آثار الفلسفة والمنطق وعلم الكلام
٢٧١	الفصل السادس : انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات
	أولاً : انتشار مظاهر الشرك :
٢٧٦	الأول : بناء المساجد والقباب على الأضرحة والقبور
	الثاني : الاستغاثة والاستعانة بأصحاب هذه الأضرحة
	في الشدائد والأزمات ودعاؤهم من دون الله
٣١٦	عز وجل
٣٣١	الثالث : الذبح والنذر للأضرحة

- الرابع : الاستشفاء وطلب البرء من الأضرحة ٣٣٦
- الخامس : الاعتصام بالأضرحة ٣٤١
- السادس : الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس
كلها ٣٤٦
- * إكرام الضيوف والوافدين بتيسير زياراتهم
للأضرحة والقبور والمشاهد ٣٤٧
- * البيعة في الأضرحة وتسيير الجيوش من رحابها ٣٥٣
- * شئون أخرى ٣٥٤
- * إعفاء اللحى عند سدنة الأضرحة ٣٥٥
- * جعل الأولاد في ذمة الأضرحة والقبور ٣٥٥
- السابع : الشرك الأكبر من خلال ما يسمى بالمدائح
النبوية ٣٥٦
- الثامن : الغلو في أهل البيت والأشخاص ٣٦٠
- التاسع : الشرك بالأحياء والغلو فيهم ٣٦٥
- العاشر : الحلف بغير الله عز وجل ٣٧٠
- ثانيًا : انتشار البدع والخرافات ٣٧٣
- * قراءة صحيح البخاري في الأزمات والمحن ٣٧٤
- * المولد النبوي ٣٨٣
- * الاحتفالات بالموالد الأخرى ٤٠١
- * بدعة المحمل ٤١٢
- * احتفالات أخرى ٤١٨
- * بدع أخرى ٤٢٠

٤٢٩	* انتشار الخرافات
٤٣٧	الفصل السابع : الصوفية في هذين القرنين
٤٣٧	أولاً : نشأة الصوفية
٤٤١	ثانياً : أسباب انتشار الصوفية
٤٤٨	ثالثاً : نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي
٤٥٨	رابعاً : نظرة المتصوفة إلى الحياة ومجالاتها
٤٧١	خامساً : نظرتهن إلى العلم
٤٧٧	سادساً : الطرق والزوايا عند الصوفية
٤٩٥	سابعاً : الذكر عند الصوفية (الإنشاد، الغناء، الرقص)
٥٠٧	ثامناً : الكرامات والخوارق عند الصوفية في هذه الفترة
٥٢٧	تاسعاً : الشيخ والمريد عند الصوفية
٥٣٧	عاشراً : الصوفية والجهاد ومقاومة الاستعمار
٥٤٦	حادي عشر : الصوفية والمجاهدين والأولياء
٥٥٣	ثاني عشر : الصوفية والعقائد المنحرفة
٥٦٥	الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة وحررها للمسلمين
٥٦٦	دور الإسماعيلية
٥٧١	دور النصيرية
٥٧٥	دور الدرود
٥٧٩	دور الرافضة
٥٨٤	دور الزيدية
٥٨٨	دور اليزيدية

٥٨٩ دور البهائية
٥٩٢ دور القاديانية
٥٩٥ الفصل التاسع : موقف العلماء
٥٩٧ تجافي العلماء عن المشاركة في الأحداث العامة
٦٠١ إقبال العلماء على الدنيا وجريهم وراء مغرياتها
٦١١ حدوث المنافسات والضغائن بين العلماء
٦١١ حادثة فريدة
٦١٩ استغلال العلماء من قبل السلاطين الظالمين
 المسارعة إلى تحمل المناصب والفرح بها وتهنئة بعضهم لبعض
٦٢١ بحصولها
٦٢٩ الفهرس

* * *